www.kotobarabia.com



د. ميلاد حنا

الأعمدة السبعة للشخصية المصرية



الأعمدة السبعة
للشخصية المصرية

د. ميلاد حنا

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الو رقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

إهداء

إليها..

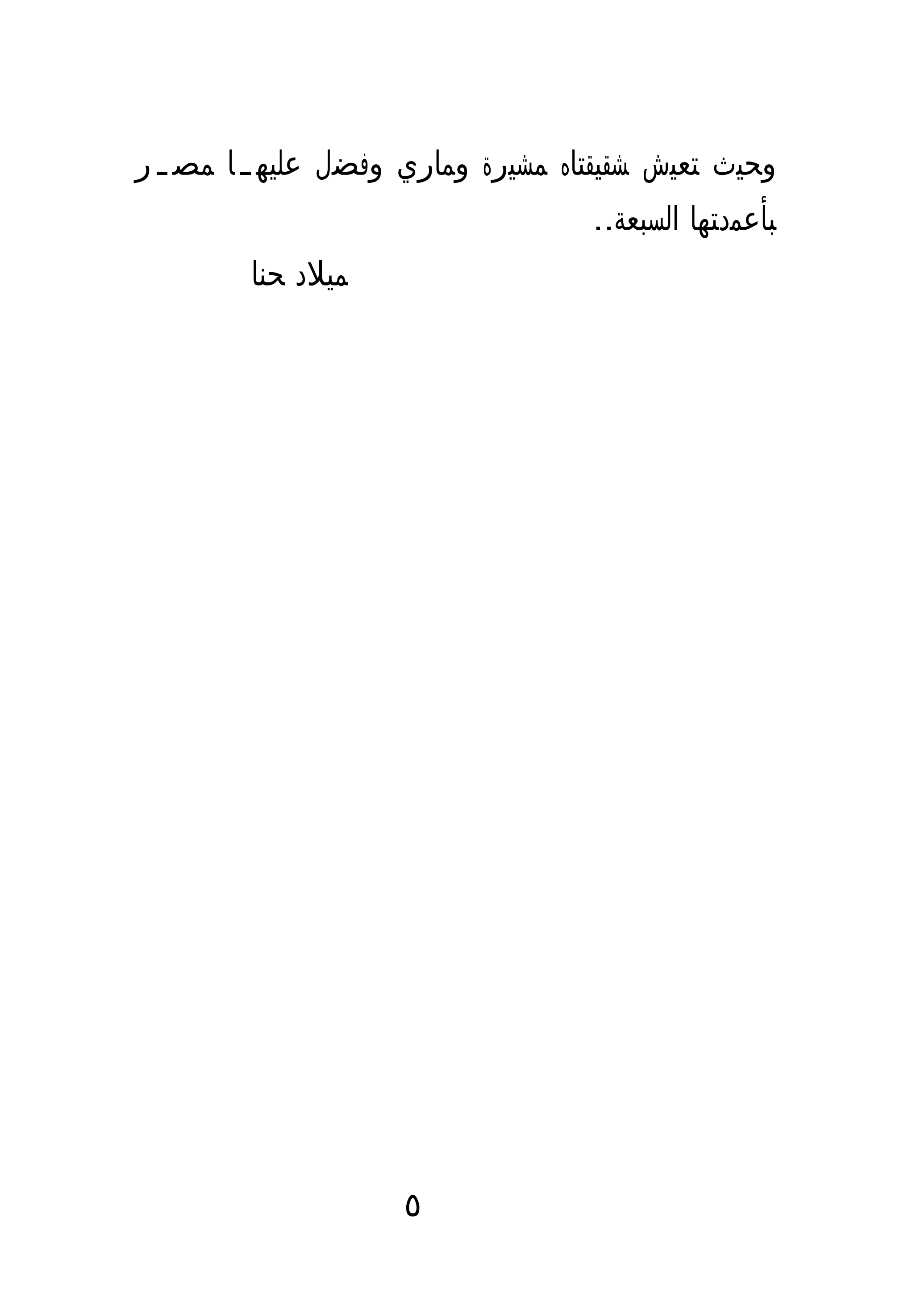
- إلى التي أخرجتني من إطـار الخطـوط الهندسـية الجامدة إلى رحابة القدرة على التعبير بالكلمة.
- إلى التي تحاورت معها خلال السنوات الخصبة مـن العمر فأدركنا سويا قوانين العلاقات الإنسـانية بـين البشر.
- إلى التي قدمت لي - عن حـب - راحـة البـال فكرست وقتًا أطول للعمل العام.
- إلى زوجتي وصديقتي وحبيبتي الكاتبـة الصـحفية إيفلين رياض أهدي هذا الكتاب.

منها وإليها....

ثم....

إلى ابني هاني

الذي آثر الحياة في مصر لإدراكه الكنوز داخلها وما تتسم به من علاقات إنسانية ودفء اجتماعي يعطي الأمـان، وفضل ذلك على مستوى المعيشة المرتفع والتقدم التكنولوجي المبهر، والحريات في الاختلاط الموجود في أوروبا وأمريكا



وحيث تعيش شقيقتاه مشيرة وماري وفضل عليهـا مصـر بأعمدتها السبعة..

ميلاد حنا

هذا الكتاب

- هذا الكتاب عن مصر:

فهي هناك من أول كلمة إلـى آخـر كلمـة وبـين السطور.

- هذا الكتاب موجه إلى العقل:

ولكن العقل وحده لا يكون حب الوطن ولذا فالكتاب موجه للعقل والوجدان معا.

- هذا الكتاب ينمي الوطنية:

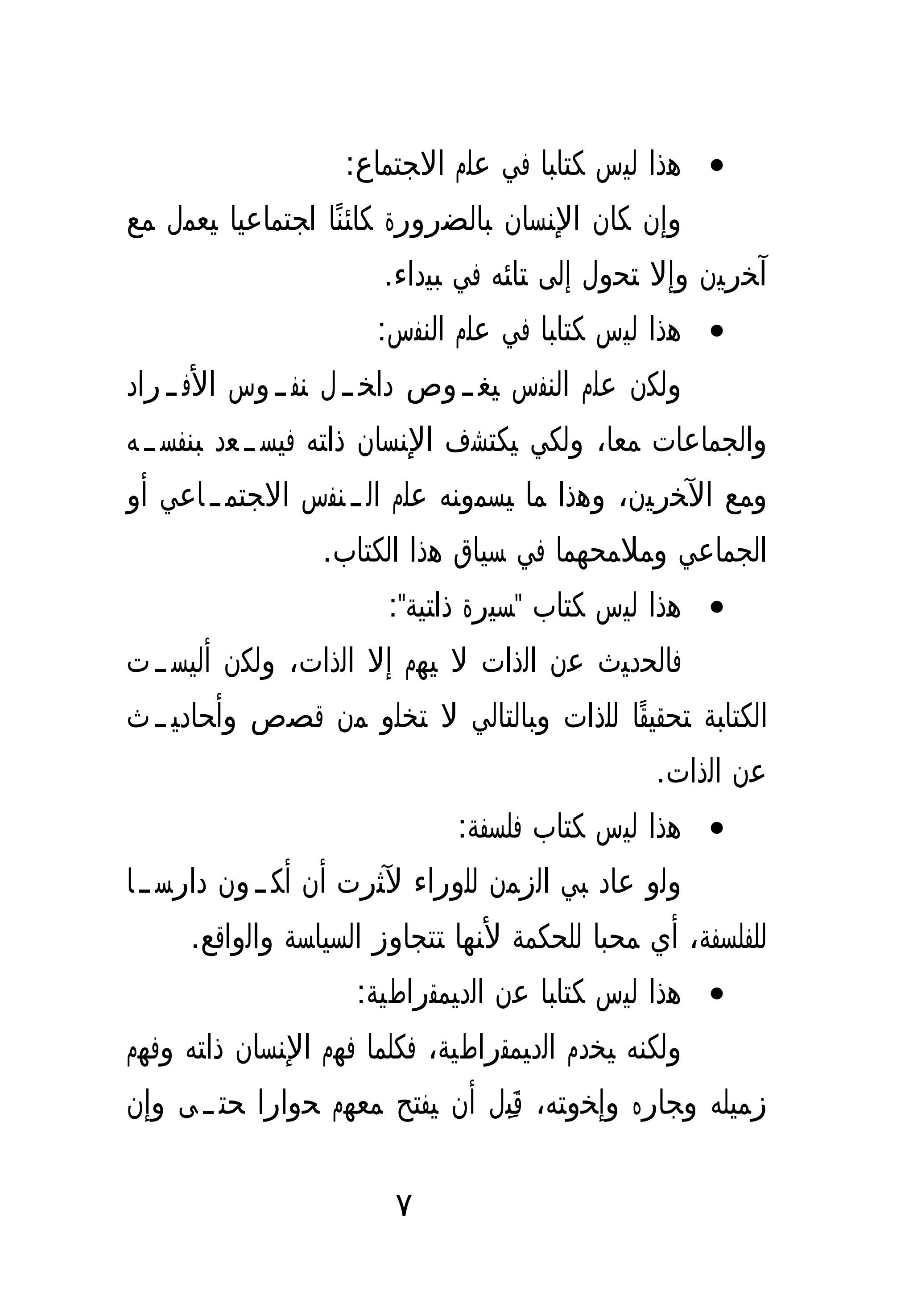
والوطنية ليست تاريخًا مشـتركًا فحسـب ولكنهـا مستقبل مشترك أيضا.

- هذا ليس كتاب تاريخ:

فأنا لست متخصصا في التاريخ ولكنني ذكرت مـن التاريخ ما يخدم الوطن ويبني الإنسان.

- هذا ليس كتاب سياسة:

ولكن في النهاية ما هي السياسة، أليست موقفًا وفكرا ومحاولات واجتهادات تهدف لسـعادة الإنسـان واكتشـاف انفعالاته وطموحاته من أجل رؤية أفضل للمستقبل.



- هذا ليس كتابا في علم الاجتماع:

وإن كان الإنسان بالضرورة كائنًا اجتماعيا يعمل مع آخرين وإلا تحول إلى تائه في بيداء.

- هذا ليس كتابا في علم النفس:

ولكن علم النفس يغـوص داخـل نفـوس الأفـراد والجماعات معا، ولكي يكتشف الإنسان ذاته فيسـعد بنفسـه ومع الآخرين، وهذا ما يسمونه علم الـنفس الاجتمـاعي أو الجماعي وملامحهما في سياق هذا الكتاب.

- هذا ليس كتاب "سيرة ذاتية":

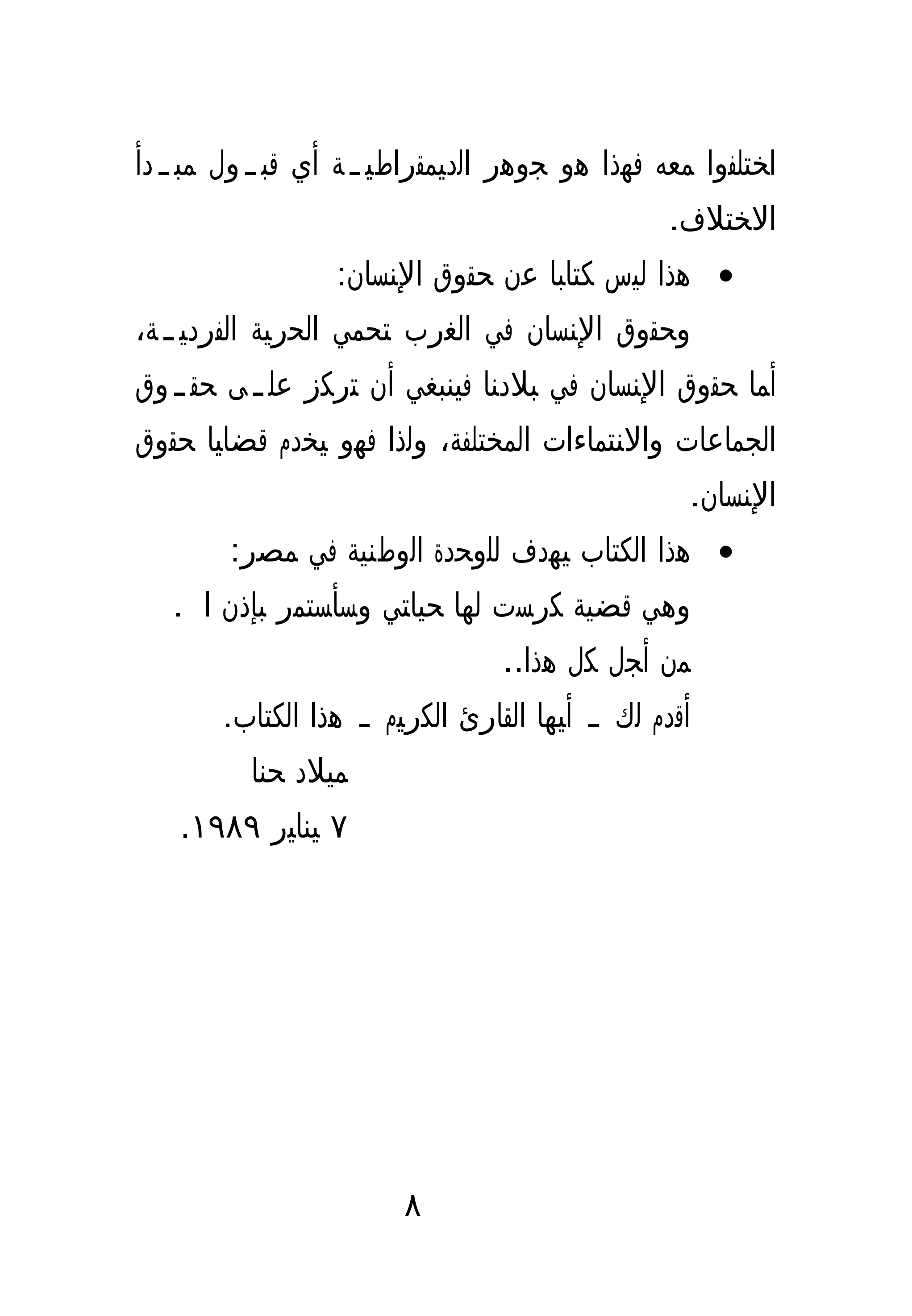
فالحديث عن الذات لا يهم إلا الذات، ولكن أليسـت الكتابة تحقيقًا للذات وبالتالي لا تخلو من قصص وأحاديـث عن الذات.

- هذا ليس كتاب فلسفة:

ولو عاد بي الزمن للوراء لآثرت أن أكـون دارسـا للفلسفة، أي محبا للحكمة لأنها تتجاوز السياسة والواقع.

- هذا ليس كتابا عن الديمقراطية:

ولكنه يخدم الديمقراطية، فكلما فهم الإنسان ذاته وفهم زميله وجاره وإخوته، قِبل أن يفتح معهم حوارا حتـى وإن



اختلفوا معه فهذا هو جوهر الديمقراطيـة أي قبـول مبـدأ الاختلاف.

- هذا ليس كتابا عن حقوق الإنسان:

وحقوق الإنسان في الغرب تحمي الحرية الفرديـة، أما حقوق الإنسان في بلادنا فينبغي أن تركز علـى حقـوق الجماعات والانتماءات المختلفة، ولذا فهو يخدم قضايا حقوق الإنسان.

- هذا الكتاب يهدف للوحدة الوطنية في مصر:

وهي قضية كرست لها حياتي وسأستمر بإذن ا .

من أجل كل هذا..

أقدم لك ـ أيها القارئ الكريم ـ هذا الكتاب.

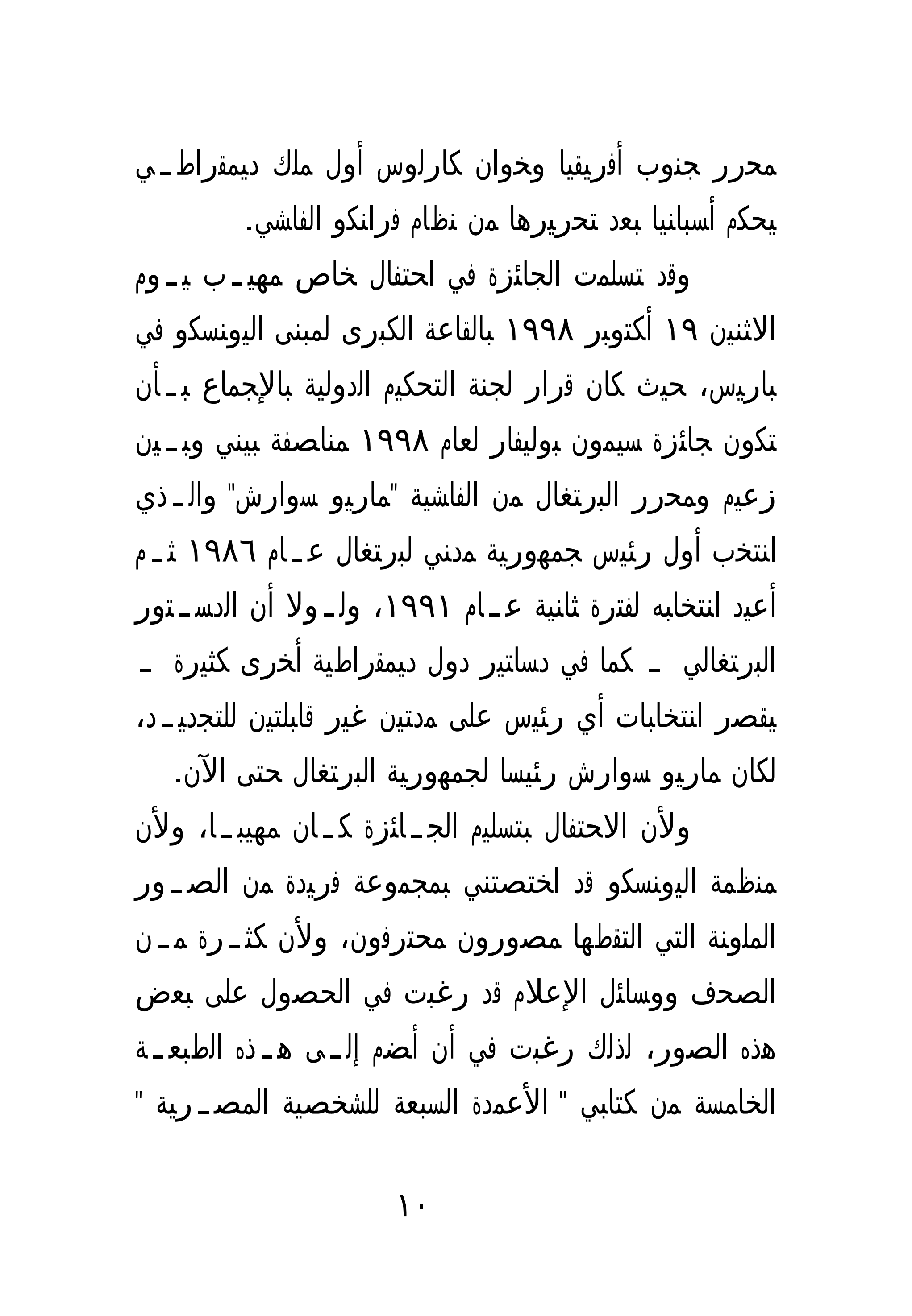
ميلاد حنا

٧ يناير ١٩٨٩.

مقدمة الطبعة الخامسة

اعتبرت لجنة التحكيم لجائزة سيمون بوليفار الدولية هذا الكتاب أحد الأعمال الثقافية التي تـدعم التعدديـة فـي مصر، ومن ثم جاء أهمية أن تصدر طبعـة خامسـة بهـا إضافات هامة.

في تاريخ الأمم والأفراد تواريخ وسنوات لا تنسـى، لأنها أيام أو سنوات فاصلة، أي تفصل بين حقبـة وأخـرى ومن ثم تصبح تاريخية، فقد جاء عام ١٩٩٨ ليكون بالنسـبة لي "عام جني الثمار" ففي ٦ مارس ١٩٩٨، أصـدر جلالـة الملك كارل جوستاف ملك السويد، براءة منحي وسام "النجم القطبي" ـ الذي لا يغرب ـ بدرجة " كومانـدور "، وهـو وسام رفيع المستوى لا يتفوق عليه ـ حسبما جاء في نشـرة إصداره ـ إلا الوسام الذي يمنح لرؤساء الدول وحدهم فكان ذلك التقدير من دولة السويد بداية لثمرات وتقديرات أخرى، فقد جاء أهمها ـ وأعظمها رفعة ـ جائزة "سيمون بوليفـار الدولية"، والتي تمنحها منظمة اليونسكو كل عامين منذ عـام ١٩٨٣ حيث كان أول من فازا بها همـا نيلسـون مانـديلا



محرر جنوب أفريقيا وخوان كارلوس أول ملك ديمقراطـي يحكم أسبانيا بعد تحريرها من نظام فرانكو الفاشي.

وقد تسلمت الجائزة في احتفال خاص مهيـب يـوم الاثنين ١٩ أكتوبر ١٩٩٨ بالقاعة الكبرى لمبنى اليونسكو في باريس، حيث كان قرار لجنة التحكيم الدولية بالإجماع بـأن تكون جائزة سيمون بوليفار لعام ١٩٩٨ مناصفة بيني وبـين زعيم ومحرر البرتغال من الفاشية "ماريو سوارش" والـذي انتخب أول رئيس جمهورية مدني لبرتغال عـام ١٩٨٦ ثـم أعيد انتخابه لفترة ثانية عـام ١٩٩١، ولـولا أن الدسـتور البرتغالي - كما في دساتير دول ديمقراطية أخرى كثيرة - يقصر انتخابات أي رئيس على مدتين غير قابلتين للتجديـد، لكان ماريو سوارش رئيسا لجمهورية البرتغال حتى الآن.

ولأن الاحتفال بتسليم الجـائزة كـان مهيبـا، ولأن منظمة اليونسكو قد اختصتني بمجموعة فريدة من الصـور الملونة التي التقطها مصورون محترفون، ولأن كثـرة مـن الصحف ووسائل الإعلام قد رغبت في الحصول على بعض هذه الصور، لذلك رغبت في أن أضم إلـى هـذه الطبعـة الخامسة من كتابي " الأعمدة السبعة للشخصية المصـرية "

بعضا من هذه الصور، بعضا من هذه الصور، كما تتضـمن صورة الوثيقة التي تسجل منحي الجائزة، وبعـض الوثـائق الأخرى الخاصة بأهداف منح الجائزة لتكون متاحـة لقـراء العربية والإنجليزية.

أما السبب في حماسي لإصدار طبعة خامسة "بإضافة فصول جديدة"، فهو أن هيئة التحكيم قـد أشـارت ـ فيمـا أشارت في حيثياتها ـ إلى هذا الكتاب تحديـدا، واعتبرتـه عملا فكريا متميزا، يدعو إلى الوفاق والوئام فـي مجتمـع "متعدد الأديان"، ومن هنا رغبت دار "نهضة مصر" فـي أن تجعل الكتاب متاحا على نطاق واسع باللغة العربية، توطئـة لأن يعاد نشره مترجما باللغة الإنجليزية، وفي اتجاه التفكيـر لأن ينشر مترجما باللغة الأسبانية، ذلك أن سيمون بوليفـار (١٧٨٣ ـ ١٨٣٠ م) هو الذي ناضل مـن أجـل اسـتقلال معظم دول أمريكا اللاتينية، والتي يتحدث أهلها ومواطنوهـا الأسبانية كلغتهم الأساسية، ومن ثم فإن بعض المثقفين فـي هذه القارة، قد يكونون راغبين في التعـرف علـى الإنتـاج الفكري لمن حصلوا على الجائزة التي تحمل اسـم محـرر بلادهم "سيمون بوليفار" والذي تدين له تحديدا دول أمريكـا

الوسطى الستة بالتحرر من الاستعمار الأسباني وذلـك فـي الأحقاب الأولى من القرن التاسع عشر، وذلك كتأثير مباشر لموجة التحرر والشعارات التي رفعتها الثورة الفرنسية فـي أواخر القرن الثامن عشر.

وعلى الرغم من أن سيمون بوليفار قد ولد في مدينة كراكاس عاصمة فنزويلا في ٢٤ يوليو عام ١٧٨٣، وعلـى الرغم من أن جذوره تمتد إلى منطقة الباسك التي تقـع فـي شمال أسبانيا، وعلى الرغم من ثرائه الواسع، فـإن مسـار حياته قد ولّد لديه الطاقة والتجهيز لمسلسل من النضال وصل إلى حد الحرب الداخلية التحريرية ضد كافة أشكال الاستبداد والرق الذي ساد مع سيطرة الاسـتعمار الأسـباني، بحيـث جعلت منه رمزا نادر المثال، عششت قصة كفاحـه وكأنهـا أسطورة في ضمير شعوب سـت دول اعتبرتـه "المحـرر" واستمرت العواطف الجياشة تجاهه متوهجة متجددة أي لـم تضمر أو تموت رغم مضي سنوات طويلة امتدت لنحو قرن ونصف من الزمان أي من عام ١٨٣٠ حتى ١٩٧٨ عنـدما رغبت دولة فنزويلا الثرية بالبترول فـي أن تخلـد اسـمه عالميا، فتقدمت بطلب إلى منظمة اليونسكو مقترحة أن ينشئ

اليونسكو جائزة دولية تحمل اسمه واقترحت أن تمنح الجائزة مرة كل عامين لفرد (أو فردين على الأكثر) أو تمنح لمنظمة أهلية أي غير حكومية، قامت بأعمـال متميـزة فـي ذات الأهداف التي عاش وناضل من أجلها سيمون بوليفار مثـل المساهمة في إنهاء نزاع أو حرب أهلية أو مصالحة داخليـة أو إقلال القهر وزيادة فاعلية حقوق الإنسان أو غيرها.

ولقد وافق المجلس التنفيذي لمنظمة اليونسكو علـى اقتراح دولة فنزويلا عام ١٩٧٨، وقبل المنحة المالية المقدمة منها وشكل مجلس أمناء يستثمر هذا المبلغ ومـن حصـيلة استثماره يمنح الجائزة كل عامين، ووضع لذلك لوائح وقواعد منظمة لإجراءات الترشيح، والذي يتم من خلال كـل دولـة عضو في المنظمة حيث من حق كل دولة عضو أن ترشـح شخصا أو هيئة واحدة كل مرة يعلن فيها عـن فـتح البـاب للترشيح لهذه الجائزة والتي أخذت صيتا عالميا، وكان مـن نصيبي أن أكون أول من يحصل عليها كمصري وكعربي.

ولقد جاء في لائحة الجائزة أنها "تمنح لكل من ساهم في حرية واستقلال وكرامة الشعوب كما عمل علـى تقويـة وتضامن الدول، وعلى تنمية وإنشاء نظام عـالمي ودولـي

جديد يدعم العلاقات بين الشعوب في القضـايا الاقتصـادية والاجتماعية والثقافية، ويأخذ هذا النشاط شكل عمل إبـداعي فكري أو فني، أو إنجاز اجتماعي أو تعبئة الرأي العام، كـل ذلك في إطار القيم والمبادئ التي طرحها وعاش من أجلهـا سيمون بوليفار".

أما الدول الست التي لا تعترف بغير سيمون بوليفار "محررا" فهي: فنزويلا ـ كولومبيا ـ إكوادور ـ بوليفيا ـ بنما ـ بيرو. ولذلك تفاصيل شيقة، لا تتسع لها هذه المقدمـة فالهدف منها هو الربط بين الأسباب التي منحت من أجلهـا الجائزة وحماس المؤلف والناشر لطرح طبعة جديـدة لهـذا الكتاب، فقد جاء في وثيقة الجائزة ـ ملخصا لما جـاء فـي تقرير وحيثيات لجنة التحكيم ما ترجمته: "إن الجـائزة قـد منحت اعترافا بدور الفائز (د. ميلاد حنا) بإسهاماته الفائقـة القيمة في تنمية وترقية مفاهيم التسامح وقبول الآخـر فـي مجتمع تعددي (للأديان) pluralistic society والعمل على تقوية أوصال المواطنة الطيبة، وكل ذلك في إطار المحافظة على المثل والرسالة التي أرسى قواعدها سـيمون بوليفـار"

وسيجد القارئ تفاصيل أخرى عن هذا الموضوع في الفصل السابع الجديد.

* * *

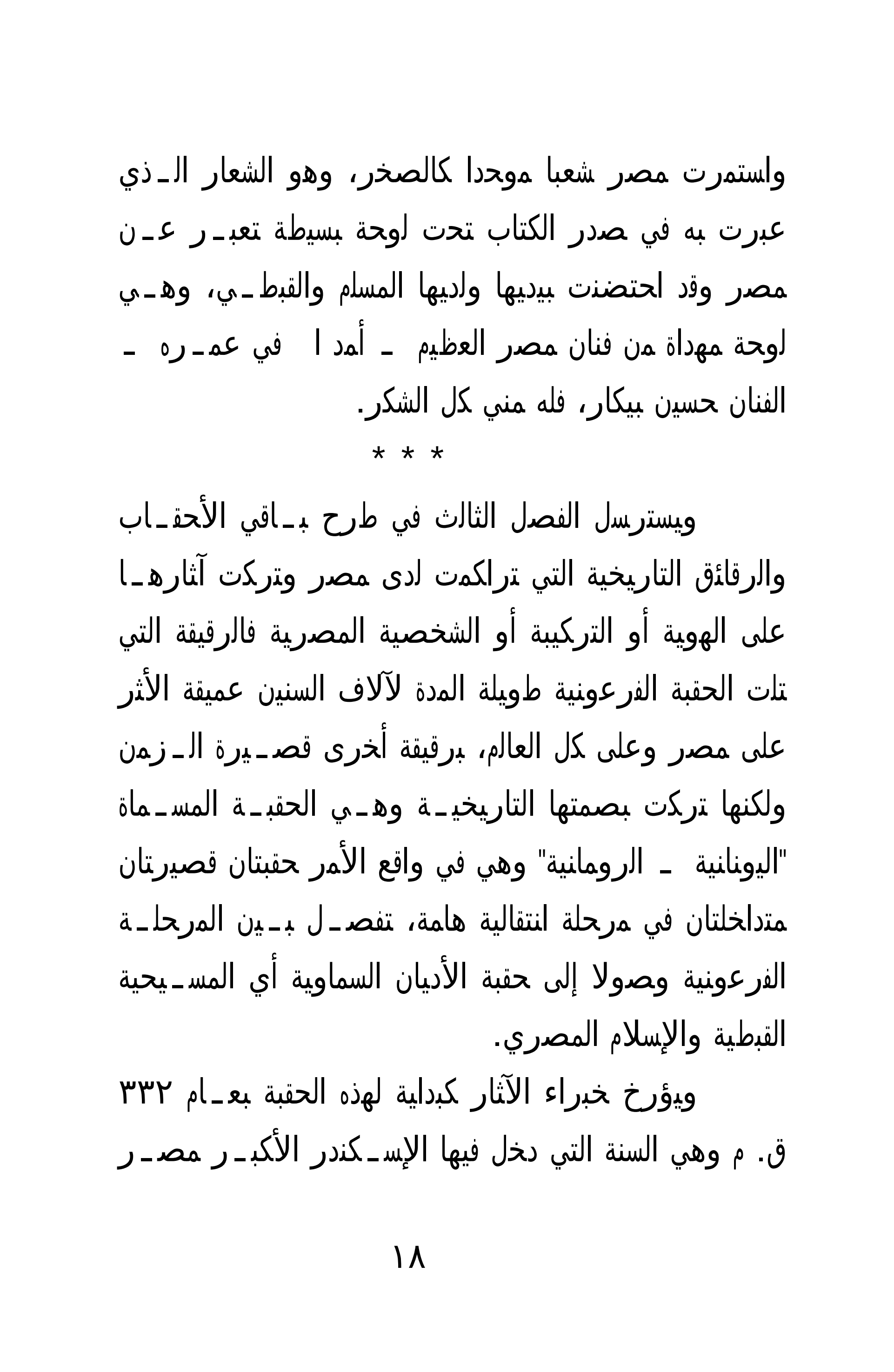
إن كتابي هذا "الأعمدة السبعة للشخصية المصـرية" هو ثمرة جهد فكري عبر سنوات طويلة ظلت تنمو تدريجيا، وربما كانت الفكرة قد تشكلت في لحظات الخلوة مع الـنفس خلال فترة الاعتقال في سبتمبر ١٩٨١ إلـى أن نشـر لأول مرة كأحد كتب دار الهلال الشهرية ـ عـدد ينـاير ١٩٨٩ (العدد رقم ٤٥٧ من سلسلة ـ كتاب الهلال) ولما نفد في مدة وجيزة أعادت دار الهلال نشره كأحد إصداراتها في طبعـة ثانية بعد تنقيحها وزيادتها وتغيير قطعها وغلافها في ينـاير ١٩٩٠ ثم طبعة ثالثة في ديسمبر ١٩٩٢ واستمر الطلب على الكتاب مما دفع الدار لإصدار طبعة رابعة عام ١٩٩٧ كمـا قامت الهيئة العامة للكتاب بطبـع ونشـر طبعتـين باللغـة الإنجليزية عامي ١٩٩٤، ١٩٩٧.

وتدور الفكرة المحورية ـ والتي يبدو أنهـا لاقـت استحسانا على كل من الصعيد الوطني والعربي والعالمي ـ على أن الهوية Identity أو الشخصـية المصـرية غنيـة

بالانتماءات التي تراكمت لدى كل مصـري عبـر الزمـان وبتأثير المكان، فعبر الزمان أي مع تتالي الأزمة مع فجـر التاريخ تأثر المصري برقائق الحضارات المختلفة التي مرت عليها مصر، ومن ثم فإن ما من مصري إلا ويعتز بانتمائـه إلى حضارة الفراعنة أي جدوده مـن المصـريين القـدماء والذين قدموا تراثا إنسانيا رائعا وعظيما وفريدا من نوعـه، فمن غير الممكن لأي مصري - مهما كان اعتـزازه بـأي انتماء آخر - أن يتنكر لجذوره القديمة بل ويعلن في إصرار وقوة اعتزازه بأنه كفرد وإنسان من أحفاد وسلالة الفراعنـة العظماء الذين شيدوا أول دولة وحكومة مركزية في التاريخ وكان ذلك في عصر الدولة العتيقة (٣١٠٠ - ٢٧٧٨ ق. م) والتي تبدأ من الملك نارمر المعروف بالملك "مينـا موحـد القطرين" ومؤسس الأسرة الأولى أي بداية التاريخ المسـجل المدون وتليها الأسرة الثانية، ثم رقيقة أخرى بعـدها وفـي إطار العصر الفرعوني ولكنها أكثر شهرة وتعرف بعصـر "الدولة القديمة" أو حقبة بناة الأهرامات، وتمتد لنحـو ٥٠٠ عام (من حوالي ٢٧٧٨ ق. م إلـى ٢٢٦٣ ق. م) وتشـمل الأسرات من الثالثة إلى السادسة، وحيث تقف أهرامات كثيرة

متباينة الشكل والحجم، شامخة تتحدى الزمن، من أهرامـات الجيزة الثلاثة في الشمال وهي أكثرها شهرة على مسـتوى العالم كله إلى هرم دهشور جنوبا علـى الجانـب الغربـي لمحافظة الجيزة مرورا بأكثرها قدما وهـو هـرم زوسـر المدرج في سقارة وقرب مدينة منف (قرب البدرشين) مـن أقدم وأشهر عواصم مصر الفرعونية.

وتتوالى عصور ورقائق الأسر المختلفة بتصـنيفاتها ـ والتي سيتعرف عليها القارئ تفصيلا ـ خلال الدراسـة للعمود الأول للشخصية المصرية وهو العمـود الفرعـوني، حيث يزهو ويفخر به أي مصري لذا فإنني أعتبره الركيـزة الثقافية أي " الأساسات " التي يقف عليها أي مصر ـ كـل مصري ـ بصرف النظر عن انتمائـه الـديني أو أي مـن الأعمدة السبعة الأخرى ـ وهذا هو أحد أسـرار التماسـك الوطني الذي يعيشه شعب مصر حاليـا فمـن خـلال هـذه الأساسات "المتينة" والممتدة الجذور فـي التـاريخ اسـتطاع شعب مصر ـ في إطار خصوصيته الثقافية هذه ـ أن يقاوم كافة الأخطار والرياح والأعاصير التي تهب على المنطقة بل وتثير الحروب والكراهية في مواقـع كثيـرة مـن العـالم

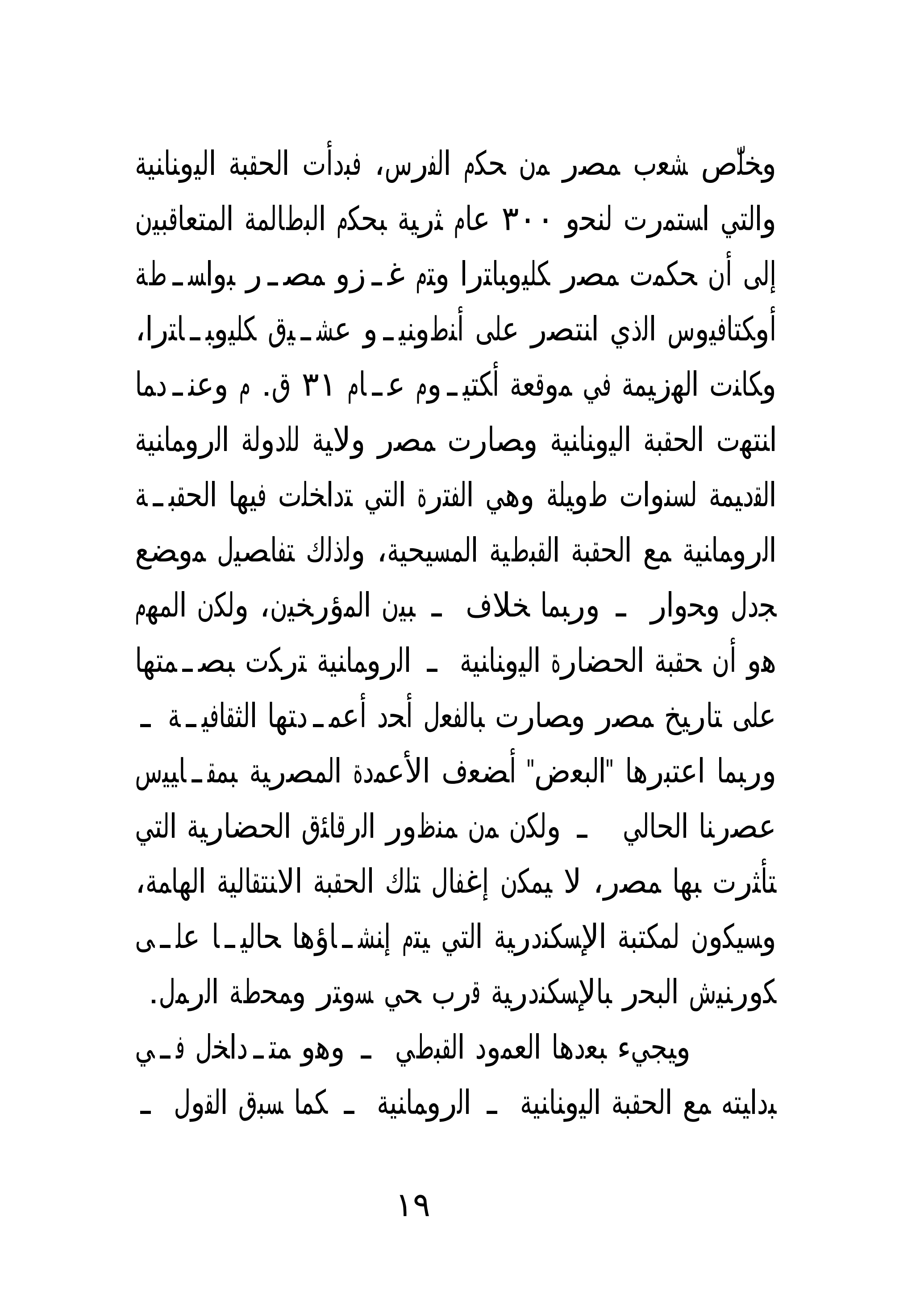


واستمرت مصر شعبا موحدا كالصخر، وهو الشعار الـذي عبرت به في صدر الكتاب تحت لوحة بسيطة تعبـر عـن مصر وقد احتضنت بيديها وليديها المسلم والقبطـي، وهـي لوحة مهداة من فنان مصر العظيم ـ أمد ا في عمـره ـ الفنان حسين بيكار، فله مني كل الشكر.

* * *

ويسترسل الفصل الثالث في طرح بـاقي الأحقـاب والرقائق التاريخية التي تراكمت لدى مصر وتركت آثارهـا على الهوية أو التركيبة أو الشخصية المصرية فالرقيقة التي تلت الحقبة الفرعونية طويلة المدة لآلاف السنين عميقة الأثر على مصر وعلى كل العالم، برقيقة أخرى قصـيرة الـزمن ولكنها تركت بصمتها التاريخيـة وهـي الحقبـة المسـماة "اليونانية ـ الرومانية" وهي في واقع الأمر حقبتان قصيرتان متداخلتان في مرحلة انتقالية هامة، تفصـل بـين المرحلـة الفرعونية وصولا إلى حقبة الأديان السماوية أي المسـيحية القبطية والإسلام المصري.

ويؤرخ خبراء الآثار كبداية لهذه الحقبة بعـام ٣٣٢ ق. م وهي السنة التي دخل فيها الإسـكندر الأكبـر مصـر



وخلّص شعب مصر من حكم الفرس، فبدأت الحقبة اليونانية والتي استمرت لنحو ٣٠٠ عام ثرية بحكم البطالمة المتعاقبين إلى أن حكمت مصر كليوباترا وتم غـزو مصـر بواسـطة أوكتافيوس الذي انتصر على أنطونيـو وعشـيق كليوبـاترا، وكانت الهزيمة في موقعة أكتيـوم عـام ٣١ ق. م وعنـدما انتهت الحقبة اليونانية وصارت مصر ولاية للدولة الرومانية القديمة لسنوات طويلة وهي الفترة التي تداخلت فيها الحقبـة الرومانية مع الحقبة القبطية المسيحية، ولذلك تفاصيل موضع جدل وحوار - وربما خلاف - بين المؤرخين، ولكن المهم هو أن حقبة الحضارة اليونانية - الرومانية تركت بصـمتها على تاريخ مصر وصارت بالفعل أحد أعمـدتها الثقافيـة - وربما اعتبرها "البعض" أضعف الأعمدة المصرية بمقـاييس عصرنا الحالي - ولكن من منظور الرقائق الحضارية التي تأثرت بها مصر، لا يمكن إغفال تلك الحقبة الانتقالية الهامة، وسيكون لمكتبة الإسكندرية التي يتم إنشـاؤها حاليـا علـى كورنيش البحر بالإسكندرية قرب حي سوتر ومحطة الرمل.

ويجيء بعدها العمود القبطي - وهو متـداخل فـي بدايته مع الحقبة اليونانية - الرومانية - كما سبق القول -

ثم هو متداخل في نهايته مع العمود أو الرقيقة العليـا وهـي الحقبة الإسلامية، فمن المؤكد أن استمرار المسيحية القبطيـة حتى الآن، يعطي الشـرعية - الموضـوعية والشـكلية - للعمود القبطي ليكون متواجدا ومستمرا ومؤثرا في التركيبـة المصرية حتى الآن. وإن كان المؤرخون يفضلون أن ينتهي عصر الحقبة القبطية مع دخول العرب مصـر عـام ٦٤١. وفي ذلك إجحاف علمي وثقافي ووجداني، ذلـك أن غالبيـة مصر استمرت مسيحية عدة قرون بعد دخول العرب لمصر، كما أن اللغة القبطية استمرت هي اللغة الشعبية السائدة فـي مصر طوال القرن السابع والثامن، ثم كانت مشاركة - فـي الحياة اليومية - مع اللغة العربية طـوال القـرنين التاسـع والعاشر على دخول الفاطميين مصـر عـام ٩٦٩ م، ولأن الفاطميين كانوا راغبين في إنشاء خلافة شيعية في مواجهـة خلافة العباسيين السنية في بغـداد، لـذلك - عقـب غـزو الفاطميين - كان التحول السريع إلى الإسلام، ثم كان تقهقر اللغة القبطية إلى الأديرة في القرن الثاني عشـر علـى يـد البطريرك الرائد غبريال بن تريك، وهي أمور سوف يتعرف القارئ على تفاصيلها من ثنايا القراءة.

ثم تجيء الرقيقة الرابعة والأخيرة وهي حقبة الحضارة الإسلامية، وكما أن مصر قد ساهمت في صياغة الفكر المسيحي في العالم لأنها كانت من أوائل الدول والشعوب التي اعتنقت المسيحية في القرن الأول الميلادي، كذلك كان لمصر إسهاماتها في الحضارة والفكر - وحتى الفقه - الإسلامي، ليس فقط لأنها قبلت الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري، ولكن لأنها أنشأت مع دخول الفاطميين في القرن العاشر أول صرح فكري إسلامي في عصره وحتى الآن، ومن ثم فإن مصر تتميز على باقي الدول الإسلامية، بأن بها إسلاما واحدا يتميز بخصائص ثقافية فريدة في الواقع اليومي المعاش فلا هو بالسني المصفى ولا هو بالشيعي الزاعق، فقد بدأ الإسلام في مصر سنيا في القرون الأولى للهجرة، ثم صار شيعيا مع دخول الفاطميين في القرن العاشر وأنشأوا الجامع الأزهر نسبة إلى فاطمة الزهراء، وكان مركز فكر شيعي لنحو قرنين من الزمان، وعندما دخل صلاح الدين مصر أمر بأن يتحول الجامع الأزهر لينشر الفكر السني، وهكذا احتوى الأزهر الإسلام في مجمله دون تحيز أو تعصب، فسماحته توفر الدراسة

والفحص - بل والفقه - لكل المذاهب والاتجاهات. وهـذه ظاهرة يلمسها كل منصف، وهـي أن التركيبـة الشخصـية للمسلم المصري تختلف عـن نظيـره فـي معظـم الـدول الإسلامية.

ومرت مصر برقائق جزئية متعاقبة في إطار الحقبة الإسلامية، فشاهدت عصر الخلفاء الراشدين في البداية ولهـا مؤرخوها وأحداثها وقصصها، ثم العصر الأموي حيث صار الإسلام خلافة وإمبراطورية معا، ثم عصر العباسيين حيـث الترجمة والفلسفة والعلم مع الشعر واللهو، ثم تتالت العصور بما فيها الحروب الصليبية والتي انحاز فيهـا الأقبـاط إلـى المسلمين في مصر لأنهم رأوا فيها غزو "فرنجة" على الرغم من أنها تحتمي تحت راية الصليب الذي رفعتـه المسـيحية الغربية الكاثوليكية، ويحتاج الأمر إلى فحص أوسع مما جاء في هذه الكتاب لنشرح الرقائق الجزئية للحقبـة الإسـلامية وصولا إلى الحقبة العثمانية التي سادت عدة قرون من القهر (الديني وغير الديني) والظلام (الحضاري على كافة صوره) فتركت بصماتها على الشخصية المصرية في وقت دخلت فيه أوروبا عصر النهضة والتنوير والعلـم وتـداخلت الحقبـة

العثمانية مع فترة حكم محمد علي وإسماعيل إلى أن انتهت الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤ وأعلن مصطفى كمال أتاتورك أن تركيا قد صارت دولة علمانية وأعلن انتهاء حكم الدولة العثمانية على أساس ديني. ولكن الآثار الثقافية لحقبة العثمانيين لا زالت متغلغلة في وجدان المصري حتى الآن، ويخف تأثيرها تدريجيا مع الزمن.

على أن أهم ما يبرزه هذا الكتاب هو أن هذه الرقائق من الحضارات الأربعة، متصلة ومتداخلة، كما أنها رقائق شفافة غير معتمة، تركت بصماتها على الهوية المصرية وأعطت للشخصية المصرية هذه النكهة الخاصة بل هذا التفرد غير المتكرر والذي وفر للمصري السماحة وقبول الآخر باستمرار، المسيحية القبطية متعايشة حتى الآن مع الإسلام المصري.



أعود إلى طرح الأعمدة الثلاثة الباقية - كما جاءت في الفصل الرابع والتي أثرت في الهوية المصرية المعاصرة بحكم الجغرافيا أي المكان، وسيجد القارئ تداخلا بينها وبين الأعمدة الأربعة التاريخية، فالانتماء إلى العمود الثاني وهو

اليوناني - الروماني يتداخل مع الانتمـاء الجغرافـي إلـى حضارة البحر المتوسط، وهو العمود السادس كما في الفصل الرابع كما أن الانتماء إلى الحضارة الإسلامية هـو العمـود الرابع التاريخي كما في الفصل الثالـث يتـداخل ومـرتبط بالعمود الخامس وهو الانتماء جغرافيا إلى العـالم العربـي (فصل ٤) وهذا الأمر الأخير محل خـلاف، عنـد مناقشـة انتماءات مصر إلى جيرانها، فالعرب ليس كلهم مسلمين، كما أن الدول الإسلامية تعني كيانا واسعا فضفاضا لا تحتل فيـه مصر موقع الصدارة فهناك منافسون أشداء في إيران وتركيا - وحتى إندونيسيا - بينما مجمل الـدول العربيـة مسـلمة التوجه الثقافي (على الرغم من وجـود مجمعـات مسـيحية بمذاهب وملل مختلفة، ولكن كلها مؤمنـة بقيـادة وزعامـة مصر).

وتستكمل الأعمدة السبعة بالانتماء الأفريقي لمصـر، وهو أمر يخص العلاقة الخاصة بين مصر والسودان ولذلك حديث طويل آخر.

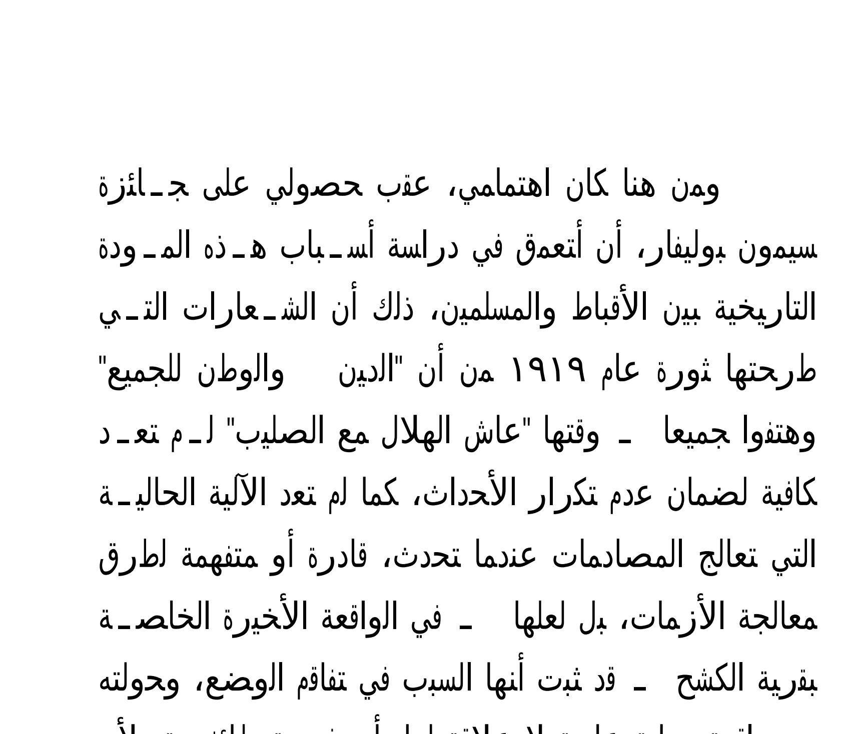
* * *

إن الغرض الرئيسي من الكتاب ليس فقط هو عرض الأوجه الأساسية لانتماءات المصري التاريخية والجغرافيـة، بقدر ما هو تحليل للتركيبة الثقافية للمصري فـي العصـور الحديثة، وكيف أنه متأثر بتاريخه وموقعه، ومن ثم فالكتـاب لا يتعرض بشكل مباشر لـ "صراع الحضارات"، لأنه قـد كتب قبل أن يتفكك الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١، وقبـل أن يسجل صموئيل هانجتون رؤيتـه الخاصـة بـ "صـراع الحضارات"، التي نشرت لأول مرة في مجلة "فورن أفيـرز" في صيف عام ١٩٩٣، ولكن يبدو أنني كنـت مسـتلهما أو متوقعا أن يدخل العالم عصر "الحـروب الأهليـة" بسـبب اختلاف السلالات أو الأديـان أو المـذاهب، وتصـادف أن بادرت بكتابة هذا المؤلف والذي تعرض لقضية الهوية فـي مصر واشتهر بعنوانه "الأعمدة السبعة للشخصية المصـرية" وكان ذلك في وقت مبكر - في أواخر الثمانينيـات - ممـا جعله - على نطاق ثقافي غير مباشـر - يسـاهم فـي أن تتجنب مصر رياح "الطائفية" التي اجتاحـت دولا مجـاورة أخرى، وربما كان ذلك في الاعتبار عند منحي جائزة سيمون بوليفار وسيلاحظ القارئ أن الفصل الثاني من الكتاب جـاء

بعنوان "لن تتلبنن مصر" فقد سادت لبنان الشقيق حرب أهلية ضروس من عام ١٩٧٥ حتى عام ١٩٩٢، ولذا فقـد كـان تخوفي أن تمتد "نار" الطائفية لمصر. خصوصا وقد شاهدت مصر أحداثا "طائفية" بدأت بحريق كنيسة الخانكة في شـمال القاهرة في نوفمبر ١٩٧٢، وتصاعدت أحداث أخرى كثيـرة طوال حقبة حكم الرئيس السادات، وكانت الذروة في صراع دموي غير مسبوق في حي الزاوية الحمراء قـرب منطقـة شبرا بالقاهرة وحيث تجمعات كبيرة من الأقباط والمسـلمين، وكان ذلك في يونيو ١٩٨١، وتصاعدت المشاعر الغاضـبة في هذه الأحياء الشعبية المتجاورة، وكان مـن الممكـن أن يحدث ما لا تحمد عقباه، مما اضطر السادات إلـى اعتقـال نحو ١٥٠٠ شخص من جميع ألوان الطيف السياسي وجميع الأديان والملل في سبتمبر ١٩٨١، ووصلت قمة المأساة إلى اغتيال السادات ذاته في يوم عرسه ٦ أكتوبر ١٩٨١، وكتبت بعد ذلك مقالات بعنوان "أخذ الشر معه وراح".

وتتالت الأحداث طوال حقبة الثمانينات والتسعينيات، وكان آخرها واقعة تافهة ساذجة تصل إلى حـد "العـبط" أو الغباء، في قرية بسيطة اسمها الكُشح بمحافظة سوهاج قرب

مدينة البلينا، عندما وجد قبطيان مقتولان يوم ١٤ أغسطس عام ١٩٩٨، كان من الممكن أن تقيد الجريمة ضد مجهول، أو يتم التحقيق فيها مثل أي واقعة قتل عادية لأنه بالفعل لا علاقة لها بالصراع الطائفي، ولكن تعامل الشرطة بريبة وخوف وتعتيم لتحاشي الفتنة، وتوهمهم بأن القاتل لا بد أن يكون أيضا قبطيا، أوقعهم هذا الوهم أو الافتراض في خطأ أكبر وهو الحصول على اعترافات (للأقباط والمسلمين) من خلال "التعذيب"، فكان أن تضخم الحادث وصار له دوي عالمي، أوصلها إلى أزمة سياسية بين الكونجرس وجمعيات حقوق الإنسان عالميا ومصريا من جانب وبين السلطات المصرية من جانب آخر فوقعت الحكومة في حرج إعلامي عالمي، جعلها تدافع عن نفسها بإنكار "التعذيب" أصلا على الرغم من قرار "تحريك" بعض ضباط الأمن، فأوجد بلبلة استغلها من لا يودون الخير لمصر وللنظام، مما فرض علينا أن نفتح مرة أخرى ـ الملف الثقافي للخصوصية المصرية، فلم تعد نظريات "الأعمدة السبعة" وحدها كافية لمعالجة وتجاوز الأزمات التي ستأتي في المستقبل.

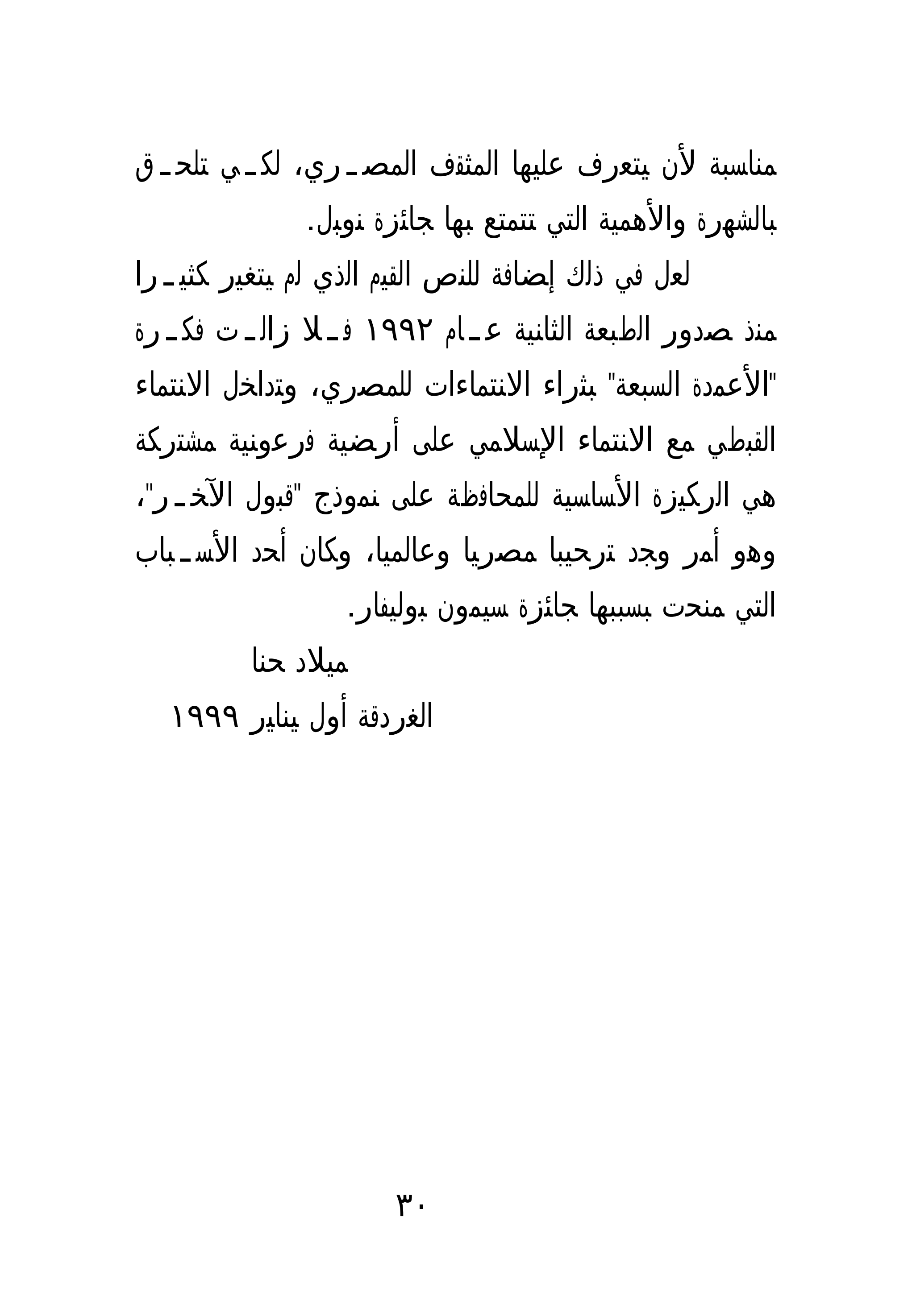


ومن هنا كان اهتمامي، عقب حصولي على جائزة سيمون بوليفار، أن أتعمق في دراسة أسباب هذه المودة التاريخية بين الأقباط والمسلمين، ذلك أن الشعارات التي طرحتها ثورة عام ١٩١٩ من أن "الدين والوطن للجميع" وهتفوا جميعا - وقتها "عاش الهلال مع الصليب" لم تعد كافية لضمان عدم تكرار الأحداث، كما لم تعد الآلية الحالية التي تعالج المصادمات عندما تحدث، قادرة أو متفهمة لطرق معالجة الأزمات، بل لعلها - في الواقعة الأخيرة الخاصة بقرية الكشح - قد ثبت أنها السبب في تفاقم الوضع، وحولته من واقعة جنائية عادية لا علاقة لها بأي فتنة طائفية، لأن تصبح حدثا وضع الدولة في حرج، أمكن معالجته بصعوبة شديدة، مما يستلزم النظر في إنشاء آلية جديدة "حكومية - أهلية" كأن تنشأ إدارة في "الرئاسة"، مكونة من شخصيات سياسية وثقافية لها مصداقيتها، تدير الأزمة بحنكة سياسية ثقافية مجتمعة، ولها أن تستعين بأجهزة الأمن أو المؤسسات الدينية لتكون مداخلها للمعلومات وتقصي الحقائق، كما يمكن لهذه الآلية أن تقترح - إذا رأت ظواهر متكررة لأسباب مختلفة - تشريعات أو قرارات تؤدي إلى تطور المجتمع

وتقدمه في الاتجاه المتحضر الذي يمنـع أو يقلـل أسـباب التوتر، ذلك أن النموذج المصري في المعايشة بين المسيحية القبطية (أي المصرية) والإسلامي المصري السمح، ينبغـي الحرص عليه والعمل على دعمه واستقراره، وهو أمر لـن يتم بالإجراءات الأمنية وحدها، وإنما بتوجهات ثقافية تساعد على استمرار الوجدان المصري الذي ابتكـر قواعـد هـذه الوحدة الوطنية، ولدى أغلبية شعب مصـر كـل الاسـتعداد والرغبة لاستمرار المحافظة عليها.

* * *

في هذا الإطار، ولأن المطبعة تدور كي تكون هـذه الطبعة الخامسة جاهزة للقراء مع مقدم معرض الكتاب القادم في أواخر يناير ١٩٩٩ فقد رغبت في أن أضـيف فصـلا جديدا في آخر هذا الكتاب (فصل ٦) بعنوان "مخاطر ضمور الخصوصية الثقافية القبطية توسـيع الأرضـية المشـتركة وطنيا"، فضلاً عن الفصلين ٧ ، ٨ حيـث طرحـت فيهمـا معلومات وصور حول سيمون بوليفار والجائزة الدولية التي تحمل اسمه فقد كان حصولي عليهـا عـام ١٩٩٨ كـأول مصري وعربي يحصل على هذه الجائزة رفيعة المسـتوى



مناسبة لأن يتعرف عليها المثقف المصـري، لكـي تلحـق بالشهرة والأهمية التي تتمتع بها جائزة نوبل.

لعل في ذلك إضافة للنص القيم الذي لم يتغير كثيـرا منذ صدور الطبعة الثانية عـام ١٩٩٢ فـلا زالـت فكـرة "الأعمدة السبعة" بثراء الانتماءات للمصري، وتداخل الانتماء القبطي مع الانتماء الإسلامي على أرضية فرعونية مشتركة هي الركيزة الأساسية للمحافظة على نموذج "قبول الآخـر"، وهو أمر وجد ترحيبا مصريا وعالميا، وكان أحد الأسـباب التي منحت بسببها جائزة سيمون بوليفار.

ميلاد حنا

الغردقة أول يناير ١٩٩٩

الفصل الأول

مصر

رقائق من الحضارات

- في السويد عرفت أن مصر رقائق من الحضارات.
- في الصين لغة واحدة وديانة واحدة عبر ستة آلاف سنة.
- هل توجد علاقة بين الفراعنة وحضارة الصين القديمة؟
- مصر غيرت الدين واللغة ثلاث مرات.
- مصر تتحول إلى العربية والإسلام خلال قرون.
- السود في أمريكا يزعمون أنهم صناع حضارة الفراعنة.

١

مصر رقائق من الحضارات

منذ أكثر من عشر سنوات، كنت في زيـارة شـبه رسمية إلى السويد كـ رئيس لجمعيـة الصـداقة المصـرية السويدية، وبدعوة من الجمعية الشقيقة المقابلة في استكهولم.

وفي اجتماع ودي للجمعيتين تبادلنا الكلمات توطيـدا للصداقة بين البلدين، فوجدتها فرصة جيدة لأن أبدي إعجابي بما قامت به بلدية استكهولم، عنـدما قـررت أن تخصـص إحدى جزرها (واسمها أسكانسن) لكي تكـون فـي جملتهـا تصويرا ومتحفًا حيا ومفتوحا، يصور نمط الحياة في السويد في القرن التاسع عشر وما قبلها بقليـل، وخصصـوا لـذلك اعتمادات مالية وكونوا لجانًا فنية متخصصة طافـت أنحـاء البلاد لكي تشتري وتجمع ما تبقى من مبان خشبية قابلة للنقل وتصلح لأن تُجمع وتُنسق بعضها بجـوار بعـض، بحيـث تتصور بالفعل وأنت تجوبها وكأنك قد انتقلت إلى قرن مضى وتعيش حياتك داخل قرية سويدية تقليدية.

سوف تلمس بنفسك الشوارع الضـيقة، وكيـف أن أرضيتها مرصوفة بالبلاط من كتل البازلت لكي يقاوم حوافر الخيل والإطارات الحديدية لعجـلات المركبـات المحملـة بالمحاصيل الزراعية، وكيف أن هذه الأزقة مضاءة بمصابيح الغاز، وتذكرت المصابيح التي كانت تضيء القاهرة وأزقتها قبل الحرب العالمية الثانية وكيف كان هناك رجـل يجـري حاملاً قصبة في نهايتها لهب ويوقد مصابيح الغـاز واحـدا واحدا.

ويستوقفني بيت العمدة (عمدة القرية السويدية) فـإذا به متسع وجميل وقد زود بقطع من الأثاث الكلاسيك تشبه ما في بيوت العائلات العريقة من الأثرياء المصـريين، وهـي قطع أثاث جمعت بالفعل من صالونات لعمد وأثريـاء فـي السويد قبل أن يتحولوا إلى الأثاث البسـيط مـن "الخشـب السويدي" غير المدهون الذي انتشر في العـالم أجمـع الآن لبساطته وجماله..

وقامت إدارة الجزيرة بتوفير مبالغ مناسـبة لشـراء ونقل مجمع ريفي قديم بكل ما يحتوي من بيوت كان يسكنها الفلاحون، فإذا بي أتعرف على أن وسيلة التدفئـة المتاحـة

والوحيدة في ذلك الحين كانت من خلال المدفأة الوحيدة في البيت حيث يحترق الخشب أو الفحم ليل نهار، ليس فقط للطهي وإنما لإشاعة الدفء في أغلب أجزاء البيت من خلال مواسير تأخذ الهواء الدافئ من المدفأة الوحيدة إلى غرفة المعيشة ثم غرفة النوم، وإلا تجمد الساكنون في برودة السويد القاسية، وأتصور أن الجيل الجديد من شباب السويد سيقارن بين ذلك وبين التدفئة المركزية بالبخار والتي تتم من خلال الغلايات المركزية في وسط كل قرية لتدفئة الأرصفة وكل حجرة في القرية أو المدينة من خلال مواسير خاصة.

وهناك الوسائل البدائية المستخدمة في الزراعة لحرث الأرض وجمع المحاصيل وهي في جملتها لا تختلف كثيرا عما يستخدمه الفلاح المصري منذ قرون.

وفي سوق القرية كان هناك جملة حوانيت وورش لحرف مختلفة من نجار وحداد وصباغ وغيرها حيث السكن والعمل في مكان واحد وبنفس الأدوات التي كانت مستخدمة في الماضي.

وكان طابور الزائرين طويلاً، وبالذات الشباب والأطفال لمشاهدة بيت وفرن الحرفي الذي يشكل الزجاج،

بأن يأخذ قطعة صغيرة من الزجـاج المنصـهر ويضـعها بمهارة على طرف ماسورة خاصة، ويظـل يـنفخ ويلعـب بالماسورة إلى أعلى وأسفل كما يلعب عازف الكمـان حتـى يشكلها وفق ما يهوى، فمرة يشكلها لتكون قنينـة للـروائح ومرة أخرى تكون "زهرية" لتنسيق الزهـور، ومـرة ثالثـة يصنع منها تمثالاً.

على أي حال، أنهيت كلمتي بإبداء إعجـابي بفكـرة إنشاء المتحف المفتوح لجزيرة أسكانسن والذي ينقل رسـالة هامة هادئة إلى أطفال وشباب السويد الذين يعيشـون هـذا المستوى العالي من المعيشة ويتمتعون بكل منجزات العصر والتكنولوجيا الحديثة، ثم يجيء متحف أسكانسن لكي يصور لهم المعاناة التي عاشها جدودهم في البرد والصـقيع حتـى تصل إليهم هذه الحضارة التي تتقدم يوما بعد يوم.

قام رئيس الجمعية المقابل لي برفسور تورجني سيف ـ سيدر بيري (*) Prof. Torgny save – soelerbergh، ورغب في أن يرد التحية بأبلغ منها وقد كنت أعلم أنه أستاذ الآثار المصرية القديمة في جامعة "أوبسالا" الشهيرة والعريقة وخطب في رشاقة قائلاً:

إذا كُنتَ تمتدح تصرفنا لأننا نبرز لأولادنـا تـراث السويد في القرن التاسع عشر، فإنني أشعر بالعجز والقصور عندما أقارن تاريخ وحضارة مصر بتاريخ وحضارة السويد، فبلادنا لا يزيد تاريخها المدون والمعروف على نحـو ألـف عام، وكان ذلك عندما غزا "الفايكنج" السويد لكي يأخذوا منها ومن روسيا الفراء ويصطادوا بعض العبيد لكي يباعوا فـي أسواق روما وبيزنطة وبلدان الشرق الأوسط.

أما مصر - وقد تجولت فيها كثيرا - فهـي بحـق متحف العالم وأقدم حضارة مدونة عرفتها البشرية ونعتبرها هنا متحف العالم كله، لأنها تكون بالفعل سلسلة من الرقـائق الحضارية بعضها فوق بعـض Layer sof civilization on top of each other.

لقد زرت مدن الأقصر وتل العمارنة ومنف وسقارة ودندرة وكوم أمبو وإدفو وغيرها ورأيت هذا الكم الهائل من الآثار والذي لا يوجد له مثيل في أي بلد آخر، فهذه تراكمات آلاف السنين لحضارة الفراعنة وما بعدها في الحقبة اليونانية - الرومانية، ثم زرت بعض الأديرة فـي وادي النطـرون وزرت الكنيسة المعلقة والمتحف القبطي في منطقـة مصـر

القديمة بالقاهرة، وأعرف فضل مصر على المسيحية وكيف أن بعض الرهبان من مصر قد وصلوا إلى سويسـرا وإلـى فنلندا، وأخيرا أراكم تعيشون مع الآثار الإسلامية الآن فـي القاهرة الفاطمية، فهناك جامع عمرو بن العاص وجامع ابـن طولون والأزهر والغورية والمتحف الإسلامي.

وختم كلمته ملخصا:

"إنني - وبنوع من الخيال - أتصـور أن القـاهرة ستتحول في القرن القادم - مثلما أصبحت أسكانسن متحفًـا مرموقًا - لكي تصبح متحفًا عالميا يجد فيه الزائـرون كـل رقائق الحضارات المتعاقبة مـن الفرعونيـة إلـى مصـر الحديثة".

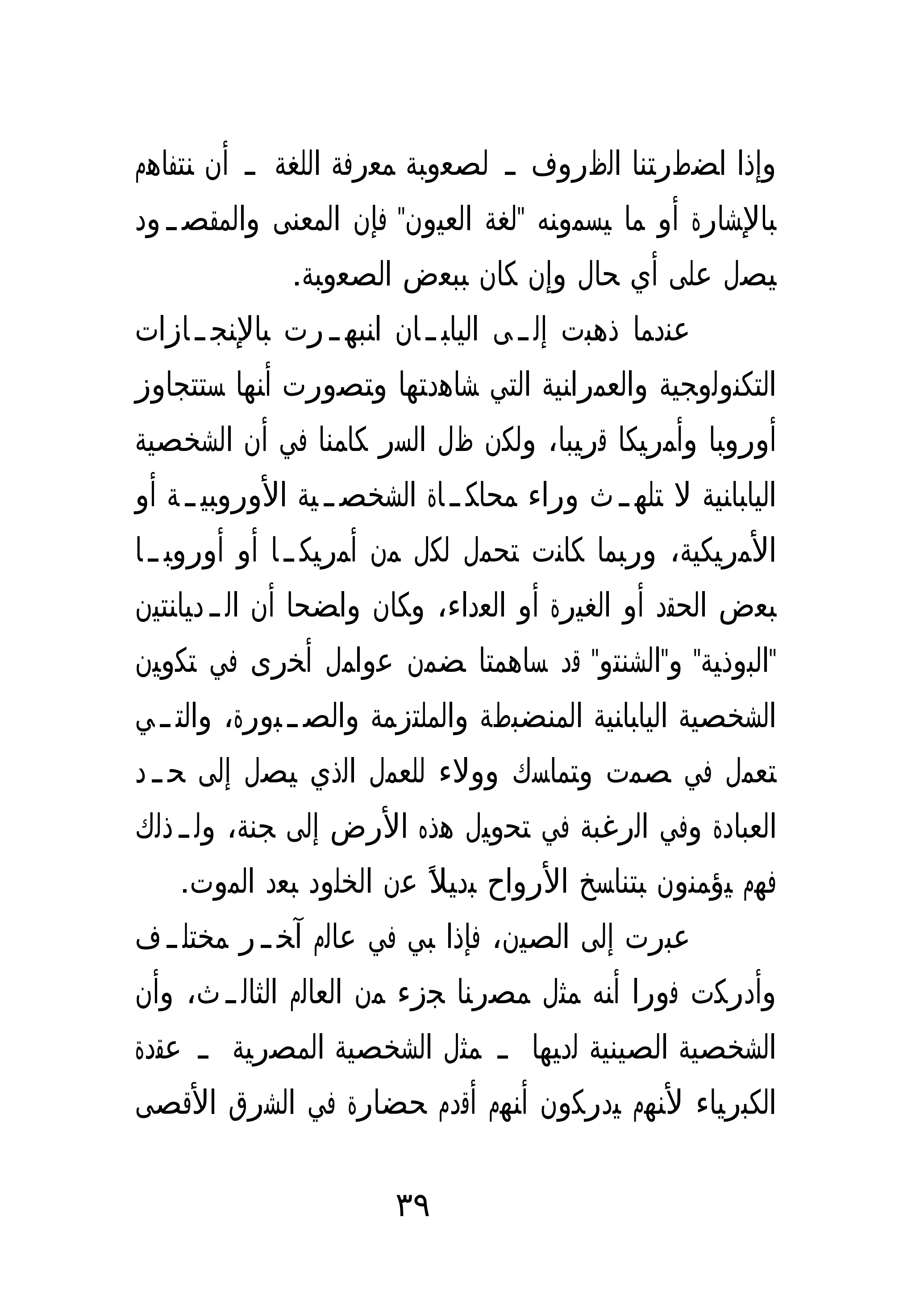
حفرت هذه العبارات في وجداني واختزنتها في عقلي وقلبي، وظللت بعدها لا أمل من أن أردد عبارة "أن مصـر رقائق من الحضارات".

حفزني ذلك على قراءة كتب التاريخ حتى أتعرف - أنا المصري - على تفاصيل ما يعرفه الأجانب مـن هـذه الرقائق المتتالية من الحضارة والتاريخ والفن، غيـر أن مـا كان يشغلني ليس التاريخ والماضي ولكن المستقبل - لأهلي

وبلادي ولذا كنت أتأمل أثر هذه الرقائق من الحضارات على التركيبة النفسية وشخصية المصري المعاصر، وكيـف أنـه وإن بدا أميا أو بملابس رقيقة الحال، ولكنـه يحمـل بـين ضلوعه وعلى كتفيه هذه الآلاف من السنين.

هذه واقعة.. أما الواقعة الثانية فكانت في الصين.

في عام ١٩٨٥ ـ وعندما كنت رئيسا للجنة الإسكان في مجلس الشعب ـ دعيت في زيارة رسمية لكل من اليابان والصين، وكان هدفي الرئيسي ـ غير المعلن ـ هو التعرف عن قرب على الشخصية الصينية واليابانية، فقد تعرفت على بعض منهم في مصر ورغبت في أن أرى المنبع: الفكـر ـ الثقافة ـ الديانة ـ القيم ـ التركيبة الإنسانية والاجتماعية ـ وذلك لأننا في مصر نقرأ الأوربـي والأمريكـي كالكتـاب المفتوح، وذلك لأن أوربا قد أخذت من حضارة حوض البحر الأبيض المتوسط ومن دياناته الثلاث: اليهودية والمسـيحية والإسلام، ثم أخذت أمريكا عن أوروبا التـراث والحضـارة والتركيبة الإنسانية واللغة، ولذلك عندما نتكلم مع الأوربيـين والأمريكيين نشعر بالتجاوب لأن مفاتيح الشخصية الأوروبية مفهومة أو مفتوحة حضاريا على مفاتيح الشخصية المصرية،



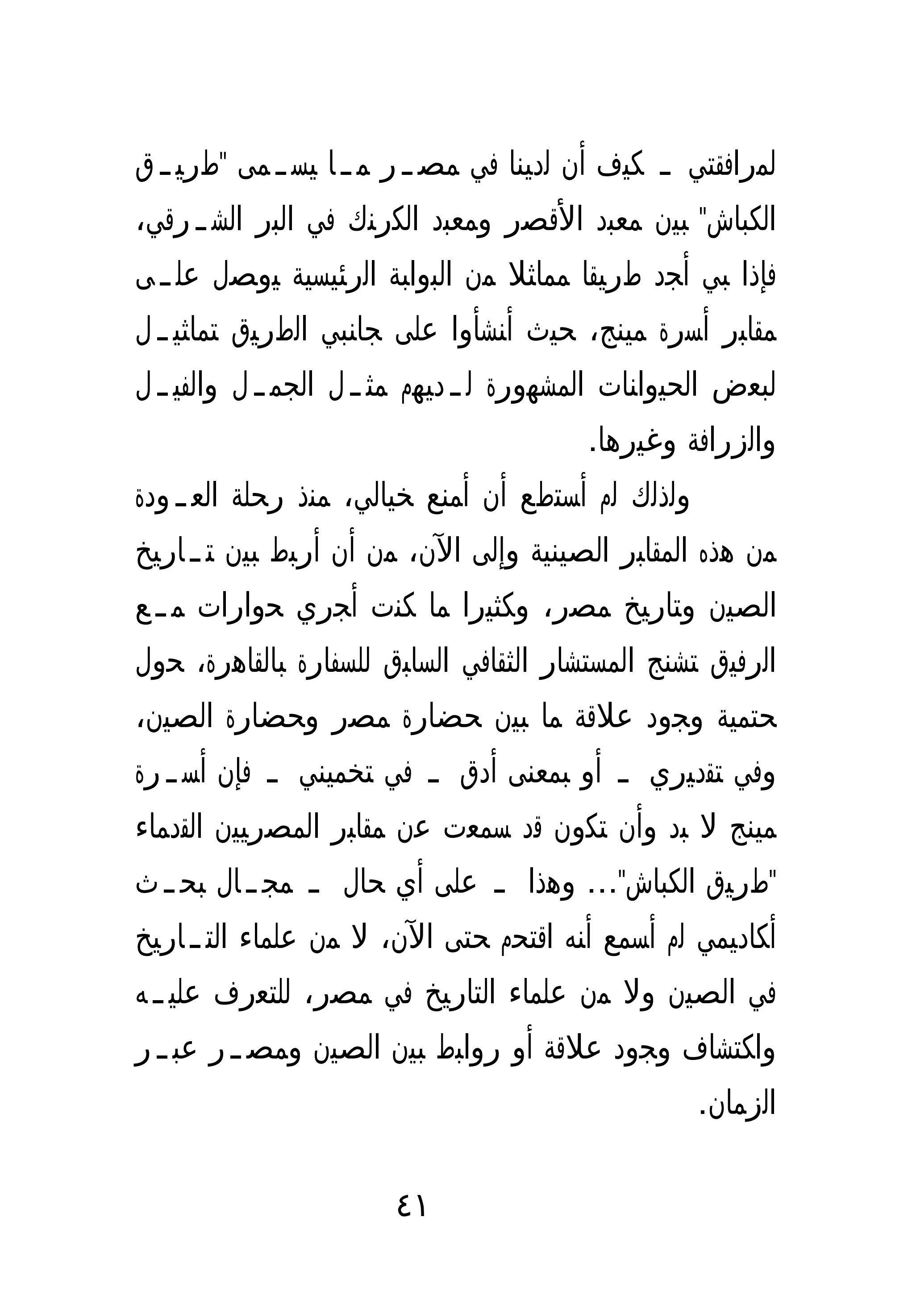
وإذا اضطرتنا الظروف ـ لصعوبة معرفة اللغة ـ أن نتفاهم بالإشارة أو ما يسمونه "لغة العيون" فإن المعنى والمقصـود يصل على أي حال وإن كان ببعض الصعوبة.

عندما ذهبت إلـى اليابـان انبهـرت بالإنجـازات التكنولوجية والعمرانية التي شاهدتها وتصورت أنها ستتجاوز أوروبا وأمريكا قريبا، ولكن ظل السر كامنا في أن الشخصية اليابانية لا تلهـث وراء محاكـاة الشخصـية الأوروبيـة أو الأمريكية، وربما كانت تحمل لكل من أمريكـا أو أوروبـا بعض الحقد أو الغيرة أو العداء، وكان واضحا أن الـديانتين "البوذية" و"الشنتو" قد ساهمتا ضمن عوامل أخرى في تكوين الشخصية اليابانية المنضبطة والملتزمة والصـبورة، والتـي تعمل في صمت وتماسك وولاء للعمل الذي يصل إلى حـد العبادة وفي الرغبة في تحويل هذه الأرض إلى جنة، ولـذلك فهم يؤمنون بتناسخ الأرواح بديلاً عن الخلود بعد الموت.

عبرت إلى الصين، فإذا بي في عالم آخـر مختلـف وأدركت فورا أنه مثل مصرنا جزء من العالم الثالـث، وأن الشخصية الصينية لديها ـ مثل الشخصية المصرية ـ عقدة الكبرياء لأنهم يدركون أنهم أقدم حضارة في الشرق الأقصى

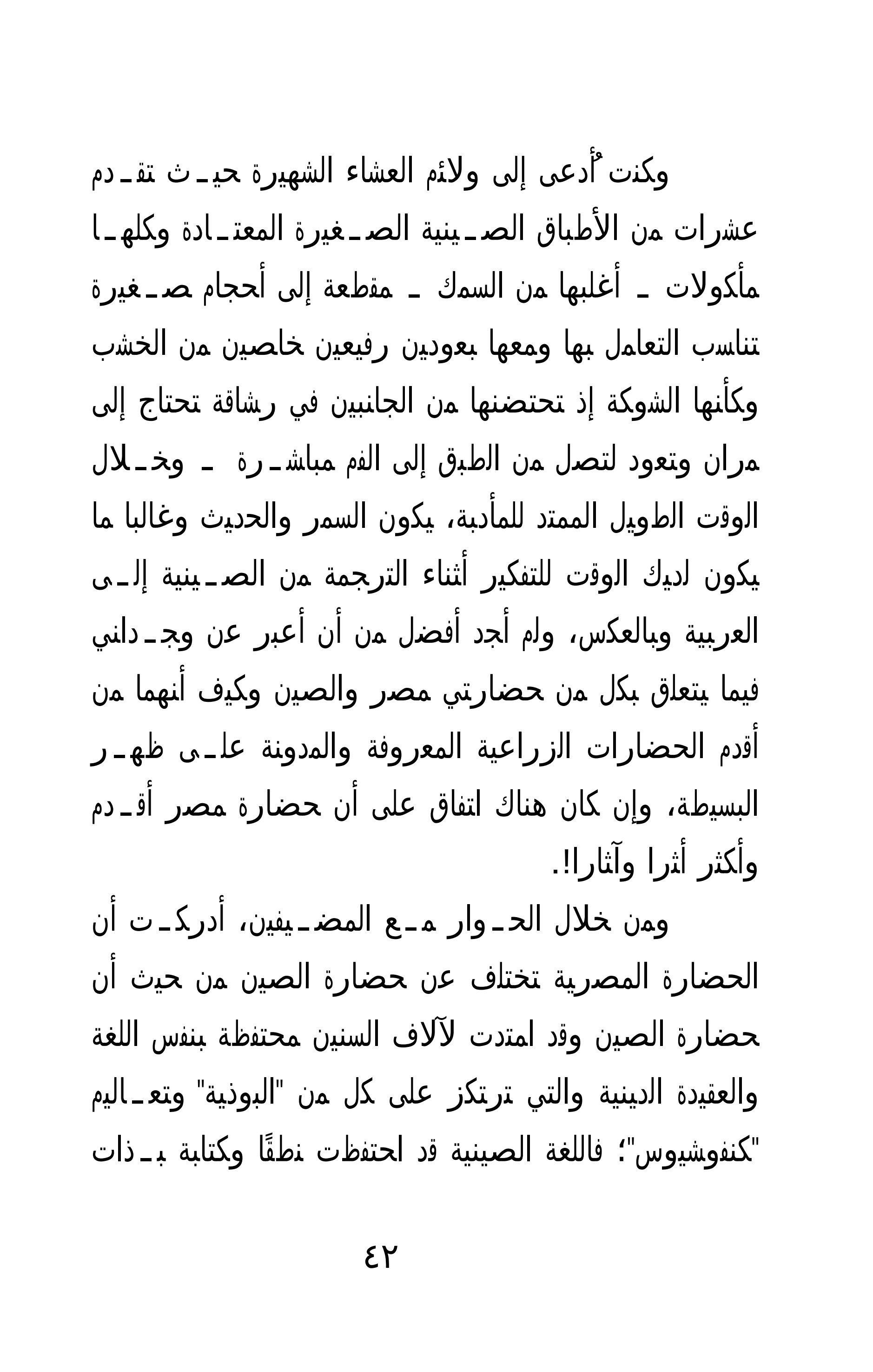
ولهم تأثيرهم فيها حضاريا وسياسيا وثقافيا، ولهم بصـمات بدرجات متفاوتة في كل بلدان المنطقة من اليابان شمالاً إلى تايلاند وكمبوتشيا جنوبا، ولكن لديهم أيضا عقدة النقص مثلنا لأنهم يعرفون أن أمامهم شوطا كبيرا لرفع مستوى المعيشة، وبالكاد حققوا الغذاء والتعليم للجميع، والآن يـودون تحقيـق مسكن صحي مستقل لكل أسرة، ولن يحققوا ذلك قبل عشرين عاما.

دعوني لزيارة مقابر عائلة أو أسرة ميـنج Ming Dynasty (١٤٠٩ ـ ١٦٤٤ م) والتي كانت تحكم الصـين في مطلع القرن الخامس عشر الميلادي، وتقع هذه المجموعة من المقابر على بعد خمسين كيلو مترا في اتجـاه الشـمال الغربي من العاصمة بكـين ويسـمونها "مقبـرة الـ ـ ١٣ إمبراطورا"، وعندما نزلت إلى المقبرة ذاتها، وجدت نفسـي أربط بينها وبين مجموعة مقابر الملوك بالبر الغربي بمدينـة الأقصر، وكيف أن كلا منهما منحـوت فـي قلـب الجبـل واستغرق نحتها عشرات السـنين وكـان منظـر الحجـرة الجنائزية والتابوت من الحجر متماثلا في مصـر والصـين على حد كبير، على أن ما شد نظري ـ وذكرت ذلك فـورا



لمرافقتي - كيف أن لدينا في مصر ما يسمى "طريق الكباش" بين معبد الأقصر ومعبد الكرنك في البر الشرقي، فإذا بي أجد طريقا مماثلا من البوابة الرئيسية يوصل على مقابر أسرة مينج، حيث أنشأوا على جانبي الطريق تماثيل لبعض الحيوانات المشهورة لديهم مثل الجمل والفيل والزرافة وغيرها.

ولذلك لم أستطع أن أمنع خيالي، منذ رحلة العودة من هذه المقابر الصينية وإلى الآن، من أن أربط بين تاريخ الصين وتاريخ مصر، وكثيرا ما كنت أجري حوارات مع الرفيق تشنج المستشار الثقافي السابق للسفارة بالقاهرة، حول حتمية وجود علاقة ما بين حضارة مصر وحضارة الصين، وفي تقديري - أو بمعنى أدق - في تخميني - فإن أسرة مينج لا بد وأن تكون قد سمعت عن مقابر المصريين القدماء "طريق الكباش"... وهذا - على أي حال - مجال بحث أكاديمي لم أسمع أنه اقتحم حتى الآن، لا من علماء التاريخ في الصين ولا من علماء التاريخ في مصر، للتعرف عليه واكتشاف وجود علاقة أو روابط بين الصين ومصر عبر الزمان.



وكنت أُدعى إلى ولائم العشاء الشهيرة حيث تقدم عشرات من الأطباق الصينية الصغيرة المعتادة وكلها مأكولات - أغلبها من السمك - مقطعة إلى أحجام صغيرة تناسب التعامل بها ومعها بعودين رفيعين خاصين من الخشب وكأنها الشوكة إذ تحتضنها من الجانبين في رشاقة تحتاج إلى مران وتعود لتصل من الطبق إلى الفم مباشرة - وخلال الوقت الطويل الممتد للمأدبة، يكون السمر والحديث وغالبا ما يكون لديك الوقت للتفكير أثناء الترجمة من الصينية إلى العربية وبالعكس، ولم أجد أفضل من أن أعبر عن وجداني فيما يتعلق بكل من حضارتي مصر والصين وكيف أنهما من أقدم الحضارات الزراعية المعروفة والمدونة على ظهر البسيطة، وإن كان هناك اتفاق على أن حضارة مصر أقدم وأكثر أثرا وآثارا!.

ومن خلال الحوار مع المضيفين، أدركت أن الحضارة المصرية تختلف عن حضارة الصين من حيث أن حضارة الصين وقد امتدت لآلاف السنين محتفظة بنفس اللغة والعقيدة الدينية والتي ترتكز على كل من "البوذية" وتعاليم "كنفوشيوس"؛ فاللغة الصينية قد احتفظت نطقًا وكتابة بذات

اللغة القديمة التي بدأت منذ نحو ستة آلاف سنة، وهي تعتمد على الأشكال Characters وليس على أبجدية، ويحتوي القاموس الصيني على نحو أربعين ألف شكل، وكل منها يعبر وحده عن كلمة قائمة بذاتها، ومن بين كل ذلك يوجد نحو خمسة آلاف شكل هي أكثرها شيوعا واستخداما وهي التي تكون التعامل بالكتابة إلى الآن.

وعلى ذلك فالصين رقيقة واحدة سميكة من الحضارة بنفس اللغة ونفس الدين عبر آلاف السنين هي عمر حضارة الصين بكل ما تشمل من سنوات الازدهار والاضمحلال، وعلى هذا فالخلاف بين مصر والصين هو أن لدى الصين رقيقة واحدة ضخمة من الحضارة المتصلة بينما مصر لديها رقائق حضارية مختلفة ومتباينة ولكنها أيضا مستمرة ومتصلة وهي التي كونت في تتاليها الشخصية المصرية الحالية كما نعرفها.

* * *

وقد أدى ذلك التاريخ الطويل إلى أن مصر قد غيرت لغتها وديانتها ثلاث مرات عبر التاريخ المدون.

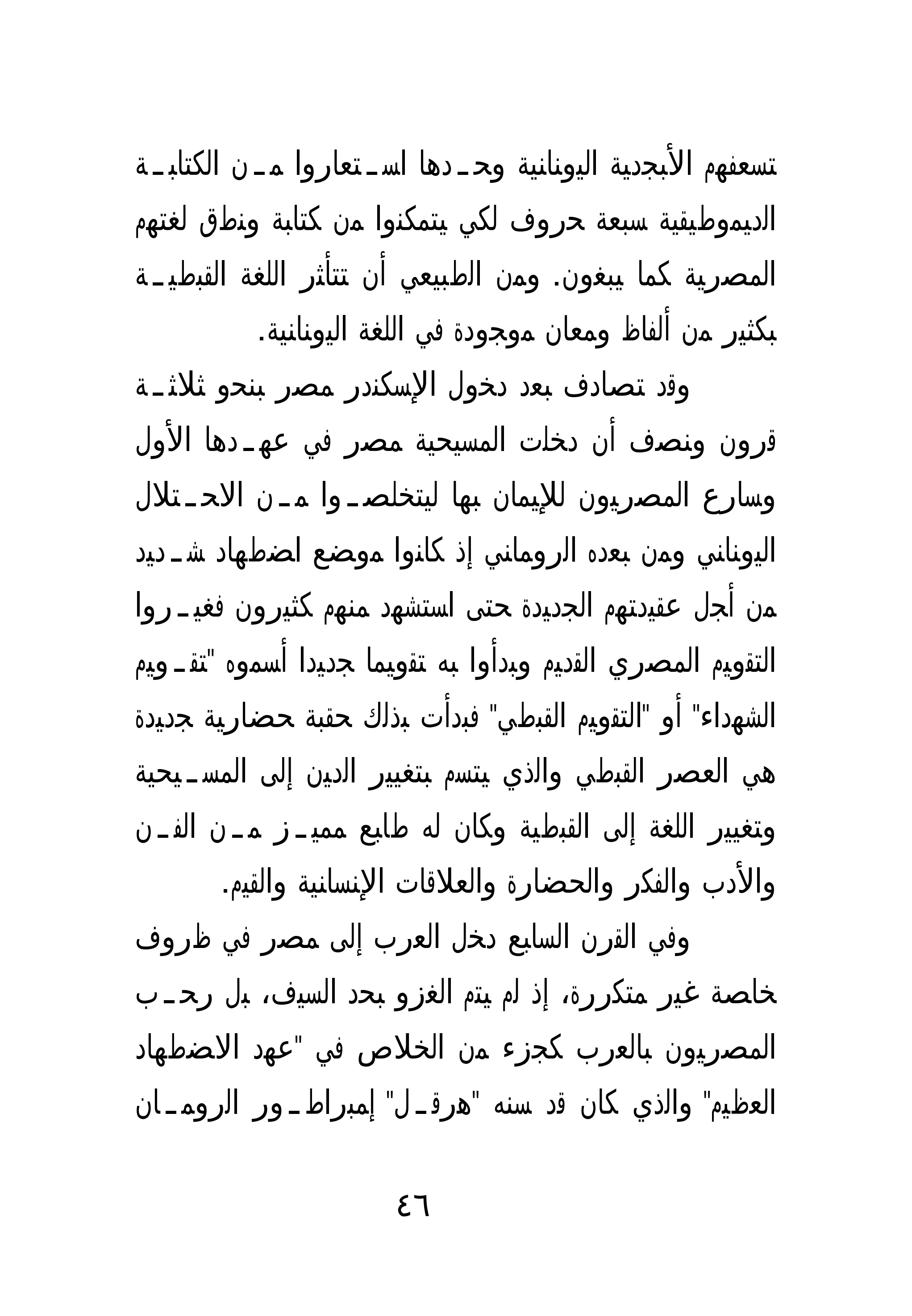
كانت عقيدتنا الدينية مبنية على أساطير قدماء المصريين والتي جعلت الحياة بعد الموت على نمط العالم الأرضي، ويستعد لذلك بالطعام وبمتاع هذا العالم كما كانوا يعرفونه في ذلك الوقت، ويعمل على أن يحفظ الجسد من العطب بالتحنيط لأنه الجسد الذي سيعيش به بعد البعث، وكونوا "المؤسسة الدينية" من كهنة الإله آمون أو سواه لكي تكرس أسطورة أن "فرعون" هو ممثل الإله على الأرض.

وينقسم المجتمع إلى فئات حاكمة هي: الملك فرعون والأمراء الذين يحكمون الأقاليم ومعهم الكهنة الذين يكونون "المؤسسة الدينية" ويحافظون على تراث الأساطير، وتتوفر لهم المعرفة والحكمة والعلوم والفنون وأدوات الكتابة وحفظ المعلومات وغيرها، ثم هناك الشعب على الجانب الآخر، يزرع ويبني ويعمر ويدفع خطر الفيضانات ويؤمن بالأساطير والآلهة.

ومن خلال كل ذلك تكونت حضارة هائلة امتدت من الملك مينا (عام ٣١٠٠ ق. م)إلى أن دخل الإسكندر مصر عام ٣٣٢ ق. م هي حقبة طويلة غنية بالأحداث والآثار والمراحل المختلفة، وكانت لغة المصريين القدماء هي اللغة

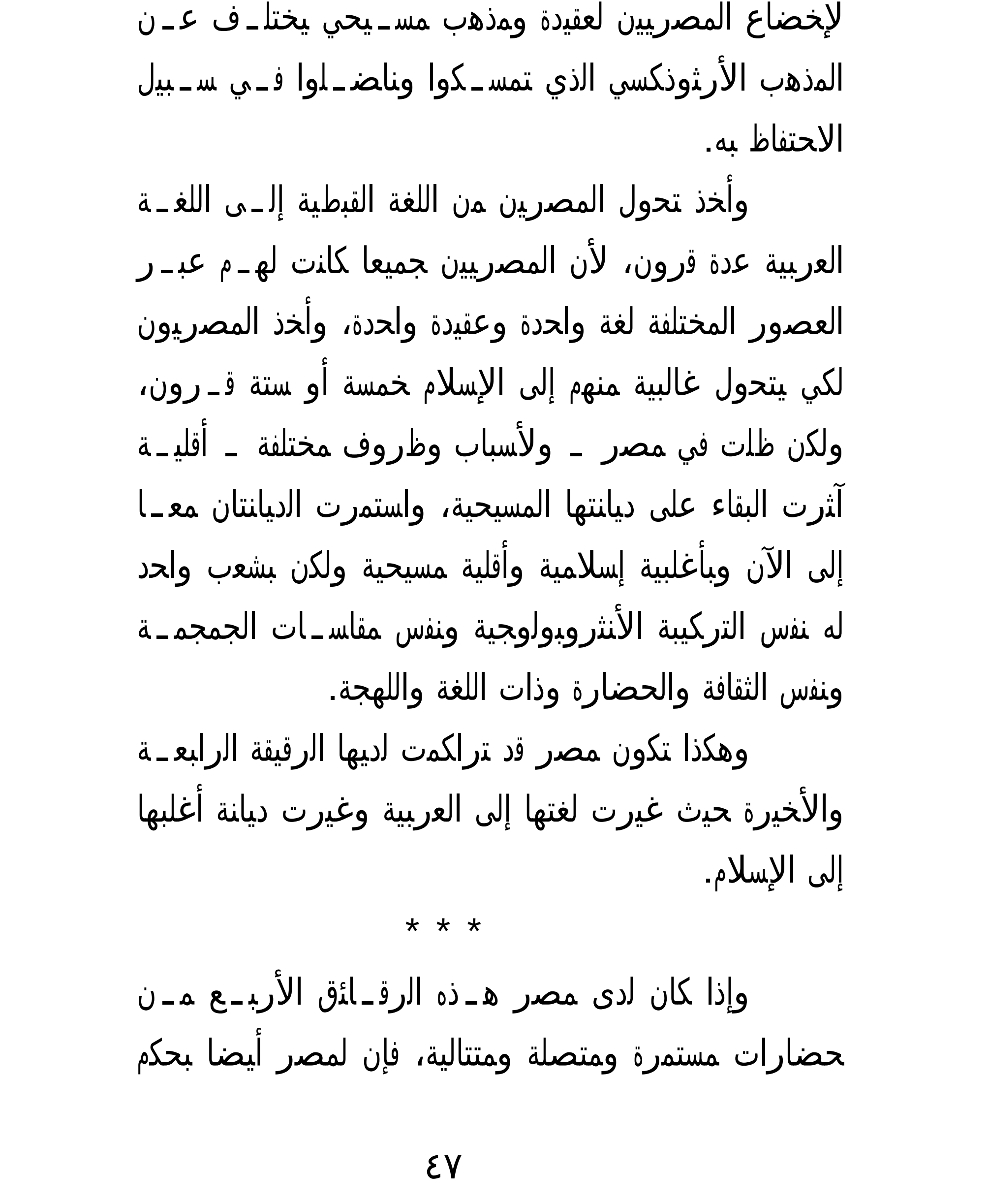
المصرية القديمة، ولكنهـا تكتـب بأشـكال ثلاثـة هـي: الهيروغليفية برموزها المشهورة وتعني اللغة المقدسة والتي تحولت إلى أبجدية فيما بعد ثم أمكن تبسيطها للكتابة فظهرت الهيراطيقية كأسلوب كتابة أبسط بـدلاً مـن الهيروغليفيـة ويستخدمها الحكماء والكهنة، وأخيرا وفي نحو عام ٦٥٠ ق. م. ابتكروا طريقة كتابة أخرى أكثر يسرا وهي لغة الشـعب وأسماها اليونانيون لذلك بالديموطيقية وهي أسلوب الكتابـة المتعارف عليه في التعاملات والعقود والخطابات وغير ذلك وظلت الديموطيقية حتى عام ٣٥٠ م.

ومع دخول الإسكندر دخلت معه مصر في مرحلـة جديدة كانت في أولها مرتبطة باليونان ثم تحول ارتباطها بعد ذلك إلى الرومان ومن ثم تسـمى بالمرحلـة "اليونانيـة ـ الرومانية". كانت اللغة اليونانية قد فرضت نفسها لتكون لغة الدولة والمكاتبات الرسمية ولذلك حاول بعـض المصـريين تعلمها ليحتفظوا بالوظائف الحكومية أما عامة الشـعب فقـد استمروا في استخدام الكتابة بالديموطيقيـة وهكـذا تحـول المصريون تدريجيا إلى اللغة القبطيـة بـأن كتبـوا اللغـة المصرية القديمة كما ينطقونها، بحروف يونانية، ولمـا لـم


تسعفهم الأبجدية اليونانية وحـدها اسـتعاروا مـن الكتابـة الديموطيقية سبعة حروف لكي يتمكنوا من كتابة ونطق لغتهم المصرية كما يبغون. ومن الطبيعي أن تتأثر اللغة القبطيـة بكثير من ألفاظ ومعان موجودة في اللغة اليونانية.

وقد تصادف بعد دخول الإسكندر مصر بنحو ثلاثـة قرون ونصف أن دخلت المسيحية مصر في عهـدها الأول وسارع المصريون للإيمان بها ليتخلصـوا مـن الاحـتلال اليوناني ومن بعده الروماني إذ كانوا موضع اضطهاد شـديد من أجل عقيدتهم الجديدة حتى استشهد منهم كثيرون فغيـروا التقويم المصري القديم وبدأوا به تقويما جديدا أسموه "تقـويم الشهداء" أو "التقويم القبطي" فبدأت بذلك حقبة حضارية جديدة هي العصر القبطي والذي يتسم بتغيير الدين إلى المسـيحية وتغيير اللغة إلى القبطية وكان له طابع مميـز مـن الفـن والأدب والفكر والحضارة والعلاقات الإنسانية والقيم.

وفي القرن السابع دخل العرب إلى مصر في ظروف خاصة غير متكررة، إذ لم يتم الغزو بحد السيف، بل رحـب المصريون بالعرب كجزء من الخلاص في "عهد الاضطهاد العظيم" والذي كان قد سنه "هرقـل" إمبراطـور الرومـان



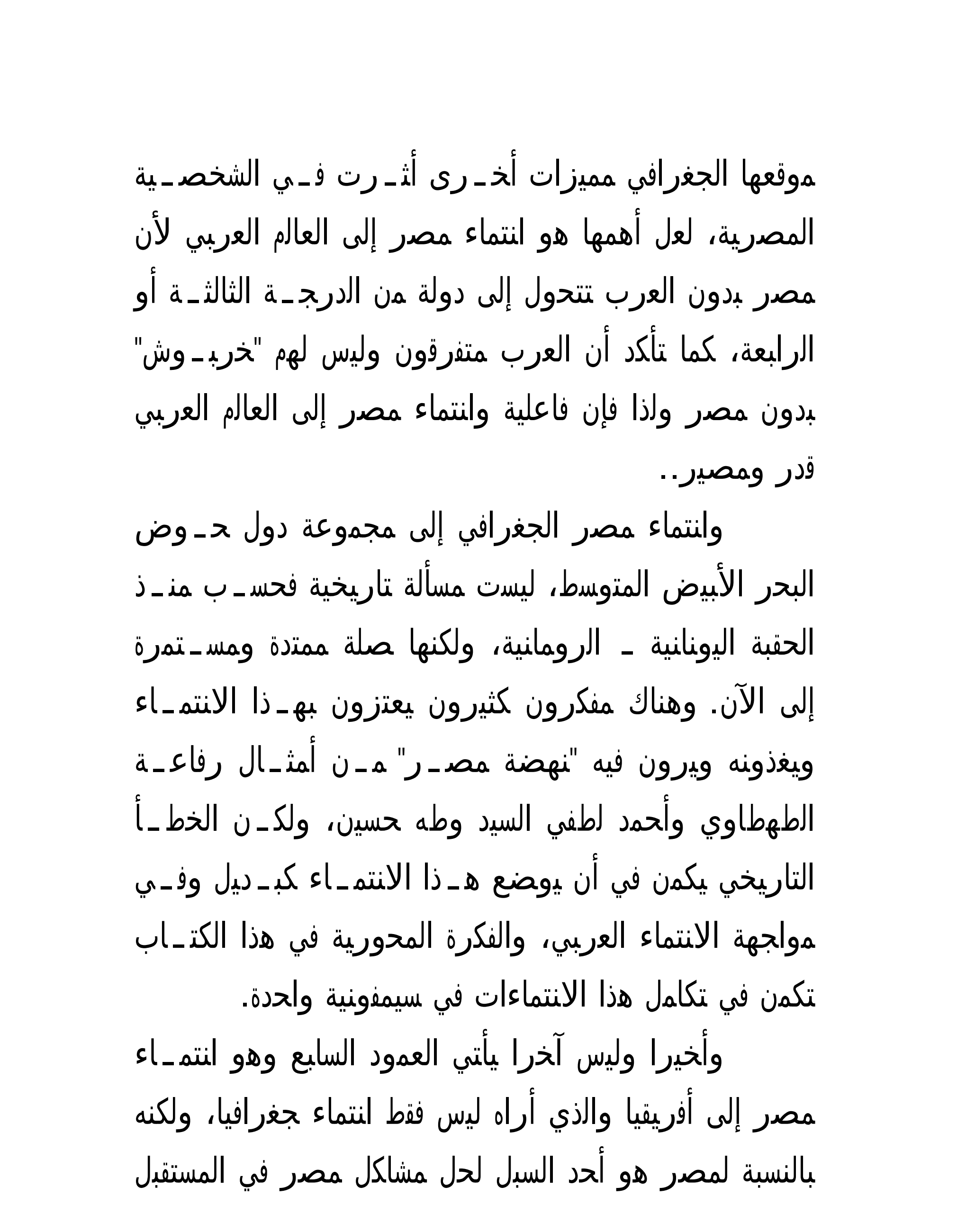
لإخضاع المصريين لعقيدة ومذهب مسيحي يختلف عن المذهب الأرثوذكسي الذي تمسكوا وناضلوا في سبيل الاحتفاظ به.

وأخذ تحول المصرين من اللغة القبطية إلى اللغة العربية عدة قرون، لأن المصريين جميعا كانت لهم عبر العصور المختلفة لغة واحدة وعقيدة واحدة، وأخذ المصريون لكي يتحول غالبية منهم إلى الإسلام خمسة أو ستة قرون، ولكن ظلت في مصر - ولأسباب وظروف مختلفة - أقلية آثرت البقاء على ديانتها المسيحية، واستمرت الديانتان معا إلى الآن وبأغلبية إسلامية وأقلية مسيحية ولكن بشعب واحد له نفس التركيبة الأنثروبولوجية ونفس مقاسات الجمجمة ونفس الثقافة والحضارة وذات اللغة واللهجة.

وهكذا تكون مصر قد تراكمت لديها الرقيقة الرابعة والأخيرة حيث غيرت لغتها إلى العربية وغيرت ديانة أغلبها إلى الإسلام.

* * *

وإذا كان لدى مصر هذه الرقائق الأربع من حضارات مستمرة ومتصلة ومتتالية، فإن لمصر أيضا بحكم



موقعها الجغرافي مميزات أخـرى أثـرت فـي الشخصـية المصرية، لعل أهمها هو انتماء مصر إلى العالم العربي لأن مصر بدون العرب تتحول إلى دولة من الدرجـة الثالثـة أو الرابعة، كما تأكد أن العرب متفرقون وليس لهم "خربـوش" بدون مصر ولذا فإن فاعلية وانتماء مصر إلى العالم العربي قدر ومصير..

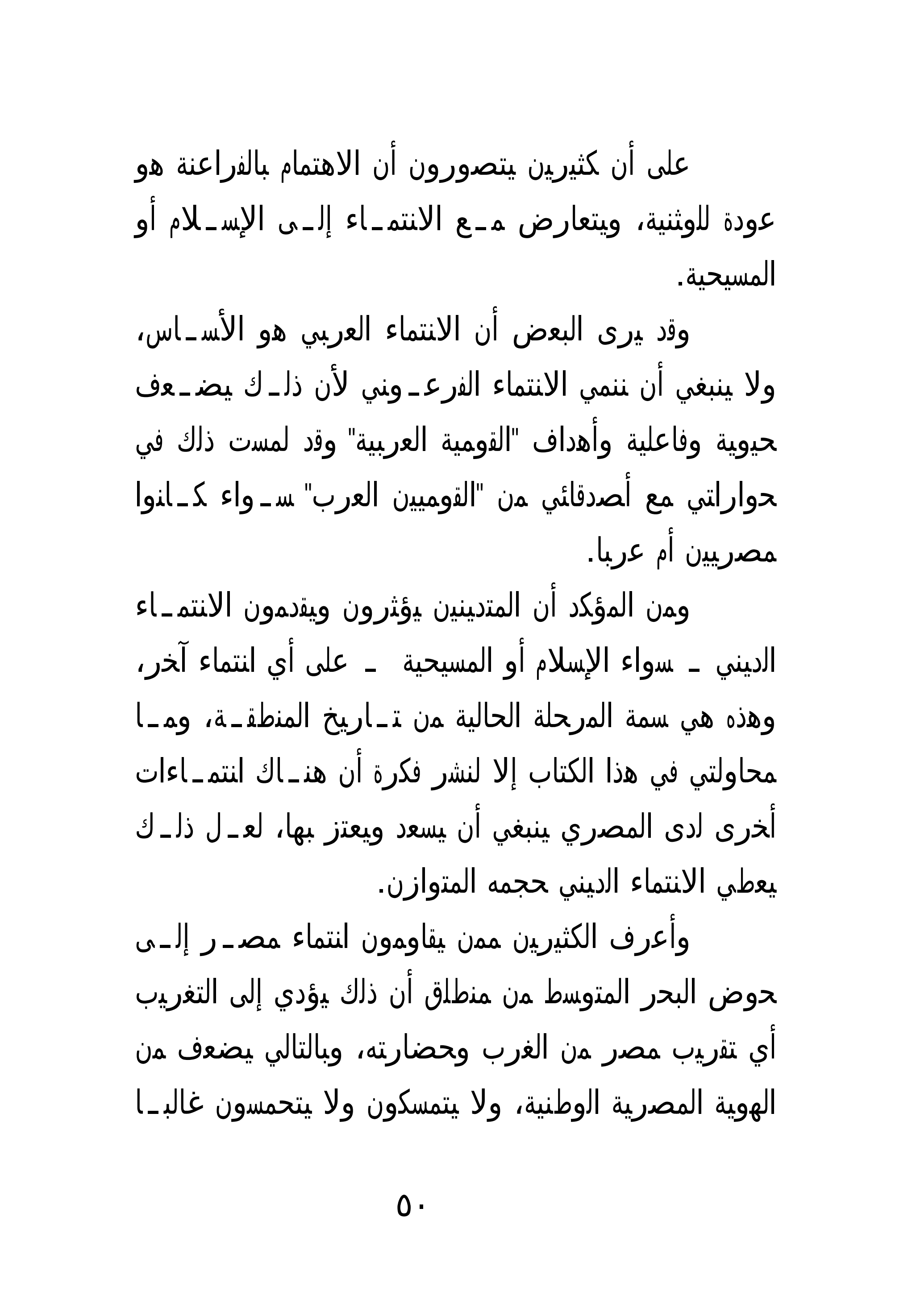
وانتماء مصر الجغرافي إلى مجموعة دول حـوض البحر الأبيض المتوسط، ليست مسألة تاريخية فحسـب منـذ الحقبة اليونانية ـ الرومانية، ولكنها صلة ممتدة ومسـتمرة إلى الآن. وهناك مفكرون كثيرون يعتزون بهـذا الانتمـاء ويغذونه ويرون فيه "نهضة مصـر" مـن أمثـال رفاعـة الطهطاوي وأحمد لطفي السيد وطه حسين، ولكـن الخطـأ التاريخي يكمن في أن يوضع هـذا الانتمـاء كبـديل وفـي مواجهة الانتماء العربي، والفكرة المحورية في هذا الكتـاب تكمن في تكامل هذا الانتماءات في سيمفونية واحدة.

وأخيرا وليس آخرا يأتي العمود السابع وهو انتمـاء مصر إلى أفريقيا والذي أراه ليس فقط انتماء جغرافيا، ولكنه بالنسبة لمصر هو أحد السبل لحل مشاكل مصر في المستقبل

وبالذات في كل مـا يتعلـق بالانفجـار السـكاني والنمـو الاقتصادي، إذ أن السوق العربية للعمالة المصرية في سبيلها إلى التشبع، ولكن تحويل نظام التعليم فـي مصـر ليؤهـل المهنيين والعمال للعمل في أفريقيا هو المخرج فـي القـرن القادم.

* * *

إن اعتقادي هو أن هذه الانتماءات أو الأعمدة السبعة داخلة في التركيبة الإنسانية لكل مصري، ولكنها - منطقيـا وطبيعيا - ليست أعمدة متساوية في الطول والقطر والمتانة، وإن إحساس المصري بهذه الانتماءات يختلف من شـخص إلى آخر، بل يختلف داخل نفس الفـرد مـن مرحلـة إلـى أخرى.. فلدى البعض منا إحساس بأهميـة الانتمـاء إلـى الفراعنة.. ويشعر هؤلاء أن ذلك يميزنا عـن المجتمعـات الإنسانية الأخرى، ويوفر لنا الشعور بخصوصية الانتماء إلى من ابتكروا هذه الحضارة القديمة والتي كانت منارة ومركز إشعاع في العالم القديم.. ووقت أن كانت تغطي أرقى الدول الآن ثلوج وظلمة وتخلف وأحراش وفوضى.



على أن كثيرين يتصورون أن الاهتمام بالفراعنة هو عودة للوثنية، ويتعارض مـع الانتمـاء إلـى الإسـلام أو المسيحية.

وقد يرى البعض أن الانتماء العربي هو الأسـاس، ولا ينبغي أن ننمي الانتماء الفرعـوني لأن ذلـك يضـعف حيوية وفاعلية وأهداف "القومية العربية" وقد لمست ذلك في حواراتي مع أصدقائي من "القوميين العرب" سـواء كـانوا مصريين أم عربا.

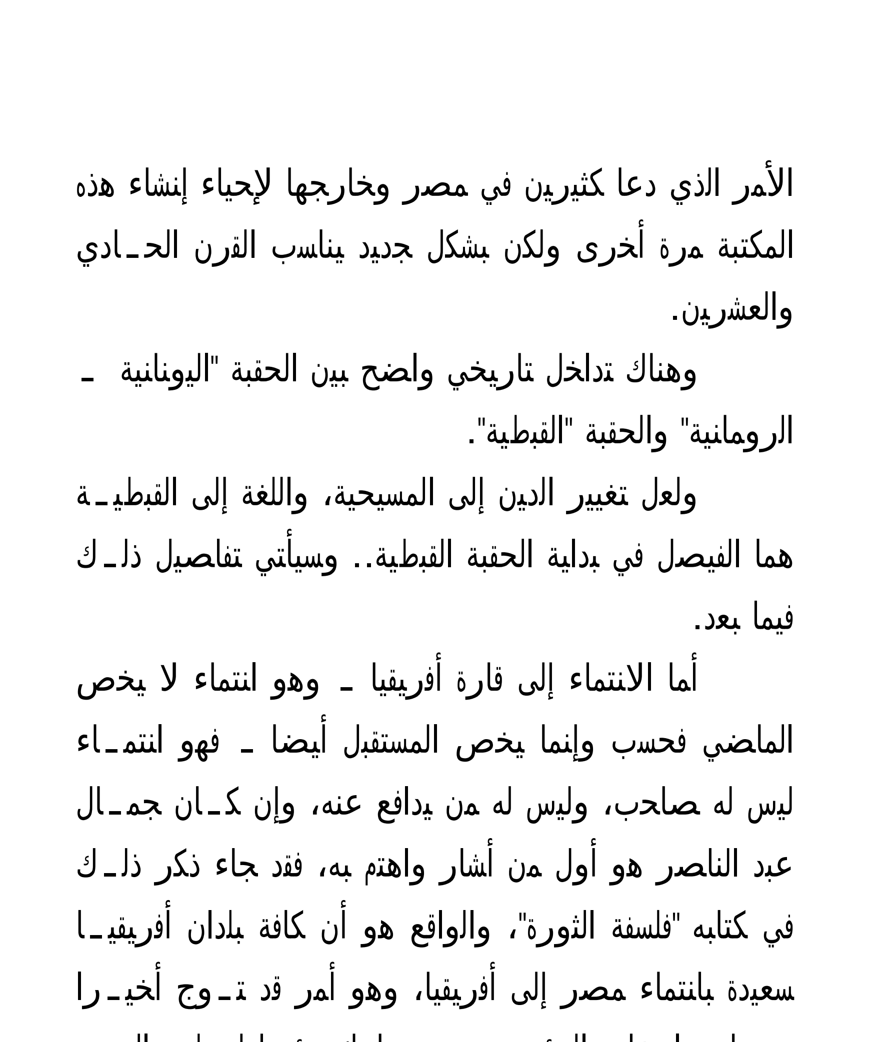
ومن المؤكد أن المتدينين يؤثرون ويقدمون الانتمـاء الديني ـ سواء الإسلام أو المسيحية ـ على أي انتماء آخر، وهذه هي سمة المرحلة الحالية من تـاريخ المنطقـة، ومـا محاولتي في هذا الكتاب إلا لنشر فكرة أن هنـاك انتمـاءات أخرى لدى المصري ينبغي أن يسعد ويعتز بها، لعـل ذلـك يعطي الانتماء الديني حجمه المتوازن.

وأعرف الكثيرين ممن يقاومون انتماء مصـر إلـى حوض البحر المتوسط من منطلق أن ذلك يؤدي إلى التغريب أي تقريب مصر من الغرب وحضارته، وبالتالي يضعف من الهوية المصرية الوطنية، ولا يتمسكون ولا يتحمسون غالبـا

إلا للعمودين العربي والإسلامي.. غير مدركين أن الأعمـدة السبعة كلها داخلة في تكوينهم النفسي والحضاري حتى وإن كانت هذه الأعمدة الأخرى باهتة أو هزيلة.

وأتصور أن الأعمدة أي الانتماءات التي لا تجد من يتحمس لها أو عليها.. هما: العمود "اليوناني ـ الرومـاني" وكذلك العمود "الأفريقي".

لقد مرت الحقبة "اليونانية ـ الرومانية" على مصـر في ظروف خاصة وغير متكررة وتركت آثارها الحضـارية في وجداننا ويشهد على ذلك الآثار المختلفة التي تنتمي إلـى هذه الحقبة، وهي كثيرة ولا تقتصر على المتحف اليوناني ـ الروماني بالإسكندرية فحسب، ولكن معابد إسنا وإدفو ومعابد جزيرة فيلة الشهيرة والمعروفة باسم "أنس الوجود" بأسـوان وغيرها تعود إلى هذه الحقبة وقد تم إنشـاء هـذه المعابـد الشهيرة عندما رغب الحكام البطالمة في الحقبة الأولى مـن حكم الإغريق في استرضاء الشعب وعبـدوا آلهـة قـدماء المصريين، هذا فضلاً عن الآثار العلميـة والفلسـفية التـي خلفتها مكتبة الإسكندرية الشهيرة فاعتبرت علامـة وضـاءة لهذه الحقبة ولكنها حرقت فيما بعد كما سيأتي ذكـره. وهـو



الأمر الذي دعا كثيرين في مصر وخارجها لإحياء إنشاء هذه المكتبة مرة أخرى ولكن بشكل جديد يناسب القرن الحادي والعشرين.

وهناك تداخل تاريخي واضح بين الحقبة "اليونانية ـ الرومانية" والحقبة "القبطية".

ولعل تغيير الدين إلى المسيحية، واللغة إلى القبطية هما الفيصل في بداية الحقبة القبطية.. وسيأتي تفاصيل ذلك فيما بعد.

أما الانتماء إلى قارة أفريقيا ـ وهو انتماء لا يخص الماضي فحسب وإنما يخص المستقبل أيضا ـ فهو انتماء ليس له صاحب، وليس له من يدافع عنه، وإن كان جمال عبد الناصر هو أول من أشار واهتم به، فقد جاء ذكر ذلك في كتابه "فلسفة الثورة"، والواقع هو أن كافة بلدان أفريقيا سعيدة بانتماء مصر إلى أفريقيا، وهو أمر قد توج أخيرا عندما تم انتخاب الرئيس حسني مبارك رئيسا لمنظمة الوحدة الأفريقية في ٢٣ يوليو ١٩٨٩ ولمدة عام.

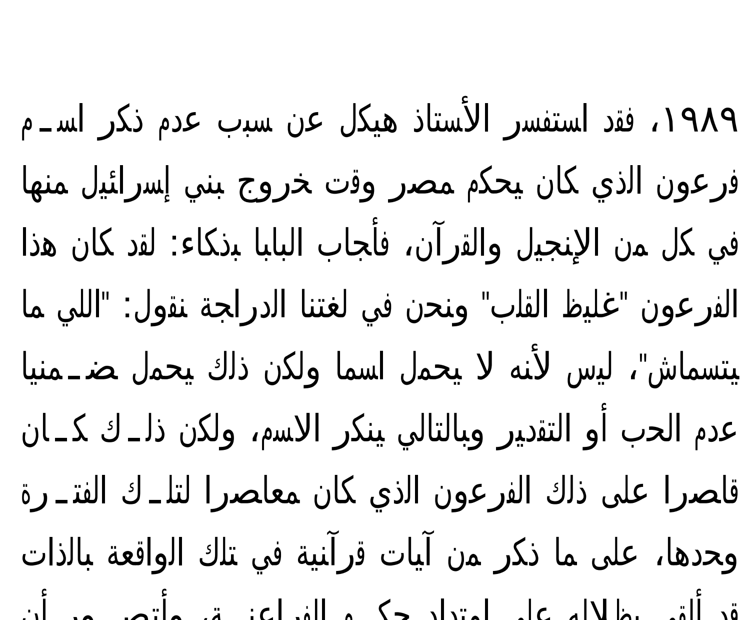
وقد استوقف نظري خبر نشر بالصفحة الأخيرة من جريدة "الأهرام" يوم ١٨ مارس ١٩٨٩ يقول: واجه

المسئولون في مجلس مدينة دالاس عاصمة ولايـة تكسـاس الأمريكية ـ بسبب معرض آثار رمسيس الثـاني ـ موقفًـا غريبا ـ فقد فوجئوا بتجمع أكثر مـن ١٠٠ مـن الرجـال والنساء السود للاحتجاج على عدم حصولهم علـى حقـوق مميزة في المعرض مؤكدين أن رمسيس الثاني الـذي حكـم مصر ـ منذ قرون طويلة ـ ولمدة ٦٨ عاما كان أسود ومن أصل أفريقي، وأن السود هم صـناع الحضـارة المصـرية القديمة!!

وأيا ما يكون من أمر، فـإن المصـري العـادي لا يعرف التمييز العنصري بسبب اللون، لأن مصـر تشـتمل بالفعل على كافة الألوان بالنسبة لبشرة الإنسان حيث يوجـد بالفعل كل لون ابتداء من الأبيض "الأشقر"، ومن لون حدقـة العين الزرقاء، والشعر الذهبي المرسل مثل أهـالي شـمال أوروبا ـ إلى السمرة الداكنة والعيون السوداء مثـل سـكان أفريقيا وهو اللون الغالب لبشرة المصريين وهو ما يسـمونه "قمحاوي".. ومن هنا فإن أفريقيا تجد في مصر وحضـارتها الفرعونية كما في إنجازاتها الحديثة، وكفاحهـا مـن أجـل الاستقلال.. ما يجعلها تزهو بها.

خلاصة القول: هـو أن هـذه الانتمـاءات السـبعة للشخصية المصرية رغم تواجدها في كل منا بقدر أو بآخر، ولكن كلا منا يفضل هذا الانتماء على ذلك وفـق ظـروف النشأة والتركيبة النفسية والمسـتوى الثقـافي والحضـاري والانتماء الأيديولوجي، ومن المؤكد أن كـل مسـلم يعتـز بالعمود الإسلامي، ولكنه لا يدرك أنه يحمل بـين ضـلوعه قدرا من "العمود القبطي" بحكم التواجد والمعاشرة والتـداخل بين البشر.. كما أن كل قبطي يعتز "بالعمود القبطي" وغالبـا ما يعتز تلقائيا وبسبب التراث والامتداد التاريخي "بـالعمود الفرعوني" ولكنه لا يدرك أنه يحمل بين ضلوعه قدرا مـن "العمود الإسلامي" وأنه يستخدم بالفعل الكثير مـن الآيـات القرآنية والأحاديث في مجرى كلامه العادي كل يوم كما أنه بالضرورة متأثر بها.. ولعل هذا هو سر استمرار المسـيحية والإسلام على أرض مصر.

وقد حاولت أن أستشف السر وراء فتور الإحسـاس بالفرعونية لدى كثيرين ولم أعرف كنه ذلك إلا مـن خـلال حوار شاركت فيه عندما قمت مع الأستاذ محمد حسنين هيكل بزيارة البابا شنودة الثالث لمناسبة عيد المـيلاد فـي ينـاير



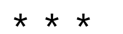
١٩٨٩، فقد استفسر الأستاذ هيكل عن سبب عدم ذكر اسم فرعون الذي كان يحكم مصر وقت خروج بني إسرائيل منها في كل من الإنجيل والقرآن، فأجاب البابا بذكاء: لقد كان هذا الفرعون "غليظ القلب" ونحن في لغتنا الدراجة نقول: "اللي ما يتسماش"، ليس لأنه لا يحمل اسما ولكن ذلك يحمل ضمنيا عدم الحب أو التقدير وبالتالي ينكر الاسم، ولكن ذلك كان قاصرا على ذلك الفرعون الذي كان معاصرا لتلك الفترة وحدها، على ما ذكر من آيات قرآنية في تلك الواقعة بالذات قد ألقى بظلاله على امتداد حكم الفراعنة، وأتصور أن كراهية اليهود لفرعون الذي طردهم من دياره - وقد سجلوها في سفر الخروج من العهد القديم - قد رسمت صورة الفراعنة القدماء بشكل لا يدعو إلى الحب أو الاحترام..

وعندما أقارن بين هذه الصورة وصورة فرعون الملك والإله المحبوب من الشعب كما صورها بيرستد - في كتابه المرجعي - فجر الضمير - أجد أن هناك فارقًا هائلاً بين صورة المجتمع وطبقاته وفئاته، كما يصورها لنا دارسو المصريات القديمة وبين الصورة التي نُقلت إلينا من خلال

الكتب الدينية، ولذلك فإنني أتصور أن اعتـزاز المصـريين جميعا بالانتماء إلى الحقبة الفرعونية سوف يـزداد وينمـو، وذلك في القرن القادم وعندما تنتهي آثار الحقبة الحالية.

ورغم حماسي واقتناعي - في المرحلة الحاليـة - بهذه الأعمدة السبعة للشخصية المصرية ولكننـي لا أراهـا انتماءات أبدية، بل لعلها تتراكم مع الزمن ويضـاف إليهـا انتماءات جديدة، وبنوع من الخيال، أتصور أن كاتبا ينتمـي إلى القرن الثاني والعشرين سوف يكتب في عصـر يسـوده الفكر العلمي العلماني العـالمي، سـوف يخلـط الأحقـاب والأزمنة ويعيد ترتيبها بشكل مختلف.

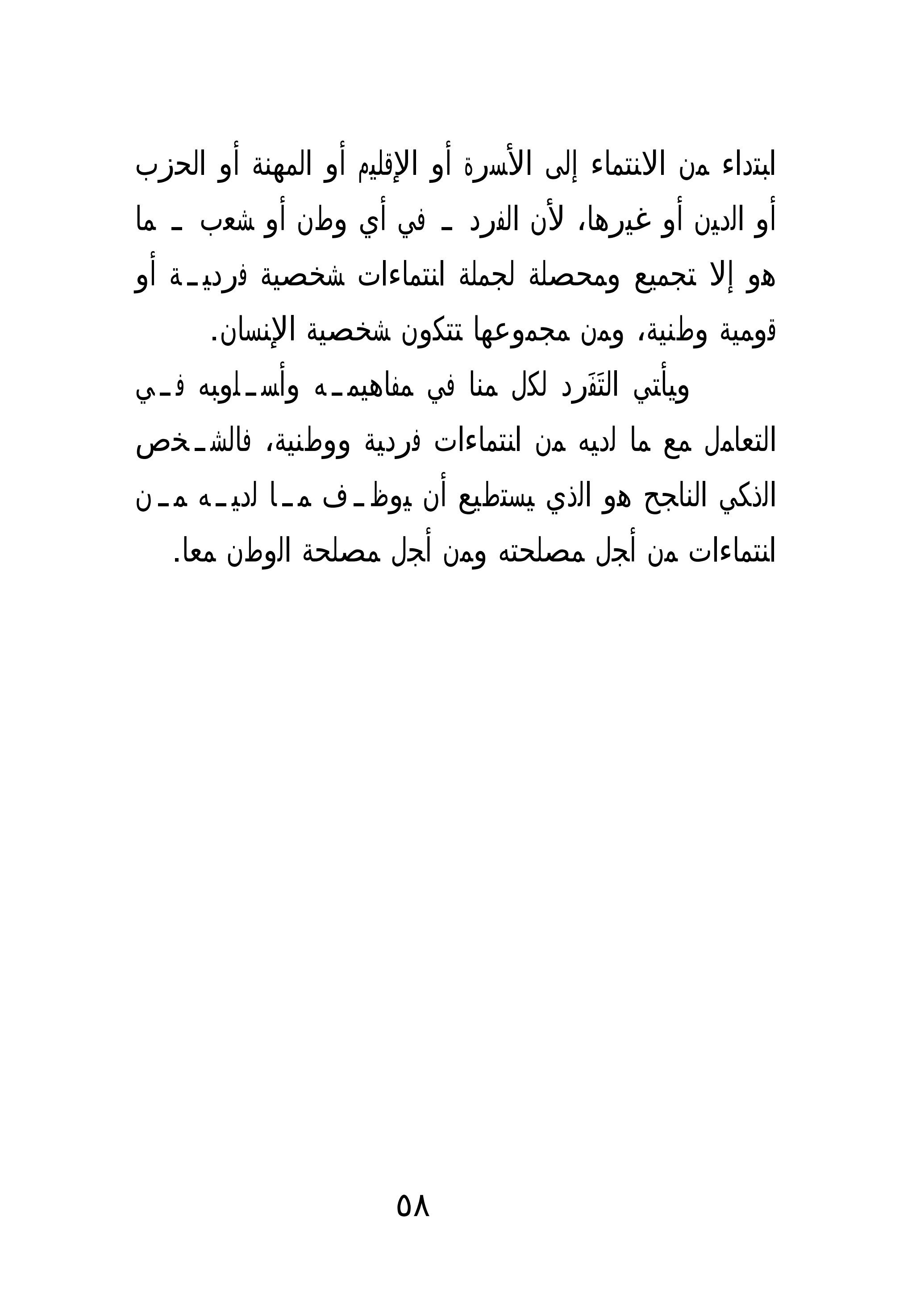
أيا ما يكون من أمر، فإن لكـل عصـر إفرازاتـه الفكرية التي تعبر في الغالب عن واقع حضـاري وفكـري معين ومن ثم فإنني أرى أن فكرة الأعمدة السـبعة تناسـب المرحلة التاريخية الحالية وتعبر عن واقعها من منطلق أنهـا تدفع به إلى الوفاق الوطني وتجعل المصري أكثر اعتـزازا بمصريته وبالتالي توفر له المناخ الإنساني الذي يعبر به إلى آفاق أرحب في القرن القادم.



وفي هذا الكتاب وقبل أن أستعرض هـذه الأعمـدة السبعة في الفصلين الثالث والرابع، رغبـت فـي أن أمهـد للقارئ في الفصل الثاني كيف أن مصر بالذات شعب واحـد تحول إلى سبيكة في بوتقة الانصهار والتـي أوجـدت منـه نسيجا واحدا وإن كانت له ديانتان هما الإسلام والمسيحية.

وإذا كنت قد حاولت في الفصلين الثالث والرابـع ـ وهما عصب الكتاب ـ أن أطرح وباختصار الأعمدة السبعة للشخصية المصرية وكيف أثرت هذه الانتماءات التاريخيـة والجغرافية للشخصية المصرية فأعطتها نكهة خاصة، إلا أن هذه الانتماءات يشـترك فيهـا ـ مـن وجهـة نظـري ـ المصريون جميعا وبدرجات متفاوتة ففي داخـل كـل منـا فرعون صغير، وكل منا تأثر بالحقبة اليونانية ـ الرومانية، وكل منا متأثر بالمسيحية والإسلام معا وبشـكل حضـاري. ولكل منا وبدرجات متفاوتة له أيضا انتماء عربـي وبحـر أوسطي وأفريقي.

على أن هذه الانتماءات السبعة للشخصية المصـرية لا تعني إلغاء مقومات وانتماءات الفرد، ولـذلك خصصـت الجزء الأكبر من الفصل الخامس لشرح الانتماءات الفرديـة



ابتداء من الانتماء إلى الأسرة أو الإقليم أو المهنة أو الحزب أو الدين أو غيرها، لأن الفرد ـ في أي وطن أو شعب ـ ما هو إلا تجميع ومحصلة لجملة انتماءات شخصية فردية أو قومية وطنية، ومن مجموعها تتكون شخصية الإنسان.

ويأتي التَفَرد لكل منا في مفاهيمه وأسلوبه في التعامل مع ما لديه من انتماءات فردية ووطنية، فالشخص الذكي الناجح هو الذي يستطيع أن يوظف ما لديه من انتماءات من أجل مصلحته ومن أجل مصلحة الوطن معا.

الصورة هدية من المتحف القبطـي مسـرجة oil Lamp من البرونز ترتكز على قاعدة جميلة اتخذت أرجلها شكل ثلاثة خيول تقف على أرجلها الخلفية وتشترك في حمل قائم المسرجة..

أما الجزء العلوي والذي يحمل داخله الزيـت فهـو قطعة فنية معبرة لما يحمله عند الطرف البعيد عن اللهب من هلال يحتضن الصليب تعبيرا عن الوحدة الوطنيـة. عميقـة الجذور في وجدان الشعب المصري إلى أن تم صياغة شعار "وحدة الهلال مع الصليب" والذي تبلور إبـان ثـورة عـام ١٩١٩.

الفصل الثاني

لن تتلبنن مصر

- الأقليات أكثر حساسية لأحداث الفتن.
- أحداث الخانكة كانت ـ البداية للزاوية الحمراء.
- الفتنة تتحرك مرة أخرى عام ١٩٨٧.
- "إيران" نموذج يسيل لعاب المتطرفين.
- الإسلام المصري والمسيحية المصرية.
- العقيدة مزيج خاص من السنة والشيعة.
- لا بد من مصالحة مصـر الدولاريـة مـع مصـر الشعبية.

٢

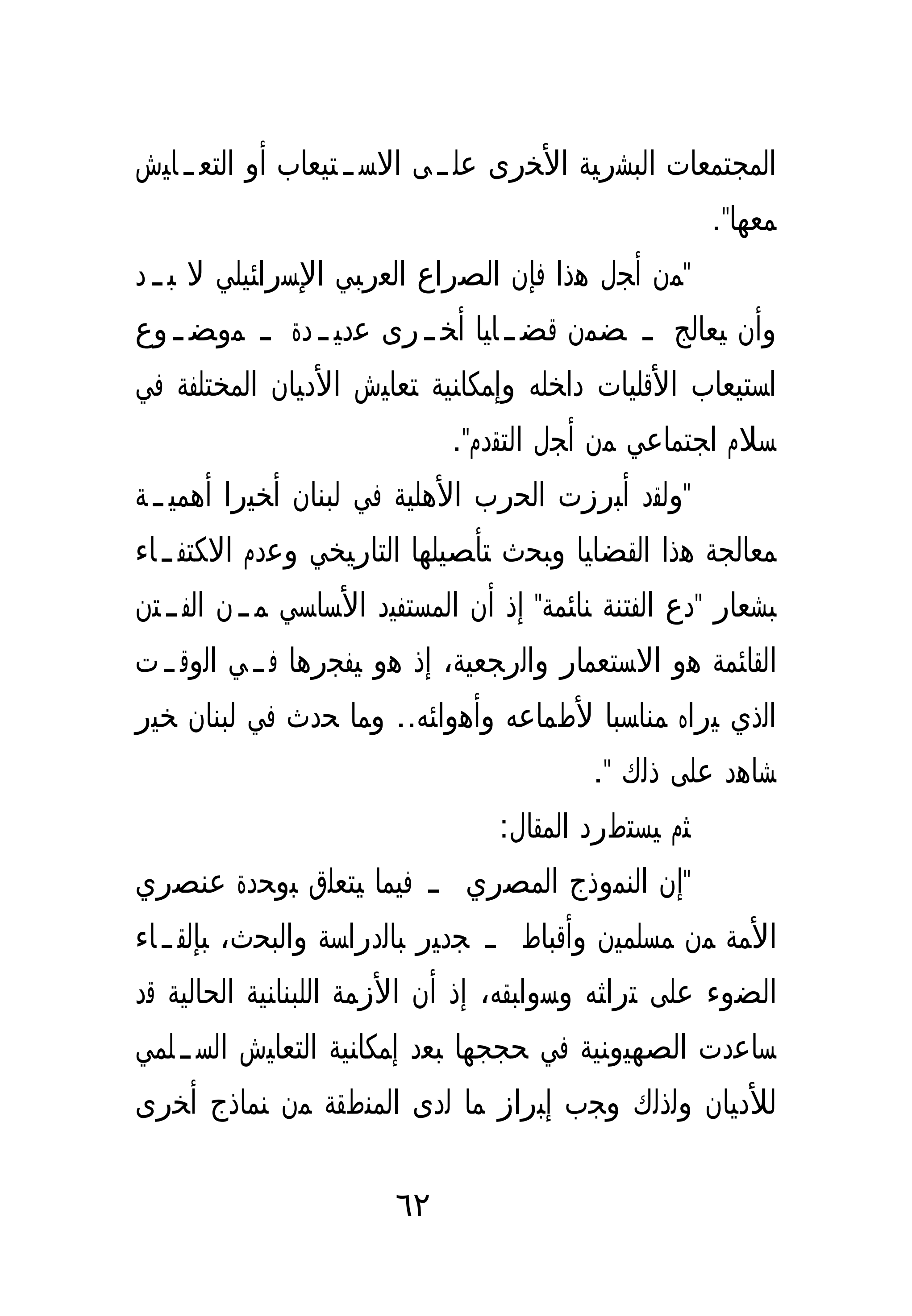
لن تتلبنن مصر

مع تفجر الحرب اللبنانية، استشعرت ـ قبل غيـري ـ ما يمكن أن يخبئه القدر لمصر مـن تفجـرات طائفيـة، فكتبت مقالا نشر في جريدة الجمهوريـة فـي ٢٨ نـوفمبر ١٩٧٥ جاء فيه:

"لا شك أن قرار الجمعية العمومية للأمـم المتحـدة بدمغ الصهيونية بأنها حركة عنصرية جاء ليكون معول هدم أساسي للركائز الفكرية والمبدئية التي تبنى عليها إسرائيل".

"لقد أقنعت الحركة الصهيونية العالم بأن اليهود غير قادرين على أن يستوعبوا في المجتمعات البشرية سواء فـي العالم الرأسمالي أو الاشتراكي أو حتى في بلدان العالم الثالث فلم يكن من مفر أمام العالم إلا الخضـوع لفكـرة "الـوطن القومي لليهود".

"غير أنه لم يحدث حوار واسع حول ما إذا كان هذا الفصل بين اليهود وسائر أنواع وأجناس البشر، راجعا لنقص أو عيب أو خاصية في اليهود بالذات أم هو عدم قدرة وقابلية



المجتمعات البشرية الأخرى علـى الاسـتيعاب أو التعـايش معها".

"من أجل هذا فإن الصراع العربي الإسرائيلي لا بـد وأن يعالج - ضمن قضـايا أخـرى عديـدة - موضـوع استيعاب الأقليات داخله وإمكانية تعايش الأديان المختلفة في سلام اجتماعي من أجل التقدم".

"ولقد أبرزت الحرب الأهلية في لبنان أخيرا أهميـة معالجة هذا القضايا وبحث تأصيلها التاريخي وعدم الاكتفـاء بشعار "دع الفتنة نائمة" إذ أن المستفيد الأساسي مـن الفـتن القائمة هو الاستعمار والرجعية، إذ هو يفجرها فـي الوقـت الذي يراه مناسبا لأطماعه وأهوائه.. وما حدث في لبنان خير شاهد على ذلك ".

ثم يستطرد المقال:

"إن النموذج المصري - فيما يتعلق بوحدة عنصري الأمة من مسلمين وأقباط - جدير بالدراسة والبحث، بإلقـاء الضوء على تراثه وسوابقه، إذ أن الأزمة اللبنانية الحالية قد ساعدت الصهيونية في حججها بعد إمكانية التعايش السـلمي للأديان ولذلك وجب إبراز ما لدى المنطقة من نماذج أخرى

أكثر توفيقا، خصوصا وأن بعض الصحفيين الأجانـب قـد حضروا لمصر لدراسة نتائج حرب أكتوبر ويتساءلون فيمـا إذا كان ما حدث في لبنان يمكن أن يحدث في مصر".

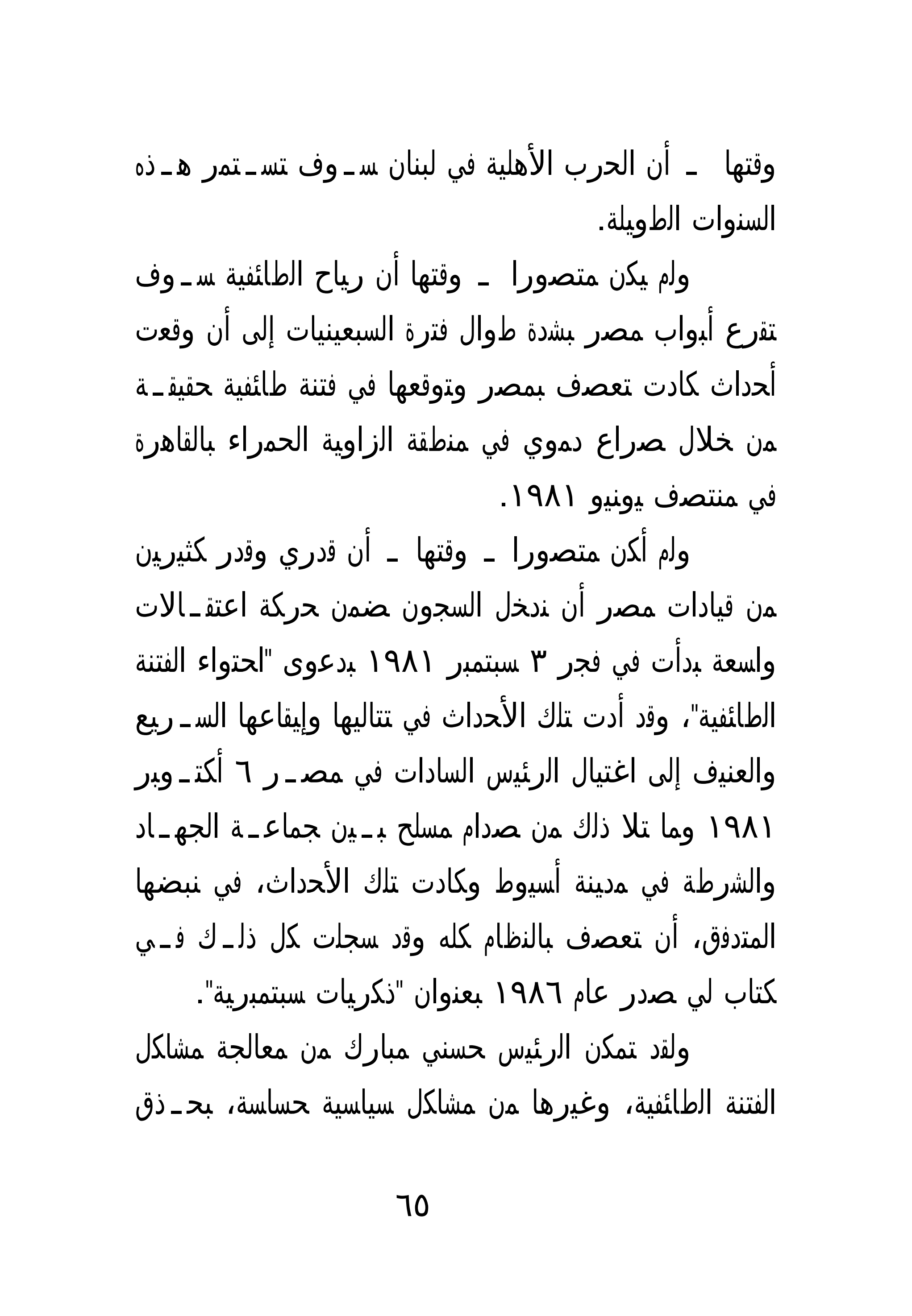
"وقد قطعت لهم باستحالة تكرار "المرض اللبناني" في مصر لعديد من الأسباب منها:

- " ينتمي أقباط مصر إلى الأرض والتراب المصري. انتماء الأهرام والنيـل، ولا يمكـن لهـم بالطبيعـة والتراث والتاريخ إلا أن يكونوا مصريين وطنيـين، ولعل في كلمة قبط أو جبط - وهي جزء من كلمـة "إيجيبتوس" أي الأرض السوداء والتي اختصرت في اللغة اللاتينية كافة إلى " إيجيبـت " Egypt تعبيـرا عن مصر - ما يؤكد الانتماء الأصيل للأقباط لهـذه الرقع من الأرض.
- يحمل الأقباط - كجزء أصيل مـن بلادنـا - كـل الخصائص الحضارية للشعب المصري ككل ولـذلك فهم يتسمون بالطيبة والبساطة والبعد عـن العنـف وتحمل الصعاب بصبر، وفي ذلـك فـإن التكـوين النفسي للمصريين - مسلمين وأقباط - هو تـراث

الحضارات الزراعية المستقرة في الوديان المنبسطة منذ آلاف السنين حيث الأمـان والـولاء للحكومـة المركزية التي تملك مفاتيح الحياة عن طريـق نهـر النيل العظيم، الشريان الذي يوصل الأمن إلـى كـل نجع في الوادي عبر القرون.

- ينتشر الأقباط في مصر انتشار الماء والهـواء فهـم موجودون جنبا إلى جنب مع أشقائهم المسلمين فـي كل مكان وموقع، في المدينة كما في أعماق الريف، منهم المثقف في أعلى الدرجات ومنهم الأمي سـواء بسواء، منهم العامل والفلاح والصانع الحرفي، كمـا أن منهم المهني ورجل الأعمال وموظفي الدولة فـي كافة درجاتها وباختصار فهم نسيج كامل مـن أهـل مصر في كافة صورها".

أشعر الآن – وأنا أكتب هذه الدراسة عام ١٩٨٨ – كيف أن هذا المقال (علاوة على مقال آخر كتب بالجمهورية أيضا في ٢٩/ ١٢/ ١٩٧٥) كانا – من وجهـة نظـري – بمثابة دق الناقوس في وقت مبكر جدا، إذ لم يكن متصورا –

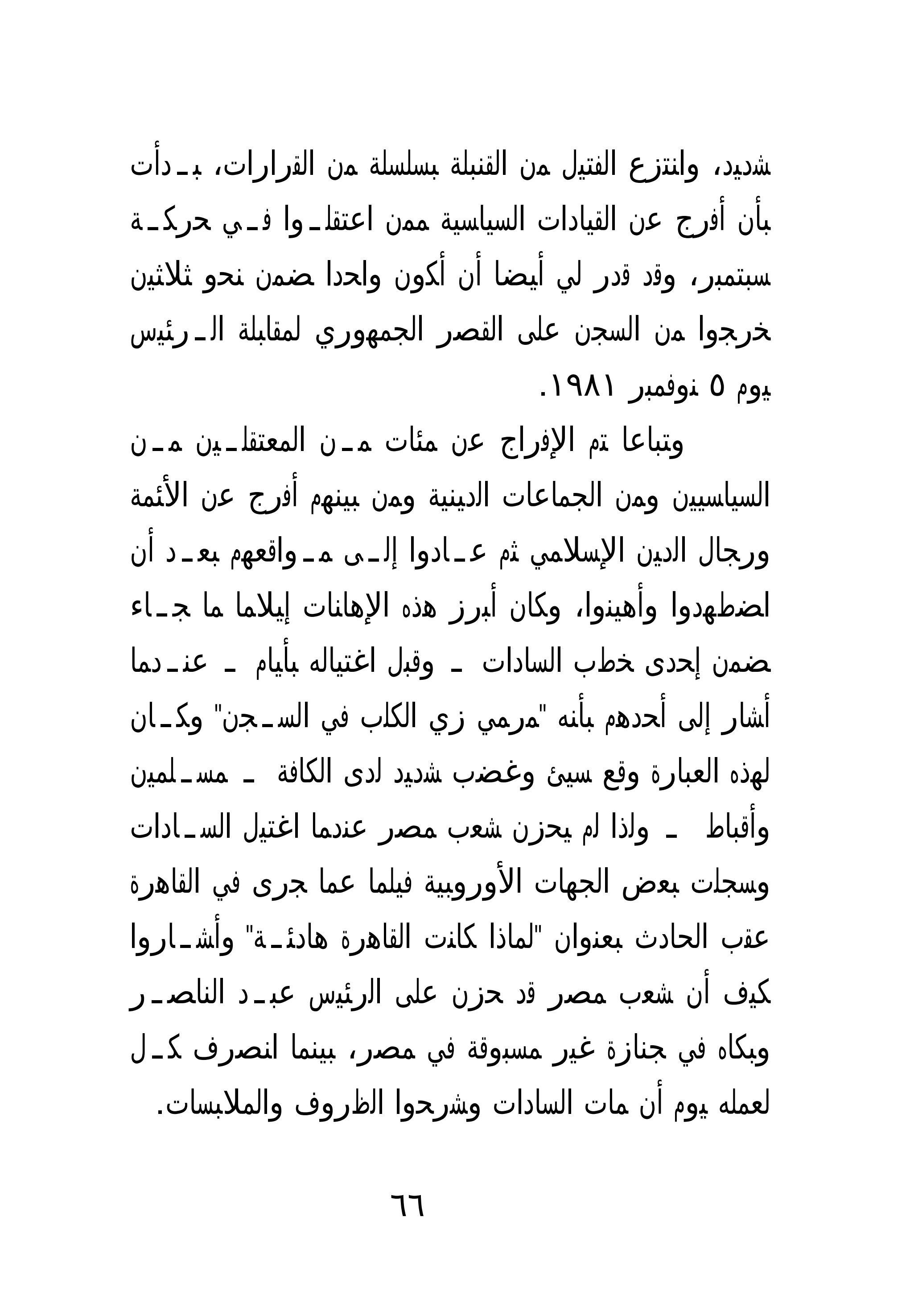


وقتها - أن الحرب الأهلية في لبنان سـوف تسـتمر هـذه السنوات الطويلة.

ولم يكن متصورا - وقتها أن رياح الطائفية سـوف تقرع أبواب مصر بشدة طوال فترة السبعينيات إلى أن وقعت أحداث كادت تعصف بمصر وتوقعها في فتنة طائفية حقيقـة من خلال صراع دموي في منطقة الزاوية الحمراء بالقاهرة في منتصف يونيو ١٩٨١.

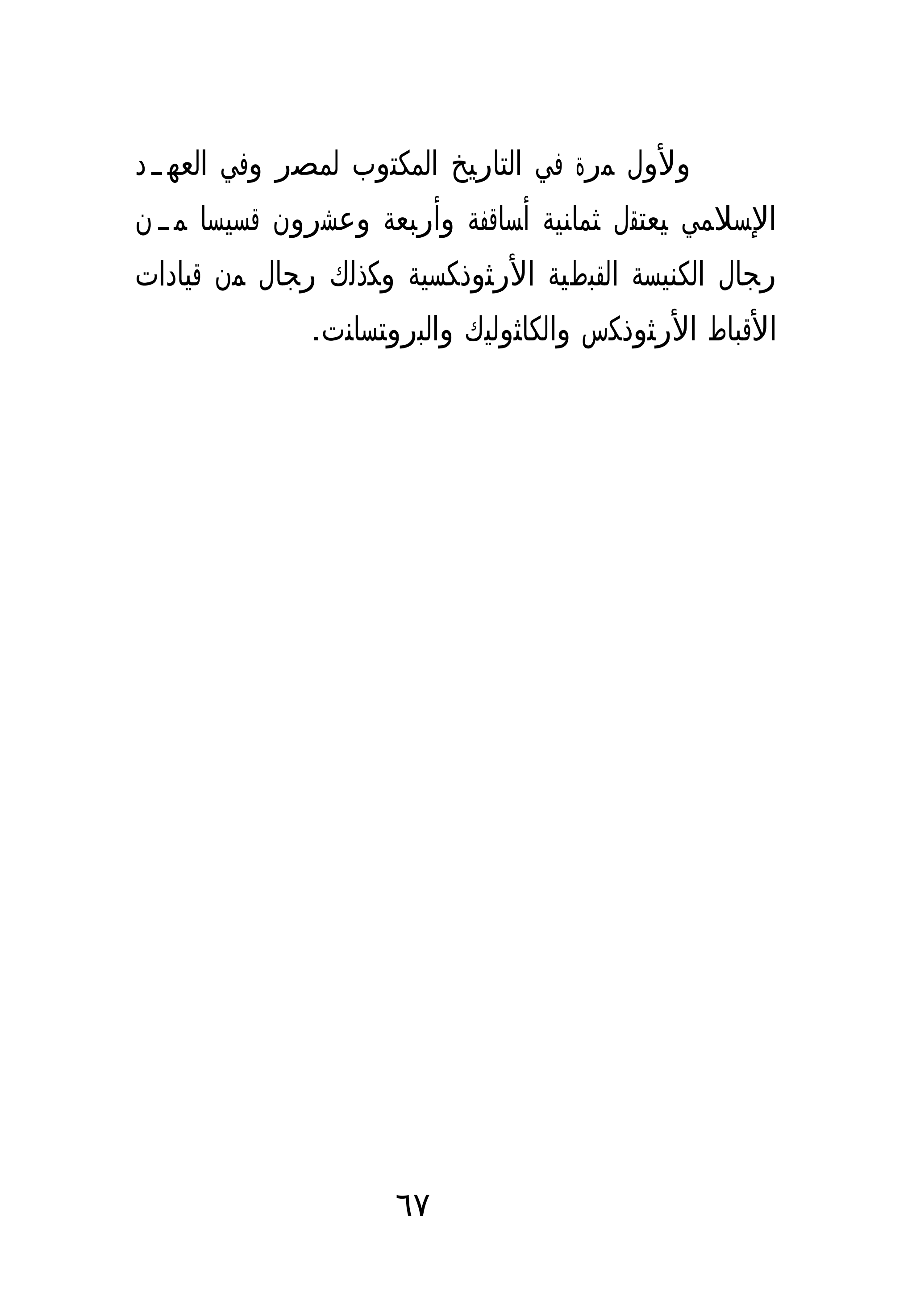
ولم أكن متصورا - وقتها - أن قدري وقدر كثيرين من قيادات مصر أن ندخل السجون ضمن حركة اعتقـالات واسعة بدأت في فجر ٣ سبتمبر ١٩٨١ بدعوى "احتواء الفتنة الطائفية"، وقد أدت تلك الأحداث في تتاليها وإيقاعها السـريع والعنيف إلى اغتيال الرئيس السادات في مصـر ٦ أكتـوبر ١٩٨١ وما تلا ذلك من صدام مسلح بـين جماعـة الجهـاد والشرطة في مدينة أسيوط وكادت تلك الأحداث، في نبضها المتدفق، أن تعصف بالنظام كله وقد سجلت كل ذلـك فـي كتاب لي صدر عام ١٩٨٦ بعنوان "ذكريات سبتمبرية".

ولقد تمكن الرئيس حسني مبارك من معالجة مشاكل الفتنة الطائفية، وغيرها من مشاكل سياسية حساسة، بحـذق

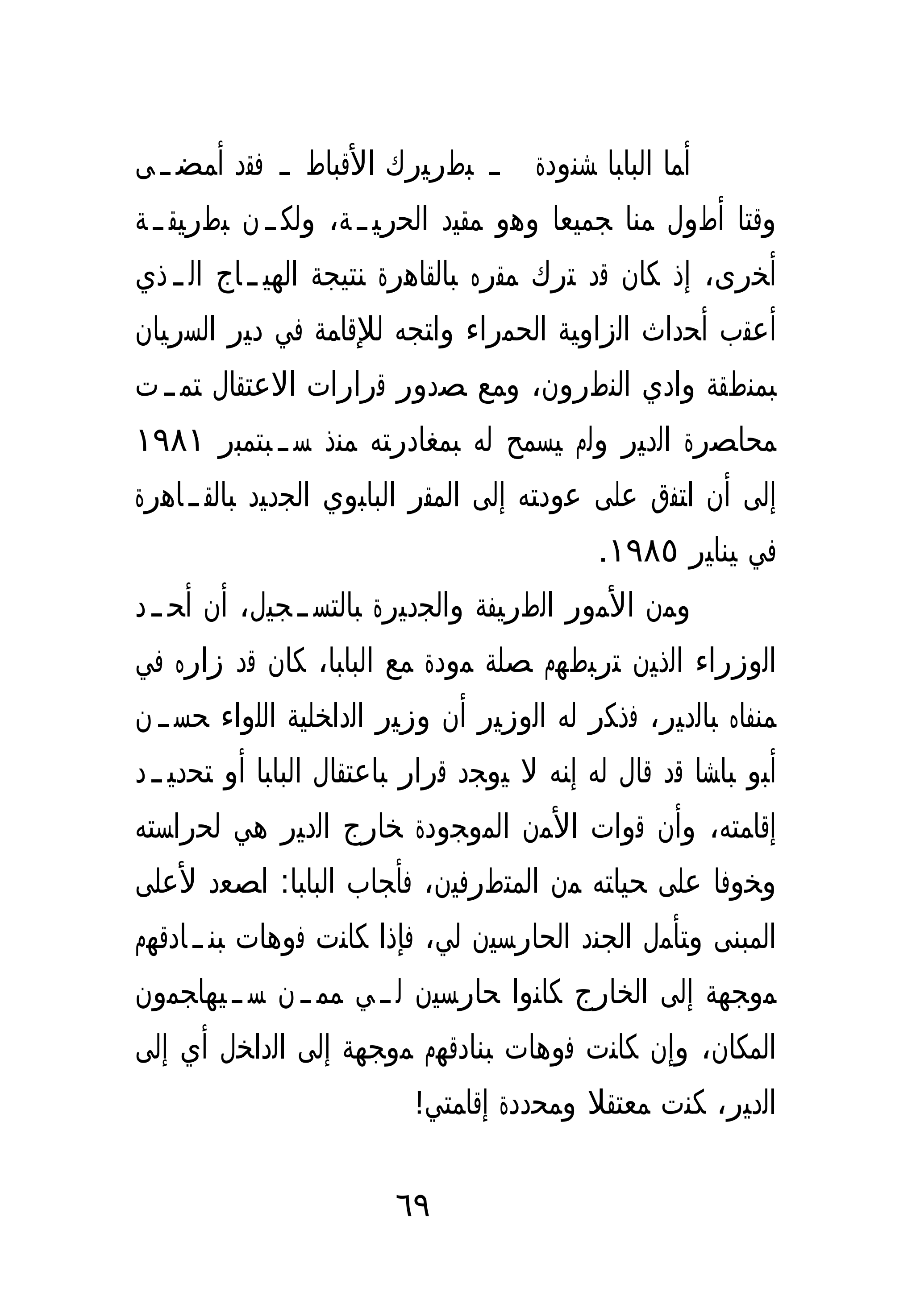


شديد، وانتزع الفتيل من القنبلة بسلسلة من القرارات، بـدأت بأن أفرج عن القيادات السياسية ممن اعتقلـوا فـي حركـة سبتمبر، وقد قدر لي أيضا أن أكون واحدا ضمن نحو ثلاثين خرجوا من السجن على القصر الجمهوري لمقابلة الـرئيس يوم ٥ نوفمبر ١٩٨١.

وتباعا تم الإفراج عن مئات مـن المعتقلـين مـن السياسيين ومن الجماعات الدينية ومن بينهم أفرج عن الأئمة ورجال الدين الإسلامي ثم عـادوا إلـى مـواقعهم بعـد أن اضطهدوا وأهينوا، وكان أبرز هذه الإهانات إيلاما ما جـاء ضمن إحدى خطب السادات - وقبل اغتياله بأيام - عنـدما أشار إلى أحدهم بأنه "مرمي زي الكلاب في السـجن" وكـان لهذه العبارة وقع سيئ وغضب شديد لدى الكافة - مسـلمين وأقباط - ولذا لم يحزن شعب مصر عندما اغتيل السـادات وسجلت بعض الجهات الأوروبية فيلما عما جرى في القاهرة عقب الحادث بعنوان "لماذا كانت القاهرة هادئـة" وأشـاروا كيف أن شعب مصر قد حزن على الرئيس عبـد الناصـر وبكاه في جنازة غير مسبوقة في مصر، بينما انصرف كـل لعمله يوم أن مات السادات وشرحوا الظروف والملابسات.



ولأول مرة في التاريخ المكتوب لمصر وفي العهـد الإسلامي يعتقل ثمانية أساقفة وأربعة وعشرون قسيسا مـن رجال الكنيسة القبطية الأرثوذكسية وكذلك رجال من قيادات الأقباط الأرثوذكس والكاثوليك والبروتسانت.



أما البابا شنودة ـ بطريرك الأقباط ـ فقد أمضى وقتا أطول منا جميعا وهو مقيد الحرية، ولكن بطريقة أخرى، إذ كان قد ترك مقره بالقاهرة نتيجة الهياج الذي أعقب أحداث الزاوية الحمراء واتجه للإقامة في دير السريان بمنطقة وادي النطرون، ومع صدور قرارات الاعتقال تمت محاصرة الدير ولم يسمح له بمغادرته منذ سبتمبر ١٩٨١ إلى أن اتفق على عودته إلى المقر البابوي الجديد بالقاهرة في يناير ١٩٨٥.

ومن الأمور الطريفة والجديرة بالتسجيل، أن أحد الوزراء الذين تربطهم صلة مودة مع البابا، كان قد زاره في منفاه بالدير، فذكر له الوزير أن وزير الداخلية اللواء حسن أبو باشا قد قال له إنه لا يوجد قرار باعتقال البابا أو تحديد إقامته، وأن قوات الأمن الموجودة خارج الدير هي لحراسته وخوفا على حياته من المتطرفين، فأجاب البابا: اصعد لأعلى المبنى وتأمل الجند الحارسين لي، فإذا كانت فوهات بنادقهم موجهة إلى الخارج كانوا حارسين لي ممن سيهاجمون المكان، وإن كانت فوهات بنادقهم موجهة إلى الداخل أي إلى الدير، كنت معتقلا ومحددة إقامتي!

وكانت لعودة البابا فرحة عارمة بين الأقباط والمسلمين على حد سواء، وقد اعتبرها كثيرون نهاية المطاف "وإزالة لآثار العدوان" لمرحلة السادات.

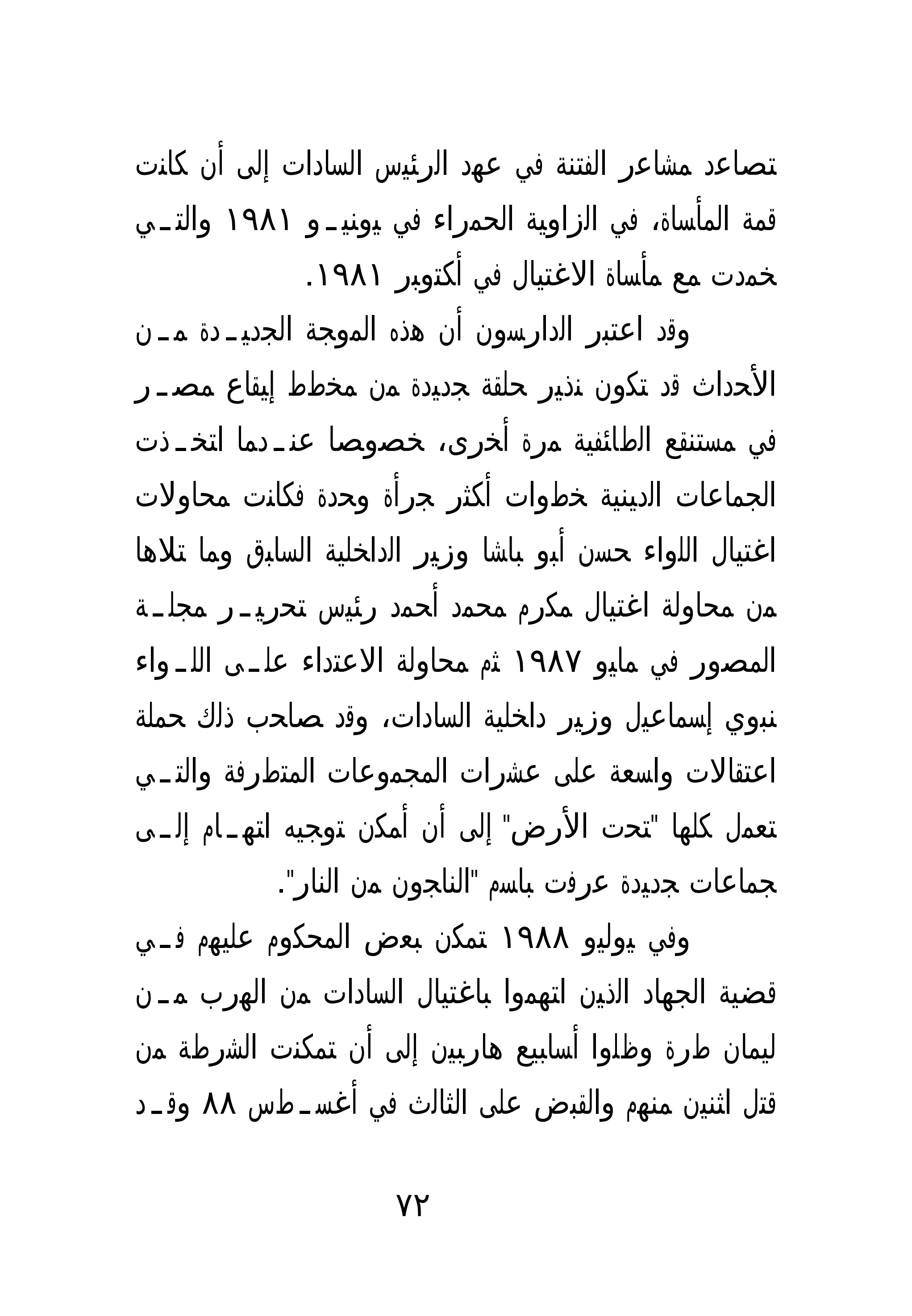
ولم يمض وقت طويل على هذا المناخ الطيب في العلاقات الطائفية حتى تفجرت المشاكل مرة أخرى في بعض مدن الصعيد مع مطلع عام ١٩٨٧.

كانت البداية - كالمعتاد - في مدينة أسيوط حيث الاحتكاك وارد في المدينة الجامعية بين الجماعات الإسلامية من جانب وبين ما يسمى الأسر القبطية من جانب آخر، وكلاهما شباب بين ١٨ و ٢٥ سنة وهي سنوات الفورة والانحيازات والتهور الذي يقود إلى التحرش والطيش، فقد انتشرت شائعات عجيبة تتحدث عن ظهور صلبان على طُرح بعض الطالبات المحجبات واتهم الطلبة الأقباط بأن لديهم محلولا سريا - وربما كان سحريا - يرش من مسافة قريبة بواسطة رشاش "اسبراي" فيحدث هذه العلامات على نسيج الطُرح وذلك عند تلاقي الخيوط الرأسية والأفقية من النسيج فتظهر علامة صغيرة في شكل زائد +.

ومن ثم هاجت جماعات من الشباب المسلم وتحرشوا بالشباب القبطي واعتدوا عليهم بنفس الممارسات التي كانـت في نهاية السبعينات وقت السادات، وتصـاعدت العواطـف والانفعالات والشائعات ـ وفي المجالات الدينيـة تسـيطر العواطف والانفعالات والشائعات بسهولة ويسر ـ واعتـدوا على بعض الكنائس ثم قيل إن عدوانا مضادا قد حدث مـن الأقباط على بعض الجوامع ـ كرد فعل ـ ثم تدخل الأمـن المركزي وأمكن فض الاشتباك والسـيطرة علـى الموقـف وهدأت الحالة الأمنية ولكن النفوس ظلـت مشـحونة مـن الجانبين.

ثم تكررت ذات الأحداث تقريبا في كل من مـدينتي المنيا وبني سويف شمالاً، وسرت العـدوى إلـى الجنـوب فوصلت مدينة سوهاج حيث كان الصـراع أشـد وأعتـى، فطلاب كل جامعة ينبغي أن تكون لهم غيرة "علـى ديـنهم" تفوق الجامعة المجاورة، وقد زاد من حدة الصـراع منـاخ المعركة الانتخابية حينذاك.

وكان بعض الدارسين قد اعتبـروا حـادث حريـق كنيسة الخانكة (في ضواحي القاهرة) عام ١٩٧٢ هو بدايـة



تصاعد مشاعر الفتنة في عهد الرئيس السادات إلى أن كانت قمة المأساة، في الزاوية الحمراء في يونيـو ١٩٨١ والتـي خمدت مع مأساة الاغتيال في أكتوبر ١٩٨١.

وقد اعتبر الدارسون أن هذه الموجة الجديـدة مـن الأحداث قد تكون نذير حلقة جديدة من مخطط إيقاع مصـر في مستنقع الطائفية مرة أخرى، خصوصا عنـدما اتخـذت الجماعات الدينية خطوات أكثر جرأة وحدة فكانت محاولات اغتيال اللواء حسن أبو باشا وزير الداخلية السابق وما تلاها من محاولة اغتيال مكرم محمد أحمد رئيس تحريـر مجلـة المصور في مايو ١٩٨٧ ثم محاولة الاعتداء علـى اللـواء نبوي إسماعيل وزير داخلية السادات، وقد صاحب ذلك حملة اعتقالات واسعة على عشرات المجموعات المتطرفة والتـي تعمل كلها "تحت الأرض" إلى أن أمكن توجيه اتهـام إلـى جماعات جديدة عرفت باسم "الناجون من النار".

وفي يوليو ١٩٨٨ تمكن بعض المحكوم عليهم فـي قضية الجهاد الذين اتهموا باغتيال السادات من الهرب مـن ليمان طرة وظلوا أسابيع هاربين إلى أن تمكنت الشرطة من قتل اثنين منهم والقبض على الثالث في أغسـطس ٨٨ وقـد

أعقب ذلك مظاهرات في منطقة عين شمس فـي ضـواحي القاهرة وقيل ضمن ما قيل إنها متضمنة احتكاكا طائفيا!.

ولا زال المسلسل ممتدا ومستمرا ويعتقد كثيرون أن القضية محسومة ولا خوف منها ولا قلق طالما أنها في أيدي جهاز شرطة قوي يرأسه رجل أقوى وطالما أن الجيش سليم.

وعندما قام حكم الثورة الإسلامية في إيران، انخـدع كثيرون وأنا منهم ـ وأيدنا هذه الثورة من منطلق أن الـدين به جانب ثوري تقدمي دفع بالشعب الإيراني لأن يسقط الشاه، فإذا به مع الأيام يقع في حفرة أكبر وهي الحرب ومن خلال الثورة تم القضاء على كافة الحريات باسم الدين.

وقد انعكس ذلك على الوضع الداخلي فـي مصـر، وتصور كثيرون أن ما حدث في إيران سوف يتكـرر فـي مصر، وبذلت جهود ورصدت أموال وعقـدت اجتماعـات داخل مصر وخارجها، على أمل تفجير مصر مـن الـداخل ورغم أن الحرب العراقية الإيرانية قد توقفـت، ورغـم أن هناك محاولات لاحتواء الحرب الأهلية اللبنانية، ورغـم أن هناك محاولات جادة لحل قضية الصراع العربي الإسرائيلي وأن الانتفاضة الفلسطينية لا بد وأن تـؤتي ثمارهـا، فـإن

الحرص يدعونا جميعا ـ كمصريين وطنيـين ـ علـى أن يبذل كل منا جهده في مجاله من أجل أن تمر هذه الموجـات بسلام ولتبقى مصر وطنا للحريات وللتدين السمح الذي يبني ولا يدمر.

* * *

لقد سجلت على نفسي ـ في المقـال الـذي سـبق الإشارة إليه ونشر عام ١٩٧٥ ـ أن ما حدث في لبنان لـن يحدث في مصر، وهنا أعود فأقول وأكرر بأن ما حدث فـي إيران لن يحدث في مصر، لأن الخلفية التاريخية والتركيبيـة الاقتصادية والاجتماعية مختلفة تماما في مصر عنها في كل من لبنان وإيران.

إن مصر واد سهل منبسط يتمتع بحكم مركزي هـو أقدم تنظيم لدولة في العالم بأسره، وبه منذ سـنوات طويلـة جيش وطني قوي وملتزم ومنضبط، وهذا يختلف عن طبيعة "جبال لبنان" حيث كل شاب ورجل وامرأة يستخدم السـلاح ويمارس إطلاق النار بعفوية ويسر ذلك لسنوات طويلة قبـل اشتعال الفتنة. كما أن كل جبل أو منطقة أو "ضيعة" تحتلهـا طائفة أو جماعة تدعي أن لها عرقا أو مـذهبا أو مصـلحة

مختلفة، فهناك جبال الشوف للدروز وهناك جبال ومنـاطق مبعثرة للموارنة الذين يزعمون أنهم فينيقيون وليسوا بعرب.

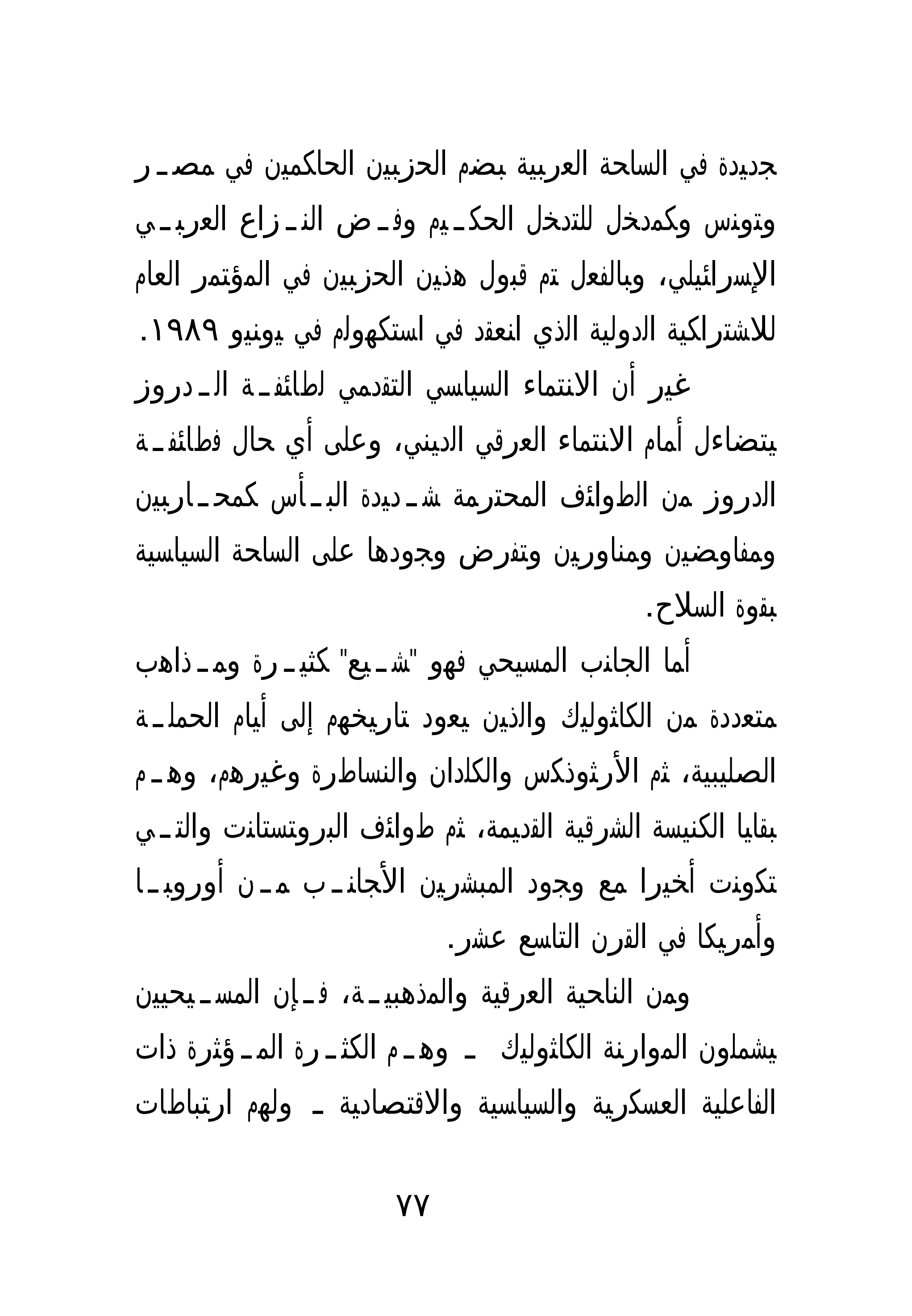
إن السياق التاريخي لحضارة مصر بما يحتويه مـن جزئية العلاقة بين المسلمين والأقباط، يختلف تماما عن كـل من لبنان أو إيران، بل يختلف تماما عن أغلب بلدان العـالم العربي ولا يدانيه إلا تاريخ الحضارة في بلاد الشام والعراق أي منطقة الهلال الخصيب، فهـي أيضـا شـعوب لـديها حضارات متراكمة وربما كان لها أعمدة سبعة أخرى خاصة بها وتتميز بأن لديها تعددية متوازنة في الأديان.

ومن هنا كانت أهمية أن نغوص في التـاريخ لكـي نكتشف هذه الصياغة المصرية من خلال رقـائق حضـارية وانتماءات متعددة مبدعة أعطت لمصر هذه المناعـة التـي تجعلها تقاوم تيار الطائفية العاتي الذي اجتاح المنطقـة منـذ زرعت إسرائيل في قلبه عام ١٩٤٨.

وفي مجال المقارنة، لا أستطيع أن أحصي الطوائف والملل في لبنان إحصاء كاملا لأنه بالرغم من وجود ديانتين رئيسيتين، هما الإسلام والمسيحية كما هو الحال في مصـر فإن للإسلام في لبنان فرقا كثيرة فجرتها الحـرب الأهليـة

وجعلت أخبارها ملء السمع والبصر، هناك طائفة السنة الهادئة والعاقلة التي يختار منها رئيس الوزراء ومراكزها في طرابلس في شمال لبنان وصيدا وبيروت ثم هناك الكثرة الشيعية الفقيرة في الجنوب، والتي لم نكن نسمع منها أو عنها إلا قليلا، وإلى أن تفجرت طاقاتها وظهر أن ظروف الفقر والقهر التي كانت تعيشها فرضت عليها الكفاح، ولكن في الوقت الخاطئ وبالطريق الخاطئ وقد لمست التصوف السائد في منهجهم من خلال زيارة وحوار لي مع السيدة "رباب الصدر" شقيقة الزعيم الإمام الصدر.

وقد تفرع من هذه الطائفة الشيعية فريق آخر "تشيع" لإمام إيران الخميني وسمى نفسه "حزب ا " وقاد حربا ضد فريق وميليشيا "أمل الشيعية" ذاتها وهناك منطقة جبل الشوف حيث الدروز بقيادة وليد جنبلاط والذي رثينا لحاله عندما اغتيل أبوه الزعيم كمال جنبلاط وهو في ذات الوقت رئيس الحزب الاشتراكي التقدمي اللبناني وهو الحزب العربي الوحيد الذي قبلت "الاشتراكية الدولية" عضويته لاقتناعها بأن منهجه هو "الاشتراكية الديمقراطية"، ولكن يبدو أن الاشتراكية الدولية بزعامة فيللي برانت تود أن تكسب أرضا



جديدة في الساحة العربية بضم الحزبين الحاكمين في مصـر وتونس وكمدخل للتدخل الحكـيم وفـض النـزاع العربـي الإسرائيلي، وبالفعل تم قبول هذين الحزبين في المؤتمر العام للاشتراكية الدولية الذي انعقد في استكهولم في يونيو ١٩٨٩.

غير أن الانتماء السياسي التقدمي لطائفـة الـدروز يتضاءل أمام الانتماء العرقي الديني، وعلى أي حال فطائفـة الدروز من الطوائف المحترمة شـديدة البـأس كمحـاربين ومفاوضين ومناورين وتفرض وجودها على الساحة السياسية بقوة السلاح.

أما الجانب المسيحي فهو "شـيع" كثيـرة ومـذاهب متعددة من الكاثوليك والذين يعود تاريخهم إلى أيام الحملـة الصليبية، ثم الأرثوذكس والكلدان والنساطرة وغيرهم، وهـم بقايا الكنيسة الشرقية القديمة، ثم طوائف البروتستانت والتـي تكونت أخيرا مع وجود المبشرين الأجانـب مـن أوروبـا وأمريكا في القرن التاسع عشر.

ومن الناحية العرقية والمذهبيـة، فـإن المسـيحيين يشملون الموارنة الكاثوليك - وهـم الكثـرة المـؤثرة ذات الفاعلية العسكرية والسياسية والاقتصادية - ولهم ارتباطات

مع الفاتيكان والفرنسيين تعود لقرون طويلة (بخلاف تـاريخ أقباط مصر) ولكن بجوار ذلك توجد طوائف الروم وهم من يتبعون الكنيسة التي كانت منحازة لملك الروم فـي بيزنطـة وقت الخلافات المذهبية التي حدثت في مجمع خلقيدونية فـي القرن الخامس وسيأتي ذكر ذلك مستقبلاً في الفصل القـادم وهناك أيضا طوائف الكلدان والسريان والأرمن فضلا عـن طوائف مماثلة من الأرثوذكس.

وفيما يتعلق بتمثيل الأقليات الدينيـة علـى السـاحة السياسية اختلف نهج وطريقة المصريين ـ مسلمين وأقبـاط ـ عن نهج أهل لبنان على كافة طوائفهم واختلفت ظـروف مصر ولبنان عن ظروف قبرص حيث تم بالفعل التقسيم.

فبعد الحرب العالمية الثانية، ومع الاستقلال وصياغة الدستور اللبناني. وزعت كل طائفة، وتبلور ذلك في توزيـع المناصب في قمة السلطة لكي يكون رئيس الجمهورية مـن الموارنة المسيحيين، ويكون رئيس الوزراء مسلما سنيا بينما ترك منصب رئيس المجلس النيابي ليشغله مسـلم شـيعي، ووزعت كذلك كافة المناصب الوزارية والمواقع الرئيسية في القضاء والجيش على أساس طائفي وتوهموا أن ذلك قد حـل

الصراعات الطائفية إلى أن تفجرت الحرب الأهلية، وثبت أن ذلك كان حلا هشًا ويحاولون الآن البحث عن صياغة أخرى، وربما كانت مرحلة الطائف مرحلة انتقالية فقط.

أما في مصر فقد تم حوار واسع حول ذات القضية، وفي ظروف مماثلة عقب إصـدار الإنجليـز لتصـريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ ليعلن استقلال مصر مع تحفظات أربعـة أهمها هو حماية الأقليات.

وفي ضوء ذلك تشكلت لجنة الدستور مـن ثلاثـين عضوا في ٣ أبريل عام ١٩٢٢.

وكان أول من أثار مسألة تمثيل الأقليات هو "حسين رشدي" رئيس لجنة الدستور حيث أوصى بوضع نصـوص في دستورنا لحماية الأقليات لأن إنجلترا حفظت لنفسها حـق حمايتهم!

وفتح حوار ديمقراطي واسع داخل اللجنة وخارجها، وكان أبرز هذه الحوارات، لأهميته اليوم - هو الحوار الذي تم داخل لجنة الدستور بين توفيق دوس باشا وبين الـدكتور عبد الحميد بدوي.

والجدير بالتسجيل دفاع توفيق دوس من أجل أن تمثل الأقليات وعرضه ذلك لسببين أولهما سياسي، والآخر قانوني، فمن الناحية السياسية أبرز ضرورة قفل الباب أمام التدخل الأجنبي بدعوى حماية الأقليات، أما السبب الثاني القانوني فهو أن المجلس النيابي يقرر التشريعات والقوانين، وقد يقرر بحسن نية، ما تراه الأقلية ماسا بها أو مضرا بحقوقها، والخير أن يوجد فيه من ينبه إلى ذلك.

وفي بلاغة وحنكة عرض د. عبد الحميد بدوي وجهة النظر المعارضة لتمثيل الأقليات قائلاً: إن الفارق الديني يضعف الآن في مصر، ولن يطول الزمن حتى تنمحي في علاقاتنا الاجتماعية، وتعفى تماما جميع آثاره (للأسف هذا التصور الذي كان واردا عام ١٩٢٢ لم يتحقق)، ولذا فإن وجود التمثيل الخاص بالأقليات يوحد الجهة التي تحرص عليه فتزيد الفوارق وتنمو (وهذا ما تم بالفعل في لبنان).

ويستطرد د. عبد الحميد بدوي قائلاً: والعصر الحديث تقل فيه الفوارق الدينية، ويصبح ما يربط الناس في حياتهم الاجتماعية هو عامل المصلحة المشتركة، وبصرف

النظر عن الدين أو المذهب، إنني أتمنى أن أرى اليوم الـذي يجمع كل أسباب مرافقنا حتى في الزواج والطلاق وما إلـى ذلك من أحوالنا الشخصية تحت نظام واحد بحيـث نعـيش جميعا في ظل حياة مدنية محكمة منظمة.

للأسف مرة أخرى كان رجـال العشـرينات أكثـر انفتاحا على الحريات العامة وحقوق الإنسان ومفاهيم فصـل الدين عن الدولة عن أهل الثمانينيات.

ويلخص د. عبد الحميد بدوي رأيه في وضوح قائلاً:
إن تقرير تمثيل الأقليات يعني شطر البلاد شـطرين ليعيشـا منقسمين وهو بدعة في النظم البرلمانية، وإذا اعترف بتمثيل القبط ظهر بعدهم كثرة السوريين واليهود والعرب ثم يظهـر الأروام والأرمن وغيرهم.. فيتحقق نظام كرومر، وتصـير "مصر" خليطًا ليس له طابع أهلي ومسرحا للمنازعات الدينية والجنسية.

ولا أود أن يمل القارئ لو ذكرت التفاصيل المذكورة في كتاب طارق البشري بعنوان "المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية" غير أن من بين الحوارات العديدة في هذه القضية وقتها كان هناك حوار آخـر جـرى خـارج لجنـة

الدستور له دلالته وكان فرسانه من شباب ذلـك العصـر.. حيث تبادل القبطي والمسلم المواقف، فخرج الأستاذ محمـود عزمي ليدعو لحق الأقلية في أن تمثل في المجالس النيابيـة، وانبرى له الأستاذ عزيز ميرهم ـ وكان اشتراكيا ديمقراطيا في وقت مبكر في مصر ـ يطالـب بـأن توضـع مبـادئ الدستور على الاعتبار المدني وليس على الاعتبار الديني.

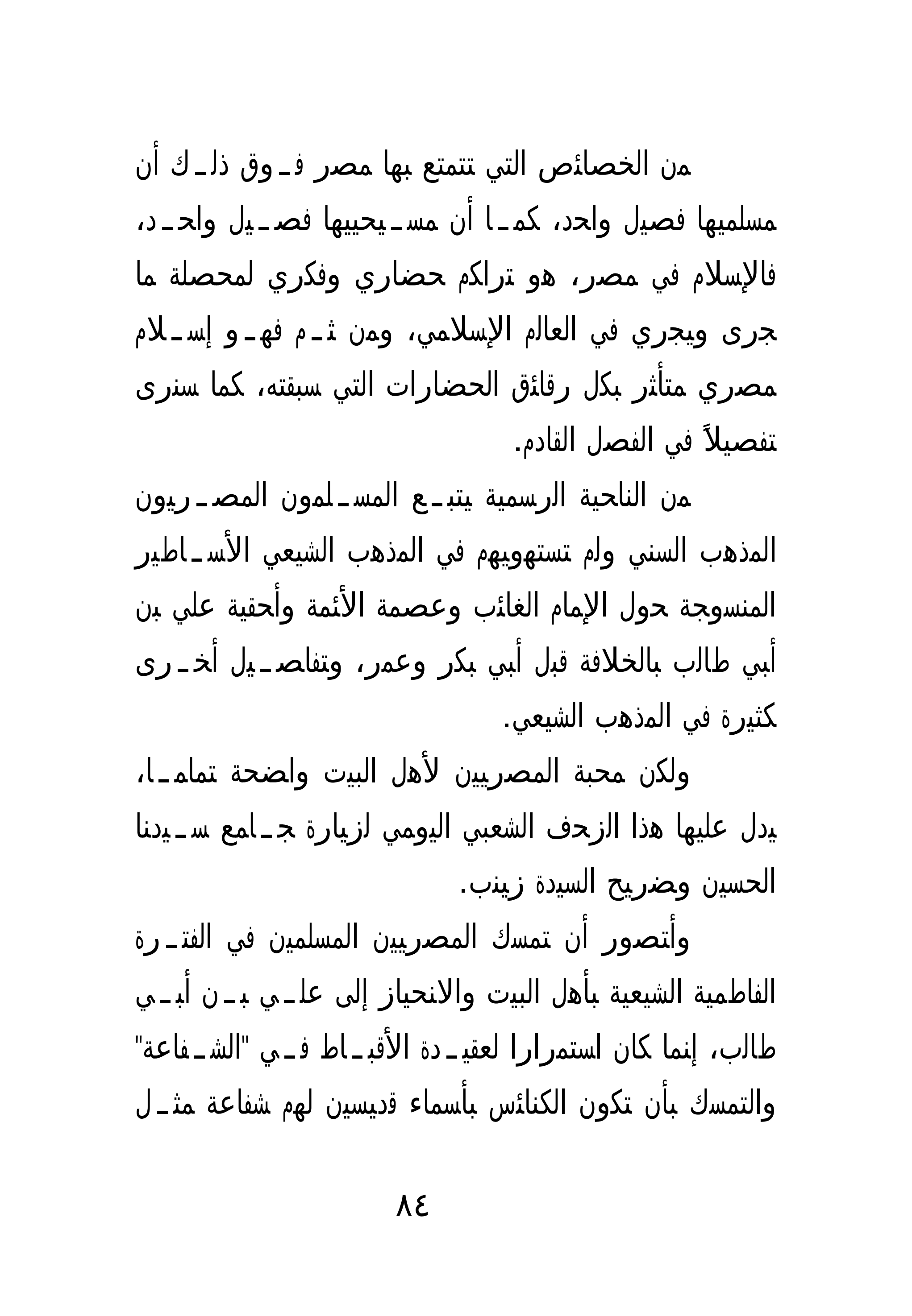
وعقب صدور الدستور في أبريل ١٩٢٣ وقد عرف لذلك بدستور ١٩٢٣ جرت المعركة الانتخابية في يناير عام ١٩٢٤ ومن بين العدد الكلي لأعضاء مجلس النواب وقتهـا وهو ٢١٤ كان في المجلس ١٦ عضوا من الأقبـاط، وفـي الانتخابات الثانية عام ١٩٢٥ كان في المجلس ١٥ عضـوا من الأقباط وفي الانتخابات الثالثة عام ١٩٢٦ كان بالمجلس ١٧ عضوا من الأقباط وفي الانتخابات الرابعة عـام ١٩٢٩ تعدل عدد أعضاء المجلس ليكـون ٢٣٥ ـ بسـبب زيـادة السكان حسب إحصاء عام ١٩٢٧ ـ وكان عدد الأقباط فـي المجلس ٢٣ عضوا بنسبة ١٠ % تقريبا.

على أن الأمر الجديد بالتسجيل هو إصرار حـزب الوفد آنذاك على أن يرشح أقباطا في تجمعات إسلامية لكـي

يؤكد الانتماء السياسي والـولاء للحـزب، وتأكيـدا لمبـدأ المواطنة. وكان أبرز مثال على ذلك هو نجاح ويصا واصف ـ وهو أصلا من أبناء وسط الصعيد ـ في دائرة المطريـة ـ دقهلية في الوجه البحري، تأكيدا لهذا المعنى ثـم صـار ويصا واصف رئيسا لمجلس النواب عام ١٩٢٨ دون أن يثير ذلك أدنى حساسية أو اعتراض.

خلاصة القول: هو أن أسلوب المصريين ـ مسلمين وأقباط ـ في التعامل مع قضية تمثيل الأقليات في البرلمان، أسلوب ذكي متحضر.. ويتجاوز المناصب والصـغائر مـن أجل الحفاظ على المناخ السياسي والحضاري العـام الـذي يوفر المساواة في الحقوق الدستورية الأساسية مثـل: حـق التعليم، والملكية والتنقل وما أشبه.. وقد تم كل ذلك استمرارا للعلاقات الوطيدة عبر التاريخ والقرون وقبل أن يعرف الناس مواثيق كل ذلك استمرارا للعلاقات الوطيدة عبـر التـاريخ والقرون وقبل أن يعرف الناس مواثيق حقوق الإنسـان لأن الأقباط قد اكتشفوا أن تواجدهم في مصر بالحـب والقبـول العام.





من الخصائص التي تتمتع بها مصر فـوق ذلـك أن مسلميها فصيل واحد، كمـا أن مسـيحييها فصـيل واحـد، فالإسلام في مصر، هو تراكم حضاري وفكري لمحصلة ما جرى ويجري في العالم الإسلامي، ومن ثـم فهـو إسـلام مصري متأثر بكل رقائق الحضارات التي سبقته، كما سنرى تفصيلاً في الفصل القادم.

من الناحية الرسمية يتبـع المسـلمون المصـريون المذهب السني ولم تستهويهم في المذهب الشيعي الأسـاطير المنسوجة حول الإمام الغائب وعصمة الأئمة وأحقية علي بن أبي طالب بالخلافة قبل أبي بكر وعمر، وتفاصـيل أخـرى كثيرة في المذهب الشيعي.

ولكن محبة المصريين لأهل البيت واضحة تمامـا، يدل عليها هذا الزحف الشعبي اليومي لزيارة جـامع سـيدنا الحسين وضريح السيدة زينب.

وأتصور أن تمسك المصريين المسلمين في الفتـرة الفاطمية الشيعية بأهل البيت والانحياز إلى علـي بـن أبـي طالب، إنما كان استمرارا لعقيـدة الأقبـاط فـي "الشـفاعة" والتمسك بأن تكون الكنائس بأسماء قديسين لهم شفاعة مثـل

السيدة العذراء مريم والقديس الشهيد مار جرجس وغيرهما وكذلك الإبقاء على عادة إقامة الموالد حيث تعود الأقباط ـ ومنذ قرون ـ على الاحتفال بعيد ميلاد القديسين وإقامة الموالد والاحتفالات الشعبية، فهناك مثلا مولد السيدة العذراء بكنيسة المطرية قرب القاهرة حيث يقال إن السيدة العذراء أقامت في طريق هروبها من هيرودس إلى مصر، ثم مولد مار جرجس بقرية ميت دمسيس بالدقهلية ومولد الست جميانة ببلقاس في شمال الدلتا ودير العذراء بجبل الطير أمام مدينة سمالوط على البر الغربي، والاحتفالات والمهرجانات في نهاية فترة صيام العذراء في شهر أغسطس من كل عام في قرية درنكة قرب أسيوط وغيرها كثير.

إن هذه الموالد ليست احتفالات دينية فحسب وإنما هي مهرجانات شعبية للمرح والتسلية وجزء من تراث المصريين للترويح عن النفس بطرق فلكلورية تتفق مع المرحلة والعصر.

ومنذ القرن السابع الميلادي (الأول الهجري) وعقب فتح مصر انتشر الإسلام تدريجيا وأخذ ذلك عدة قرون، ورغم أنه لا توجد أرقام وإحصاءات عن عدد من أسلموا أو

عد من تمسكوا بالمسيحية في تواريخ محددة، ولكن ما هـو متاح من معلومات تاريخية يدل على أن الأقباط لم يتحولـوا بكثرة إلى الإسلام إلا في القرن العاشر الميلادي وفي فتـرة حكم الفاطميين لمصر، ولكن عدد المسلمين لم يصبح أكثرية وبشكل واسع على طول البلاد وعرضها إلا في القرن الثالث عشر وسنعرض ما هو متاح من معلومات فيما بعد.

ولذلك فإن المعايشة داخل الأسرة الواحـدة بـين أب آثر أن يدخل الإسلام وأم مسيحية، فأولاده لا بد وفق الشرع أن يكونوا مسلمين، على الـرغم مـن أن أخـوالهم وربمـا أعمامهم مسيحيون.

كل هذا، كان أمرا طبيعيا لسنوات وقرون طويلـة، ومن هنا جاء هذا التداخل والدمج والحب والاحترام المتبادل.

وهكذا تعايشت المسيحية مع الإسـلام فـي العائلـة الواحدة لسنوات، وتعايش الأقباط مع المسلمين في كل بيـت وزقاق وحارة وشارع وحي وقرية ونجع ومدينة، ومن هنـا كان هذا الانتشار للأقباط في كل موقع في مصر، لم ينعزلوا في حي أو قرية أو جبل أو منطقة كما هو الحال في لبنـان، ولم يرفع أحد على أحد سـلاحا علـى مـدى التـاريخ إلا

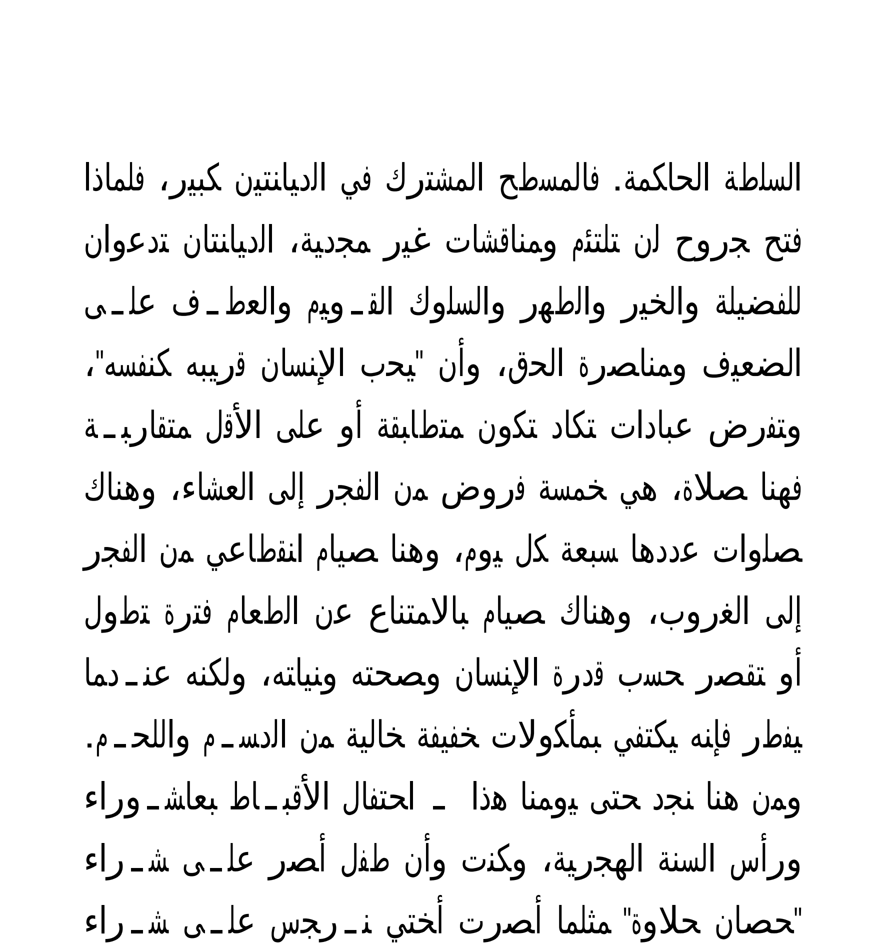
لخصومة فردية، ولا يجد الأقباط أمانا لهم في مصر إلا في هذا الانتشار والوجود في كل مكان، وقد قاوموا على مدى أربعة عشر قرنا ـ حتى في عهود الاضطهاد ـ أن يتقوقعوا داخل سور أو حي أو منطقة ورفضوا فكرة " الجيتو " المعروفة والتي مارسها اليهود في كل مكان عاشوا فيه، فأنشأوا منطقة أو حيا تجمعوا داخله ورفضوا إقامة "الغريب" فيه، وكان لهم منطقة معروفة باسم "حارة اليهود" في حي الموسكي بالقاهرة حيث كانت إقامتهم في مصر ولم نسمع عن يهودي مصري عاش في قرية بعيدا عن قومه!.

وهكذا ومع الممارسة والمعايشة لسنوات طويلة، اكتشف الأقباط والمسلمون أن هناك حيزا ومساحة هائلة مشتركة يعيشون في مظلتها من خلال الحياة اليومية ذاتها، وفي حوار لي مع الدكتور الشيخ محمد سيد طنطاوي مفتي الديار المصرية، ذكر لي أنه نشأ في مدينة طما حيث كان والده مشاركًا لجاره القبطي في الزراعة ومشاركًا في المعيشة في بيتين متجاورين، فالزوجتان متحابتان والأطفال يلعبون معا في الحارة، ولم يشعر للحظة أي فارق بينه وبين أولاد شريك أبيه القبطي، رغم تمسك كل منهم بديانته.

كانت المشاركة في الزراعة وفي التجارة وفي كافـة الحرف، وكان الحرفيون من الأقباط يميلون إلى العمل فـي مجال الصيارفة والمحاسبة والنجـارة والبنـاء والصـياغة والصباغة وغيرها وكانوا موضع تقدير وثقة وحب كل أهل القرية لإتقانهم هذه الحرف.

وفوق ذلك كله وضع المصريون قواعد جديدة راقية في الحوار حول الأديان، فعندما يكـون الأب مسـلما والأم مسيحية، يحاول الطفل أن لا يغضب أيا منهما، فيرى الوالـد يصلي الصلوات الخمس ويقرأ القرآن ويرى أمه تقفل البـاب عليها لكي تتعبد وأمامها صورة العذراء، ثم تجهـز الطعـام العادي للعائلة ولكنها تحتجز لنفسها طعاما خاصا بدون لحـم أو لبن لأنها صائمة على الطريقة القبطية، وربما حاول أحد الأبناء أو البنات أن يرضي عائلة أبيه فصام رمضـان فـي موعده وبطريقته ثم عاد فصام صيام السـيدة العـذراء فـي موعده وبطريقته تقليدا واحتراما لمشاعر أمه.

تعود المصريون جميعا احتـرام الطـرف الآخـر والابتعاد عن كل ما يجرح مشاعر من يعايشه فـي البيـت بصرف النظر عن وجهة نظر الدولة أو الملتزم أو العمدة أو



السلطة الحاكمة. فالمسطح المشترك في الديانتين كبير، فلماذا فتح جروح لن تلتئم ومناقشات غير مجدية، الديانتان تدعوان للفضيلة والخير والطهر والسلوك القـويم والعطـف علـى الضعيف ومناصرة الحق، وأن "يحب الإنسان قريبه كنفسه"، وتفرض عبادات تكاد تكون متطابقة أو على الأقل متقاربـة فهنا صلاة، هي خمسة فروض من الفجر إلى العشاء، وهناك صلوات عددها سبعة كل يوم، وهنا صيام انقطاعي من الفجر إلى الغروب، وهناك صيام بالامتناع عن الطعام فترة تطول أو تقصر حسب قدرة الإنسان وصحته ونياته، ولكنه عنـدما يفطر فإنه يكتفي بمأكولات خفيفة خالية من الدسـم واللحـم. ومن هنا نجد حتى يومنا هذا ـ احتفال الأقبـاط بعاشـوراء ورأس السنة الهجرية، وكنت وأن طفل أصر علـى شـراء "حصان حلاوة" مثلما أصرت أختي نـرجس علـى شـراء "عروسة مولد النبي"، وقال لي أحد أصدقائي المـؤرخين أن عادة عمل حصان حلاوة في موسم مولد النبي مأخوذة مـن حصان مار جرجس لـدى الأقبـاط، ولأن للأقبـاط موالـد وللمسلمين موالد أخرى فلماذا لا يحتفل كل الأطفـال بكـل الموالد، وهذا ما هو حاصل فعلا في كـل ريـف مصـر.

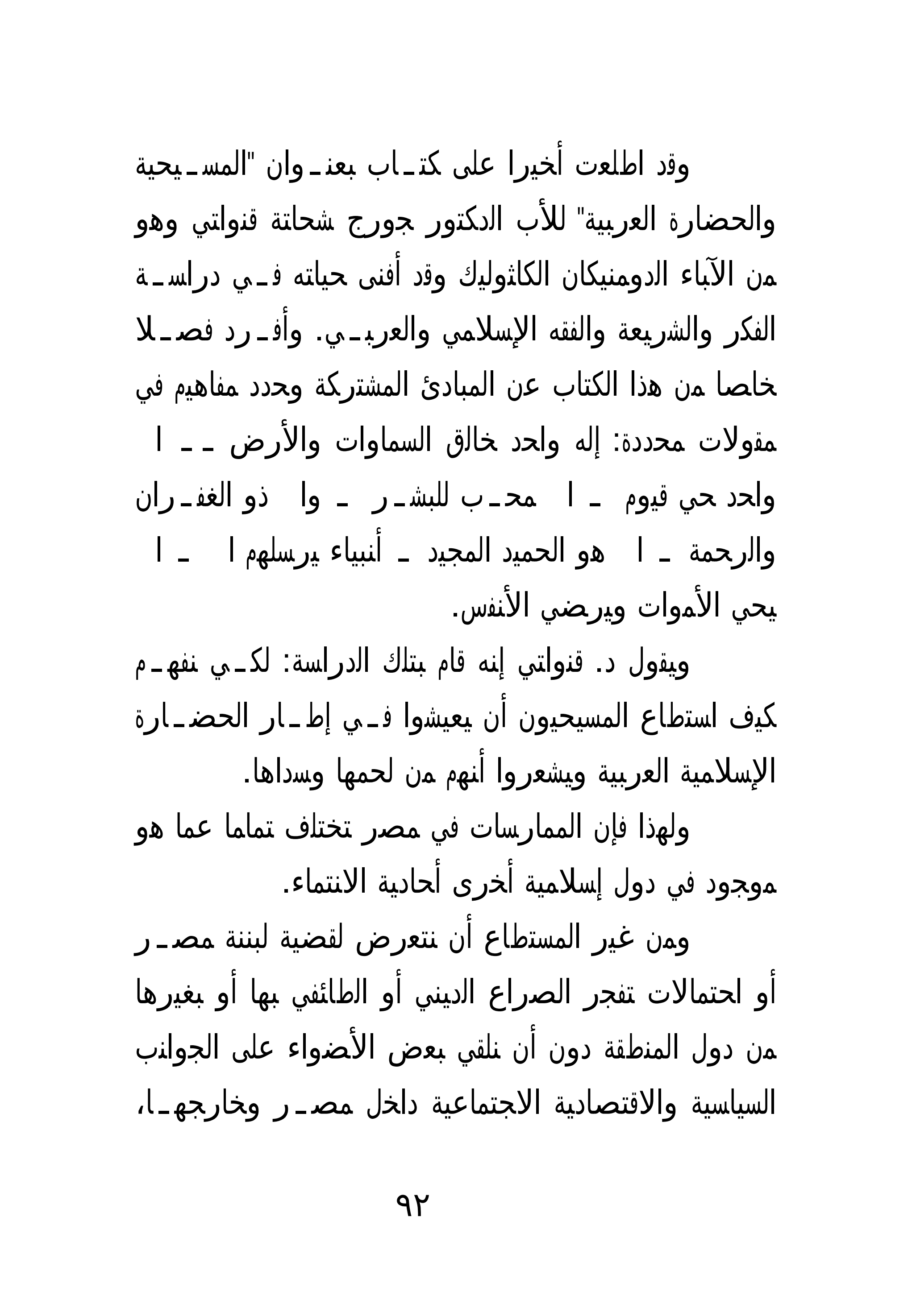
وعندما قام حريق في مولد السيدة العذراء قرب دير المحرق بمركز القوصية بأسـيوط فـي صـيف ١٩٨٨، ثبـت أن المصابين كانوا خليطا متكافئا من الأقباط والمسلمين.

وعندما كنت صبيا كانت أمي ترسلني بمنديل ملفوف لأعطيه للخالة أم حسين، وبعد دقائق كانت " تيزا أم حسين " تسلمني ذات المنديل مرة أخرى فأسلمه لأمي - ولـم أكـن أفهم شيئا - ولم تكن التليفونات قد انتشرت بعد، وفي أحـد الأيام جاءنا من يقول لنا إن الخالة أم حسين قد ماتت، وعندئذ - وفي حرص شديد - أعطتني أمي ذات المنديل الملفـوف وقالت لي: أعط هذا المنديل لعمك أبو حسين، فهذه مصاريف جنازة أم حسين إذ كانت أمانة عند أمي "حكيمة" - هكذا كان اسمها - وكان من وجهة نظري - اسما علـى مسـمى - وعندما عدت سألت أمي: لماذا لم تترك أم حسين هذا المبلغ مع زوجها فقالت: هي كانت تعرف أنـه مسـرف وكانـت تخشى أن تأتي منيتها فجأة ولا يكون لدى زوجها ما يكفـي لمصاريف الجنازة ويضطر إلى الاستدانة.

وعندما كبرت تذكرت هذه القصة - وغيرها كثير - تعبيرا عن التداخل والحب والثقة التي لا حدود لها بين المسلمين والأقباط عبر الزمان.

وكان والدي "ميخائيل" يقص علي خبرته وهو طفل مع والده "المعلم حنا" شيخ صياغ مدينة سنورس "الفيوم" وكيف كان ميزان "المعلم حنا" هو المعتمد بين الشاري والبائع للذهب والفضة قبل انتشار موازين الحكومة وكانت فتوى المعلم حنا في "عيار الذهب" هي القول الفصل، كما كان المعلم حنا موضع ثقة العمد والأعيان، فهو الوحيد الذي يدخل إلى الحريم لعرض الكردان والخلخال!.

وفي النواحي الدينية البحتة كان رجال الدين العقلاء يفتشون في الكتب والأصول حتى يجدوا الأرضية المشتركة، ولا أدعي أنني متخصص في الدين - ولست راغبا في ذلك - ولكنني أذكر أن القمص الأيغومانوس إبراهيم لوقا - والذي كان زعيما وقائدا لكنيسة كليوباترا بمصر الجديدة وقام ببنائها في الثلاثينيات وإلى أن مات عام ١٩٥١ - كتب في ذلك الوقت وقبل ظهور أي فتنة كتاب بعنوان "المسيحية في الإسلام".



وقد اطلعت أخيرا على كتـاب بعنـوان "المسـيحية والحضارة العربية" للأب الدكتور جورج شحاتة قنواتي وهو من الآباء الدومنيكان الكاثوليك وقد أفنى حياته فـي دراسـة الفكر والشريعة والفقه الإسلامي والعربـي. وأفـرد فصـلا خاصا من هذا الكتاب عن المبادئ المشتركة وحدد مفاهيم في مقولات محددة: إله واحد خالق السماوات والأرض ـ ـ ا واحد حي قيوم ـ ا محـب للبشـر ـ وا ذو الغفـران والرحمة ـ ا هو الحميد المجيد ـ أنبياء يرسلهم ا ـ ا يحي الأموات ويرضي الأنفس.

ويقول د. قنواتي إنه قام بتلك الدراسة: لكـي نفهـم كيف استطاع المسيحيون أن يعيشوا فـي إطـار الحضـارة الإسلامية العربية ويشعروا أنهم من لحمها وسداها.

ولهذا فإن الممارسات في مصر تختلف تماما عما هو موجود في دول إسلامية أخرى أحادية الانتماء.

ومن غير المستطاع أن نتعرض لقضية لبننة مصـر أو احتمالات تفجر الصراع الديني أو الطائفي بها أو بغيرها من دول المنطقة دون أن نلقي بعض الأضواء على الجوانب السياسية والاقتصادية الاجتماعية داخل مصـر وخارجهـا،

فالتوازنات في المنطقة قد اختلت منذ أن تم تقسيم فلسـطين، وأنشئت إسرائيل عام ١٩٤٨، وكان التأثير الحضاري هـو ضمور النمو العقلاني والعلماني والديمقراطي في أغلب دول المنطقة، فقد كان بروز الدولة الصهيونية التي تعتمـد علـى التمييز العنصري - على اعتبار أن اليهود هـم شـعب ا المختار - مثيرا لإنعاش الحركات المماثلة لدى الجماعـات والطوائف والفرق الإسلامية والمسيحية في المنطقة. وبـدلاً من أن تنمو الديموقراطيـة والحضـارة والتنميـة نموهـا الحضاري الطبيعي في الدول العربية اغتنم الحكـام فرصـة الصراع العربي - الإسرائيلي ليكون تكتة لضرب الحركات الوطنية والاشتراكية والديمقراطية.

وعندما وقعت هزيمة عام ١٩٦٧، أدركت كثرة من شعوب المنطقة أنه لا يفل الحديد إلا الحديد وهكـذا تقهقـر عصر النهضة في أغلب البلدان العربية ليحل محله عصـر نمو الأصولية والسلفية، ولذا فنحن في مصـر - مسـلمين وأقباط - أصحاب مصلحة في حل نزاع الشرق الأوسـط، ومشكلة فلسطين.. ليس فقط من منطلـق الانتمـاء العربـي

للشعب المصري كما سيأتي ذكره، وإنما لأن ذلك سوف يقال من أسباب تصاعد التعصب الديني، والطائفي..

ومن الطبيعي أن تتأثر مصر بما حولها من صراعات في المنطقة العربية والإسلامية، فهناك فضلاً عن إسرائيل ولبنان - تصاعد ونمو للتيارات الأصولية في إيران، وأفغانستان، وباكستان، وأخذ الصراع في كل منها شكلاً ساخنًا داخليا وخارجيا فضلاً عن نمو الحركات الإسلامية في تونس وليبيا وغيرهما.

على أن الأمر الملفت للنظر والذي يحتاج إلى تفسير ودراسة هو أن الشعوب والدول الإسلامية التي لا تنتمي للعالم العربي ولا تتحدث اللغة العربية وتقرأ النصوص الدينية دون فهم عميق تلجأ إلى عنف أكبر في القضايا الطائفية، وقد برز ذلك عندما اجتاحت العالم الإسلامي موجة احتجاج طبيعية كرد فعل لنشر كتاب "آيات شيطانية" للكاتب الهندي الأصل سلمان رشدي، فقد راح ضحية موجة الصخب والمظاهرات - عشرات القتلى والضحايا في كل من إيران وأفغانستان وباكستان وبنجلاديش بينما كانت الاحتجاجات

الإسلامية في العالم العربي أكثر توازنا وعقلانية وموضوعية.

وهناك أيضا الصراع الدامي بين شمال السودان العربي المسلم، وبين جنوبه الإفريقي المسيحي الوثني، وهو نموذج لتدهور أحوال الأمة التي كانت على عتبة الرقي، وعصر نهضة عقلاني وديمقراطي عندما حصل السودان على استقلاله عام ١٩٥٦، وإذا به يقع في مصيدة العسكرة والطائفية فكاد أن يدمر وسيظل كذلك لفترة حتى يتوازن مرة أخرى.

أما الأحوال الاقتصادية والاجتماعية داخل مصر فلها انعكاساتها على نمو تدفق التيار الأصولي الإسلامي والمسيحي، فقد أفرزت سنوات الانفتاح تركيبة اجتماعية واقتصادية متفجرة نتيجة الفوارق بين الطبقات والتي عادت بشكل مختلف عما كانت مصر قبل عام ١٩٥٢.

فقد كانت التركيبة الطبقية لمصر منذ عام ١٩١٩ وحتى عام ١٩٥٢ متراصة فوق بعضها بعضا - مصر كالهرم - أي مرتبة في طبقات اجتماعية ذات صفات محددة ومستقرة من عشرات السنين، ربما من قرون مضت.

كانت القاعدة العريضة مكونة من الفلاحين المعدمين "الأجراء" ويليهم طبقة صغار الملاك الزراعيين حيث كانـت عائلات كثيرة في الريف تعـيش علـى العمـل فـي أرض زراعية لا تزيد على الفدان الواحد وهؤلاء لم يكونوا ليختلفوا عن فئة "الأجراء" وفي أوقات - البطالة الزراعية - لم يكن لهم من سبيل للحياة والعمل إلا من خلال التراحيل أي العمل في أماكن بعيدة عن محل إقامتهم وبطريقة لا تختلف كثيـرا عن السخرة.. ثم يلي ذلك فئة العمـال غيـر المهـرة فـي الصناعة في المدن وأغلبهم من أصل ريفـي.. ثـم العمـال المهرة ثم الحرفيين في المدن وهي طبقات قديمة في مصـر وتحمل مهارات عالية، وفوق ذلك الطبقات المتوسـطة مـن صغار الموظفين ثم صغار التجار فـي المـدن ثـم كبـار الموظفين ثم الرأسماليين الصناعيين ثم كبار ملاك الأراضي، من الإقطاع والأسرة المالكة، وهم من يتربعون علـى قمـة الهرم.

ولم يكن مسموحا "بالحراك الاجتماعي" إلا في حدود ضيقة، فمن المسموح به مثلاً لصغار الملاك أن يتحولوا من خلال أبنائهم إلى صغار الموظفين، ومن المسـموح أيضـا

لصغار الموظفين عن طريق طموح أبنائهم ومن خلال التعليم أن يكونوا من المهنيين وغير ذلك في حدود ضيقة للحركـة، أي الارتفاع قليلاً أو الانخفاض قليلاً وفقًا للخواص والقدرات الذاتية للأفراد.

أما سنوات الانفتاح (أي منذ عام ١٩٧٤) فقد أفرزت مصر مجتمعا مختلفًا يتكون من "مِصرين"!؟

فمصر الأولى:

والمسماة بالانفتاحية وأفضـل أن أسـميها "مصـر الدولارية" وهي جملة المنتفعين بحقبة الانفتاح فمنهم مثلا من كونوا ثروات سريعة من خلال تجارة العملة، أو الاستيراد أو التصدير أو تجارة الأراضي في المدن أو مشاريع عمـارات التمليك أو المقاولات أو تحويل الأراضـي الزراعيـة إلـى حدائق أو بيع ثمار الفاكهة وإنشاء "صوبات" على أراضـيهم وغير ذلك من مشاريع أعطت عائدا ضخما لا يتناسب مـع العمل أو المخاطرة.

ومع هؤلاء وبدرجة أقل قليلاً هناك الفئـات الثريـة التي تعمل بالدولار في البنوك والشركات الجدية ثم يليهم في سلم الدرجات إلى أسفل فئة الموظفين والعمال الذين يعملون

بمرتبات تعلو كثيرا عن أقرانهم وزملائهـم فـي الحكومـة والقطاع العام ـ وصولا إلى السائق والبواب والسـاعي ـ الذين يعملون في خدمة هذه الطبقة الانفتاحية. ولكل هـؤلاء أسواقهم في السوبر ماركت ومجتمعهم الخاص في النـوادي واقتصادياته التي تحسب كل شيء وتحوله إلى الدولار ولديها حسابات بالعملات الصعبة بعضها في مصر وأغلبهـا فـي الخارج وأغلب هذه الفئات موجود بالقاهرة والإسكندرية.

أما مصر الأخرى فهي مصـر الشـعبية الوطنيـة، والمرتبطة مع الحكومة والقطاع العام فرجالها في القمة هـم كبار موظفي الدولة الشرفاء غير المرتشين، والذين ليس لهم دخول إلا مرتباتهم الحكومية وهي هزيلة وتشمل هذه الفئـة الوزراء ورؤساء المصالح والمديرين ـ إذا لـم يكـن لهـم مصدر آخر للدخل ـ ثم يلي ذلـك هـذا القطـاع الواسـع والعريض من العاملين في الدولة والقطاع العام وصولاً إلى قاع السلم الوظيفي حيث خريجي الجامعة حـديثي التخـرج، والذين لا تتجاوز مرتباتهم مائة جنيه ـ في المرحلة الحالية ـ وهم قابلون لذلك بعد سنوات عجاف من البطالة..

وقد تكون مصر الانفتاحية الدولارية نحو ٥ % إلى ـ ١٠ % من السكان ولكن الأمر الملفـت للنظـر هـو أن بعض من في قطار مصر الشعبية الحكومية يود أن يهـرب "وينط" في قطار مصر الانفتاحية وهذا هو المحور الأساسي للتحرك الاجتماعي في مصر الآن.

وفي سنوات الانفتاح أيضا ركزت الحكومة وبالذات في عهد السادات على ضرب كافة القوى الاشتراكية، وأدى ذلك إلى سيطرة التيار الأصولي السلفي، وزادت احتمـالات تفجر الصراع الطائفي والذي لا تحسمه الحكومـة إلا مـن خلال سبل القمع والقهر دون المجادلة وفتح الحوار العقلاني.

وعلى أي حال، فإن تفجر الصراع الديني لا يمكـن حله إلا من خلال خطة سياسية، تدعو إلى تقريب الفـوارق بين الطبقات. وحل مشكلات التوازن بين الأجور والأسـعار ووضع خطط اقتصادية متكاملة تهدف أيضا لتـوفير العمـل للعاطلين من الشباب، وكذلك حل مشكلات الإسكان، وما إلى ذلك وهي في جملتها عمل سياسي هام، وله الأهمية الأولى.

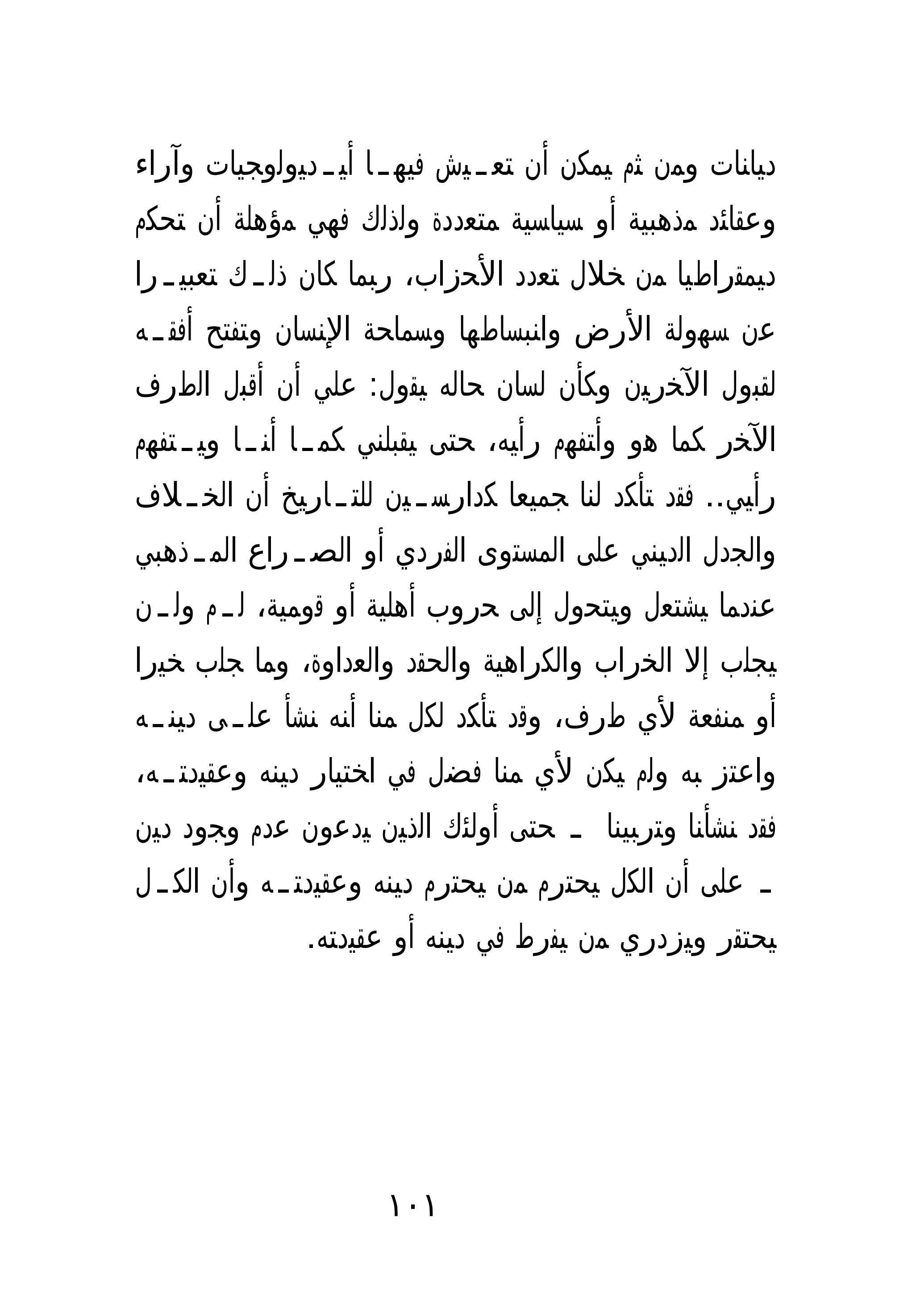
والحل السياسي الذي ينبع من تحقيق الأماني الوطنية والقومية والسير على الطريـق الحـالي لسياسـة خارجيـة

متوازنة فضلاً عن ابتكار سياسة تؤدي إلى اقتصـاد قـوي، واتخاذ إجراءات لا تكلف الحكومة شيئًا عن طريق تعميـق الديمقراطية بحيث يمكن تداول السلطة دون احتكار للحـزب الحاكم، وصياغة سياسة تهدف إلى الاشتراكية الديمقراطيـة وعدالة اجتماعية مقنعة لكثير من الناس، هذا هـو السـبيل السياسي لحل مشكلات المجتمع بما فيها التطرف الديني.

* * *

فإذا كنا نؤكد أن مصر لن تتلبنن ولن تحـذو حـذو إيران أو باكستان، فإن ذلك ليس راجعا إلى أن مصر لـديها مصل واق يقيها من أمراض وكوارث الفتن الطائفية، وإنمـا هو راجع لأن لـديها بالفعـل مـن التـاريخ والممارسـات والارتباطات القائمة ما يمكنها من عبور هذه الموجة العاتيـة من الطائفية والتي تجتاح الشرق الأوسط بل العالم كله، ومن هنا كانت أهمية الغوص في تراثنا والبحث عـن مقومـات شخصيتنا الوطنية.

إن الحضارات الثنائية - مثل حضارة مصر - التي تعايشت فيها ديانتان عبر الزمان، هي حضارات سهلة طيعة، تقبل الخلاف في الرأي لأنها تعودت أن تتعايش بهـا عـدة



ديانات ومن ثم يمكن أن تعـيش فيهـا أيـديولوجيات وآراء وعقائد مذهبية أو سياسية متعددة ولذلك فهي مؤهلة أن تحكم ديمقراطيا من خلال تعدد الأحزاب، ربما كان ذلـك تعبيـرا عن سهولة الأرض وانبساطها وسماحة الإنسان وتفتح أفقـه لقبول الآخرين وكأن لسان حاله يقول: علي أن أقبل الطرف الآخر كما هو وأتفهم رأيه، حتى يقبلني كمـا أنـا ويـتفهم رأيي.. فقد تأكد لنا جميعا كدارسـين للتـاريخ أن الخـلاف والجدل الديني على المستوى الفردي أو الصـراع المـذهبي عندما يشتعل ويتحول إلى حروب أهلية أو قومية، لـم ولـن يجلب إلا الخراب والكراهية والحقد والعداوة، وما جلب خيرا أو منفعة لأي طرف، وقد تأكد لكل منا أنه نشأ علـى دينـه واعتز به ولم يكن لأي منا فضل في اختيار دينه وعقيدتـه، فقد نشأنا وتربينا - حتى أولئك الذين يدعون عدم وجود دين - على أن الكل يحترم من يحترم دينه وعقيدتـه وأن الكـل يحتقر ويزدري من يفرط في دينه أو عقيدته.

بعض أسئلة القضاة في حساب المحكمة عند قدماء المصريين (*)

١- هل عشت أجلك الذي حدده لك الإله كاملا؟

٢- هل راعيت حق بدنك عليك كما رعاك الإلـه فـي شبابك؟

٣- هل حفظت جسدك طاهرا كرداء نظيف لـم تلوثـه القاذورات.

٤- هل تغلبت على شهوات جسدك؟

٥- هل حافظت على حسن سمعتك؟

٦- هل امتدت يدك إلى سرقة ما ليس لك؟

٧- هل قتلت نفسا بغير حق؟

٨- هل نظرت إلى من هو أغنى منك أو أشـهر منـك بعين الحسد أو الحقد؟

٩- هل سكرت حتى فقدت عقلـك وأصـبحت إرادتـك أسيرة الأهواء؟

١٠- هل آذيت حيوانًا أو عذبته بغير سبب؟



١١- هل شعرت برغبة جامحة في معرفة أمـور وجب ألا تسمعها أذناك أو تراها عيناك؟

١٢- هل تجنبت طريق الصواب عنـدما وجدتـه محفوفًا بالمخاطر؟

١٣- هل تعلقت بالدنيا وربطت نفسك بها بسلاسل من ذهب؟

١٤- هل شغلت عيناك بأمور الدنيا حتى عميـت عن أمور الآخرة؟

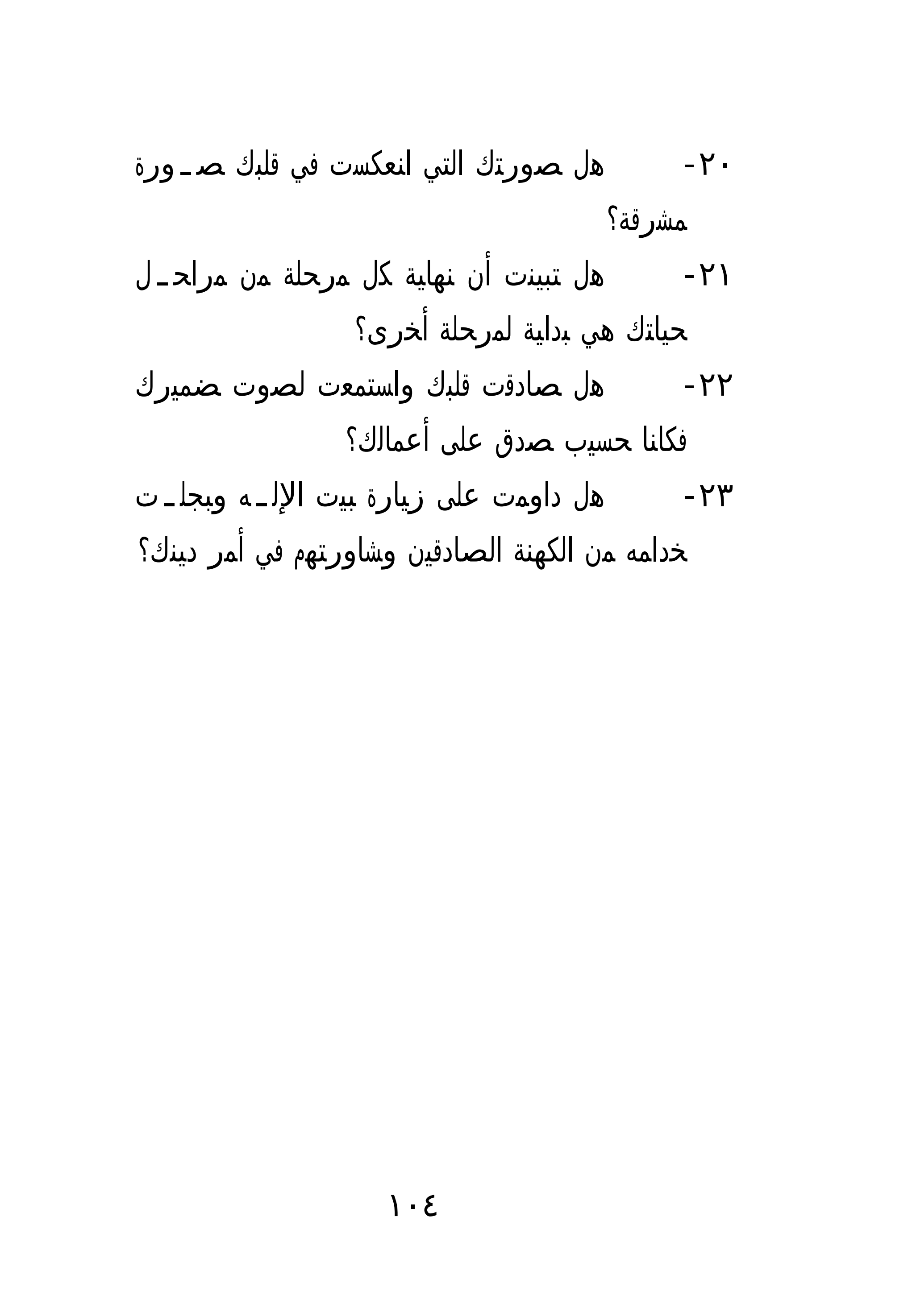
١٥- هل تعاملت في الأسواق بالعدل والأمانة ولم تسقط في الميزان؟

١٦- هل أخذك الغرور بـذكائك فعميـت عليـك حكمتك؟

١٧- هل ربطتك سلاسل الكراهية بإنسان؟

١٨- هل جلبت الرضا لقلب أمك.. والشرف لبيت أبيك؟

١٩- هل خنت جارك أو صديقك الذي ائتمنك على عرض بيته؟



٢٠- هل صورتك التي انعكست في قلبك صـورة مشرقة؟

٢١- هل تبينت أن نهاية كل مرحلة من مراحـل حياتك هي بداية لمرحلة أخرى؟

٢٢- هل صادقت قلبك واستمعت لصوت ضميرك فكانا حسيب صدق على أعمالك؟

٢٣- هل داومت على زيارة بيت الإلـه وبجلـت خدامه من الكهنة الصادقين وشاورتهم في أمر دينك؟

الفصل الثالث

الأعمدة السبعة للشخصية المصرية

أولا: انتماءات تاريخية أربعة

الانتماء الفرعوني، اليوناني الروماني، القبطي، الإسلامي

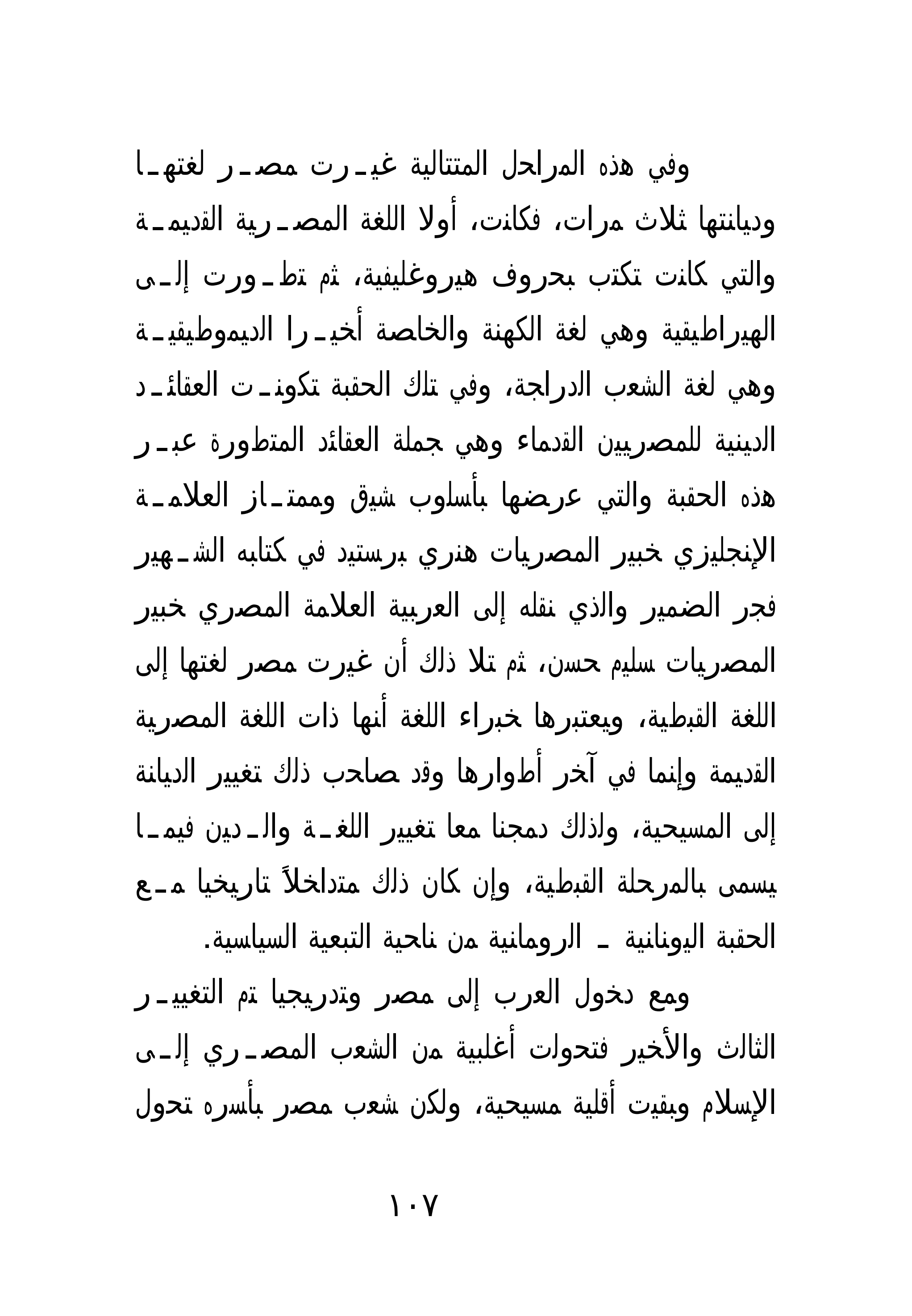
- أربعة أعمدة من التاريخ وثلاثة من الجغرافيا.
- داخل كل منا فرعون صغير أو كبير حسب موقعه.
- قصة بني إسرائيل وخروجهم من مصر، تاريخيا.
- لدينا عقدة كبرياء وعقدة نقص معا.
- آذان الصلاة يذكرني بألحان الكنيسة.
- انتشار الرهبنة في العالم بدأ من مصر.
- الكنيسة القبطية لم تتذوق السلطة المدنية أبدا.
- اضطهاد هرقل جعل الأقباط مرحبين بالعرب.
- مصر لم تفتح بحد السيف فكانت بداية طيبة.
- كان التحول إلى الإسلام والعربية بطيئا ولقرون.

٣

أولا: انتماءات تاريخية أربعة

إن ظاهرة التعددية في مصر Pluralism لا تقتصر على وجود المسيحية والإسلام، وتعايشهما أربعة عشر قرنا، هي عمر هذه المشاركة بأسرها على سطح البسيطة، ولكـن مصر تتمتع بعد ذلك وقبله بخصائص حضارية أثـرت فـي تكوين الشخصية المصرية وهي ما أرمز لها بالأعمدة السبعة التي تكون - وتؤثر في هذه الشخصية - موجـودة ولهـا تأثيرها في كل منا بدرجات متفاوتة، وذلك نتيجة كـل مـن التاريخ والجغرافيا على حد سواء.

فمن الناحية التاريخية لا بـد أن تكـون الشخصـية المصرية قد تأثرت بالرقـائق المتتاليـة للحضـارات التـي عاصرتها مصر والتي تمثلت في الحقبة الفرعونية بمراحلها المختلفة وما تلاها من الحقبة اليونانية - الرومانيـة وهـي متداخلة في المرحلة القبطية ثم الحقبة الإسـلامية بمراحلهـا المختلفة.



وفي هذه المراحل المتتالية غيرت مصر لغتها وديانتها ثلاث مرات، فكانت، أولا اللغة المصرية القديمة والتي كانت تكتب بحروف هيروغليفية، ثم تطورت إلى الهيراطيقية وهي لغة الكهنة والخاصة أخيرا الديموطيقية وهي لغة الشعب الدراجة، وفي تلك الحقبة تكونت العقائد الدينية للمصريين القدماء وهي جملة العقائد المتطورة عبر هذه الحقبة والتي عرضها بأسلوب شيق وممتاز العلامة الإنجليزي خبير المصريات هنري برستيد في كتابه الشهير فجر الضمير والذي نقله إلى العربية العلامة المصري خبير المصريات سليم حسن، ثم تلا ذلك أن غيرت مصر لغتها إلى اللغة القبطية، ويعتبرها خبراء اللغة أنها ذات اللغة المصرية القديمة وإنما في آخر أطوارها وقد صاحب ذلك تغيير الديانة إلى المسيحية، ولذلك دمجنا معا تغيير اللغة والدين فيما يسمى بالمرحلة القبطية، وإن كان ذلك متداخلاً تاريخيا مع الحقبة اليونانية ـ الرومانية من ناحية التبعية السياسية.

ومع دخول العرب إلى مصر وتدريجيا تم التغيير الثالث والأخير فتحولت أغلبية من الشعب المصري إلى الإسلام وبقيت أقلية مسيحية، ولكن شعب مصر بأسره تحول

إلى اللغة العربية، ومن ثم تكون شعب واحد يتحـدث لغـة واحدة وله خصائص حضارية وإنسانية واجتماعيـة واحـدة وإن كانت هناك ديانتان تعايشتا قرونا طويلة.

ولكي نوضح كيف أن هذه الرقائق من الحضـارات المختلفة تؤثر في تكوين الشخصية المصرية وتعطيها نكهـة خاصة ومذاقا مختلفًا يمكننا أن نقارن مصر بحالـة شـعب الصين - وهو شعب له حضارة قديمة وعريقة - إلا أنهـم في الصين قد احتفظوا - وبشكل عام - بذات الديانة وبذات اللغة عبر آلاف السنين.

أما من الناحية الجغرافية فقد أعطى موقـع مصـر خصائص وانتماءات لا فكاك منها وعلينا أن نسـتفيد منهـا ونستثمرها في تحركاتنا السياسية والحضارية والاجتماعيـة، فمصر كانت وستظل قلب الأمـة العربيـة بحكـم موقعهـا المتوسط بين ليبيا وتونس والجزائر ومراكش غربـا وبـين الأردن وفلسطين وسوريا ولبنان والعراق شرقا ثـم منطقـة الجزيرة العربية والسودان جنوبا وشرقا.

وتنتمي مصر إلى مجموعة شـعوب دول حـوض البحر الأبيض المتوسط جغرافيا وتاريخيا وقد انعكس ذلـك

على كافة صور الحضارة وعلى التركيبة النفسـية للإنسـان المصري فوجد في نفسه تشابها مع كثير من شعوب البحـر المتوسط، فمن يدرس بـتمعن التركيبـة النفسـية وملابـس وعادات أهالي الإسكندرية وبورسعيد ورشيد ودميـاط يجـد تشابها مع أهالي قبرص واليونان وتركيا وإيطاليا وغيرهـا فضلا عن بعض الدول العربية المطلة على البحر المتوسـط والتي تأثرت بحضارات البحر المتوسط كذلك.

وأخيرا فإنني أرى في انتماء مصر إلى أفريقيـا ـ وهو العمود السابع والأخير ـ هو انتماء المستقبل لمصـر، وإذا كانت مصر لم تكتشـف انتماءهـا الأفريقـي إلا منـذ الستينيات عندما سـاعد عبـد الناصـر حركـات التحـرر الأفريقية، لكنني أتصور أن الكثير من مشاكل مصر سـوف يحل من خلال الارتباط مع أفريقيا وبالذات في القرن القادم.

وقد عبر د. جمال حمدان في مؤلفه القيم شخصـية مصر ـ دراسة في عبقرية المكان ـ وبأسلوبه الفـذ عـن ذلك: فمصر إن تكن أفريقية بأرضها ومائها، إلا أنها قوقازية أوروبية بجنسها ودمائها، والمصريون بهذا المعنى أنصـاف أو أشباه أوروبيين، هي إذن قطعة من أفريقيا، غير أنها إلى

ذلك آسيوية التوجه والتاريخ والتأثير والمصير، إنها بآسـيا وإليها.

وفي المحصلة الصافية فإن مصر نصف أوروبيـة، ثلث آسيوية، سدس أفريقية وفي داخلها تبـدأ أوروبـا عنـد الإسكندرية وآسيا عند القاهرة، وأفريقيا عند أسوان.

ومن بين هذه الأعمدة أو الانتماءات السبع للشخصية المصرية ـ كما أراها ـ اختار جمال حمدان من الانتماءات التاريخية، الانتماء الفرعوني ومن الانتمـاءات الجغرافيـة الانتماء العربي ثم مزج بينهما في عبارات بليغـة فيقـول: فرعونية هي بالجد ولكنها عربية بالأب، غير أن كـلا مـن الأب والجد من أصل مشترك ومن جد أعلى واحد، فعلاقات القرابة والنسب متبادلة وسابقة للإسلام بل وللتاريخ.

ولهذا فإن التعريب ـ وإن كان أهم وأخطر انقطـاع في الاستمرارية المصرية ـ لا يمثل ازدواجية بل ثنائية فلا تعارض ولا استقطاب بين المصرية والعربيـة وإنمـا هـي اللحمة والسداة في نسيج قومي واحد.

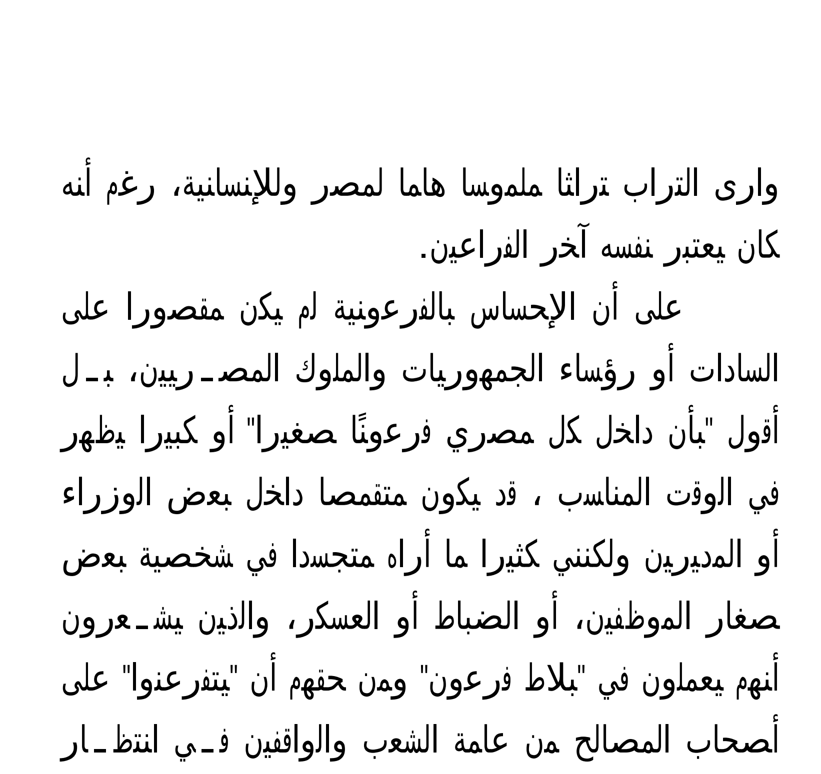
دعنا إذن نناقش ونستعرض ـ في شيء من التفصيل ـ هذه الانتماءات أو الأعمدة السبعة والتـي أثـرت علـى

التركيبة الخاصة للشخصية المصرية وأمدت حاضرها بتراث مجيد، وذلك قبل أن نستطرد في الحوار حـول الانتمـاءات الفردية - والتي تحتاج مـع هـذه الأعمـدة السـبعة إلـى "مايسترو" يكون منها ومعها "سيمفونية".

العمود الأول: الانتماء الفرعوني

إن إحساس المصري بفرعونيته يختلف من شـخص إلى آخر ومن فئة إلى أخرى، وقد تغيـر هـذا الإحسـاس بالانتماء الفرعوني عبر تاريخ مصر الطويل، ففـي عهـود القهر والاحتلال والتخلف يطمس الانتماء الفرعـوني لأنهـم يصورونه وكأنه نوع من "الكفر" لأن الفراعنة قد عبدو آلهة رمزوا لها بحجارة وتماثيل، وبهـذا الفهـم السـاذج ألقـوا بالمومياوات قديما في مناطق مهجـورة ووصـفوها بأنهـا "مساخيط" تجلب الشؤم وتحمل السحر.

ولم أكن مصدقا ما نشر من رغبة الرئيس السـادات بأن تقوم الدولة بدفن المومياوات في مقابر خاصـة بعـد أن تجرى مراسيم الدفن وفق الشعائر الدينية السائدة الآن. حمدا أن مات السادات قبل أن يحقق هذا العمل، وإلا لكان قـد



وارى التراب تراثا ملموسا هاما لمصر وللإنسانية، رغم أنه كان يعتبر نفسه آخر الفراعين.

على أن الإحساس بالفرعونية لم يكن مقصورا على السادات أو رؤساء الجمهوريات والملوك المصريين، بل أقول "بأن داخل كل مصري فرعونًا صغيرا" أو كبيرا يظهر في الوقت المناسب ، قد يكون متقمصا داخل بعض الوزراء أو المديرين ولكنني كثيرا ما أراه متجسدا في شخصية بعض صغار الموظفين، أو الضباط أو العسكر، والذين يشعرون أنهم يعملون في "بلاط فرعون" ومن حقهم أن "يتفرعنوا" على أصحاب المصالح من عامة الشعب والواقفين في انتظار موافقتهم أو إمضاءاتهم، ولعل هذا هو أحد أسباب رسوخ مفاهيم البيروقراطية في مصر، من "الخفير إلى الوزير".

ويعود اعتزاز المصريين بالانتماء الفرعوني إلى أن مصر قد قدمت للعالم بالفعل أقدم حضارة معروفة ومدونة في العالم، وأشك في أنه توجد دولة أو حضارة أخرى تضاهي حضارة مصر في انتشار آثارها في كل متاحف للعالم من اللوفر وحيث مسلة مصر في قلب أكبر ميدان في باريس إلى المتحف البريطاني ومسلة أخرى على نهر

التيمس في لندن، وفي أمريكا ولييننجراد وغيرها، وقد دهشت وأنا طالب للدراسات العليا في اسكتلندا، أن وجدت مومياوات مصرية قديمة مهداة من مواطنين من اسكتلندا إلـى متحـف مدينة بيرث Perth وهي مدينة صغيرة جـدا بـين أدنبـرة وداندي.

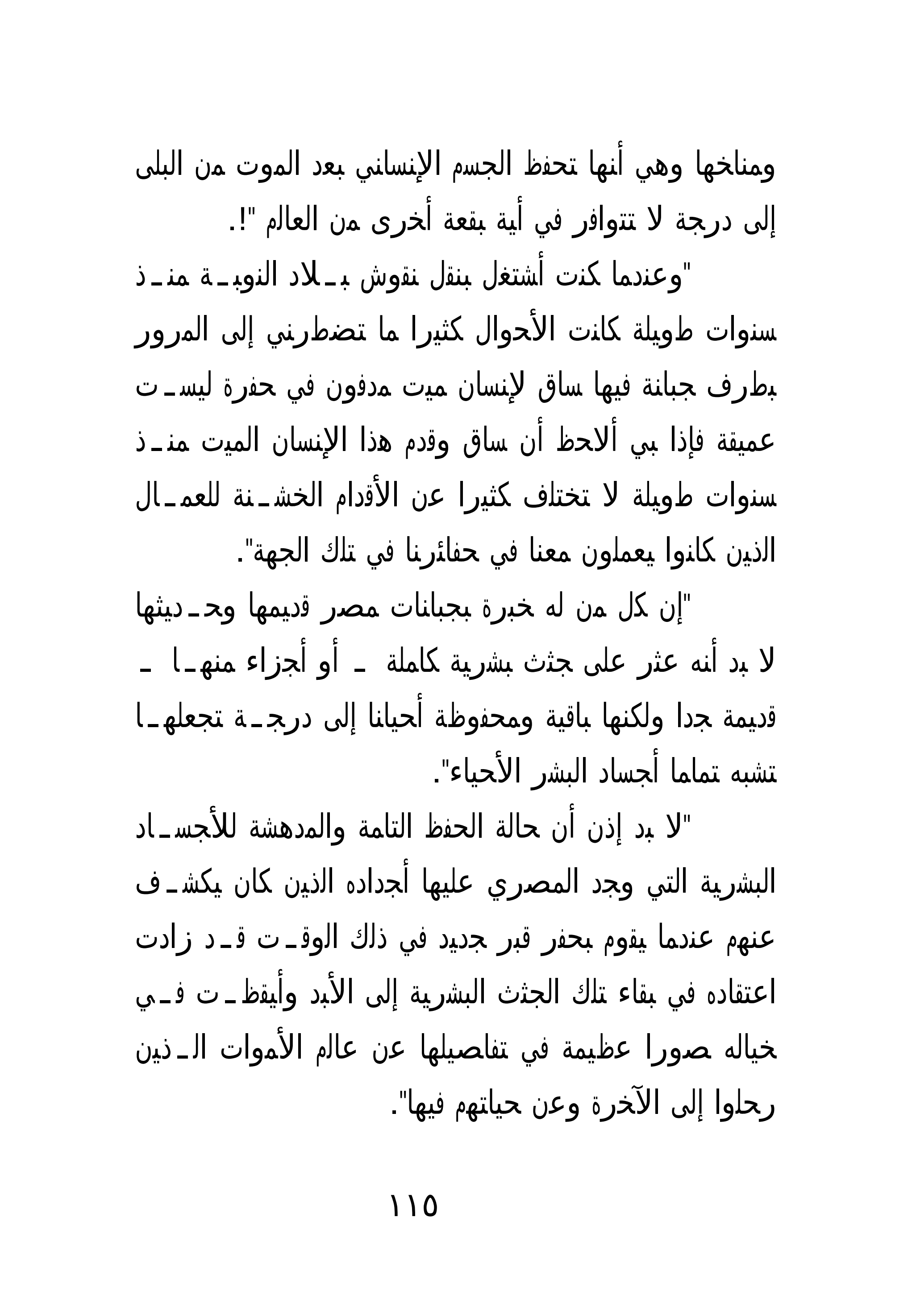
وعلى هذه الآثار سجلت كافة أوجه النشاط الإنساني من مأكل ومشرب وملبس وأدوات تجميـل وآلات موسـيقى وأدوات إنتاج زراعي وأساليب الكتابة والنقش على الصـخر وجدران المعابد، وتشكيل التماثيل للإنسان والحيوان من كافة الأحجام وفنون التحنيط وغير ذلك من أمور الـدنيا والحيـاة اليومية وسجل كذلك علوم الفلك والرياضة والطب والفلسـفة فضلاً عن أنها أقدم تنظيم لدولة وإدارة لشئون الحكم ولتنظيم الحياة ومياه الري في أقدم مجتمع راعي مستقر ومستتب.

وما من فرع من فروع العلم له بدايـة تاريخيـة إلا ويحاول المؤلف أو الكاتـب أن يتعـرف علـى مـا قدمـه المصريون القدماء في هذا المجال، وأذكر أن زميلاً وصديقًا إنجليزيا ـ ديرك برادلي أستاذ الهندسة الميكانيكية في جامعة ليدز ـ حضر لزيارة مصر وكان أحد أهدافه دراسة التشحيم

عند قدماء المصريين وماذا كانوا يصنعون عند دوران العجل المستخدم في الحروب على المحاور المعدنية وكـان ذلـك مقدمة كتابه عن علم "التشحيم والتزييت" في وقتنا الحالي.

وستظل الاكتشافات تتوالى على مر الأيام والسـنين لكنوز قدماء المصريين، ولكنني أعتقد أن ما عرفنـاه مـن الحجارة والنقوش للمعابد والمقابر قد يكون كافيا، ولكن الأهم من ذلك هو معرفة وفحص ما ظهر ويظهر مـن البرديـات التي توضح الشعر والأدب والفن والمعتقـدات والعلاقـات الإنسانية والبشرية.. فهي في مجملهـا لا تـزال غامضـة، والكتابات عنها ليست كثيرة، ومن هنا.. فقد وجدت في كتاب "فجر الضمير" للعلامة الإنجليزي الشهير وخبير المصريات Breasted بريستد.. ما يشفي شغفي ولو بصورة جزئيـة، وأستسمح القارئ في أن أنقل إليه بعض المقاطع (٢):

".. الواقع أنه لا يوجد شعب قـديم أو حـديث بـين شعوب العالم احتلت في نفسه فكرة الحياة بعد الموت، المكانة العظيمة التي احتلها في نفس الشعب المصري القديم، ومـن الجائز أن ذلك الاعتقاد الملح في الحياة بعد المـوت كانـت تعضده كثيرا، وتغذيه تلك الحقيقة المعروفة عن تربة مصر،



ومناخها وهي أنها تحفظ الجسم الإنساني بعد الموت من البلى إلى درجة لا تتوافر في أية بقعة أخرى من العالم "!.

"وعندما كنت أشتغل بنقل نقوش بـلاد النوبـة منـذ سنوات طويلة كانت الأحوال كثيرا ما تضطرني إلى المرور بطرف جبانة فيها ساق لإنسان ميت مدفون في حفرة ليسـت عميقة فإذا بي ألاحظ أن ساق وقدم هذا الإنسان الميت منـذ سنوات طويلة لا تختلف كثيرا عن الأقدام الخشـنة للعمـال الذين كانوا يعملون معنا في حفائرنا في تلك الجهة".

"إن كل من له خبرة بجبانات مصر قديمها وحـديثها لا بد أنه عثر على جثث بشرية كاملة - أو أجزاء منهـا - قديمة جدا ولكنها باقية ومحفوظة أحيانا إلى درجـة تجعلهـا تشبه تماما أجساد البشر الأحياء".

"لا بد إذن أن حالة الحفظ التامة والمدهشة للأجسـاد البشرية التي وجد المصري عليها أجداده الذين كان يكشـف عنهم عندما يقوم بحفر قبر جديد في ذلك الوقـت قـد زادت اعتقاده في بقاء تلك الجثث البشرية إلى الأبد وأيقظـت فـي خياله صورا عظيمة في تفاصيلها عن عالم الأموات الـذين رحلوا إلى الآخرة وعن حياتهم فيها".

"وقد بدأ أقدم تلك الاعتقادات وأبسـطها فـي زمـن سحيق في القدم.. حتى أنه لم يبق لها ذكر في الآثـار التـي وصلت إلينا.. وقد حفرت آلاف من هذه القبور الواقعة على طول حافة وادي النيل الخصب مما يرجع تاريخ أقدمها إلـى الألف الخامسة قبل الميلاد".

"والمفروض أنه قد مضى ما لا يقل عن ١٥٠٠ سنة على عهد هذه المعتقدات القديمة الممثلة في هذه المدافن إلـى أن وصلنا إلى مرحلة ظهور أقدم الوثائق المدونة التي تكشف عن عقيدة دينية نامية لشعب يسمو بسرعة نحـو حضـارة مادية راقية، إذ يمكننا أن نتتبع طريق هذا الرقي أثناء عهـد الاتحاد الثاني الذي بدأ حوالي سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد".

"لقد كان للمصري القديم تصوره الخـاص لطبيعـة الإنسان ويتصور أن شخصية الإنسان الحقيقية في الحيـاة.. وتحتوي على الجسم المادي "الظاهر" فضلاً عن الفهم الباطن ومقره في اعتقاده هو "القلب" أو "الجوف" وهمـا التعبيـران الرئيسيان عن العقل ويحتوي هذه الشخصـية أيضـا علـى الجوهر الحيوي المحرك للجسم ويقصد بـه "الـنفس" كمـا يلاحظ عند الكثير من الشعوب الأخـرى.. غيـر أن هـذا

الجوهر الحيوي لم يكن مميزا بشكل ظاهر عن العقل، وكان الاثنان يمثلان معا في رمز واحد هو طائر له رأس إنسـان وذراعاه، ونجده مصورا في المناظر التـي علـى القبـور، وعلى توابيت الموتى يرفرف على المومياء، ويمـد لأنفهـا بإحدى يديه صورة شراع منشور، وهذا الشراع هو الرمـز المصري القديم "للهواء" أو "للنفس" ويحمل في يده الأخـرى علامة هيروغليفية ترمز للحياة، والمصريون يسـمون هـذا الطائر الصغير الممثل برأس إنسان وجسم طائر "با".

" وعندما يبتدئ المتوفى حياة جديدة في الآخـرة لا يعرفها. كان يساعده في ذلك ملاك يحرسه يسمى "كا" يظهر في الوجود مصاحبا لكل إنسان من وقت ولادته ويرافقه فـي كل حياته حتى ينتقل قبله إلى العالم الآخر".

انتهى نص الفقرات من كتاب فجر الضمير.

وقد استوقفني هذا التشابه المصري القـديم ووجـود ألبا والكا أو الظاهر والباطن ووجود الجسم والعقل وما هـو معروف عند فلاسفة الهنود الأقدمين الذين قـدموا اليوجـا، وأخيرا نشر عالم الطبيعة الشهير ماهواريشي ماهيشي يوغي طريقـة فـي "التأمـل التجـاوزي" Transcendental

Meditaion للمصالحة بين الجسم والعقل وصولاً إلى المنبع اللامحدود من الذكاء والإبداع والطاقة الكامنة في أعماق كل منا والتي تربط بين البشر جميعا.

وربما تثبت الكشوف الأثرية في قرن قادم علاقة ما بين فكر الفراعنة في مصر وفكر الحكماء والمتصوفين في الهند!!

ومن الناحية الفكرية والأدبية قدم الفراعنة نماذج للشعر والفكر والحكمة في صورها وابتكروا قصصا وأساطير دينية كونت عقائد كثيرة للحياة وفيما بعد الموت ثم الثواب والعقاب، وقد أثرت كل تلك العقائد في صياغة الديانات في منطقة الشرق الأوسط، والتي نسميها الديانات السماوية ويسمونها في الغرب الآن بالديانات الإبراهيمية Ibrahamian Religions وذلك لأنها كلها تُجمع على أن نقطة الالتقاء لها جميعا هو سيدنا إبراهيم خليل ا .

ووفق قصة التوراة فإن إبراهيم عاش في الجزء الأول من بدايات الألف الثانية قبل الميلاد أي نحو سنة ١٨٠٠ ق. م وقد نشأ في أور (وهي مدينة في العراق الآن)، أو في حران في بيئة تعبد الإله سن رب القمر "زين" وثار

إبراهيم على عبادة قومه ودعا للتوحيد وهاجر غربـا إلـى كنعان مع مريديه، واستمرت فكرة التوحيد في نسل إبـراهيم وعبر إسحاق ويعقوب (إسرائيل) حتى موسى والذي يـرى كثير من العلماء أنه ينتمي إلى القرن الثالث عشر ق. م.

ويقول د. لويس عوض في مؤلفه المرجعي "مقدمـة في فقه اللغة العربية" (٣) أن بني إسرائيل كانوا قبائل مسالمة جاءوا يطلبون الكلأ من شرق سيناء في إقليم جوسن حـول بحيرة المنزلة بسبب جفاف ديارهم، وكان ذلك أيـام حكـم الهكسوس لمصر، وعاشوا في كنفهم وفي خدمتهم في شـرق الدلتا.

وربما كان "عزيز مصر" الذي ارتفع يوسف الصديق في بلاطه هو ملك الهكسوس "أسـيس" Assis أو كرتـوس Kertas الذي ورد ذكره في ماينيتون وفي بردية تورين هو آخر الهكسوس العظام الذين يبـدو مـن تسلسـل الأدب أن عصره السعيد قد انتهى بهذه المجاعة التي تسمى "بالسـنين السبع العجاف" ومعنى هذا أن دخول بني إسرائيل مصر كان نحو ١٦٥٠ ق. م. وأنهم لم يرحلوا عن مصر مع الهكسوس المطرودين عام ١٥٦٧ ق. م بل ظلوا فـي الـبلاد نصـف

متمصرين ومتركزين أساسا في شرق الـدلتا حيـث كانـت أفاريس والتي أسسها الهكسوس (وهي قرب تل الضبعة الآن) حيث أقاموا فيها أكثر من قرنين حتى بعد أن أقام رمسـيس الثاني مدينة "بي ـ رمسيس" في ذات الموقع.

أما قصة خروج بني إسرائيل من مصر بالمطـاردة والعنف كما وردت في التوراة فتتفق مع النصوص المصرية القديمة الخاصة بطرد الهكسوس على يد أحمس وبطرد بنـي إسرائيل على يد منفتاح بين ١٢٢٣، ١٢١٥ ق. م.

ورواية التوراة تقول إن موسى ولد أيـام اضـطهاد المصريين لبني إسرائيل وكان الأمر المفروض علـى كـل أسرة إسرائيلية أن تقتل كل ذكر يولد لها وقد حرصت أمـه على إنقاذ حياته فوضعته في سلة وهو لا يزال فـي شـهره الثالث وتركته على شاطئ النهر حيث اعتادت ابنة فرعـون أن تستحم، فلما وقع بصرها على الطفل رق له قلبها فأنقذته وتبنته، وبالطبع نشأ في بلاط فرعون.

أما رواية مـانيتون ـ ولا زال الكـلام والروايـة للدكتور لويس عوض ـ فهي أن موسى كان كاهنًا مصـريا في معبد رع بهليوبوليس ويحمل اسم "سريف" وكانـت لـه

دعوة دينية جديدة، فخرج على كهنة رع وهاجر إلى "أفاريس" عاصمة الهكسوس وهناك أقام بينهم وعلمهم ديانته وأعطاهم شرائعه ثم قادهم في خروجهم من مصر وقد سموه في أفاريس "موسى" بمعنى "ابن النهر" (انتهى النص).

وليس الهدف هنا هو محاولة إيجاد صياغة توفيقية بين ما ورد في التوراة وبين ما أمكن للتاريخ أن يحققه، وإنما أردت أن أبرز أن هناك بالفعل علاقة فكرية بين عقائد قدماء المصريين وبين عقيدة موسى ويقال إن هناك تأثيرا واضحا بين ثورة إخناتون التوحيدية وبين ما بلوره موسى في العقيدة اليهودية. كما أثرت أدبيات إخناتون على مزامير داود وأمثال سليمان.

ويبدو لي الآن من خلال قراءاتي المتأنية للمؤلف المصريولوجي - أي عالم الآثار للمصريات وعهد الفراعنة - جيمس هنري بريستد في كتابه "فجر الضمير" أن هذه القضية قد احتلت حيزا محترما من فكره،من منطلق أنه دارس لنصوص برديات الفراعنة، ومتابع جيد لنصوص التوراة، فهناك أورد في الفصل السابع عشر بعنوان "مصادر إرثنا الخلقي" عشرات المقارنات بين نصوص كتبها أمينوبي

الحكيم المصري القديم، وبين نصوص أخرى كثيـرة وردت في سفر الأمثال: (في التوراة) وكذلك نصوص أخرى فـي أشعياء - وأرميا - وسفر "أناشيد الإنشاد" وإلـى التشـابه المدهش الموجود بين المزمـور ١٠٤ - وبـين الأنشـودة الإخناتونية المنظومة لإله الشمس.

ويستخلص بريستد من كل ذلك: "أن النتائج الأساسية التي قامت وستقوم عليها دعامة المبادئ الأخلاقية في الحياة المتحضرة في أيامنا.. كانت قد اهتدت إليها الحياة المصرية قبل الوقت الذي ابتدأ فيه العبرانيون تجاربهم الاجتماعية في فلسطين بزمن طويل كما كانت تلك المبادئ الخلقية المصرية موجودة فعلا في فلسطين بصورة مدونة منذ قـرون عـدة حينما استوطنها العبرانيون (٤).

على أن الأمر لا يقتصر على عقائد قدماء المصريين الدينية، ولكن نصوص بعض البرديات العامة قد صورت لنا الأساطير والحكم والفكر السائد لديهم عبر عصـور الحقبـة الفرعونية على امتدادها.

ومن أشهر وأهم هذه الوثائق القديمـة مـا يعـرف بتحذيرات الحكيم "إبور" وتنبؤات الكاهن "نفوروهو" ثم القصة التي أصبحت تعرف باسم "شكوى الفلاح الفصيح".

وفي مقدمـة كـل هـذا الأدب الشـعبي أسـطورة "أوزوريس" أو "أوزير".. والتي عاشت لقرون طويلة جدا منذ ما قبل الأسرات حتى اعتنق المصريون المسيحية، وتتلخص الأسطورة في: أن الملك الإله "ست" ملك وإله يخافه النـاس ولا يحبونه، ذو لون أحمر، ويأتي أعمالاً شريرة لونها أحمر، وهو عدو للخير، وهو متعسف تخافه وتخشاه كل الآلهة، هذا الملك والإله "ست" قام بالخديعة بقتل أخيه "أوزوريس" طمعا في عرشه، إذ كان الملك الإله "أوزوريـس" يضـفي عليـه المصريون كل الفضائل والصفات الطيبة وهو الـذي يثبـت دعائم العدل والحق في كل مكان، ويهب الناس الحيـاة مـن أنفاسه.

وتسعى "إيزيس" لأن تنجب من "أوزوريس" الميـت فيكون "حورس" هو المخلص لمصر والمصريين من الملـك الإله الشرير "ست"، إن المخلص الذي هو "حورس" قد أشار إليه الحكيم "أبور" في غموض حينما قال محددا سماته: "فهو

يطفئ اللهيب ويقال إنه راع لكل الناس، ولا يحمل في قلبـه شرا".

وفي تنبؤات الكاهن "نفرروهو" يذكر أنه سيأتي ملك من الجنوب اسمه "أميني" وهو ابن امرأة نوبية، ينشر السلام في الأرضين ـ يعني الوجهين القبلي والبحري ـ وسـيفرح أهل زمانه وسيجعل ابن الإنسان اسمه باقيا إلى أبد الآبـدين (٥).

ويعتقد كثير من العلمـاء أن ترحيـب المصـريين بالمسيحية يرجع إلى أن مبدأ التثليث كـان معروفـا سـائدا ومقبولا لقرون طويلة ويكون جـزءا مـن عقيـدة قـدماء المصريين، ولعل أشهرها هو مـا يعـرف بثـالوث طيبـة والمكون من آمون الإله الأوحد الخفي وزوجته موت وابنهم خنسو. ومن هنا كان تقبلهم ببساطة للثـالوث المقـدس فـي المسيحية ـ وهو الأب والابن والروح القدس إله واحـد ـ فضلا عن أن علامة عنخ والتي تعني مفتـاح الحيـاة عنـد المصريين القدماء تشبه إلى حد كبيـر علامـة الصـليب + والذي صار رمز الخلاص في المسـيحية، كمـا أن هنـاك إجماعا على أن كلمة (آمين) والتي تقال فـي ختـام كافـة

الصلوات في كل من المسيحية والإسلام، ما هي إلا تحـوير بسيط للفظ الإله آمون".

ومن هنا كان حماس أقباط مصر للانتماء الفرعوني، ليس لأنهم يعبدون إله المصريين والقـدماء ولكـن لأنهـم يشعرون أن في ذلك عمقًا تاريخيا لعقيدتهم المسيحية وتأكيدا لانتمائهم لتراب هذا الوطن بكل تراثه.

وتوجد بالفعل روابـط بـين الممارسـات الدينيـة والطقوس في كنيسة الأقباط الأرثوذكس (والتي أصلها أورتا ـ دوكسا أي العقيدة العقيدة الصحيحة) وبين ما هو معروف من ممارسات "كهنوتية" في معابد قدماء المصريين، وربمـا كان ذلك واضحا في طريقة بناء الكنائس وتقسيمها إلى مذبح وخورس ثم قاعة الصلاة لعامة الشعب وذلـك علـى نمـط المعابد القديمة حيث كانت الذبيحة بالفعل في مقدمة المعبد أي في الجزء الأمامي منه ثم مكان للكهنة قريب من المذبح ثـم القاعة الكبرى لجمهور المصلين، وأعتقد شخصيا أن هنـاك تشابها واضحا بين الوصف الذي ورد فـي العهـد القـديم "التوراة" والخاص بهيكل سليمان وبين ما نراه بالفعـل فـي معابد الأقصر كل سنة ليقدم فيه الذبيحة عـن نفسـه وعـن

الشعب، يكاد يكـون ذات المصـطلح وذات الكلمـات فـي النصين، أعني النص المستخدم عند قدماء المصريين والنص الوارد في "الكتاب المقدس" (٦).

وليس لدي دليل علمي، ولكنني أتصور أن الألحـان والموسيقى والأنغام التي لا زالت مستخدمة وتمـارس مـن خلال الصلوات في كنائس الأقباط حتى اليوم هـي امتـداد لموسيقى وألحان وأنغام كانت تمارس في زمن المصـريين القدماء، لا بد أن الكلمات قد تغيرت وبعض النغم قد تعـدل ولكن السلم الموسيقي واللحن لا بد وأن يكون مـن أصـول واحدة، كما أتصور أن الأدوات والآلات الموسيقية البسـيطة والتي تستخدم اليوم في الكنائس أو تلك التي ورد ذكرها في المزامير والتوراة، لا بد وأن تكون مأخوذة مـن ذات الآلات التي استخدمها المصريون القدماء والتي سجلوا صورها على معابدهم.

بل لعلي أتجاسر لأذهب لأبعد من ذلـك فـأقول إن الكثير من الممارسات والتقاليـد - وبالـذات فيمـا يتعلـق بإجراءات الوفاة والجنازات - قد انتقل من الفراعنـة إلـى الأقباط المسيحيين ثم إلى الأقباط المسلمين (أي المصـريين

الذين أسلموا) وما ممارسات عمل السرادقات وولائم "تقـديم الصواني" وإقامة موائد الطعام عند الوفاة ثم احتفال ذكـرى "الأربعين" وغيرها ما هي إلا استمرار لما تعودناه منذ وقت الفراعنة.

وفي حوار مع الأستاذ فهمي هويدي، اتفق معي على أن بعض الألحان لا بد وأن تكون قد انتقلت إلـى قـراءات القرآن وبالذات فيما يتعلق بالأذان، لأنني شخصـيا أطـرب لسماعه وعندما أغمض عيني أشعر أنه لا يختلف كثيرا عن نغم وألحان تقال في الصلوات للقداسات الكنسـية كمـا وأن التواشيح الدينية الإسلامية لا بد وأن تكون قد تأثرت كـذلك بنوعية الألحان المقبولة لدى شعب مصر من آلاف السنين.

على أن الانتماء الفرعوني هو إحساس داخلي لـدى كل مواطني مصر دون استثناء بحيـث يعطـي المصـري مشاعر الاعتزاز والفخر، لأنه إذا كانت الدنيا كلهـا تشـهد وتشيد بحضارة مصر القديمة فلماذا نحرم المصريين من هذا الاعتزاز والفخار ولذلك فقد تولد لدى المصري مـا يسـمى بعقدة الكبريـاء Superiority Complex غيـر أن ذلـك ممزوج للأسف مع عقدة الـنقص Inferiority Complex.

نتيجة ما يلمسه المصري من واقع بلاده الآن إذا قارنه بدول أخرى متقدمة، ليس فقط في أوروبا وأمريكا ولكن في اليابان وكوريا وسنغافورة والهند وغيرها.

على أنني أدرك أن تاريخ الفراعنة لـم يكـن كلـه أمجادا وانتصارات وحضارة لأنه ممتد وطويل، خصوصا إذا قيس بالبعد الزمني للرقائق التالية له، والتي لا يتجـاوز أي منها أكثر من نحو ألف سنة، فإن جملة حضارة المصـريين القدماء المعروفة تصل إلى نحو خمسـة آلاف سـنة قبيـل الميلاد شاملة حضارة ما قبل الأسرات المتعاقبة.

إن الحقبة الفرعونية المسجلة والمعروفـة والمدونـة باسم ملوكها تمتد وحدها إلى نحو ثلاثة آلاف سنة، ولا أجـد غضاضة في إعادة التذكير بها بكل ما تشمل من عهود تقدم أو فترات اضمحلال، وقد وجدت في كتاب الدكتور ناصـر الأنصاري ملخصا جيدا وقد استمده - وفقد مـا ذكـر فـي مقدمة الكتاب من وثائق ومصادر معتمدة وهي حجر باليرمو وبردية تورينو وكتابات المفكر الإغريقي هيرودت في القرن الخامس قبل الميلاد والكاهن المصري مانيتون فـي القـرن الثالث الميلادي (٧).

وتتكون الحقبة الفرعونية من عدة مراحل أو عصور على النحو التالي (٨):

١ ـ العصر العتيق:

ويمتد لنحو ٣٢٠ عاما من حوالي ٣١٠٠ ق. م على ٢٧٧٨ ق. م ويشمل حكم الأسرتين الأولى والثانيـة وهـو عصر إقرار الوحدة السياسية لمصر وإرساء أسس الحضارة المصرية على قواعد صلبة ويبدأ بالملك نارمر (مينا) موحد القطرين عندما أسس عاصمته عند رأس الدلتا تقريبا وأسماها "القلعة البيضاء" والتي عرفت فيما بعد باسم "منف" ويعتقد أن مينا هو نارمر صاحب اللوحة المشهورة في متحف القـاهرة والتي تصوره لابسا تاجه المزدوج وتعتبره قوائم الملوك أول ملك والجد الأكبر لجميع الفراعنة.

ويطلق الأقباط هذا الاسم على أبنائهم لأنه صار اسم قديسين وشهداء كثيرين في العهد القبطي عبر السنين، لعـل آخرها هو اسم البابا كيرلس السادس (تـوفي عـام ١٩٧١) عندما كان راهبا قبل أن يصير بطريركا إذ كان اسمه مينـا المتوحد، وهو ذات اسم الدير الشهير الذي أحبه وهو راهب

في منطقة كنج مريوط في الصحراء قبل الدخول إلى مدينـة الإسكندرية وقد أصبح الدير الآن مزار الكثيرين.

٢ ـ عصر الدولة القديمة "بناة الأهرام":

ويمتد لنحو ٥٠٠ عام من حوالي ٢٧٧٨ ق. م إلـى ٢٢٦٣ ق. م ويشمل الأسرة الثالثـة والرابعـة والخامسـة والسادسة وقد جرت عادة الفراعنة في هذا العصـر علـى تشييد أهراماتهم بالقرب من مقر الحكم، وكان أول وأشـهر ملوك الأسرة الثالثة هو "زوسر" والذي أمـر ببنـاء الهـرم المدرج المشهور في سقارة حيث بناه مهندسـه المعمـاري والإنشائي الطبيب الفيلسوف ذائع الصيت "أمحوتب".

أما ملوك الأسرة الرابعة فهم أولا "سـنفرو" ويليـه "خوفو" وهو الذي بنى الهرم الأكبر المعروف باسـمه فـي الجيزة ويليه "ددف رع" ويليه "خع أف رع" والتـي تنطـق بالعربية "خفرع" وهو باني الهرم الثاني بالجيزة ثـم "منكـاو رع" "منقرع" وهو باني الهرم الأصغر في الجيـزة وهنـاك ملكان آخران في الأسرة الرابعة وتسعة ملوك فـي الأسـرة الخامسة وخمسة ملوك في الأسرة السادسة.

٣ ـ عصر الانتقال الأول:

ويمتد لنحو ١٠٠ سنة من ٢٢٦٣ ق. م على ٢١٦٠ ق. م ويشمل الأسرة من السابعة حتى العاشرة، وهذه الفتـرة تمثل حقبة تفكك الحكم وعـدم وجـود القبضـة المركزيـة الفرعونية، ولذلك فإن أغلب أسماء الملوك والأسر في هـذه الحقبة غير معروفة تماما كما أن مدد حكمهم غيـر محـددة بيقين. ولكنها في المقابل اتسمت بالرقي في الأدب والكتابـة، وبالفعل وضعت لها قواعد وظهرت أساطير دينية وقصـص وأناشيد وأغان وبعض الحكم والأمثال، وفيها ظهرت ما كان يسمى "شكاوى وقصص الفلاح الفصيح" وغيرها مما سـبق الإشارة إليه.

٤ ـ عصر الدولة الوسطى:

وتمتد لنحو ٢٧٥ عاما من ٢١٦٠ ق. م على ١٧٨٥ ق. م وتشمل الأسرتين ١١، ١٢ حيـث أصـبحت الأمـور مستقرة وموحدة مرة أخرى وبالذات في عهد الملك حبت رع (منتوحبت الثاني) وهو الخامس في ملوك الأسـرة ١١ ثـم تصدى ملوك الأسرة ١٢ لحكام الأقاليم ولذا ظهرت المعاناة

في فنونهم ولكن مصر شهدت في هذه الحقبة عناية خاصة بالزراعة وخاصة بمنطقة الفيوم.

٥ ـ عصر الانتقال الثاني:

ويمتد لنحو ٢٢ سنة من عام ١٧٨٥ ق. م على ١٥٨٠ ق. م وتضم الأسر من ١٣ إلى ١٧ وفي أثناء هذه الفترة تم احتلال الهكسوس لمصر ويقال إن ذلك حدث بعد استيطان بعض القبائل السامية في شرق الدلتا وهم من صاروا يعرفون بعد ذلك ببني إسرائيل بعد خروجهم من مصر أيضا كما سبق القول.

والهكسوس قوم أتوا من الشرق وشيدوا عاصمتهم في شرق الدلتا في مدينة أواريس ولم يكن جنوب البلاد تحت سيطرتهم ولكن أمراء الجنوب كانوا يرسلون لهم الجزية.

وقد ورد في نص لحتشبسوت إشارة إلى "زمن فاجع حكم فيه الآسيويون مصر" "بدون رع" والمقصود هنا "بدون مخافة ا " أي أنهم كفار.

وقد بدأ الكفاح ضد الهكسوس من وقت الملك سقنن رع ثالث ملوك الأسرة السابعة عشرة والمعروف باسم (تاها قن) أي (تاعا الشجاع) والمرجح أنه مات في ساحة القتال

وتبعه ابنه كامس ولعله قتل هو الآخر في المعركـة ولكنـه ترك أخاه "أحمس" لكي يطرد الهكسوس وينشئ الأسـرة ١٨ الشهيرة وهي بداية العهد الإمبراطوري لمصر.

٦ ـ عصر الدولة الحديثة والمسمى بعهد الإمبراطورية:

من المؤكد أن حرب التحرير ضد الهكسوس الغـزاة قد أكسبت المصريين قدرات في التنظيم للحـرب، فبعـد أن طرد "أحمس" الهكسوس من عاصمتهم أواريس فـي شـرق الدلتا، تابعهم وحاصرهم في آخر معاقلهم فـي "شـاروهين" قرب العريش وذلك لمدة ٣ سنوات إلى أن طـردهم خـارج سيناء.

وقد استمر أحمس في غزواته شمالا ففتح فلسـطين وسوريا أي بلاد الشام شمالا ووصل إلى نهر الفرات شـرقا ثم فتح وسيطر على الجنوب حتى الشلال الرابع على النيل.

وفي عهد الأسرة ١٨ ازدهرت الفنون والعلوم وتـم بناء معابد الأقصر والكرنك، وأهم ملوك هذه الأسرة بخلاف أحمس الأول، أمنحتب الأول وتحـتمس الأول والثـاني ثـم

حتشبسوت ثم يأتي بعد ذلك الملك الجبـار تحـتمس الثالـث والذي قاد وجهز لنحو ١٧ حملة عسكرية استمرت ٢٠ سنة متواصلة ويجمع المؤرخون على أنه أول قائد حربي يبتكـر فكرة تقسيم الجيش إلى صدر أو قلب وجناحين وفـي عهـده امتدت الإمبراطورية وتوسعت إلى بلاد الشام ولبنان شـمالا ثم العراق (بلاد ما بين النهرين) شرقا وتوغل جنوبـا فـي السودان.

ومن ملوك هذه الأسرة الملك المشهور إخناتون وقد أحدث انقلابا دينيا إذ عبد قرص الشمس أتـون دون سـواه، رمزا للتوحيد، ونقل العاصمة من طيبة (الأقصر) إلـى تـل العمارنة (بمحافظة المنيا) ولكن تم التآمر عليه لظروف ليس هذا موقعها، وجاء بعده (توت عنخ آتون) والذي غير اسـمه إلى (توت عنخ آمون) ولعل مقبرته تعتبر بحق أجمل المقابر التي اكتشفت حتى الآن وأكثرها جمالا وتحفا حيـث أحـدث اكتشافها في أوائل العشرينيات دويا عالميا هائلا لما احتوتـه من كنوز ترمز إلى قمة الفن والجمال ولأنها مـن المقـابر القليلة التي لم تنقب بملوك لاحقين.

وتمتد فتـرة الازدهـار للدولـة الحديثـة المسـماة "الإمبراطورية" لتشمل ملوك الأسرة ١٩، ٢٠ حيث رمسيس وسيتي، أو ما يسمى عهد الرعامسة.

وتمتد هذه الفترة جميعها لنحو ٥٠٠ سنة من ١٥٨٠ ق. م إلى ١٠٨٥ ق. م ولعلها أكثر فترات مصر الفرعونيـة ازدهارا في الفكر والفن والحضارة.

٧ ـ العصر المتأخر: (عصر الغزوات تمهيدا للتبعية):

كان الرعامسة التسعة الأخيرون والـذين يكونـون الأسرة العشـرين (١٢٠٠ ق. م إلـى ١٠٨٥ ق. م) مـن الضعف والترهل بحيث تفككت الإمبراطورية ومـع بدايـة الأسرة الحادية والعشرين عام ١٠٨٥ ق. م بدأت حقبة مـن الاضمحلال شملت الأسر من ٢١ إلى ٣٠ والتي انتهت بغزو الإسكندر المقدوني لمصر. ولا أجد غضاضة في استعراض هذه الحقبة وكيف تم غزو مصر من الليبيـين والآشـوريين والنوبيين فكان ذلك تمهيدا لعهد طويل من حكـم الأغـراب المتعاقبين:

ففي عهد الأسرة ٢١ تمكن الليبيون من بسط نفوذهم على الوجه البحري بالهجرة السلمية أولا ثم بزيادة الجنـود الليبيين المرتزقة في الجيش المصري ثانيا إلـى أن تمكـن أحدهم وهو شيشنق من الاستيلاء على السلطة وأسس الأسرة ٢٢ وفي عهده تم غزو مصر بواسطة الآشوريين أيضا.

وقد تمكن الملك النوبي بعنخي من الاسـتيلاء علـى مصر العليا ثم تتبع نهر النيل من الجنوب إلى الـدلتا حتـى أخضع بعض أمرائها وأسس حكم الأسرة ٢٥ النوبية. وقـد شيد الكثير من المعابد في السودان خاصة مدينة نباتا (وهـذا هو الرباط التاريخي العميق مع السودان).

وعندما حكم فرعون مصر بسماتيك الأول (٦٦٣ ـ ٦٠٩ ق. م) طرد الآشوريين شمالا والنوبيين جنوبا، وأسس الأسرة ٢٦ وقد استعان بفرقتين من الإغريق، وكان هذا هو درس التاريخ، فمع الاستعانة بالإغريق مهد لحكـم وغـزو الإغريق أنفسهم، وكان طبيعيا أن ازدادت التجارة والتبـادل مع الإغريق في تلك الحقبة ومهدت للحقبة اليونانية التالية.

وفي عام ٥٢٥ ق. م غزا قمبيز ملك الفرس مصـر ودمر منف وانتهك حرمة الديانة المصرية القديمة واسـتمر

حكم الفرس لمصر نحو ١٢٠ عاما. ويعبر عنه بحكم الأسرة ٢٧ (٥٢٥ ق. م إلى ٤٠٤ ق. م).

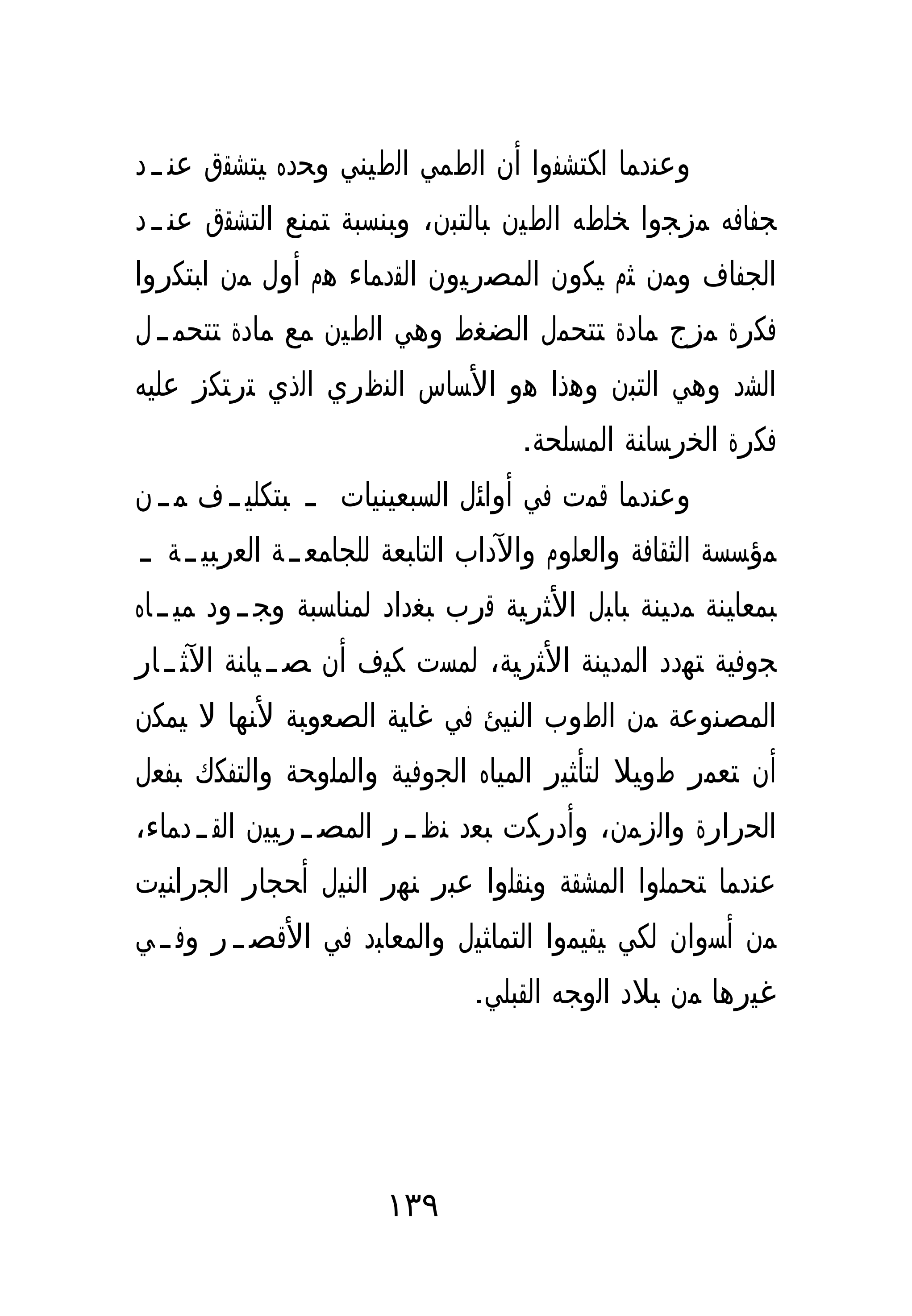
أما الأسر ٢٨، ٢٩، ٣٠ فكانـت لحكـام وملـوك مصريين يجاهدون من أجل المحافظة على استقلال الـبلاد، ومع حكم "الملك نقطانب الثاني" (٣٥٩ ـ ٣٤١ ق. م) آخر فراعين مصر في الأسرة الثلاثين، تمكن الفرس مرة أخـرى من الاستيلاء عليها ولكن حكمهم لم يدم طويلا هذه المـرة، فقد انتهى بفتح الإسكندر الأكبر مصر لكي تبدأ حقبة ومرحلة جديدة في رقائق الحضارات التي شهدتها مصر كما سـيأتي فيما بعد.

وبصرف النظر عن التفاصيل التاريخية التي ذكرناها سابقا، فإن الحقبـة الفرعونيـة الطويلـة بحلوهـا ومرهـا وانتصاراتها وقهرها قد تركت بصـماتها بوضـوح علـى الشخصية المصرية.

ومن الأمور التي أود أن أسجلها هنـا ـ كمهنـدس إنشاءات ـ هي أن جدودنا المصريين القدماء قد درسوا مواد البناء المتاحة لهم دراسة ممتازة فاستفادوا من وجود جبـال من الأحجار الصلبة في أماكن متفرقة مـن الـبلاد وقـاموا

بالاستفادة بخواص كل منها استفادة هائلة، فكانت أحجار جبل المقطم وطرة من الحجر الجيري والتي بنى منهـا - وفـق أكثر النظريات ترجيحا - أهرامـات الجيـزة ثـم هنـاك الجرانيت (الأحمر والأسود) والموجود في منطقـة أسـوان حيث المسلة الناقصة لتشـييد المسـلات والتماثيـل القيمـة والمعمرة وكذلك الحجر الرملي النوبي والبازلـت وغيرهـا بحيث شيدوا معابدهم ومقابرهم وتماثيلهم من هذه الأحجـار ذات الصلابة المتوسطة أو العالية حسـب درجـة الإتقـان المطلوبة وما تصوروه لأن تعمر سنوات أو قرونا أطول.

أما بيوتهم فكانت من الطوب اللبن أو " النيئ " غيـر المحروقة وقد ابتكروا مقاس الطوبة بحيث يمكن للعامـل أن يتحكم فيها براحة يده ويضعها في مكانها بالضبط ثم وجـدوا أن أرخص مادة لبناء المساكن (وهي منشـآت لـيس مـن المفروض لها أن تعمر طويلا) هو الطمي الطيني أي تراب الأرض الناتج من مياه الفيضان، فقاموا بضربه في قوالـب وتجفيفه بواسطة أرخص أنواع الطاقة وهي الحرارة الناتجة من أشعة الشمس.



وعندما اكتشفوا أن الطمي الطيني وحده يتشقق عند جفافه مزجوا خلطه الطين بالتبن، وبنسبة تمنع التشقق عند الجفاف ومن ثم يكون المصريون القدماء هم أول من ابتكروا فكرة مزج مادة تتحمل الضغط وهي الطين مع مادة تتحمل الشد وهي التبن وهذا هو الأساس النظري الذي ترتكز عليه فكرة الخرسانة المسلحة.

وعندما قمت في أوائل السبعينيات - بتكليف من مؤسسة الثقافة والعلوم والآداب التابعة للجامعة العربية - بمعاينة مدينة بابل الأثرية قرب بغداد لمناسبة وجود مياه جوفية تهدد المدينة الأثرية، لمست كيف أن صيانة الآثار المصنوعة من الطوب النيئ في غاية الصعوبة لأنها لا يمكن أن تعمر طويلا لتأثير المياه الجوفية والملوحة والتفكك بفعل الحرارة والزمن، وأدركت بعد نظر المصريين القدماء، عندما تحملوا المشقة ونقلوا عبر نهر النيل أحجار الجرانيت من أسوان لكي يقيموا التماثيل والمعابد في الأقصر وفي غيرها من بلاد الوجه القبلي.

العمود الثاني: العصر اليوناني الروماني

لم تسلم المدن اليونانية من غزو الفرس - كامتـداد لغزوهم لمصر كما سبق القـول - وانتهـى عهـد "حكـم الفراعنة" المصريين وكان الإغريق يرون في فارس عـدوا تقليديا يجتهدون في الانتقام منه.

وقد استطاع "فيليب" ملك مقدونيا أن يجمـع ويعبـئ كافة المدن اليونانية لغزو فارس، وعندما اغتيـل قـاد ابنـه "الإسكندر" جيوش اليونان عـام ٣٣٤ ق. م لغـزو فـارس وبدأت الولايات التابعة لها تتهاوى واحدة بعد الأخرى ابتداء من آسيا الصغرى (تركيا) ثم بلاد الشـام (سـوريا ولبنـان وفلسطين) وعندما دخل مصر عام ٣٣٢ ق. م قـام الـوالي الفارسي بتسليمها له دون مقاومـة واسـتقبله المصـريون بالترحاب لتخليصهم من الاحتلال الفارسي (٩).

وما يستلفت نظري - كقارئ للتـاريخ - هـو أن المصريين قد اتخذوا ذات الموقف عند فتح العرب مصـر، وقد سلم الوالي البيزنطي مصر إلى عمرو بن العاص عـام ٦٤١ م (أي بعد نحو ألف سنة) وقـد رحـب المصـريون

(الأقباط) بالعرب لتخليصهم من "عصر العذاب العظيم" وهو حكم بيزنطة في تلك الحقبة، وكما سيأتي ذكره فيما بعد.

غادر "الإسكندر" مصر عـام ٣٣١ ق. م ليواصـل حروبه ضد الفرس وغداة وفاة الإسـكندر عـام ٣٢٣ ق. م اجتمع قواده في بابل لبحث مشـكلة حكـم الإمبراطوريـة المقدونية، واعترفوا بحق جنين "روكسانا" الفارسية، زوجـة الإسكندر (إذا كان ذكرا) في مشاركة عمه "فيليب أرهيدوس" في الحكم.

وهكذا أمكن الاحتفاظ بوحدة الإمبراطورية المقدونية من ناحية الشكل ولكنها قسمت بالفعل بين قـواد الإسـكندر وكانت مصر من نصيب قائد يسمى "بطلميـوس" (*) وهـو مؤسس حكم البطالمة والذي دام نحو ٣٠٠ سنة من ٣٣٣ ق. م إلى ٣٠ ق. م.

وقد تمكن "بطلميوس الأول" من ضم بعض الأقـاليم التي كانت تعتبر ملحقة لمصر كبرقة وجنوب سوريا وفينقيا وفلسطين وقبرص، وقد زادت ارتباطات مصر طوال فتـرة حكم البطالمة مع اليونان ولذلك سميت تلك الحقبة بالعصـر اليوناني حيث تأثرت مصر بـالفكر والحضـارة والفلسـفة

اليونانية كما سيأتي ذكره فيما بعد عند الحديث عـن مكتبـة الإسكندرية والتي ظهر اتجاه قوي الآن لإحيائهـا وقـد تـم بالفعل الاحتفال بوضع الحجر الأساسي لها في صيف ١٩٨٨ وذلك في ذات الموقع الشهير قرب محطة الرمل وهو الحـي أو محطة الترام المسماة باسم "سوتر" والذي يعني "المخلّص" وكان ذلك هو لقب بطلميوس الأول بالفعل، واستمر كل حكام هذه الفترة يحملون لقب بطلميوس من الأول حتـى الثـاني عشر. ومع توالي السنوات إبان حكم البطالمـة المتعـاقبين ضمر نفوذهم كحكام في الوقت الذي ازداد فيه نفوذ روما إلى الحد أن كلا من بطلميوس السادس والسـابع (١٨٠ ـ ١٤٥ ق. م) قد قِبلا أن تفصل الدولة الرومانية في النزاع بينهمـا على حكم مصر واضطر بطلميوس الثاني عشر (٨٠ ـ ٥١ ق. م) أن يدفع "نصف دخل مصر" إلى "يوليوس قيصر" لكي يثنيه عن غزو مصر (١٠).

أعلن قيصر اعتراف روما ببطلميوس الثاني عشـر هذا وهو الملقب بالزمار ملكا على مصر وعند وفاتـه عـام ٥١ ق. م تنازع ابنه مع ابنته "كليوبـاترا السـابعة" والتـي أصبحت ملكة وهي في سن السابعة عشر، وتزوجت أخاهـا

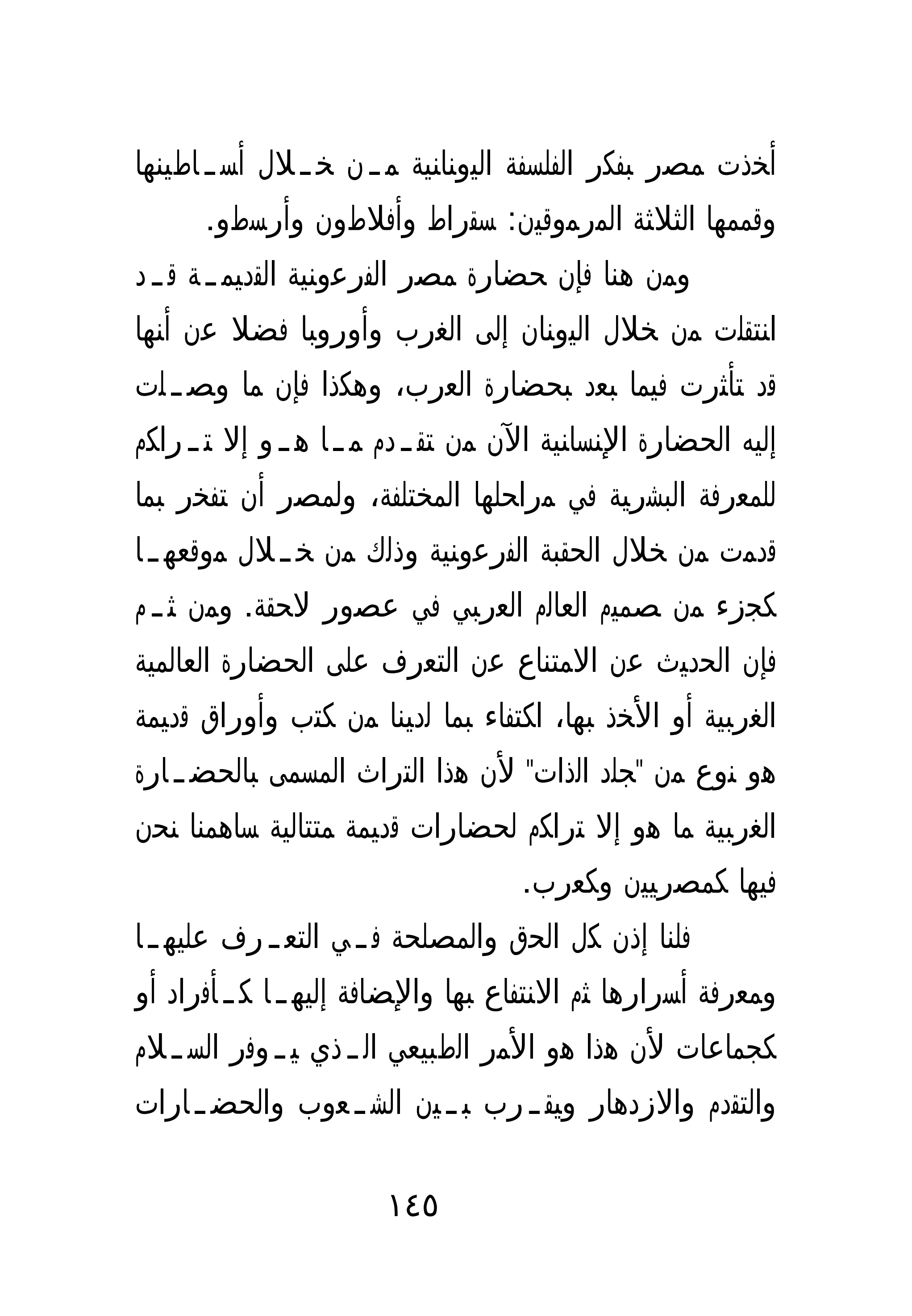
وكان في سن العاشرة وكان لهما أخت في سن الرابعة عشر وأخ في سن الثامنة، وكان الجميع في انتظار ما سيسفر عنه في الصراع بين القائدين الرومانيين بومبي ويوليوس قيصر، وعندما هزم بومبي سارع بالهرب إلى مصر باعتبار كونـه الوصي Tutor للأسرة المالكة المصرية ولكنـه قتـل فـي الطريق، وتبعه يوليوس قيصر وكانت كليوباترا الوحيدة من أفراد الأسرة المالكة التي سارعت لاستقباله ووقع في غرامها وأنجبت منه طفلا أسموه "قيصرون".

وبعد وفاة يوليوس قيصر انتظرت كيلوباترا نتيجـة الصراع في روما مع ماركوس أنطونيوس، ولمـا انتصـر سارع إلى الإسكندرية وقابلته كيلوباترا وعاشا قصـة حـب شهدت أحداثها مدينة الإسكندرية ثم صار الحـاكم المطلـق للنصف الشرقي من الإمبراطورية الرومانية.

وبانتصار "أوكتافيوس" على أنطونيوس في موقعـة أكتيوم عام ٣١ ق. م ودخوله الإسكندرية في العام التـالي، انهارت دولة البطالمة في مصر وأصـبحت ولايـة تابعـة للإمبراطورية الرومانية وبدأ الشق الثاني من هـذه الحقبـة اليونانية الرومانية.

وفي فترة حكم الإمبراطور الشهير نيـرون (٥٤ ـ ٦٨) جاء القديس مرقس الرسول وبشر بالمسيحية في مدينة الإسكندرية وقد لقب بالرسول من منطلق أنه كاتب الإنجيـل المعروف باسمه وبواسطته ومن خلاله انتشـرت المسـيحية تدريجيا في مصر ولكن الرومان قاموا بتعذيب المسـيحيين وقاوموا انتشار الديانة الجديدة حتى بلغ اضطهاد المسـيحيين المصريين أقصاه في عهد الإمبراطور دقلـديانوس والـذي اعتلى عرش الإمبراطورية عام ٢٨٤ م حتى قيل مجازا إن "دماء الشهداء كانت تسيل في الشوارع" لكثـرة عـدد مـن استشهدوا، ولذا أرخ الأقباط تقويمهم بدءا من هذه السنة وهو التقويم المعروف بتقويم الشهداء أو التقويم القبطي وهو يستند إلى الشهور التي كانت مستخدمة قبل ذلك وهي توت، بابـه، هاتور.. إلخ ولا زالت هذه الشهور والمواقيت وهذا التقـويم هو المستخدم عند الفلاح المصري بصـرف النظـر عـن الديانة.

وهكذا كان دخول اليونان ثم الرومان إلـى مصـر سبيلا للامتزاج الحضاري، فأخذ اليونانيون والرومان عـن المصريين علوم الفلك والعمارة والإنشاءات وغيرهـا، كمـا



أخذت مصر بفكر الفلسفة اليونانية مـن خـلال أسـاطينها وقممها الثلاثة المرموقين: سقراط وأفلاطون وأرسطو.

ومن هنا فإن حضارة مصر الفرعونية القديمـة قـد انتقلت من خلال اليونان إلى الغرب وأوروبا فضلا عن أنها قد تأثرت فيما بعد بحضارة العرب، وهكذا فإن ما وصـلت إليه الحضارة الإنسانية الآن من تقـدم مـا هـو إلا تـراكم للمعرفة البشرية في مراحلها المختلفة، ولمصر أن تفخر بما قدمت من خلال الحقبة الفرعونية وذلك من خـلال موقعهـا كجزء من صميم العالم العربي في عصور لاحقة. ومن ثـم فإن الحديث عن الامتناع عن التعرف على الحضارة العالمية الغربية أو الأخذ بها، اكتفاء بما لدينا من كتب وأوراق قديمة هو نوع من "جلد الذات" لأن هذا التراث المسمى بالحضـارة الغربية ما هو إلا تراكم لحضارات قديمة متتالية ساهمنا نحن فيها كمصريين وكعرب.

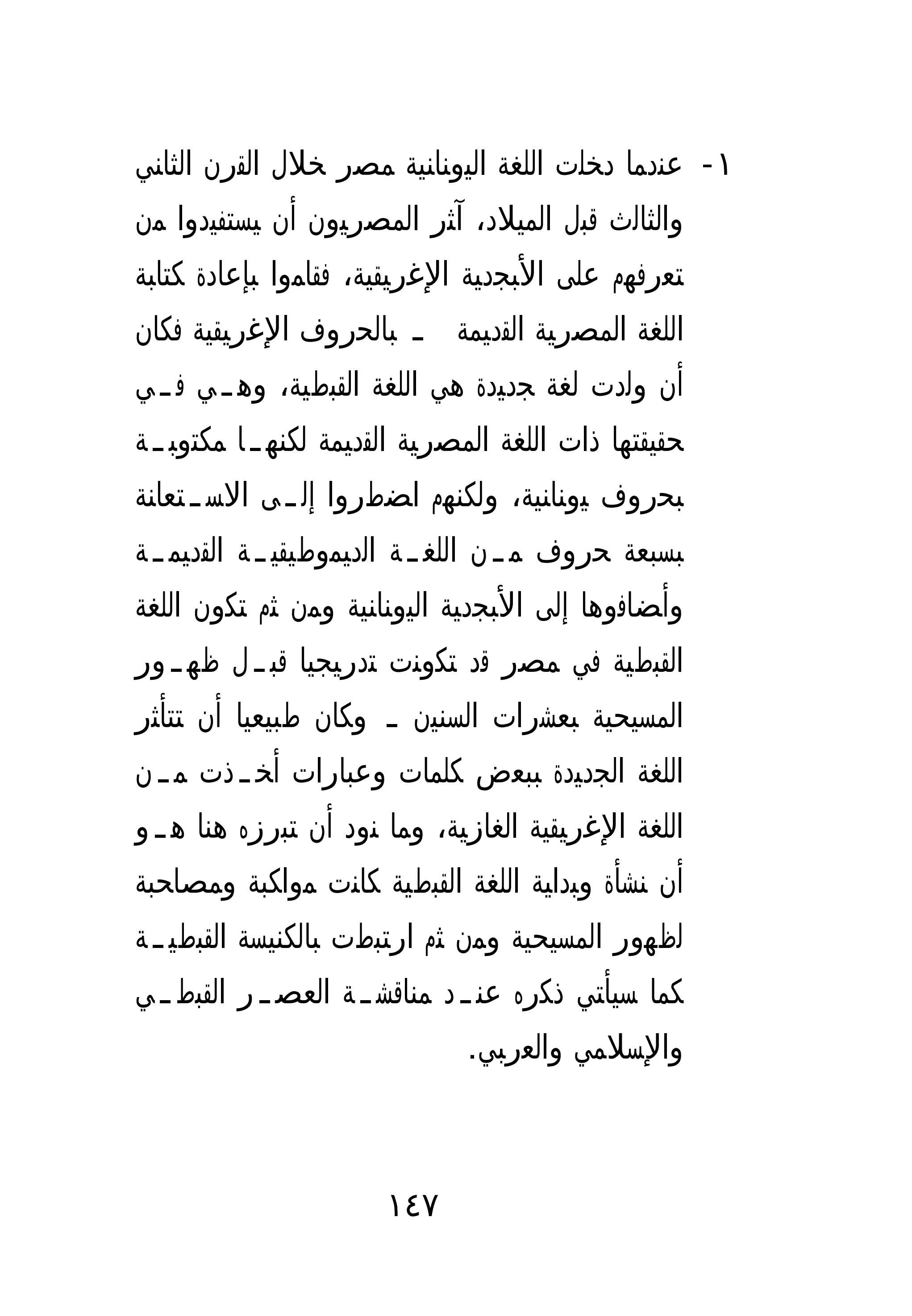
فلنا إذن كل الحق والمصلحة فـي التعـرف عليهـا ومعرفة أسرارها ثم الانتفاع بها والإضافة إليهـا كـأفراد أو كجماعات لأن هذا هو الأمر الطبيعي الـذي يـوفر السـلام والتقدم والازدهار ويقـرب بـين الشـعوب والحضـارات

لاكتشاف الأرضية المشتركة والتي تنمو وتتعاظم كل يـوم، وهو الانتماء إلى الإنسانية كلها وهذا ما سوف نشير غليه في الفصل الأخير.

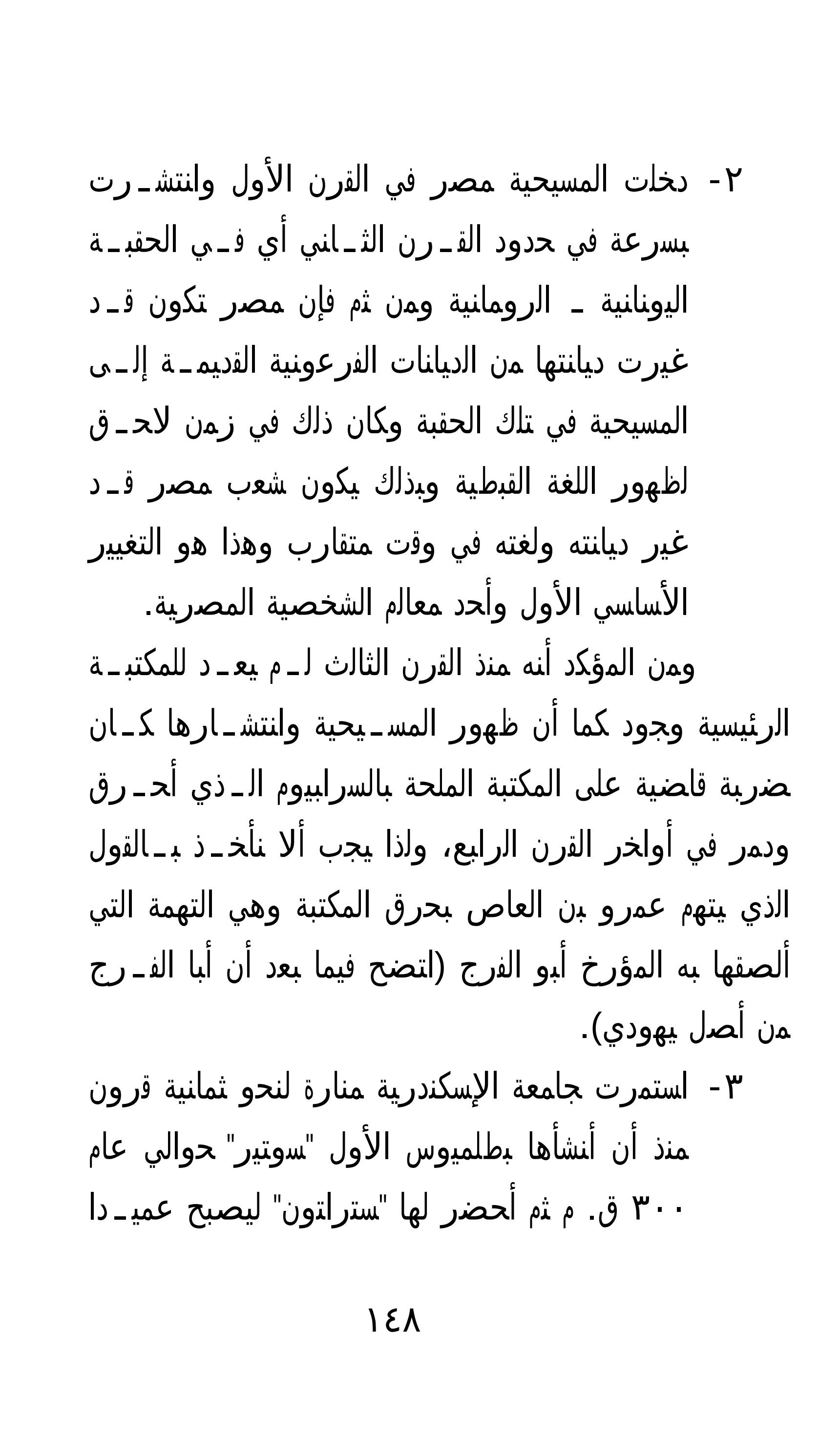
ويبدو واضحا إذن أن انتماء مصر إلى حوض البحر الأبيض المتوسط، ليس فقط من خلال التفاعل الحضاري في هذه الحقبة اليونانية - الرومانية ولكن هذا التفاعل متبـادل من قبل، فقد كان اليونانيون في عصورهم الراقية، كما كانوا في عصورهم الأولى يرون أنهم تلاميـذ المصـريين فـي الحضارة (١١) ولكنك تلمسه في تشابه نمو ولـون الحيـاة والمناخ بين مدن مثل الإسكندرية وبورسعيد في مصر وبين ما يقابلها في مدن على الجانب الشمالي من البحر المتوسـط مثل أثينا وبيريه في اليونان وليماسول ونيقوسيا في قبـرص ونابولي في إيطاليا وغيرها.

وسوف نعود لذلك مرة أخـرى عنـدما نسـتعرض الانتماءات الجغرافية لمصر بما فيها الانتماء لحوض البحـر المتوسط.

ولعل أهم ما يميز هذه الحقبة اليونانية - الرومانيـة في مصر الآتي:



١- عندما دخلت اللغة اليونانية مصر خلال القرن الثاني والثالث قبل الميلاد، آثر المصريون أن يستفيدوا من تعرفهم على الأبجدية الإغريقية، فقاموا بإعادة كتابة اللغة المصرية القديمة ـ بالحروف الإغريقية فكان أن ولدت لغة جديدة هي اللغة القبطية، وهـي فـي حقيقتها ذات اللغة المصرية القديمة لكنهـا مكتوبـة بحروف يونانية، ولكنهم اضطروا إلـى الاسـتعانة بسبعة حروف مـن اللغـة الديموطيقيـة القديمـة وأضافوها إلى الأبجدية اليونانية ومن ثم تكون اللغة القبطية في مصر قد تكونت تدريجيا قبـل ظهـور المسيحية بعشرات السنين ـ وكان طبيعيا أن تتأثر اللغة الجديدة ببعض كلمات وعبارات أخـذت مـن اللغة الإغريقية الغازية، وما نود أن تبرزه هنا هـو أن نشأة وبداية اللغة القبطية كانت مواكبة ومصاحبة لظهور المسيحية ومن ثم ارتبطت بالكنيسة القبطيـة كما سيأتي ذكره عنـد مناقشـة العصـر القبطـي والإسلامي والعربي.



٢- دخلت المسيحية مصر في القرن الأول وانتشرت بسرعة في حدود القرن الثاني أي في الحقبة اليونانية ـ الرومانية ومن ثم فإن مصر تكون قد غيرت ديانتها من الديانات الفرعونية القديمة إلى المسيحية في تلك الحقبة وكان ذلك في زمن لاحق لظهور اللغة القبطية وبذلك يكون شعب مصر قد غير ديانته ولغته في وقت متقارب وهذا هو التغيير الأساسي الأول وأحد معالم الشخصية المصرية.

ومن المؤكد أنه منذ القرن الثالث لم يعد للمكتبة الرئيسية وجود كما أن ظهور المسيحية وانتشارها كان ضربة قاضية على المكتبة الملحة بالسرابيوم الذي أحرق ودمر في أواخر القرن الرابع، ولذا يجب ألا نأخذ بالقول الذي يتهم عمرو بن العاص بحرق المكتبة وهي التهمة التي ألصقها به المؤرخ أبو الفرج (اتضح فيما بعد أن أبا الفرج من أصل يهودي).

٣- استمرت جامعة الإسكندرية منارة لنحو ثمانية قرون منذ أن أنشأها بطلميوس الأول "سوتير" حوالي عام ٣٠٠ ق. م ثم أحضر لها "ستراتون" ليصبح عميدا

لها فنقل إليها الطابع العقلي والعلمي الذي تميز بـه الفكر الإغريقي وأصبحت الجامعة معهـدا للبحـث العلمي فكان بها مرصدا للفلك وحديقـة للحيوانـات (لدراسة علم الحيوان) وأخرى للنباتات (لدراسة علم النبات) واهتمت بكافـة أنـواع العلـوم والهندسـة والرياضيات والفنـون والآداب والفلسـفة والطـب والجغرافيا والموسيقى والتاريخ وغيرها.

وقد ألحق بالجامعـة مـا كـان يسـمى بـالمتحف Museum ثم مكتبة هائلة ضمت نحو ٧٠٠ ألف كاتب كان أغلبها على هيئة مجلدات من البردي، ولما ضـاقت علـى سعتها تم إنشاء مكتبة أخرى عرفت بالمكتبـة الصـغرى ـ سرابيوم ـ بلغ عدد كتبها نحو ٤٠ ألف كتاب، وكـل ذلـك موضع اختلاف واتفاق تاريخي ولكن ما يعنينا هو إبراز أن هذه الحقبة كانت غنية بالفكر والمعرفة والعلم والاستنارة.

ومن أساتذة جامعة الإسكندرية العظام كان "إقليـدس" صاحب النظريات الهندسية والرياضية المعروفة باسمه حتى الآن ثم بطلميوس الفلكي الذي أسـماه العـرب ببطلميـوس القلوذي والذي وضع أعظم مصنف فـي الفلـك المعـروف

بالمجسطي في ١٣ مجلدا ثم مصنف "المرشد في الجغرافيـا" وكذلك كان أرشميدس السراقوسـي مـن تلاميـذ جامعـة الإسكندرية وغيرهم كثيـرون، ولمناسـبة وضـع الحجـر الأساسي لمكتبة الإسكندرية عام ١٩٨٨ أعيد الحديث مـرة أخرى عن مكتبة الإسكندرية القديمة، ولعل أفضلها ما سجله د. لويس عوض (١٢).

ويذكر البعض ما أصاب المكتبة الرئيسية عندما أمر يوليوس قيصر عام ٤٨ ق. م بحرق الأسطول الذي حوصر في الميناء الكبير (الشرقي) خوفا مـن أن يسـتولي عليـه الأعداء فامتدت ألسنة النيران وأحرقت جزءا من المكتبة على أنه من المحقق أن مكتبة الإسكندرية نالها الكثير من الإهمال بعد الاحتلال الروماني، إذ بدأت الكتب النادرة تتسرب فـي طريقها إلى روما. وفي عـام ٢٧٠ م دمـر الإمبراطـور الروماني أوريليان الحي الملكي الذي كانت تقع فيه المكتبـة انتقاما من المدينة إثر ثورة قامت بها فاضـطر علمـاء دار الحكمة ومكتبتها إلى اللجوء إلى السرابيوم ورحـل الـبعض الآخر إلى الخارج.

أيا ما كان الأمر فإنه وبفضل جامعـة الإسـكندرية ظلت الحضارة الإغريقية مزدهرة إلى العصر المسيحي، لأن جامعة الإسكندرية ظلت حاملة مشـعل الحضـارة والثقافـة والعلم واستمرت باقية حتى عام ٥٢٩ م وهو العـام الـذي يؤرخ به عادة لنهاية عصر العلم القديم والدخول في مرحلـة "العصور الوسطى".

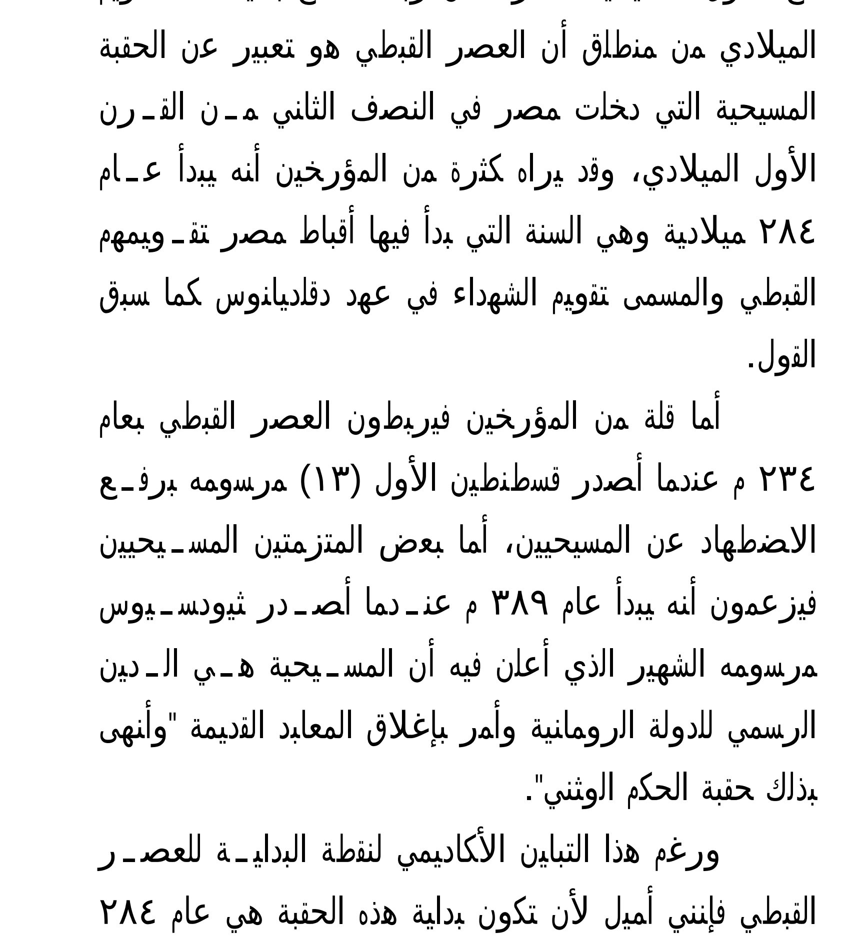
ومما هو جدير بالذكر أيضا أن جامعة الإسكندرية ـ وفي المرحلة السابقة لظهور المسيحية ـ قد قامت بترجمـة التوراة من العبرية إلى اليونانية وهي الترجمة المعروفة باسم الترجمة السبعينية. فكان ذلك إضافة جديدة في عـالم الـدين يذكر بالفضل لمصر وجامعتها بالإسكندرية.

العمود الثالث: العصر القبطي

هناك اتفاق على أن ما ذكرناه من رقائق الحضارات المتعاقبة عبر التاريخ المصري (هي الفرعونية ثم اليونانية - الرومانية) وهي مراحل دخلت ذمة التاريخ والمتاحف ولكنها تركت بصماتها على الشخصية المصرية، أما الرقيقتان العلويتان (وهما المرحلة القبطية والمرحلة الإسلامية) فإنهما ما زالتا مرحلتين يعايشهما الشعب المصري من منطلق استمرار وتواجد كل من المسيحية والإسلام في مصر حتى الآن.

وهناك يقين بين المؤرخين على وجود حقبة زمنية تعرف بالعصر القبطي، ولكن خلافا أكاديميا قد يدور حول تحديد البداية التاريخية لهذه الحقبة، وذلك لأن بداية "العصر القبطي" متداخلة في "الحقبة اليونانية - الرومانية" من منطلق أن مصر تحولت إلى ولاية رومانية قبل التقويم الميلادي أي قبل دخول المسيحية.

فإذا اعتبرنا أن العصر القبطي يرتبط مع نشأة اللغة القبطية عندئذ ستكون نقطة البداية للحقبة القبطية في موقع ما



في القرن الأول أو الثاني بعد الميلاد، وإذا كانت نقطة البداية مع دخول المسيحية مصر أمكن ربطه مع بداية التقويم الميلادي من منطلق أن العصر القبطي هو تعبير عن الحقبة المسيحية التي دخلت مصر في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي، وقد يراه كثرة من المؤرخين أنه يبدأ عام ٢٨٤ ميلادية وهي السنة التي بدأ فيها أقباط مصر تقويمهم القبطي والمسمى تقويم الشهداء في عهد دقلديانوس كما سبق القول.

أما قلة من المؤرخين فيربطون العصر القبطي بعام ٢٣٤ م عندما أصدر قسطنطين الأول (١٣) مرسومه برفع الاضطهاد عن المسيحيين، أما بعض المتزمتين المسيحيين فيزعمون أنه يبدأ عام ٣٨٩ م عندما أصدر ثيودسيوس مرسومه الشهير الذي أعلن فيه أن المسيحية هي الدين الرسمي للدولة الرومانية وأمر بإغلاق المعابد القديمة "وأنهى بذلك حقبة الحكم الوثني".

ورغم هذا التباين الأكاديمي لنقطة البداية للعصر القبطي فإنني أميل لأن تكون بداية هذه الحقبة هي عام ٢٨٤ م ليس فقط لارتباطه بأحداث الاستشهاد التي فرضت نفسها

لتكون بداية "التقويم القبطي" وهو حدث هام على أي حال ـ ولكن لأنه في تلك الحقبة كانت مصر قد أخذت معلما وشكلا حضاريا جديدا، فاللغة قد تغيرت وسادت بالفعل اللغة القبطية والديانة قد تغيرت وسادت الديانة المسيحية وكان لكل ذلـك انعكاساته على كافة ألوان الحياة الفكرية والثقافية والحضارية والفنية وأصبحت مصر ـ رغم تبعيتها السياسية من الناحية الرسمية إلى الدولة البيزنطية ـ موطنا لحضارة مـن نـوع جديد، ولعبت مصر من خلال هذا الانتماء الـديني الجديـد دورا هاما في صياغة المسيحية على المستوى العالمي وذلك من خلال وجود المدرسة اللاهوتية العريقة بالإسكندرية ومن خلال قيادتها (أي قيادة الكنيسة القبطية) للمجامع المسـكونية كما سيأتي ذكره تفصيلا فيما بعد، وعندما تم إنشاء كنيسـة أناصوفيا في القسطنطينية قام بالبناء مهندسان من الإسكندرية (١٤).

وكما قدمت مصر للعالم حضارة وفنا وفكرا وآثـارا غير منكرة من خلال الحقبة الفرعونية ـ وهو موضع فخر واعتزاز المصريين جميعا ـ كذلك قدمت مصر إلى العـالم المسيحي كله معالم رئيسية: حضارة وفنا وفكرا وآثارا غير

منكرة هي موضع فخر واعتزاز المصريين ونبرز هنا أهـم معالمها في الآتي:

١ ـ صياغة قانون الإيمان المسيحي:

فور انتشار المسيحية في مصـر، أنشـئت مدرسـة الإسكندرية اللاهوتية وكان بها علماء مسيحيون علـى قـدر عال من الحكمة والمقدرة سواء في معرفة الكتب المقدسة أو في الآداب الإنسانية والفلسفة أو اللغات السائدة في تلك الحقبة ولعل أشهر مديريها في القرن الثاني الميلادي هم: بنتينـوس وأكليمندس وأوريجانوس، وكان يفـد علـى هـذا المعهـد المسيحيون من شتى الأقطار للدراسة (لاحظ المقارنـة مـع مكتبة الإسكندرية في عهد البطالمة وكـذلك الأزهـر فـي العصر الإسلامي) وتخرج منها بالفعل عدد كبير من بطاركة وأساقفة مصر فضلا عن قيادات الكنائس في البلدان المسيحية المجاورة، "وإليها يرجع الفضل في المركز القيادي المتميـز الذي كان يأخذه البطريرك القبطي فـي مختلـف المجـامع المسكونية التي عقدت في القرن الرابع والخامس" (١٥).

هذا ومن المعروف تاريخيا أن القرون الأولى مـن المسيحية قد شهدت خلافات عقائدية حادة ـ وكان من خلفها

صراعات سياسية وسلطوية حادة، تمثلت في مراكز أساسية في تلك الحقبة وهي كنائس روما والقسطنطينية وكانتا مركز السلطة والإمبراطورية، ولكن كان لكنيسة الإسكندرية موقـع خاص رغم أنها ـ من الناحية النظرية ـ كانت ولاية فـي المملكة البيزنطية، وذلك لأن كنيسة الإسكندرية كانت تمثـل التقاء والضمير الشعبي لكافة الولايات الأخرى فضلا عـن نفوذها الفكري من خـلال خريجـي مدرسـة الإسـكندرية اللاهوتية كما سبق القول.

ففي مجمع نيقية عام ٣٢٥ م كان الفارس المغـوار هو "الأبنا أثناسيوس" ـ وكان وقتها هو الشـماس المرافـق للبطريرك السكندري ـ وقد قاوم بدعـة أريـوس الشـهيرة (١٦) حيث أمكنه أن ينتزع من المجمـع "قـانون الإيمـان المسيحي" الذي ما يزال يقرأ في جميع الكنائس الأرثوذكسية والكاثوليكية في العالم إلى اليوم ويعتبر الصـياغة المقبولـة التي حدث حولها إجماع عقائدي للمسيحية.

وفي عام ٣٨١ م عقد مجمع مسكوني آخر في مدينة القسطنطينية ـ عاصمة الإمبراطورية عندئذ ـ وذلك بسبب تعاليم بطريرك القسطنطينية نفسه والمسمى مقـدنيوس وقـد

أعطيت الرئاسة للبابا السكندري تيماوثاوس وقد أقر المجمع عزل بطريرك القسطنطينية.

وتكرر نفس الشيء عام ٤٣١ م عندما عقد المجمع في أفسس لمحاكمة نسطور بطريرك القسطنطينية أيضا، وكانت الرئاسة مرة أخرى للبابا كيرلس بابا الإسكندرية الرابع والعشرين وانتهى المجمع إلى شجب بدع نسطور وعزله (١٧).

ونتيجة لانتصار الفكر الذي كانت تقدمه الكنيسة المصرية القبطية في هذه المؤتمرات والتجمعات العالمية، حدث حقد وتآمر على شخص بابا الإسكندرية، الأمر الذي أدى إلى التخطيط لمؤامرة بالإعداد لترتيبات حجزه عن حضور مؤتمر أو مجمع "خلقدونية" عام ٤٥١ م حيث قام جند وعسكر الدولة باحتجاز البابا ديوسقورس بطريرك الأقباط لكي لا يحضر هذا المجمع وصوروا الأمر حتى يبدوا أنه قد امتنع عن الحضور عمدا، (لم يكن في ذلك الوقت وسائل الاتصال الحديثة: التليفون والتلكس والفاكس ولا أسلوب عقد المؤتمرات الصحفية) واتخذوا من ذلك ذريعة لكي يوقع عليه الجزاء فكان أن صدر الأمر بعزله

ونفيه، وقد رفض الأقباط الاعتراف بقرارات هذا المجمع من وقتها وإلى يومنا هذا..

وهناك مفاوضات تجرى حاليا ـ في هـدوء ودون إعلام ـ ومن خلال "مجلس كنائس الشرق الأوسط" للتغلـب على هذا الخلاف التاريخي بين كنيسة مصر وباقي الكنـائس التي حضرت مجمع خلقدونية عام ٤٥١ م والمنتظر الوصول إلى نتائج إيجابية، لأن الاتجاه العـالمي هـو البحـث عـن الأرضية المشتركة للانتماءات بدلا من تصعيد الصراع ولعل هذا هو صلب هذا الكتاب.

ومنذ ذلك الوقت، اضطرت الإمبراطورية البيزنطية أن تقيم من القائد العسكري أو الوالي الممثـل لهـا مشـرفا ورئيسا على الجماعة الدينية (المسيحية) التابعة لبيزنطة وهي الفئات الموجودة حاليا في بلدان الهلال الخصيب والمسـماة طوائف الروم أو الملكانيين أو الملكيين نسبة إلى الملـك أو نسبة إلى الروم.

خلاصة القول فإن كنيسة الأقباط في مصر لهـا أن تفخر بأنها قد أخذت دورا قياديا في صياغة الفكـر الـديني المسيحي في القرون الأولى رغم أنها كانـت مـن الناحيـة

النظرية ولاية تابعة للدولة الرومانية أولا ثم بيزنطـة ثانيـا ومن هنا فالمسيحية في مصر أصيلة الجذور مثلما هو الحال في كنيسة الفاتيكان بروما، وهي تتباهى على كنائس أخـرى كثيرة في إنجلترا وألمانيا والسويد وأمريكا وغيرهـا فضـلا عن كنائس أفريقيا وآسيا حيث وصلت إليها المسـيحية مـن خلال التبشير في قرون تالية، وقد استوقف نظري ما أعلـن أخيرا من أن الاتحاد السوفيتي يحتفل بمرور ألف عام علـى دخول المسيحية إلى أراضيه في وقت كانت مصر قد قطعت أشواطا في صياغة الفكر والعقيدة والقوانين التي وصلت إليها "على الجاهز" من منطلق أن الكنيسة الروسية تتبـع العقيـدة "الأرثوذكسية" مثل كنيسة مصر.

٢ ـ الرهبنة ابتكار مصري:

قد لا يعرف كثيرون أن فكرة الرهبنة أي أن يتـرك الرجل أو (المرأة) أسرته وأهله وأمواله وأن يتفرغ وينقطـع للعمل الديني والعبادة بكافة صورها، هـي فكـرة مصـرية أصيلة، وتعترف كل فروع الرهبنة التابعة للمذهب الكاثوليكي في روما من الفرانسيسيكان والدومنيكان والجيزويت والفرير وسان فاتيما وتردام وغيرها، أن مبدأ الرهبنة قد نشـأ فـي

مصر من خلال الأنبا أنطونيوس (٢٥٠ ـ ٣٥٦ ميلاديـة) حيث بدأ بنفسه فيما يعرف "بالرهبنة التوحيدية" أي المعيشـة في مغارات الجبال إقامة منفردة للعبادة والصلاة والتقشف.

وجـاء بعـده القـديس مكـاريوس (٣٠٠ ـ ٣٩٠ ميلادية) ليضع قواعد الرهبنة في مجموعات متقاربـة فـي صحراء وادي النطرون، وأخيرا نظم القـديس بـاخوميوس (٢٩٠ ـ ٣٤٨ ميلادية) ما أصبح يعرف "بحياة الشركة" أي المشاركة في المعيشة والحياة اليومية داخل دير منظم حيـث لا بد للراهب من أن يقوم ببعض الأعمال اليوميـة اللازمـة للإقامة داخل الدير مثلا فلاحة الأرض أو خبـز العـيش أو النظافة أو نسخ الكتب والمخطوطات أو تجهيز الطعام ومـا أشبه، ووضع لذلك قواعد وقوانين مدونة لا زالت معروفـة ومقروءة باسمه.

وليس من أهداف هذه الدراسة طرح تاريخ الرهبنـة في مصر أو تطور أفكارها في الكنيسة الكاثوليكيـة حيـث تغيرت المفاهيم وأصبح الرهبان والراهبات فرقا وتخصصات وأقساما تساهم في خدمة المجتمع مثل التعليم أو المستشفيات أو البحث العلمي أو غيرها، وليس من أهداف هذه الدراسـة

طرح مدى ملاءمة فكرة التبتل أي عدم الـزواج والتفـرغ للخدمة الدينية، فهناك آراء وأفكار كثيرة مطروحة في العالم فيما يتعلق بهذه القضية، ولكن الأمر الملح هنا هو أن فكـرة أن ينذر الإنسان نفسه لقضية "ويترهبن" أن ينقطع لخـدمتها هي فكرة تصوفية مصرية نابعة من تراث مصر فـي تلـك الحقبة القبطية، وعلينا ـ كمصريين ـ أن نعتز بذلك ونفخر، ولعلها امتداد لأفكار كانت موجودة وقت الفراعنة. ثم جاءت الطرق الصوفية والمعتزلة وما أشبه وهذه هـي اسـتمرارية مصر في كافة العصور بأشكال وصور مختلفة.

٢ ـ كنيسة مناضلة لا تبغي السلطة:

منذ أن دخلت المسيحية مصر إلـى الآن لـم تكـن الكنيسة القبطية الأرثوذكسية إلا كنيسة مناضلة لم تبغ الحكم ولا شاركت فيه ولم يكن لها أي انتماء إلا إلى أرض مصر.

ففي غضون القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد كانت الدولة الرومانية تضطهد المسيحية في الدول التـي تتبعهـا عموما وفي مصر خصوصا ـ كما سبق القول ـ وعنـدما انتقلت السلطة إلى الدولة البيزنطية وأصبحت قيادتها مسيحية ـ كانت مصر تابعة لها من الناحية السياسـية ولكنهـا (أي

الكنيسة المصرية) آثرت أن تقف موقفا مستقلا من الناحيـة الدينية الأمر الذي جلب لها الاضطهاد مـن حكـام الدولـة البيزنطية ذاتها، وقد أدى ذلك - ضمن أسباب كثيرة - إلى ترحيب الأقباط بدخول العرب مصر كما سيأتي فيما بعد.

ومنذ دخول العرب مصر وإلى الآن كانت الكنيسـة القبطية مؤسسة شعبية ولم تشارك في السلطة وحاولـت أن تتعايش وتتكيف مع كافة العصـور والمراحـل الإسـلامية "بمرها وحلوها على حد سواء" وبهـدف المحافظـة علـى "سلامة الوطن" وعدم شرخه فضلا عـن المحافظـة علـى جماعة الأقباط وحقهم في ممارسة عباداتهم.

ففي حين كان كثير من الخلفـاء متسـامحين جـدا وواسعي الأفق بصورة كبيـرة، كـان الآخـرون شـديدي التعصب ومتزمتين، يتخذون إجراءات عنيفة وقاسـية ضـد الأقليات بدون أي سبب قوي ومقنع (١٨).

وفي هذا الأمر تختلف الكنيسة القبطية المصرية عن الكنيسة الكاثوليكية الأوربية فالمعروف أن الكنيسة الكاثوليكية قد قامت بدور السلطة خلال العصور الوسطى فـي أوربـا، ومعروف أيضا أن الإسلام كان دولة وحكما وخلافـة عبـر

تاريخه الطويل، وإذا كان لليهود دولـتهم منـذ الملـك داود وسليمان وما بعدها حتى السبي في القرن الأول المسيحي إلى أن قامت إسرائيل كدولة عام ١٩٤٨، فإن الكنيسة القبطية لم تدخل في هذه الحلبة وقد أكسبها ذلك تراث "المسالمة" للحاكم بقدر المستطاع وأكسبها أهم من ذلك كله الولاء كل الـولاء لأرض وتراب مصر، وقد عبر عن ذلك البابا شنودة بمقولته الشهيرة والبليغة: "إن مصر ليست وطنا نعيش فيها ولكنهـا وطن يعيش فينا".

٤ ـ الكنيسة تسيطر داخليا وتنتشر خارجيا:

عقب الخلاف بعد المجمع المسكوني بمدينة خلقدونية عام ٤٥١ م، ازداد الانشقاق وتبلور في مصر الفكر والحركة لتكوين جماعة أصحاب رأي "المشـيئة والطبيعـة الواحـدة للمسيح" وظهرت نزعة لدى الأقباط للانفصال عن بيزنطـة ولذلك حاول الأقباط تنمية العلاقات مع الثقافات السامية مـن سريانية وحبشية وعربية، فقـام الأقبـاط بتبشـير الحبشـة بالمسيحية في القرن الرابع وظلت الكنيسة الحبشـية تابعـة لكنيسة الإسكندرية طوال هذه القرون، وكان بابـا الكنيسـة القبطية هو الذي يقوم برسامة مطران مصري للحبشة، وظل

الأمر هكذا إلى أن استقلت كنيسة الحبشة عام ١٩٥٢ وهناك محاولات يائسة لإعادة العلاقات التاريخية بـين الكنيسـتين، ولكنني أتصور أنها جهود لن توصل إلى نتائج في المرحلـة الحالية لاعتبارات سياسية ومذهبية.

وحاولت الكنيسة القبطية القيام بأعمال تبشيرية فـي المناطق المحيطة، فتحركوا بحرية في فلسطين وسوريا وإلى حد ما في شبه الجزيرة العربية حتى قام البطريرك المصري ثيوديسيوس برسم مطرانية في كل مـن رهـا والبوسـترا (البصرة) (١٩).

وتعددت الإشارات التاريخية على نمو العلاقات بين القبط والسريان أي بين كنيسة الإسكندرية وكنيسة أنطاكيـة وذلك للدفاع عن مذهب الطبيعة الواحدة. وعنـدما اجتاحـت جيوش الفرس المشرق العربي في أوائـل القـرن السـابع الميلادي لجأ إلى مصر كثيرون من علماء السريان بعـد أن كان بعض الرهبان السريان قد أسسـوا الـدير المعـروف باسمهم حتى الآن في وادي النطرون، حتـى أن البطريـرك الثاني والأربعين والذي رسم عام ٦٨٤ ميلادية باسم سيمون الأول كان من مواليد أنطاكية ومن رهبان دير السريان.

وقد اتسمت هذه الحقبة من العصر القبطي وعشـية دخول العرب لمصر بأن الصراع كله كان متبلـورا حـول الأفكار والخلافات الدينية حتى لاحظ د. مراد كامل أنه "لـم يسمع طوال الحكم البيزنطي أن أحـدا مـن أبنـاء الشـعب النابهين ظهر لينقذ البلاد من براثن الاسـتعمار الأجنبـي أو يحد من نشاطهم الهدام أو يطالب بأحقيته في الحكم".

أما القيادات الدينية فما كان فـي وسـعها أن تحـل مشكلة القيادة المؤهلـة للخـروج بـالمجتمع مـن أزمتـه. فالبطريرك قد سلمه الشعب قيادته وكان يمنعه مركزه الديني وكرامته الوطنية من الخضوع لإرادة الأباطرة ولكنـه كـان مضطرا إلى مسايرتهم (٢٠)، ولعل هذا الأمر ينطبق علـى واقعنا المعاش ومن هنا كانت أهمية حركة الأقبـاط كـأفراد خارج نطاق الكنيسة مثلما حدث إبان ثورة عام ١٩١٩.

وعندما دخل القبط القرن السابع الميلادي كانت أزمة المجتمع من خلال الصراعات الدينية قد استعصت على الحل وهنا حاول الإمبراطور هرقـل (٦١٠ ـ ٦٤١ م) أن يعيـد الوحدة إلى جسم الإمبراطورية الممزق، فطرح مذهبا دينيـا جديدا عام ٦٢٢ م بأن يوفق بين أصحاب مـذهب الطبيعـة

الواحدة (كنيسة الإسكندرية) وأصحاب مذهب الطبيعتين (كنائس قسطنطينية وروما) وأقام مذهبه التوفيقي على أسس وحدة المشيئتين في شخص المسيح أي المشيئة الإلهية والمشيئة الإنسانية.

ولم تنجح محاولات هرقل رغم استخدامه العنف، ودخلت مصر فيما أسماه المؤرخون "عهد العذاب العظيم" واضطر البطريرك بنيامين الأول (٦٢٣ ـ ٦٦٢ م) إلى أن يترك كرسيه ويختفي هاربا فتشرد الأساقفة والقسس وأرغم الكثيرون من الأهالي ـ بما في ذلك عدد من رجال الدين ـ على التنكر لعقيدتهم وهذا هو سر استمرار هذه الأقلية الهزيلة من "الروم الأرثوذكس" في مصر.

وحدث هذا كله في وقت احتدم فيه سخط الشعب واختل الأمن وتردت التجارة والصناعة وكانت هذه الأحوال كلها باعثا للمصرين على الترحيب بالعرب ويحدوهم الأمل في أن يتمتعوا بحياة فيها راحة وطمأنينة.

وهكذا كانت البداية للانتقال إلى رقيقة حضارية رابعة وأخيرة من رقائق الحضارات في مصر.

العمود الرابع: العصر الإسلامي

لكي نتعرف على خلفية هذا المزج والتداخل والمودة الموجود الآن بين الأقباط والمسلمين لا بد أن نتدارس قليلا هذه الرقيقة الهامة والأخيرة من الرقائق الحضارية الأربع، وبالذات ذاك الأسلوب المتميز الذي كان مصاحبا لدخول الإسلام إلى مصر، وكيف أنه مختلف عن أسلوب الغزو والفتح بحد السيف والذي تم في أقطار أخرى كثيرة، إذ أن هذه البداية واستمرار العلاقة الوطنية والتآخي بين أبناء الوطن الواحد جاء ثمرة واستمرار لنقطة البداية عند الفتح، فضلا عن الأسلوب المتميز في العلاقات الاجتماعية الاقتصادية طوال هذه القرون الأربعة عشر التي تعايش فيها الإسلام والمسيحية على أرض مصر، على الرغم من أنها لم تكن كلها "سمنا على عسل" بل مرت بأوقات عصيبة أمكن تجاوزها، واستمرت الديانتان في ود ومعايشة قرونا طويلة ناطحت الزمن وقاومته مقاومة أهرامات الجيزة.

عندما دخلت القوات العربية أرض مصر أدرك القائد العربي الإسلامي عمرو بن العاص أنه أمام شعب قبطي

مسيحي في حالة صراع شديد واضطهاد من الدولة البيزنطية الحاكمة الأمر الـذي أدى بـالإمبراطور لأن يقـيم ويعـين بطريركا آخر من قبل بيزنطة أسـماه الأقبـاط بـالبطريرك الملكي (نسبة إلى الملك) إذ كان لهم بطريرك وطني مـنهم وهو الأنبا بنيامين والذي اضطرته هذه الظروف لأن يهرب داخل البلاد من وجه الحاكم البيزنطي وذلك عقب أن أوفـد هرقل (إمبراطور الدولة البيزنطية آنذاك) واليا شرسا يفرض على الأقباط ما تصوره عقيدته المسماة "المونوثيليـة" (٢١) والتي اعتبرها الإمبراطور حله التوفيقي بين عقائد الكنـائس المتصارعة في كل من الإسكندرية والقسطنطينية وأنطاكيـة وروما.

ويسجل د. وليم سـليمان قـلادة (٢٢) فـي كتابـه "المسيحية والإسلام على أرض مصر" النصوص التاريخيـة لهذا الحدث حول دخول العرب إلى مصر من خلال وثـائق أربع مختلفة كالآتي:

(أ) شهادة عبد الرحمن بن عبد الحكم القرشي المصري مؤرخ الفتح الإسلامي إذ يقول:

"كان بالإسكندرية أسقف القبط يقال له أبـو بنيـامين فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص إلى مصر كتب إلى القـبط يعلمهم أنه لا تكون للروم دولة وأن ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقي عمرو فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئـذ لعمرو أعوانًا".

(ب)شهادة ساويرس بن المقفع أسقف الآشمونيين ومؤرخ كتاب "بطاركة الكنيسة القبطية" فقد كتب بعـد نحـو أربعة قرون من هذه الواقعة يقول:

إن سانوتيوس (الذي كان من رؤساء الأقباط وتـولى شئون الكنيسة مدة اختفاء البطريرك بنيامين) عرف "عمرو" أمر الأب المجاهد بنيامين البطريرك وأنه هارب من الـروم خوفا منهم، فكتب عمرو بن العاص إلى عمال مصر كتابـا يقول فيه "الموضع الذي فيه بنيامين بطريرك النصارى القبط له العهد والأمان والسلامة من ا ، فليحضر آمنـا مطمئنـا ويدبر حال بيعته وسياسة طائفته، فلما سمع القديس بنيـامين عاد إلى الإسكندرية بفرح عظم بعد غيبة ثلاثة عشر عاما.. ففرح الشعب كله بمجيئه".

وذهب سانوتيوس وأعلم عمرا بوصوله وحينئذ أمـر بإحضاره بكرامة وإعزاز ومحبة، فلمـا رآه أكرمـه وقـال لأصحابه: إن في جميع الكور التي ملكناها إلى الآن ما رأيت رجلا يشبه هذا.

وكان الأب بنيامين حسن المنظر جدا جيـد الكـلام بسكون ووقار ثم التفت إليه عمـرو وقـال: جميـع بيعـك ورجالك اضبطهم ودبر أحوالهم. وانصرف من عنده مكرما مبجلا".

(ج)جاء في تاريخ الأنبا يوحنا أسقف شبشير والذي كان معاصرا لأحداث الفتح الإسلامي "أن عمرا لم يأخـذ شيئا من أموال الكنائس ولم يرتكب عملا من أعمال السلب والنهب وأسبغ عليها الحمايـة طـوال مـدة حكمه".

(د) جاء في كتاب سير القديسين والمسمى "بالسنكسـار" والذي يتلى منه عادة فصل يناسب كـل يـوم فـي صلوات الكنيسة وذلك فيما يتعلق بسيرة الأنبا بنيامين وظروف حياته ما يلي:

وقرب عمرو بن العاص رؤساء الأقبـاط وأحسـن معاملتهم فاتجه هؤلاء إلى إصلاح شئون الكنيسة التي كان قد اختل نظامها وتفرق شملها فتقدموا إلى ابن العاص وأعلمـوه خبر اختفاء البابا بنيامين طالبين عودته إلى كرسيه فاستدعاه ومنحه الحرية أعاد له الكنائس التـي كـان قـد اغتصـبها البطريرك الملكي البيزنطي وأمره أن يتصرف في أمورهـا كما يريد فاستطابت لذلك قلوب المسيحيين وشـكروا حسـن صنيع عمرو إليهم".

ويبدو أن عمرو بن العاص كـان متفهمـا ومقـدرا لموقف المصريين الأقباط من ترحيبهم به لسـخطهم علـى النظام البيزنطي وأتصور ـ بمفهومي كسياسي ـ أنه لا بـد أن يكون قد قطع على نفسه وعودا بأن يترك الأقباط وشأنهم فيما يتعلق بالعقيدة الدينية، فضلا عن أنه قد خفف الضرائب عن الأهالي.

وتنفرد مصر بأن لها علاقة مع الإسلام منذ الأيـام الأولى، إذ يروي المؤرخون أن الرسول ﷺ قد بعث برسائل إلى الحكام البارزين في ذلك العهد في السنة السادسـة مـن الهجرة وكان من بينهم مقوقس مصر (٢٣).

وكلمة "مقوقس" يونانية الأصل وتعني "حاكم" وكـان العرب يسمونه "عظيم القبط" أما اسمه الأصلي فكان "جرجس بن مينا" وهو مصري رغم جـذوره اليونانيـة منـذ عهـد البطالمة.

وفي تلك الحقبة كان الفـرس قـد داهمـوا مصـر واستولوا عليها بالفعل لمدة عشر سنوات قتلـوا خلالهـا ٨٠ ألف مصري، ٧٠٠ راهب ودمـروا ٦٢٠ ديـرا للرهبـان والراهبات.

وعندما وطد هرقل حكمه فـي بـلاد الشـام تـرك المقوقس يحكم مصر ولكنه كان يميـل إلـى الأقبـاط مـن اضطهاد البيزنطيين كما سبق القول.

ومن المعروف أن المقوقس قد أرسـل هديـة إلـى "الرسول" ﷺ جاريتين ودابتين وعسلا وثيابا وأن "الرسـول" ﷺ قد تزوج من "مارية القبطية" وقد ولدت "إبـراهيم" الـذي مات قبل أن يبلغ ستة عشر شهرا.

أما "أخت مارية" فقد تزوجها "جهم بن قيس العبدري" وهي أم "زكريا بن جهم" والذي كـان خليفـة "عمـرو بـن العاص" في حكم مصر (٢٤).

وهكذا توجد (لمصر) علاقة خاصة ومتميزة منذ فجر الإسلام ولكن بسرعة تحول الإسـلام إلـى قـوة سياسـية وعسكرية هائلة ولذلك فإن الحكام العـرب - فـي نشـوة انتصاراتهم وفتوحاتهم وفي السنوات الأولى من عهد الخلفاء الراشدين - لم يحاولوا أن يفرضوا الدين الجديد مع الغـزو ذاته، إذ كان هدفهم الأساسي هو تثبيت أقـدام الحكـم فـي المناطق المفتوحة ثم تجهيز الجيوش لتوسيع الإمبراطوريـة الإسلامية.

وكما دارت صراعات فكرية شـديدة فـي القـرون الأولى للمسيحية حول "طبيعة المسـيح" وحقيقـة "الكلمـة" (اللوجوس) - وقد ألمحنا إلى ذلك فيما سبق - كذلك دارت صراعات فكرية أدت على حروب وصراعات شـديدة فـي العالم الإسلامي من خلال ما يعـرف بحركتـي الخـوارج والشيعة، ورغم أنهمـا أخـذتا شـكل الخلافـات المذهبيـة والتفسيرات لما جـاء بـالقرآن والأحاديـث ولكنهمـا فـي جوهرهما كانتا صراعا بين ما يمكـن أن يسـمى "مدرسـة العروبة" و "مدرسة الإسلام" فالخوارج قامت حركتهم علـى أن الخلافة أو الإمامة أو الإمارة على المؤمنين ليست وراثية

وإنما تحق لمن تختاره الجماعة، أيا كان "ولـو كـان عبـدا أسود" ولذا تجدهم لا يعترفون بالخلافة في عصر الراشـدين إلا لأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب حيث البيعة واضحة وصريحة ومؤكدة، أما عثمان بن عفان فقد اعترفوا بشرعية خلافته في السنوات الست الأولى منها وكذلك اعترفوا بخلافة علي بن أبي طالب حتى معركة صفين، وقد وصل فكـرهم من الحدة والنقاء معا إلى "تكفير كل من حـاد عـن تعـاليم الإسلام" إذ يعدونه "مرتدا" وجزاؤه القتـل أو "الاسـتعراض" وهو ما يشار إليه الآن بمصطلح "الاغتيال الديني" ورغم أن دعوة الشيعة قد بدأت - مثل الخوارج - دعوة إلى الشعوبية - أي الشعوب الإسلامية غير العربية - وتمثل احتجاج أبناء الأمصار المفتوحة على احتكار قريش لقيادة الأمة الإسلامية، ولكنهم انتهوا سياسيا بعقيدة تخالف الخوارج لأنهم قاتلوا من أجل أن تكون الإمامة مقصورة على أهل بيت الرسـول ﷺ وأن الإمام وحده - من بعد الرسول ﷺ - هو الذي يعـرف "باطن الدين وجوهره" وهو وحده الذي يتـأتى لـه التفسـير والتأويل.

ولا أود أن أسترسل في سرد تاريخ الفكر الإسلامي ـ فهذا يخرج عن نطاق هذه الدراسة ـ لأن مقصدي وهدفي الرئيسي منها هو التعرف على تأثير الإسلام على الشخصية المصرية عبر التاريخ وفي مراحله المختلفة.

على أن الأمر الذي استوقف نظري عند قراءاتي لتاريخ هذه الحقبة هو أن المصريين (الأقباط) لم يشتركوا ـ لا في قليل أو في كثير ـ في الصراع الحاد بين الفرق المختلفة فلم نسمع أنهم انحازوا إلى الخوارج أو إلى الشيعة، فلا هم كانوا مع العراق وأهل الكوفة ولا انحازوا لأهل الشام ودمشق وأتصور أنهم قد اتخذوا هذا الموقف غير الطبيعي ـ والذي يخالف مواقفهم السابقة في المرحلة الفرعونية أو المرحلة المسيحية وذلك ـ من وجهة نظري ـ للأسباب الآتية:

أولا: استمر المصريون لا يتحدثون إلا اللغة القبطية قرونا طويلة بعد دخول العرب إلى مصر، ولذلك فإن تتبعهم للصراع حول التفسيرات المختلفة للقرآن والسنة خصوصا في القرن الأول للهجرة، لم يكن بالعمق والفهم الكافيين، في وقت لم يكن هناك سبل

لنشر الفكر إلا من خلال التجمعات في الأسواق أو أماكن العبادة، ولذلك لم يدرك المصريون أبعاد ما يجري حولهم في البلدان العربية أو الصراعات بين فرق الإسلام المختلفة، مكتفين بأنهم قد تخلصوا من اضطهاد بيزنطة.

ثانيا: حتى أولئك الذين كانوا على بينة من الأمر - وهم بالتأكيد قلة من المثقفين ومن يعرفون القراءة والكتابة أو قريبون من الحاكم - آثروا الصمت والسلامة، فقد عانوا طويلا من خلال الصراعات المذهبية في القرون الأولى من المسيحية واستمر اضطهادهم بسبب تمسكهم بمذهب "الطبيعة الواحدة".

* * *

واستمرت السنوات تجري طوال فترة حكم الخلفاء الراشدين وهي فترة وجيزة جدا على أي حال فقد قُتل علي بن أبي طالب عام ٤٠ هـ وأسس معاوية بن أبي سفيان الدولة الأموية، واتخذ دمشق عاصمة للخلافة واستمرالحكم الأموي من عام ٤٠ هـ (٦٦١ م) حتى ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) وتولى الخلافة في تلك الحقبة ١٢ خليفة، ويناظرها في ولاية

مصر ٢٥ واليا (في عهد الدولة الأموية وحدها)، وربما كان أهمهم هو "عبد ا بن عبد الملك بن مروان بن الحكم" (٨٦ هـ ـ ٧٠٥ م إلى ٩٠ هـ ـ ٧٠٩ م) إذ أنه قد أصدر أمـرا بأن تكون محررات الدواوين بالعربية، وكانت حتـى عهـده تكتب ـ لو اضطر الأمر ـ بحروف قبطية. أي أنه حتـى نهاية حكم الأمويين كانت الديانـة المسـيحية هـي الغالبـة بوضوح كما كانت اللغة القبطية هي السائدة بوضـوح فـي المعاملات والحوار بين الكافة.

وتولى بنو العباس مقاليد الخلافة الإسـلامية لفتـرة طويلة جدا امتدت من (١٣٣ هـ ـ ٧٥٠ م إلى ٦٥٦ هـ ـ ـ ١٢٥٨ م) ومرت بمراحل كثيرة متغيرة ومختلفة وبلغـت الدولة العباسية أوجها في عهد هارون الرشيد، وتولى مصر في عهد الدولة العباسـية ٩٦ واليـا بمـا فيهـا محـاولات الاستقلال في عهد ابن طولون والإخشيد.

ورغم أنه توجد علاقة أكيدة بين تحول المصـريين من المسيحية إلى الإسلام وبين تحولهم من اللغة القبطية إلى اللغة العربية، إلا أننا سنكتفي هنا أن نوضح في إيجاز كيف تحولوا من المسيحية إلى الإسلام وكيف استمرت الـديانتان

معا، وفي معايشة لنحو أربعة أو خمسة قرون ولكن الأمـر المثير للدهشة هو أن المصريين جميعا (مسلمين ومسيحيين) قد تحولوا جميعا من القبطية إلى العربية في ذات المرحلـة والفترة، إلى أن تقهقرت اللغة القبطية وأصبحت متداولة فـي الأديرة والكنائس فقط وسنعود إلى ذلك فيما بعد عند الحديث عن "الانتماء العربي لمصر".

وهناك نظريات وآراء كثيرة عن الأسباب التي دعت المصريين المسيحيين ـ وعبر قرون ـ أن يتحولـوا مـن المسيحية إلى الإسلام نذكر منها:

أولا: يبدو أن الخلافات المذهبية المعقدة التي أثيـرت عبـر المجامع المسكونية ـ كما سـبق التفصـيل ـ قـد أوجدت حالة من البلبلة وعدم الفهم عنـد المـواطن البسيط العادي، وبدلا مـن صـراعه مـع سـلطة الإمبراطورية الحاكمة والقابضة حول أن "للمسـيح طبيعة واحدة أم طبيعتان" وجد إجابة جاهزة وسـهلة ومباشرة في شعارات الإسلام البسيطة أن "لا إله إلا ا " وأن "لا كهنوت في الإسلام".

ثانيا: عند دخول المسيحية مصر تكونت الكنيسة كتنظيم سري تحت الأرض - يدعو للتبشير بها كأنه " حركة تحرر " فانتشرت المسيحية بسرعة وفي يسر، حسبما ذكرنا قبل ذلك وكجزء من الاحتجاج على الاضطهاد الروماني وكجزء من حركة تحرير العبيد.

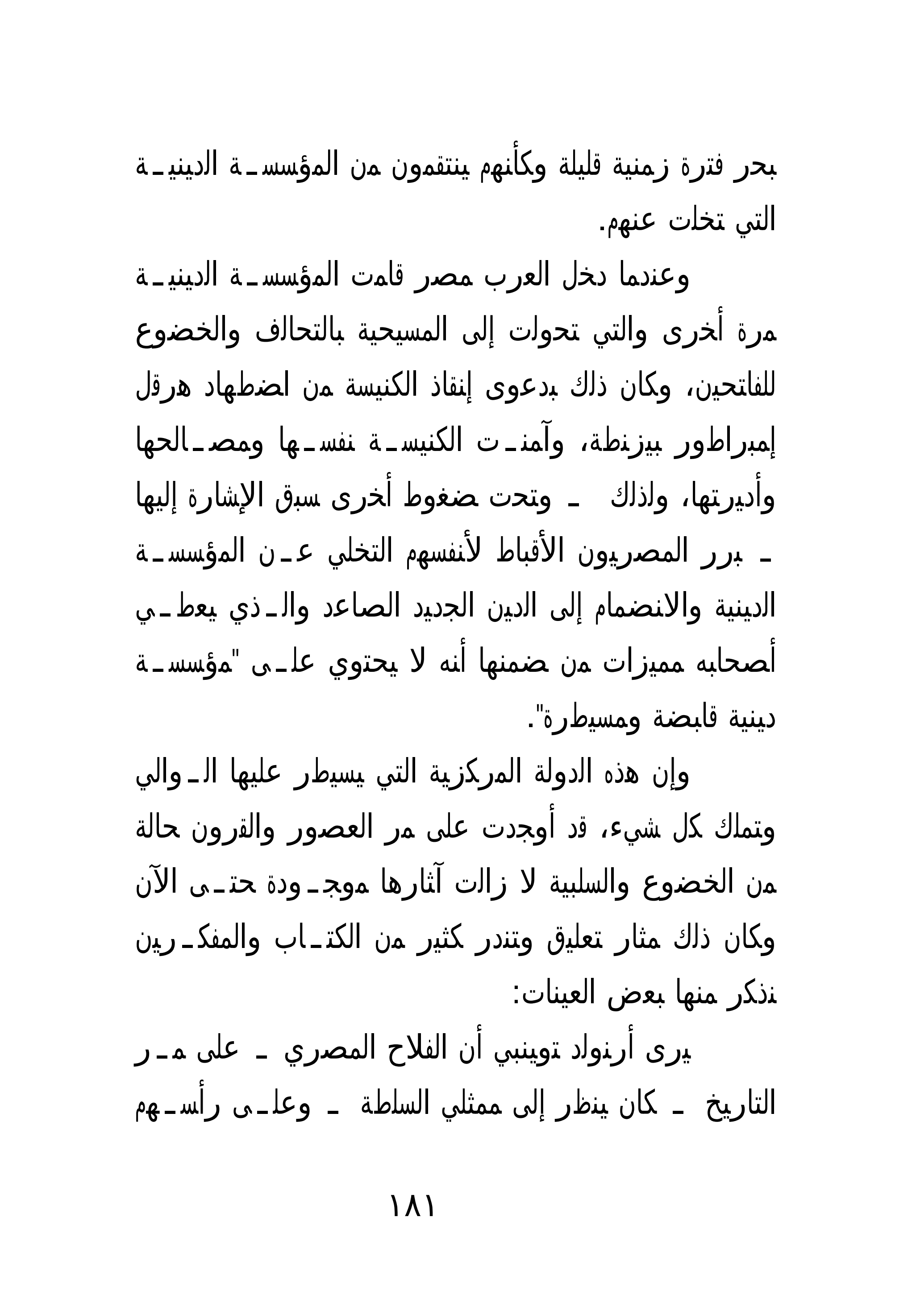
ثالثا: رغم البداية الرائعة لملابسات دخول عمرو بن العاص إلى مصر، ولكن مع استقرار الحكم وتتالي الخلفاء في دمشق وبغداد ظهرت بعض قرارات وتعليمات تعامل الأقباط كذميين، فالخليفة العباسي المتوكل (توفي في ديسمبر ٨٦١ م) أمر بإجبار أهل الذمة على لبس الطيالسة العسلية والزنانير وأن يضعوا على رءوسهم القلانس المختلفة الألوان.

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن مثل هذه الإجراءات التي طبقت على قبط مصر، كان الولاة يتساهلون في تنفيذها في معظم الأحيان وأن التمسك بها كان يقل تدريجيا حتى وإن تم تنفيذها بدقة وقت صدورها وأن هذا الأمر صحيح

وثابت تاريخيا (ومن هنا ظهر المثل الشعبي: الغربال الجديد له شدة).

رابعا: لقد أدرك الفلاح المصري أن الإسلام في صوره الأولى البسيطة لا يفرض "مؤسسة دينية دنيوية" وأن العلاقة الدينية ستكون مباشرة بينه وبين ربه مما يسمح له بأن ينقل معه إلى الإسلام ما يستهويه من طقوس وعادات من دياناته القديمة سواء تلك التي مارسها في المسيحية أو تلك التي أخذها معه عبر الفرعونية والتراث القديم.

إن ثقة المصري البسيط المتدين قد اهتزت - عبر التاريخ - في مؤسساته الدينية، فقد عرف أن كهنة آمون قد تحالفوا مرات متعددة مع الفاتحين والغزاة، فقد رحبوا بالإسكندر لتخليصهم من الفرس ونصبوا بطلميوس الأول فرعونا من نسل الآلهة مقابل المحافظة على أملاكهم ومعابدهم ورد ما نهبه الفرس منها، ثم تحالفوا بعد ذلك مع ولاة الإمبراطورية الرومانية وذلك في سبيل الحفاظ على امتيازاتهم ومصالحهم وبدعوى الإبقاء على المعتقدات والمعابد ومن ثم هرع المصريون القدماء إلى المسيحية في



بحر فترة زمنية قليلة وكأنهم ينتقمون من المؤسسـة الدينيـة التي تخلت عنهم.

وعندما دخل العرب مصر قامت المؤسسـة الدينيـة مرة أخرى والتي تحولت إلى المسيحية بالتحالف والخضوع للفاتحين، وكان ذلك بدعوى إنقاذ الكنيسة من اضطهاد هرقل إمبراطور بيزنطة، وآمنـت الكنيسـة نفسـها ومصـالحها وأديرتها، ولذلك ـ وتحت ضغوط أخرى سبق الإشارة إليها ـ برر المصريون الأقباط لأنفسهم التخلي عـن المؤسسـة الدينية والانضمام إلى الدين الجديد الصاعد والـذي يعطـي أصحابه مميزات من ضمنها أنه لا يحتوي علـى "مؤسسـة دينية قابضة ومسيطرة".

وإن هذه الدولة المركزية التي يسيطر عليها الـوالي وتملك كل شيء، قد أوجدت على مر العصور والقرون حالة من الخضوع والسلبية لا زالت آثارها موجـودة حتـى الآن وكان ذلك مثار تعليق وتندر كثير من الكتـاب والمفكـرين نذكر منها بعض العينات:

يرى أرنولد توينبي أن الفلاح المصري ـ على مـر التاريخ ـ كان ينظر إلى ممثلي السلطة ـ وعلـى رأسـهم

حاكم الدولة - نظرة إجلال بلغ حد التأليه والتقديس ولذلك كان يذعن لأوامرهم بصورة شبه مطلقة وأصبحت طاعة الحاكم وكل من يمثله واحدة من أبرز صفات الفلاح المصري (٢٥).

ويصل الباحث المصري كمال المنوفي إلى ذات النتيجة وبتبرير مماثل، فيرى "أن الفلاح المصري يتصور أن الثورة على الحاكم المسلم، مهما بلغ جوره، شيء مرذول، وذلك عملا بفتوى الإمام أحمد بن حنبل والقائلة بأنه على الرغم من أن الحاكم لا يطاع في معصية، فإنه لا يجوز الخروج عليه، لأن ذلك يعني استبدال الأمن بالخوف وإثارة الفتن والعنف وتهديد كيان الأمة ووحدتها، ولذلك فإنه من الحكمة أن تصبر الرعية على جور الحاكم عملا بحكمة وجوب تحمل أخف الضررين" (٢٦).

أما عباس محمود العقاد فكان له رأي مختلف من منطلق أن الإنسان المصري ينظر إلى السلطة نظرة الشك والريبة وليس التقديس والخوف، وأن الفلاح يرتبط بالأمة والحياة القومية عن طريق روابط الأسرة التي تشكل له ضمانا ما ضد القسوة والظلم.. وأن الفلاح كان دائما متحفزا

للتغيير، غير أن الفلاح في ثورته يريد أن يـرى الصـفوف حوله ولا يحب أن يخاطر وحده (٢٧).

وهذه الصفة "للجماعية فـي العمـل" هـي ظـاهرة مصرية واضحة في كل رقائق الحضارة على تتاليها لأنهـا نابعة من ظروف الحياة وواقعيتها، فالعمل في القرية عمـل جماعي والعمل في الغيط والحقـل مشـاركة بـين الرجـل وزوجته وأولاده، وأعمال الري والسيطرة على الفيضان لن تتم إلا من خلال تنظيم جماعي على مستوى الدولة المركزية وحماية الرقعة الزراعية من غارات البدو لم يكن من الممكن تحقيقه دون تعاون بين جملة قرى (٢٨).

ولذا فإن الشخصية المصرية لا بد أن تكون "تجميعية تجمعية" تسعى لأن تتفق على المصلحة المشتركة والأرضية التي تجمع ولا تفرق.

* * *

ورغم أن هناك روايات كثيرة حول ظروف وأسباب وملابسات التحول إلى الإسلام، إلا أن هناك شبه إجماع على أن " مصر لم تبد كبلد ذي أغلبية إسـلامية إلا فيمـا بـين القرنين الثالث عشر والخامس عشر (٢٩) كمـا أن انتشـار

الإسلام كان في الوجه البحري أولا ثم امتد إلى الصعيد، أما بلاد النوبة فقد ظلت مسيحية بأكملها حتى القرن الرابع عشر (٣٠). وكل ذلك يعني أن تعايش الديانتين استمر داخل آلاف العائلات ولقرون طويلة، وهذا ما أوجد هذه الألفة التي نلمس استمراريتها حتى الآن، وهو الأمر الذي حرصنا على إبرازه في فصل سابق.

وإذا كانت قد مرت على مصـر فتـرات اضـطهاد لسبب أو لآخر، فالملاحظ هو أن الاضطهاد لم يكن مقصورا على الأقباط وغنما عند وجود موجة اضطهاد بسبب توجهات من الخليفة أو تعليمات من الوالي فإن الاضطهاد كان عامـا وشاملا للمصريين جميعا.

والوجه الآخر - المنطقي - هو أنـه كلمـا كـان الخليفة أو الوالي أكثر سماحة وقلل مـن الضـرائب علـى المصريين جميعا، كان الشعب كله أكثر رضا، وفـي تلـك الفترات كان الاضطهاد على الأقباط غير واضح أو ملحـوظ بل كانوا ينعمون بحرياتهم في ممارسة طقوس ديانتهم فـي وقت لم يكن فيه أمر حقوق الإنسان مطروحـا أو معروفـا. وفي هذا الأمر كان الأقباط "كأقلية ذمية" في ظروف أفضـل

بكثير من الأقليات أو "الملل" المماثلة في باقي أنحاء الدولـة الإسلامية ولعل ذلك كان راجعا إلى طبيعة الأقباط الصبورة والمتحملة والتي كانت تقبل الاضطهاد المحتمل دون ضـجر واضح فضلا عن وجود نصوص مأثورة توصي بقبط مصر خيرا.

* * *

ومن قراءاتي ولما هو متاح من معرفـة بالتـاريخ لاحظت أن الحقبة الزمنية الطويلة من عـام ٦٤١ م (الفـتح العربي لمصر) حتى ٩٦٩ م (عندما دخل جـوهر الصـقلي الفسطاط وهي فترة تمتد لما يزيد على ٣٠٠ سنة كانت فترة رتيبة بطيئة مملة، ونعرف عنها "أقل القليـل" وفيهـا ومـن خلالها استسلم المصريون وقبلوا الأمر الواقع فقـد اسـتقبلوا العرب ـ ليس كفاتحين ـ ولكن كمنقـذين لهـم مـن نيـر الرومان، فإذا بهم يحكمون بعشرات من الـولاة المتعـاقبين والغرباء عن البلاد فكان هناك ٦ ولاة فـي فتـرة الخلفـاء الراشدين وأعقبهم ٢٥ واليا في عهد الخلافة الأمويـة وتـلا ذلك ٩٦ واليا طوال فترة الدولة العباسية ومجمل القول أنـه في خلال الفترة من ٦٤١ م إلى ١٢٥٨ م تولى فيهـا ٢١٣

واليا حكم مصر، أي بمعدل نحو ثـلاث سـنوات للـوالي، وبقراءة جدول ولاة مصر كانت مدة حكم بعضهم، عدة أيـام أو أشهر وامتدت لآخرين سنوات معدودة.

ومنذ حكم الإسكندر حتى حكم عبد الناصر، عـاش المصريون على أمل التغيير إلى الأفضل، فكلما سمعوا بوفاة إمبراطور أو خليفة أو وال، كانوا يتوقعـون حكمـا أعـدل وظروفا أحسن، وفي النهاية ومع كثرة التغيرات استسـلموا للأمر الواقع.

في بعض الأحيان كانوا يساعدون طرفا ضد طـرف على أمل أن يفضي ذلك إلى تحسن الأحـوال، وأعتقـد أن المرة الأخيرة التي قاموا فيها بهذه المحاولات - والتي كانت تنتهي دائما إلى إحباط - هي عندما ساعدوا الفاطميين على دخول مصر، ورحبوا بالفعل بالخليفة المعز لدين ا الفاطمي (رمضان ٣٦٢ هـ - يونيو ٩٧٣ م) وتحولت مصر إلـى دار خلافة (أي يحكمها الخليفة ذاته) بعد أن كانت ولقـرون دار إمارة (أي يحكمها الأمير أو الوالي مـن قِبـل الخليفـة وأصبحت القاهرة عاصمة هذه الخلافـة الجديـد (بخـلاف

خلافتين أخريين، واحدة في بغداد هي امتداد للخلافة العباسية وأخرى في الأندلس هي امتداد للخلافة الأموية).

وفي تقديري فإن البداية الحقيقية لحقبـة الحضـارة الإسلامية في مصر.. تبدأ من حكم الفاطميين مصـر فهـي التي شهدت التحول الأكبر من المسيحية إلى الإسلام في عهد الحاكم بأمر ا ثم حدث التحول من اللغة القبطية إلى العربية في فترة بعد ذلك بنحو قرن.

ولا يجوز الحديث عن مصر الفاطمية بغير الحـديث عن الأزهر تلك المؤسسة الدينية الكبرى التي قامت لتكـون جامعا ثم لم تلبث أن صارت جامعة وقد سميت بالأزهر نسبة إلى فاطمة الزهراء ابنة الرسول ﷺ.

وقد وضع حجر الأساس في بناء الأزهر فـي يـوم السبت ٢٢ جمادى الأول عام ٣٥٩ هـ الموافق الثاني مـن أبريل عام ٩٧٠ م - كما ورد في المقريـزي - وتـوخى جوهر الصقلي أن يكون المسجد في موقـع متوسـط مـن العاصمة الجديدة القاهرة.

وأقيمت أول صلاة بهذا الجامع الجديـد بعـد نحـو عامين في يوم الجمعة ٦ رمضان عام ٣٦١ هـ وقد لاحـظ

المصلون أن أول خطبة ألقيت على منبر الأزهـر تضـمنت تغييرات هامة في متن الخطبة فقد أمر "جوهر" بقطع الدعاء للخليفة العباسي واستبداله "بالحاكم الفاطمي" وأمر جوهر بأن يكون الدعاء في الخطبة كالآتي: "اللهم صـل علـى محمـد المصطفى، وعلى عِلي المرتضى، وعلى فاطمـة البتـول، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول، الذي أذهب ا عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، وعلى الأئمة الطاهرين آباء أميـر المؤمنين المعز لدين ا ".

كما أضاف إلى الأذان عبارة "حي على خير العمل" وكل هذه الإضافات من تقاليد الفكر الشيعي، الفكر الرسـمي للدولة الفاطمية.

وبعد حضور المعز لدين ا إلى مصر، بدأ الأزهر يباشر مهمته في الدعوة إلى المذهب الجديد، وجلس قاضـي القضاة أبو الحسن بن النعمان فـي صـحن الأزهـر يقـرأ مختصر أبيه (أبو حنيفة النعمان بن حيون) في فقه الشـيعة، وحضر الدرس جمع حافل من وجوه الدولة وعلمائها وأثبت القاضي أسماء الحاضرين.

فكانت هذه أول حلقة للدرس بالأزهر.

وعلى مر العصور سار الأثرياء والأمراء والكبـراء على نهج الخلفاء الفاطميين، فتنافسوا في إقامة حلقات الدرس وتشييد الأروقة للمجاورين - طلبة الأزهـر - وصـارت مساكن يأوي إليها طلاب العلم وأعـدت بجانبهـا محـلات للغسيل وأخرى للوضوء وغيرها لطـبخ الطعـام بحيـث لا يحتاج الطالب إلى مغادرة الأزهر إلا نادرا (٣١).

وهكذا تحول الأزهر إلى أقدم جامعة دينية في وقتها ولعل في ذلك إحياء لتراث جامعة عين شمس الفرعونية ثـم جامعة الإسكندرية في الحقبة اليونانية - الرومانية ثم مدرسة الإسكندرية اللاهوتية في القرون الأولى للمسـيحية.. فجـاء الأزهر ليكون منذ إنشائه وحتى الآن منارة فكريـة للعـالم الإسلامي.

وعندما قام الفاطميون بإنشاء دولتهم ومقر الخلافـة استعانوا بعدد هائل من الموظفين، إذ أنشأوا خمسـة عشـر ديوانا (وكان كل ديـوان أشـبه بـالوزارة) وتزايـد عـدد المصريين (مسلمين وأقباطا) الذين شغلوا كافة المستويات من الوظائف في هذه الدواوين.

وتحولت القاهرة لتكون أقـوى مقـرات الخلافـات الثلاث من خلال حركة ثقافية مزدهرة بإنشاء كل من الجامع الأزهر ودار الحكمة وأصبح الجامع الأزهر منذ تلك الحقبـة وإلى الآن مصدر معرفة وفكر وفقه، وأتصـور أن هنـاك تشابها في الزخم الثقافي في هذه الفترة يناظر ما تمتعت بـه مصر في القرون الأولى للمسيحية عنـدما كانـت مدرسـة اللاهوت بالإسكندرية هي مصدر المعرفـة وكانـت مكتبـة الإسكندرية هي المرجع لكل ما يكتب، لأنه بـنفس الطريقـة تحول الأزهر ليكون قبلة العلماء وطلاب العلم والمعرفة في كافة أمور الدين والدنيا من كل الأقطـار دون تفرقـة فـي الجنس أو اللغة أو الطبقة وقدم الأزهر عبر العصور إسهاما حضاريا يرتكز على العقلانية والتوجهات المنطقية المتطورة المتقدمة عما حولها بمقاييس ذلك الزمن، فما بال قوم ينكرون على مصر حقها في أن تفاخر بأنها حمت العقـل الإنسـاني مرتين: حين آوت فلسفة اليونان وحضارته أكثر من عشـرة قرون وحمتها وحين آوت الحضارة الإسلامية وحمتها إلـى هذا العصر الحديث (٣٢).

ومن خلال العلماء الوافدين من كافة أركان الأرض إلى الأزهر جاءت معهم مصادر معرفة جديـدة، أدت إلـى إثراء الفكر القومي المصري. وحتى بعـد أن انتهـى حكـم الفاطميين ظل الأزهر محافظا علـى هـذا التـراث وهـذه الممارسات بالانفتاح على كافة الدولة الإسلامية إلـى يومنـا هذا.

وعلى سبيل المثال، فإن فكرة تسـجيل كتـاب عـن "مشاهير العرب" جاءت أصلا من خليل المـرادي - وهـو قاض من دمشق وقد طلب المرادي مـن الشـيخ مرتضـى الزبيدي - وهو يمني من زبيد - وكان يدرس في القـاهرة أن يعاونه في جمع التراجم، فطلب الزبيدي من تلميذه عبـد الرحمن الجبرتي - وهو أصلا من جبرت في الحبشة - أن يعاونه، وانتهى الأمر بأن انفرد الجبرتي بهذه المهمة والتـي أسفرت عن كتاب "عجائب الآثار فـي التـراجم والأخبـار" والذي يعتبر من أهم المراجع لتاريخ مصر (٣٣).

أما دار الحكمة فقد جمع فيها الفاطميون كل ما كـان في القصور من كتب ومراجع ووضعت في متناول العلمـاء وطالبي الدراسة والبحث ولذلك فإن هذه الحقبة هـي التـي

أكسبت اللغة العربية الطابع القومي وتحولت تدريجيا من لغة الفاتحين إلى لغة المثقفين وطبقة الموظفين في الدولة.

وكان طبيعيا أن يكون دخول الفاطميين هـو نقطـة تحول من السنة (أو الإسلام بشـكل عـام دون تخصـيص مذهبي) إلى الشيعة، ومن الطبيعي أيضا أن لا تكون القضية هي مسألة حوار واقتناع مذهبي بقدر ما كان التحول نتيجـة سخط المصريين جميعا (من ظل على ديانته المسيحية ومـن أسلم) على دول العباسيين، فقد ساهم ذلـك فـي أن يتحـول جانب من المسلمين إلى الشيعة، وأن يسلم كثير من الأقبـاط ويتحولوا إلى الشيعة كذلك.

لم تدم فترة الازدهار النسبي طويلا فقد أدى تفكـك الأمة الإسلامية وتقسيمها إلى ثلاث خلافـات إلـى إغـراء وطمع الصليبيين على غزو المنطقة وفي لحظة معينة اضطر حكام مصر إلى الاستعانة بحاكم الشام نور الدين بن زنكـي، فأرسل إليهم بعض قواده ومنهم أسد الدين شيركوه ومعه ابن شقيقه "صلاح الدين يوسف بن أيوب" وقد تمكنا من هزيمـة الصليبيين عند الإسكندرية عام ١١٦٧ م وكان ذلك مـدخلا لانتهاء حكم الفاطميين وبداية لحكم الدولة الأيوبيـة لمصـر

والذي استمر نحو ٨٢ عاما ولكنه استمر يحكم (فـي ظـل استقلال مصر) وتحت مظلة الخلافة العباسية كما كان يحكم ابن طولون والإخشيد.

ولم يكن صلاح الدين مصريا ولا عربيا (لأنه كردي المولد، ولكنه بذكائه وجسارته أدرك الحلقة الرئيسـية فـي صراع تلك الحقبة، وأن لا انتصار دون وحدة للصف العربي فعبأ العالم العربي إلى أن استطاع أن يحقق انتصارا مرموقا في معركة حطين.

وفي حوار لي مع الزعيم ياسر عرفات فـي مدينـة الجزائر عام ١٩٨٧ حول الندوة التي نظمتها اللجنة المصرية لمنظمة تضامن الشعوب الآسيوية والأفريقية فـي القـاهرة بمناسبة مرور ٨٠٠ سنة على انتصار حطين أبدى إعجابـه بما قاله البابا شنودة من أن هذه الحـرب تسـمى "الحـرب الصليبية" عند الغرب لأنهم اتخذوا مـن الصـليب شـعارا ومبررا للغزو ولكن العرب كانوا أكثـر ذكـاء وفطنـة إذ يسمونها "حرب الفرنجة" مـن منطلـق أنهـم رأوا غـزوة حضارية من الفرنجة (أي الأجانـب أو الأغـراب) للـبلاد العربية. وكيف أن الصليبيين لم ينجحوا في اسـتمالة أقبـاط

مصر إليهم على اعتبار أنهم يحاربون تحت راية الصـليب، وحارب الأقباط إلى جوار المسـلمين للـدفاع علـى أرض الوطن، أرض المسلمين والأقباط معا.

وقد عقب ياسر عرفات على تعليقي قائلا: إننـا الآن لا نحارب اليهود كديانة ولكننا نحارب الصهيونية باعتبارها غزوة حضارية ضد شعبنا مثل غزوة الفرنجة تمامـا ولـذا فإننا كشعب فلسطيني نحارب جنبا إلى جنـب ـ ـ مسـلمين ومسيحيين ـ دون تفرقة ومن هنا كان جورج حبش ونـايف حواتمة يحتلان مواقعهما المتقدمة في صلب المنظمة، وهـذا ما تلمسه في كل موقع في الأرض المحتلـة وفـي الضـفة والقطاع حيث الألفة والمحبة والتآخي واضحة بين المسلمين والمسيحيين مثلما هو الحال في مصر (وقد أكدت الانتفاضة هذا المعنى) ولذاك فإنني كنت قلقا أشد القلق عندما سـمعت أخبار القلاقل المتكررة والفتنة الطائفية في مصـر ولكننـي كنت ولا زلت متأكد من أن مصر سوف تتجاوزهـا عنـدما تحل مشكلة فلسطين لأن ذلك سيقلل التوجه الطائفي ويزيـد التوجه الوطني.

وامتدت على مصر فترة مظلمة كئيبة هي حقبة حكم المماليك والعثمانيين (من ١٢٥٢ م حتى عام ١٨٠٥ عندما عين محمد علي واليا على مصر) وهي فترة طويلة تمتد لنحو ٦٥٠ عاما كان حكم مصر في يد حكام غير مصريين إذ كانوا خليطا من الأتراك والشراكسة والروم والروس وأقلية أوربية.

ففي فترة المماليك كان الحكم تحت مظلة الخلافة العباسية والتي انتهت بقيام الدولة العثمانية ولكن فتحها لمصر كان على يد السلطان سليم الأول عام ١٥١٧ م. وكان ذلك حين أغار العنصر التركي على هذه الأقطار الإسلامية في حوض بحر الروم فردها إلى انحطاط بعد الرقي، وإلى جهالة بعد العلم، وإلى ضعف بعد القوة " (٣٤).

ولا أود أن أسترسل في سرد الأحداث التاريخية - فهي معروفة وليس هذا موقعها، كما أنها ليست تخصصي الأصيل - ولكن الحقبة الأخيرة من هذه الرقيقة للعصر الإسلامي لم تكن إضافة إلى الشخصية المصرية بقدر ما كانت بصمتها سالبة ومملوءة بالتخلف، فقد فقد المصري "خربوشه" وفاعليته وسلم أمره إلى ا وتركها سداحا مداحا

لمن هو أقدر على حمل السلاح وعمـل المـؤامرات وقتـل الآخرين من الحكام ليحكم هو بدلا منه (هكذا كانت القاعـدة أيام المماليك) وامتدت هذه الحقبة الأخيرة قرونا طويلة وولدت لدى المصري إحساسا بكراهية الحاكم والصبر على أخطائه، اتسامه بالسلبية والتخاف والصبر والإحباط "ولو أن ا قـد عصمنا من الفتح العثماني لاستمر اتصالنا بأوروبا وشـاركنا في نهضتها.. ولكان للحضارة الحديثة شأن غير شأنها الآن" (٣٥).

غير أن هذه الرقائق في مجموعها من الفرعونية إلى نهاية العهد العثماني أوجدت تأثيرا حضاريا ممتـازا وطيبـا يدل على خامة أصلية تلمع إذا احتكت بمناخ جيد، ويدل على ذلك قدرة المصري المهاجر إلى أمريكا واستراليا على التأقلم السريع واستيعاب كل منجزات العصر ولكن الأمر في مصر يحتاج إلى "نظام" أو منظومة System تفجر هذه الطاقـات المدفونة والمتراكمة وتضعها في إطارها الحضاري الـدافع إلى التقدم.

هوامش ومراجع الفصل الثالث

أولاً: الانتماء الفرعوني:

١- د. جمال حمدان: شخصية مصر عبقرية المكان: الناشر: عالم الكتب ١٩٨٠ ص ٤٥.

٢- د. هنري بريستد: فجر الضمير ترجمة د. سليم حسن: مكتبة مصر عام ١٩٨٠ ص ٦٣.

٣- د. لويس عوض: مقدمة في فقه اللغة العربية، الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٨٠ ص ١٧.

٤- د. هنري بريستد: مرجع سابق ص ٤١٢.

٥- د. طاهر عبد الحكيم: الشخصية الوطنية المصرية، قراءة جديدة لتاريخ مصر: دار الفكر والدراسات والنشر والتوزيع - القاهرة ١٩٨٦ ص ٧٢ وما بعدها.

٦- د. هنري بريستد: يؤكد هذه المعلومات في مرجع سابق ص ٤١١.

٧- د. ناصر الأنصاري: موسوعة حكام مصـر مـن الفراعنة إلى اليوم ـ دار الشروق عـام ١٩٨٧ ص ١٢.

٨- تفضل الصديق د. هنري رياض ـ المدير السـابق لكل من المتحـف المصـري بالقـاهرة والمتحـف الروماني بالإسكندرية ـ بمراجعة التواريخ والمـادة العلمية لكل من العصر الفرعوني والعصر اليوناني ـ الروماني.

ثانيا العصر اليوناني ـ الروماني:

٩- د. ناصر الأنصاري: مرجع سابق ص ٣٩.

١٠- د. ناصر الأنصاري: مرجع سابق ص ٤٠، ٤١.

١١- د. طه حسين: مستقبل الثقافة فـي مصـر ـ دار المعارف بمصر عام ١٩٣٨ ص ١٧.

١٢- د. لويس عوض: مقال بالأهرام بتاريخ ١٦ يوليو ١٩٨٨.

ثالثا: العصر القبطي:

١٣- شيد الملك قسطنطين على أطلال مدينة "بيزنطـة" القديمة، مدينة جديدة أسماها على اسمه القسطنطينية، وأصبحت عاصمة الدولة الرومانية الشرقية، وكـان قسطنطين أول إمبراطور مسـيحي للإمبراطوريـة الرومانية.

١٤- د. حسين مؤنس: مصـر ورسـالتها ـ الطبعـة الرابعة عام ١٩٧٣ ص ٢١.

١٥- د. وليم سليمان قلادة: المسيحية والإسـلام علـى أرض مصر ـ كتاب الحرية ١٩٨٦ ص ٨٣.

١٦- كان إريوس كاهنا لكنيسـة الإسـكندرية وتـذهب تعاليمه إلى أن ا واحد في الجوهر غير قابل للتعدد ولا للتجزئة، وأن المسيح مخلوق وله بداية وأن ابن ا هو الكلمة "اللوغيوس" التي صدرت عـن إرادة ا الخالقة وأن الكلمة هي أولى مخلوقات ا وأنهـا وجدت قبل الزمان وقبل كل العصور.

١٧- ذهب نسطور إلى أن المسيح المتجسـد أقنومـان، أحدهما إلهي ويعلو على الآلام والمـوت، والآخـر بشري يتعرض للآلام والموت.

١٨- د. مصطفى الفقي: الأقباط في السياسة المصـرية ـ مكرم عبيد ودوره فـي الحركـة الوطنيـة دار الشروق ١٩٨٥ ـ ص ٢٠.

١٩- أبو سيف يوسف: الأقبـاط والقوميـة العربيـة ـ مركز دراسات الوحدة العربية بيروت القاهرة عـام ١٩٨٨ ص ٣٩.

٢٠- د. مراد كامل: حضارة مصر في العصر القبطـي ص ٣٦.

رابعا: العصر الإسلامي:

٢١- أبو سيف يوسف: مرجع سابق ص ٤٣.

٢٢- د. وليم سليمان قلادة: مرجع سابق الفصـل الأول ص ٢٠.

٢٣- حامد سليمان: من القبطية إلى الإسلام ـ قصة فتح مصر ـ المكتب العربي للمعارف ـ القاهرة ١٩٨٨ ص ٢٧.

٢٤- حامد سليمان: مرجع سابق ص ٣٠.
٢٥- Arnold Toynbee, A study of history, Oxford press 1955 Vol 9 p p 515.
٢٦- د. كمال المنـوفي: الثقافـة السياسـية للفلاحـين المصريين ـ بيروت دار ابن خلـدون ص ٩٧ ـ ١٩٨٠.
٢٧- د. طاهر عبد الحكيم: مرجع سابق ص ٦٨.
٢٨- د. طاهر عبد الحكيم: مرجع سابق ص ٦٩.
٢٩- د. طاهر عبد الحكيم: مرجع سابق ص ٩٧.
٣٠- د. حسين مؤنس: مرجع سابق ص ٩٧.
٣١- جمال بدوي: جريدة الوفـد القـاهرة ٥ أكتـوبر ١٩٨٩.
٣٢- د. طه حسين: مرجع سابق ص ٣٩.
٣٣- د. محمد أنيس: الشرق العربي في التاريخ الحديث ـ دار النهضة العربية بالقاهرة ص ١٨٣.
٣٤- د. طه حسين: مرجع سابق ص ٢٨.
٣٥- د. طه حسين: مرجع سابق ص ٣٧.

الفصل الرابع

انتماءات بحكم المكان

- الصراع بين "مدرسة الإسلام" و"مدرسة العروبة" صراع قديم.
- الجامع الأزهر يحيي تراث جامعة الإسكندرية القديمة.
- "حرب الفرنجة" وليست "الحروب الصليبية".
- الأقباط ليسوا سلالة نقية للفراعنة.
- الدول العربية بين مجموعة "أحادية الديانة" و"ثنائية الديانة".
- الانتماء إلى البحر المتوسط يخص المثقفين.
- اليونان أثرت في مصر بقدر ما أثرت مصر في اليونان.
- ليس هناك تناقض بيين الانتماء العربي والانتماء الأوسطي.
- مصر لا تعرف التفرقة العنصرية.
- مستقبل مصر مع أفريقيا.

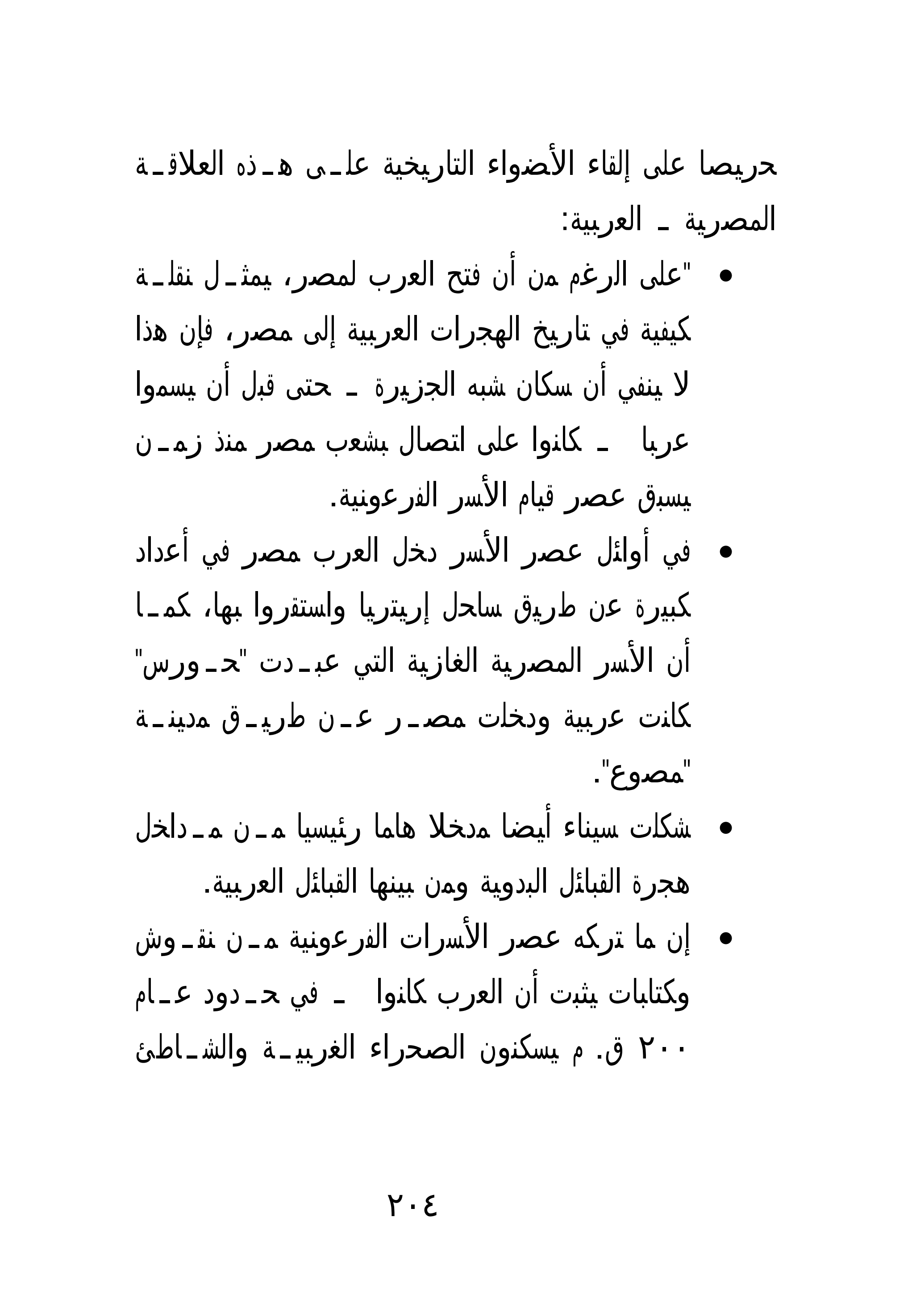
ثانيا: انتماءات بحكم المكان

علاوة على هذه الرقائق أو الأعمدة الأربعة التاريخية بحكم الزمان والتي أوضحناها في الفصل الثالث السابق يتبقى انتماءات ثلاثة جغرافية بحكم المكان نلقي على كل منها الضوء في هذا الفصل الرابع.

العمود الخامس: انتماء مصر العربي

قبل أن نتحدث عن واقع العلاقات والروابط بين مصر والعرب كما نعرفها في العصر الحديث سواء كانت في حقبة عبد الناصر أو بعدها، لا بد من الرجوع إلى الوراء كثيرا لنتأكد أن العلاقة بين مصر والعرب تسبق بقرون عديدة ظهور الإسلام ذاته.

ولا أجد أفضل من أن أقتبس بعض فقرات من الدراسة القيمة والجادة والتي أخذت سنوات من المفكر أبو سيف يوسف، بعنوان: "الأقباط والقومية العربية"، والتي قام بها بتكليف من "مركز دراسات الوحدة العربية" والذي كان



حريصا على إلقاء الأضواء التاريخية علـى هـذه العلاقـة المصرية ـ العربية:

- "على الرغم من أن فتح العرب لمصر، يمثـل نقلـة كيفية في تاريخ الهجرات العربية إلى مصر، فإن هذا لا ينفي أن سكان شبه الجزيرة ـ حتى قبل أن يسموا عربا ـ كانوا على اتصال بشعب مصر منذ زمـن يسبق عصر قيام الأسر الفرعونية.
- في أوائل عصر الأسر دخل العرب مصر في أعداد كبيرة عن طريق ساحل إريتريا واستقروا بها، كمـا أن الأسر المصرية الغازية التي عبـدت "حـورس" كانت عربية ودخلت مصـر عـن طريـق مدينـة "مصوع".
- شكلت سيناء أيضا مدخلا هاما رئيسيا مـن مـداخل هجرة القبائل البدوية ومن بينها القبائل العربية.
- إن ما تركه عصر الأسرات الفرعونية مـن نقـوش وكتابات يثبت أن العرب كانوا ـ في حـدود عـام ٢٠٠ ق. م يسكنون الصحراء الغربيـة والشـاطئ

الأعلى للنيل واستوطنوا جبـال سـيناء والمنطقـة الصحراوية الممتدة بين مصر وفلسطين.

- يذهب بعض الباحثين إلى أن القـرون الأربعـة أو الخمسة الأولى التي سبقت انتشار الإسـلام كانـت بمثابة المرحلة التحضيرية لتعريب "إقليم الشرقية" في مصر، فقد بلغ تركز القبائل الرحل في شرق الـدلتا حدا دعا الإدارة المحلية إلى تسمية هذا الإقليم باسـم "الإقليم العربي" وفي اليونانية يسمونه "أرابيـا" وقـد عرفه القبط تحت اسم "ترابيا" أو "طرابيا".
- وبعد فتح العرب لمصر شهدت البلاد مرحلة جديـدة ونشطة من هجرات القبائل العربية جاءت أصـولها من الجزيرة العربية ولدينا هنـا خمـس هجـرات رئيسية:
- الأولى: جاءت من الفتح وضمت أعدادا كبيرة مـن العرب المسيحيين.
- الثانية: جاءت بمقتضى سياسة مخططة مـن خلفـاء بني أمية.
- الثالثة: كانت في عهد الخليفة العباسي المتوكل.

- في العصر الفاطمي وفد من المغرب قبائل من البربر تحمل أنسابا عربية وجاءت من المشرق دفعات أخرى من العرب.
- في القرن السادس الهجري ساعد صلاح الدين الأيوبي بعض العشائر العربية على أن تستقر في الحوف الشرقي مكافأة لها على اشتراكها في قتال الصليبيين (١).
- وخلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة بلغ مجموع القبائل العربية وبطونها التي وفدت إلى مصر وأقامت بها ٢٤٤ قبيلة وبطنا: منها ٦٠ قبيلة وبطنا من عدنان، ١٧٢ قبيلة وبطنا من قحطان، هذا غير عدد آخر من التجمعات الخاصة والقبائل المجهولة (٢).

وعلاوة على هذه الموجات من الهجرة العربية، هناك موجات أخرى تلتها أو سبقتها من جنسيات ودول كثيرة بعضها قديم والآخر حديث فهناك الأتراك والشراكسة وقت المماليك والعثمانيين ولا بد أن يكون قد تم تزاوج في فترة الحملات الصليبية (في المنصورة وفي غيرها) وفي العصور

الحديثة جاءت الحملة الفرنسية ثم جاء الاستعمار البريطـاني وهناك جاليات كبيرة من اليونانيين والإيطاليين هاجرت مـن بلادها في ظروف مختلفة في القرن التاسع عشر وبعده، وقد أقاموا في المدن والريف لسنوات طويلة وهناك بعض الأرمن جاءوا هاربين قبل وأثناء مذبحة الأرمن بواسطة الأتراك عام ١٩١٥.

وإذا كانت أمريكا تـدعي أنهـا بوتقـة الانصـهار Melting pot للجنسيات والشعوب التي غادرت إليها عبـر القرون الأربعة الأخيرة وتزعم أنها قد كونت من هذا الخليط العجيب ما يسمى "بالشخصية الأمريكية" فلمصر أن تتبـاهى بأنها أقدم "بوتقة انصهار" في العالم، وأن نتاج هذا الانصهار هو سبيكة واحدة متجانسة نظـرا للعمـق التـاريخي لهـذا الانصهار ولأنه تم عبر قرون أطول.

ولذلك فإن الحديث عن النقاء العرقي في مصر هـو حديث سخيف وغير مقبول، لأن الواقع يدحضه، فلا يوجـد قوم يزعمون أنهم من "سلالة نقية للفراعنة"، كما لا يوجد من يزعم أنه يحمل "دماء عربية نقية" أو أنه "تركي لحما ودمـا" فقد ذابت تلك العناصر التي دخلت فـي ظـروف مختلفـة

وامتزجت، فتولدت شخصية مصرية تحمل بعض الملامح أو الخلفيات أو الانتماءات من هنا وهناك.

وإذا كان الأقباط كثيرا ما يتوهمون أنهـم يحملـون أصولا فرعونية فما ذلك إلا رد فعل طبيعي كأقلية تـود أن تؤكد انتماءها لهذا الوطن وحده دون سـواه، ففـي الأقبـاط أشخاص ببشرة ناصعة البياض وعيون شـديدة الزرقـة أو "الخضار" وشعور تحمل لون الذهب، فمن أين لهذه العائلات كل ذلك إلا من خلال اختلاط ما مع الفرنسيين أو مع بعض العائلات المسيحية التي هاجرت من الشام نتيجة الاضـطهاد هناك، ففي ذات العائلات من لديهم بشرة سـمراء وتقـاطيع فرعونية، فهذه ظاهرة متكررة في العائلة الواحدة لكل مـن الأقباط والمسلمين.

وإذا وجد من يدعو لما يسمي "بالقومية القبطية" مثلما قامت جماعة هزيلة سـمت نفسـها "الأمـة القبطيـة" فـي الخمسينيات فإنها فقاعات لا بد من وجودها "لتحقيق الـذات" لبعض المتعصبين - ولا توجد أمة بدون بعض المتعصـبين - ولكن جماهير الأقباط قاومتها في حينها ثم تركتها تمـوت في هدوء، لأن الأقباط - بذكائهم التاريخي - يعرفـون أن

استمرارهم وبقاءهم هو في الانتشار والتـداخل والمعايشـة المشتركة.

ومن هذا المنطلق أكد كل زعماء الأقبـاط المـدنيين (فضلا عن البابا شنودة باعتباره الزعيم الروحـي للأقبـاط) أنهم لا يقرون مبدأ قيام حزب مستقل للأقباط، وكان ذلك في يناير ١٩٨٩ عندما تقدم زمرة من بسطاء الأقبـاط بطلـب إنشاء حزب أسوة بباقي الأحـزاب، ولكـن عنـدما لمسـوا المقاومة من كل الأطراف الشعبية والحكومية وعدم الرغبـة في شق مصر، تقدموا هم بطلب آخر رسمي للجهة المختصة يسحبون الطلب الأول وقـد قـام ماجـد عطيـة الصـحفي المعروف بمجلة "المصور" بجهد كبير وراء الكواليس فضلا عن تحقيقاته الصحفية التي أكدت وعززت وحـدة الشـعب المصري.

على أن التساؤل الذي استغرق كثيرا من الباحثين هو لماذا وكيف تخلى المصريون في العهد العربي عـن لغـتهم القبطية (وهي امتداد للغتهم المصرية القديمة) مع أن مصـر قد غزيت بحضارات وشعوب أخرى قبل العرب (مثل الفرس والآشوريين واليونانيين والرومان) ولكنها لم تؤثر في لغـة

مصر؟ ثم لماذا استجاب المصريون جميعا لتغيير اللغة ولـم يقتصر الأمر على من تحولوا إلى الإسلام مثلما حدث فـي إيران أو أفغانستان أو بعض الجمهوريات الإسـلامية فـي الاتحاد السوفيتي حيث اعتنق الشعب الدين دون تغيير اللغـة فقد تحولت إيران مثلا إلى الإسلام ولكنها تمسـكت بلغتهـا الفارسية رغم قربها من العراق التي كانت مركزا للخلافـة العباسية لنحو خمسة قرون.

كل هذه أسئلة جديرة بالفحص ولكنني سأتناولها فـي عجالة بهدف الوصول إلى أن الانتماء العربي لمصـر هـو انتماء مقبول تسرب للمصريين حسب مصلحتهم وبرضـاهم ودون عنف.

أظن أنه من المنطقي وجود علاقة جدلية بين التحول إلى الإسلام وبين انتشار اللغة العربية. فمن المؤكد أن كـل من تحول إلى الإسلام رغب في أن يـتعلم اللغـة العربيـة، وتدريجيا أصبحت اللغة العربية لغة الدواوين والدين ولغـة المثقفين والفكر وأصبح حتما أن يتعلمها كل من له طموح في وظيفة أو رغبة في مكانة.

وفي رأي العالم الأثري المصري أحمـد كمـال أن اللغة المصرية القديمة واللغة العربية هما من أصل واحـد، وقد وضع قاموسا به آلاف المفردات المصرية المتشاركة في المبنى والمعنى مع المفردات العربية، والمـؤرخ المصـري سليم حسن يذهب إلى أن ٦٥ % علـى الأقـل مـن اللغـة المصرية القديمة تتشابه مع اللغة السامية، هذا التشابه وهـذه الجذور المشتركة هما ما يفسـران اسـتمرار الكثيـر مـن المفردات والتعبيرات المستخدمة حاليا في مصر، وخاصـة في اللغة الدارجة والتي يقدرها الباحث التاريخي المصـري محرم كمال بالآلاف أصلا أو اشتقاقا ولكننا في هذا البحـث نميل إلى ما هو أوسع من التفسير الفيلولوجي لهذه الظاهرة. فالقرون الأربعة التي استغرقتها اللغة العربية كي تصير اللغة السائدة في مصر، سمحت للمصريين أن ينطقوا من لغـتهم السابقة تلك المفردات والتعبيرات التـي تحمـل مضـامين تاريخية أو وجدانية ويطعموا بها اللغة الجديدة التي اكتسبوها وليطوعوا بعض مفردات اللغة الجديدة ليعبروا بها عن بعض ما كانوا يعبرون به بلغتهم القديمة أو ليزاوجوا بين مفـردات من اللغة القديمة وأخرى من اللغة الجديدة (٣).

فلا عجب أن كانت الأمثـال الشـعبية والتشـبيهات العامية جزءا عاديا من كلام المصري من الفـلاح البسـيط حتى عضو مجمع اللغة العربية، وها هي اللهجة ومفـردات اللغة العربية كما هي تنطق في مصر، مقبولة ومنتشرة فـي أغلب بلدان الأمة العربية من خلال التليفزيون والمسلسلات.

فلعصور وقرون طويلة ـ ربما من القـرن السـابع حتى القرن العاشر أو الحادي عشر ـ وجد في مصر عـدة مجموعات بشرية لها أوضاع مختلفة فيما يتعلق باللغة:

(أ) عرب مهاجرون لا يتحـدثون إلا العربيـة ولكـنهم يتحدثون بعض كلمات قبطيـة يكتبونهـا بحـروف عربية.

(ب) مصريون قبلوا الإسلام ويتحدثون القبطية والعربيـة ولكنهم يحثون أولادهم على تعلم العربيـة (وربمـا يدفعونهم على ترك القبطية لمصالح ذاتية يومية).

(ج) أقباط مسيحيون تمسكوا بديانتهم ويتحدثون القبطيـة (وربما يعرفون بعـض كلمـات عربيـة يكتبونهـا بحروف قبطية) ولكنهم مصـرون علـى أن يـتعلم

أولادهم العربية لكي يجدوا لهم مكانا فـي وظيفـة حكومية.

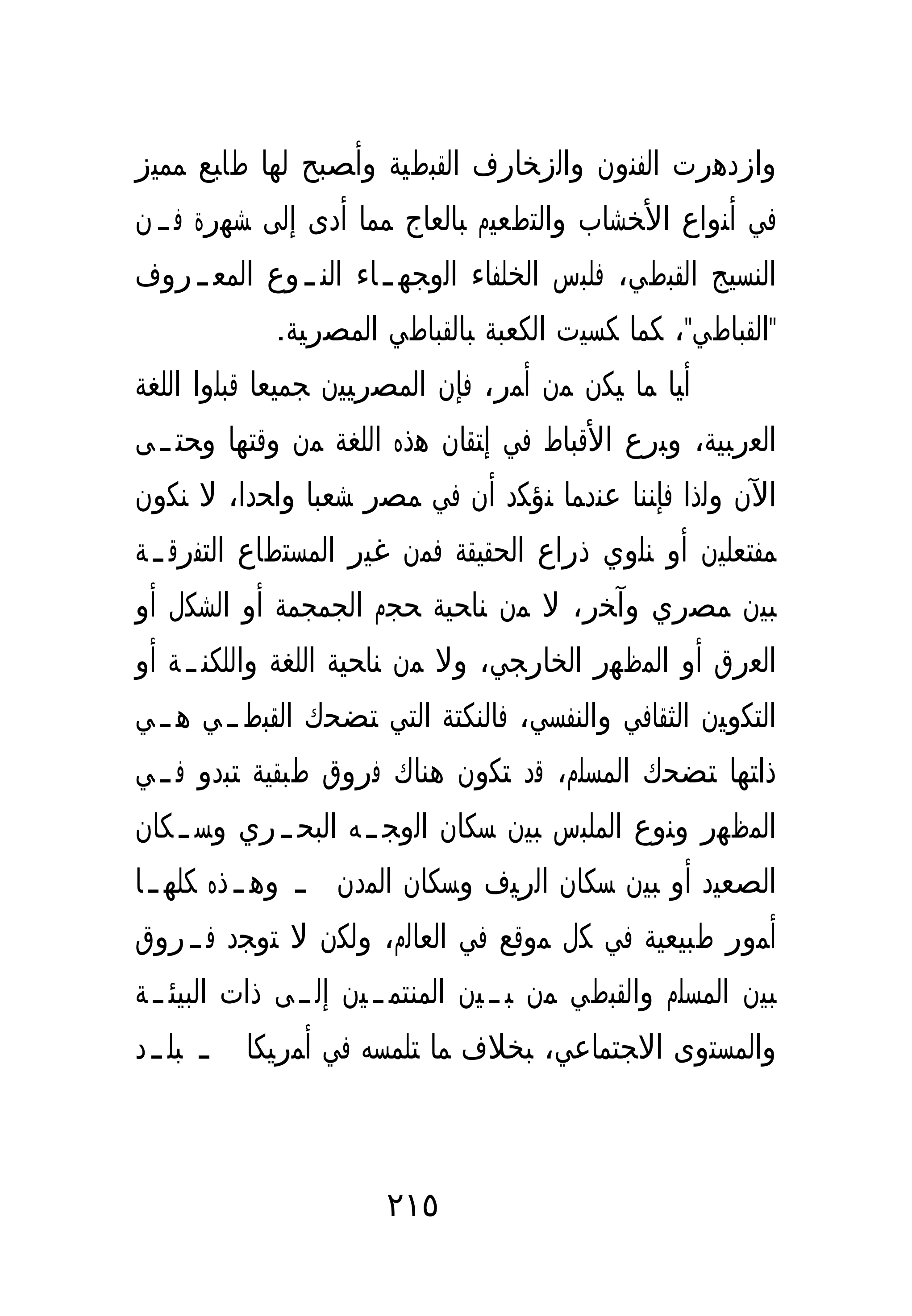
(د) أقباط مسيحيون متمسكون بالقبطية تمسكهم بالمسيحية ولا يتحدثون إلا القبطية وغالبا ما كونوا عدة قرى أو عائلات معينة في الصعيد، إذ يقول المقريزي (شاهد التاريخ للقرن الخامس عشـر): "أعلـم أن ناحيـة "درنكة" هي من قرى النصارى الصعايدة، ونصاراها أهل علم في دينهم وتفاسيرهم في اللسـان القبطـي، ونساء الصعيد أولادهـم لا يكـادون يتكلمـون إلا بالقبطية الصعيدية" (٣).

وقد قام مثقفو الأقباط بترجمة بعض كتـب التـراث الديني القبطي إلى العربية منها كتـب "الميـامر" والمـدائح والمواعظ الروحية، وسير الآراء القديسين وتواريخ البيعـة المقدسة وغيرها، وقد ساهم في ذلك ومنـذ القـرن العاشـر الميلادي ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونيين وسعيد بـن بطريق بطريرك القبط الملكانيين وفي القرن الحادي عشـر تبرز أسماء جديدة: ميخائيل بن بدير القبطي، وموهوب بـن منصور، وأبو المكارم أسعد بن الخطير وغيرهم وفي القرن

الثاني عشر نجد البطريرك القبطـي مـرقص بـن زرعـة وغيره.

وفي هذا المناخ من التحول الحكيم إلى اللغة العربية، صدر قرار من البطريرك غبريـال بـن تريـك (١١٣١ ـ ١١٤٥ م) يقضي بأن تستخدم اللغة العربية في صلاة القداس وكافة الخدمات في الكنيسة وذلك بجوار اللغة القبطية، وهـو الأمر الذي لا زال ممارسا حتى الآن في مصر، وتقهقـرت اللغة القبطية على الأديرة ولولا ذلك لاندثرت اللغة القبطيـة وأصبحت لغة تاريخية مثل الهيروغليفيـة أو المسـمارية أو الآرامية أو اللاتينية.

على أن التفاعل لم يكن في اتجاه واحد، بل تفاعلـت الحضارة الإسلامية والعربيـة ـ وهـذا هـو سـر قوتهـا واستمرارها ـ مع حضارات البلاد التي فتحتها، ففي مصـر نقلت إلى العربية بعض الكتب القبطية التي تناولت البحث في الكيمياء والصناعة، وقام قبط مصر بالدور الأساسي في بناء الأسطول العربي وذهب عدد من العمال القبط إلى الشام في العصر الأموي واستعانوا بهم في بناء مسجد دمشق والمسجد الأقصى، وفي إعادة بناء الجـامع النبـوي فـي المدينـة،



وازدهرت الفنون والزخارف القبطية وأصبح لها طابع مميز في أنواع الأخشاب والتطعيم بالعاج مما أدى إلى شهرة فـن النسيج القبطي، فلبس الخلفاء الوجهـاء النـوع المعـروف "القباطي"، كما كسيت الكعبة بالقباطي المصرية.

أيا ما يكن من أمر، فإن المصريين جميعا قبلوا اللغة العربية، وبرع الأقباط في إتقان هذه اللغة من وقتها وحتـى الآن ولذا فإننا عندما نؤكد أن في مصر شعبا واحدا، لا نكون مفتعلين أو ناوي ذراع الحقيقة فمن غير المستطاع التفرقـة بين مصري وآخر، لا من ناحية حجم الجمجمة أو الشكل أو العرق أو المظهر الخارجي، ولا من ناحية اللغة واللكنـة أو التكوين الثقافي والنفسي، فالنكتة التي تضحك القبطـي هـي ذاتها تضحك المسلم، قد تكون هناك فروق طبقية تبدو فـي المظهر ونوع الملبس بين سكان الوجـه البحـري وسـكان الصعيد أو بين سكان الريف وسكان المدن ـ وهـذه كلهـا أمور طبيعية في كل موقع في العالم، ولكن لا توجد فـروق بين المسلم والقبطي من بـين المنتمـين إلـى ذات البيئـة والمستوى الاجتماعي، بخلاف ما تلمسه في أمريكا ـ بلـد

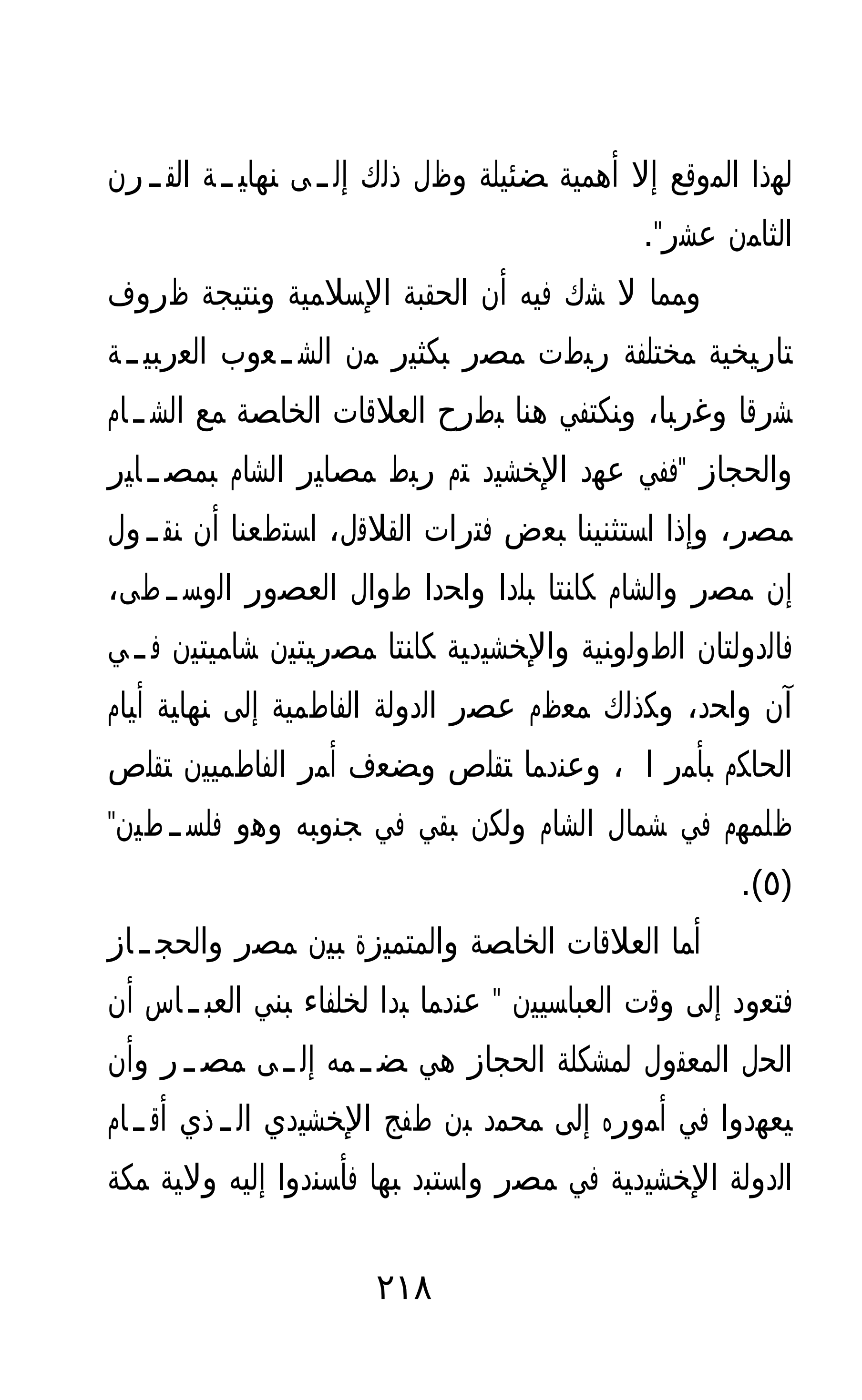
الحضارة والديمقراطية - من فروق عرقيـة ظـاهرة بـين الأسود والأصفر والأبيض!

على أن العارفين بالممارسات عبر السنين يـدركون الفروق من خلال الأسماء، فإذا احتوى الاسـم الثلاثـي أو الرباعي أسماء مثل: محمد أو محمود أو أحمد أو مصـطفى أو طه أو أبو بكر وعثمان وخالد وعبد الغفار وما إلى ذلـك من الأسماء الإسلامية الواضحة كان صاحبها مسـلما، وإذا احتوت أسماء من الإنجيل أو مـن الأسـماء الفرعونيـة أو القبطية القديمة مثل: بطـرس وبـولس ويوحنـا ومـرقص واثناسيوس وجرجيوس وبسـطوروس وأحمـس وإيـزيس ورادميس وما إليها فإن صاحبها يكون مسيحيا.. وقد تلاحظ أنه في وقت "المد الحضاري" أو عند وجود "مشروع قومي" مشترك للشعب مثل أوقات ثورة ١٩١٩ وما بعـدها تكـون الأسماء للمواليد مشتركة مثل سعد ومكرم ومحسن وجميـل واطيف وزاهر وفائق وفريد وما إلى ذلك، ولكن هذه الفترات ليست ممتدة لأجيال وبالقدر الكافي الذي يوجد أسماء مشتركة تمثل ثلاثة أو أربعة أجيال متعاقبة ومن ثم تختفـي ظـاهرة الاستفسار الرديء عن الاسم الثلاثي في الامتحانات الشفوية

كما يحدث عادة عن بعض المتعصبين فـي كليـات الطـب بالذات!!.

على أن هذه الصلة الحميمة بين المصريين والعرب والتي استمرت من مطلع التاريخ وحتى القرن الخامس عشر، وهذا التفاعل بين الحضارة العربية والحضـارة المصـرية، وكذلك الترجمة المتبادلة بين اللغة القبطية واللغة العربية كل ذلك قد انحصر وخبا في عهـد المماليـك وعهـد الخلافـة العثمانية، لأنهم كحكام لا يمتون "للأمة العربية" أصلا، لا لغة ولا عرقا ولا حضارة، ولذلك فقد عملت الدولة العثمانية على أن يموت تدريجيا هذا المزج الحضاري المصـري العربـي الإسلامي وحاولوا وأد "التوجه العربي" ودفعوا إلى الصدارة "التوجه الإسلامي"، ولعل جزءا مما نشـكو منـه الآن فـي الصراع بين "التيار الإسلامي"، وتيار "القومية العربية" يعود إلى هذه القرون الخمسة من الظلام المملوكي العثماني.

وقد عبر عن ذلك د. حسين مؤنس (٤) تعبيرا بليغا: "لم يزل الأمر على ذلك حتى بلغ ذروته عندما وقعت مصر في أيدي الأتراك العثمانيين، فهبط عليها هذا التيار الكثيـف الذي حال بين ما وقع في أيديهم وبين بقية العالم، ولم يعـد



لهذا الموقع إلا أهمية ضئيلة وظل ذلك إلـى نهايـة القـرن الثامن عشر".

ومما لا شك فيه أن الحقبة الإسلامية ونتيجة ظروف تاريخية مختلفة ربطت مصر بكثير من الشـعوب العربيـة شرقا وغربا، ونكتفي هنا بطرح العلاقات الخاصة مع الشـام والحجاز "ففي عهد الإخشيد تم ربط مصاير الشام بمصـاير مصر، وإذا استثنينا بعض فترات القلاقل، استطعنا أن نقـول إن مصر والشام كانتا بلدا واحدا طوال العصور الوسـطى، فالدولتان الطولونية والإخشيدية كانتا مصريتين شاميتين فـي آن واحد، وكذلك معظم عصر الدولة الفاطمية إلى نهاية أيام الحاكم بأمر ا ، وعندما تقاص وضعف أمر الفاطميين تقاص ظلمهم في شمال الشام ولكن بقي في جنوبه وهو فلسـطين" (٥).

أما العلاقات الخاصة والمتميزة بين مصر والحجـاز فتعود إلى وقت العباسيين " عندما بدا لخلفاء بني العبـاس أن الحل المعقول لمشكلة الحجاز هي ضـمه إلـى مصـر وأن يعهدوا في أموره إلى محمد بن طفج الإخشيدي الـذي أقـام الدولة الإخشيدية في مصر واستبد بها فأسندوا إليه ولاية مكة

والمدينة وخطب لحاكم مصر على منابر الحجاز مع الخليفة العباسي: وبذلك أصبحت الدولة المصرية تشمل مصر والشام والحجاز.

ومن ذلك الحين أصبحت مصر مسئولة عن الحرمين الشريفين وأهلهما فكانت مصر هي المسـئولة عـن مهـبط الوحي، وكان عاملها مكلفا بأن يعنى بأمر الحج ويقوم علـى المسجد الحرام ومسجد المدينة والمزارات".

"ومن لطائف التاريخ أن البيت العتيـق الـذي بنـاه إبراهيم وإسماعيل ابن هاجر المصرية، تم تجديد بنائه بعـد ذلك، وعني به بعض الخلفاء الراشدين بعض العنايـة، ثـم قامت بإدارته مصر بعد ذلك. فبنته على أيام الظاهر بيبرس، وأنفقت عليه أموالا طائلة، بل قام سلطان مصر بيبرس يبني بيديه مع البنائين إلى أن تصدع بنيانه أيام الأتراك العثمانيين، فقام المصريون على بنائه وأرسل والي مصر كل ما يلـزم لهذا البناء، وبعث البنائين، ثـم أعيـد بنـاؤه علـى أيـدي المصريين أيام محمد علي، حتى هذه المرة الأخيـرة التـي قامت المملكة العربية السعودية فيها ببناء ذلك البيت الأكرم،

قام البناء على تصميم وضعه مصـري (٦). ورسـم فـي القاهرة ونفذ في الحجاز على أيدي مهندسين مصريين" (٧).

وقد ظل الأمر على هذا النحو وكانت مصر ترسـل سنويا المحمل والصرة إلى مكة والمدينة كل عام وأذكر وأنا طفل كيف أننا جميعا - أقباطا ومسلمين كنا نحتفل بهذا العيد القومي يوم إرسال المحمل حيـث تحمـل "الصـرة" وهـي الأموال من الفضة والذهب وكذلك الكسوة وهي الغطاء الذي كانت له إدارة حكومية خاصة تحمل هذا الاسم فهي المسئولة سنويا عن شراء القطيفة ثم عمل كل المشغولات والزخارف والآيات بخيوط من الفضة أو الذهب وتوضع الكسوة علـى جمال وتسير في الشوارع من الأزهر حتى منطقة العباسـية في المنطقة المسماة الآن بالجبل الأحمر.

وظل الأمر كذلك إلى سنوات قليلـة بعـد الحـرب العالمية الثانية وظهر البتـرول فـي السـعودية وتغيـرت الموازين الاقتصادية والسياسية.

وعلى أي حال، ونتيجة هذا التاريخ الطويل للحكـم الإسلامي في المنطقة بكل ما يحمل من عصـور حضـارة

وعصور ضعف انقسمت الدول العربيـة إلـى مجمـوعتين حضاريتين أساسيتين.

المجموعة الأولى: وهي جملة الدول التي استطاعت أن تبقى على ديانتين أساسيتين (بصرف النظر عـن قضـية وجود اليهود فقد كانوا غالبا في حالة "جيتو" فيما عدا تداخلهم مع الشعب في المغرب) وهما المسيحية والإسلام، وذلك في كل من مصر ودول منطقة الهلال الخصيب (سوريا ـ لبنان ـ الأردن ـ فلسطين ـ العراق).

وهذه الدول استطاعت ـ في مجملها ـ فيمـا عـدا لبنان ـ أن تعبر الصراعات الطائفية بفضل "الانتماء العربي" ففي العراق ـ شاهدت شخصيا ـ كيف تعـيش الطوائـف المسيحية ـ وهي مختلفة وعديدة وصـغيرة ـ فـي أمـان ومـودة وتكـاد لا تجـد أي نـوع مـن المضـايقات أو الاضطهادات، وترعى الدولة هـذه الأقليـات وتـوفر لهـا الاعتمادات المالية لبناء الكنائس، ولا يوجد قيود على بنائهـا إلا القيود العامة على أي مبان، ويتم ذلك مـن خـلال إدارة خاصة بهم تتبع وزير الأوقاف العراقي، ويشترك المسيحيون العراقيون في الحركة الثقافية والسياسية دون أي عوائق إلى

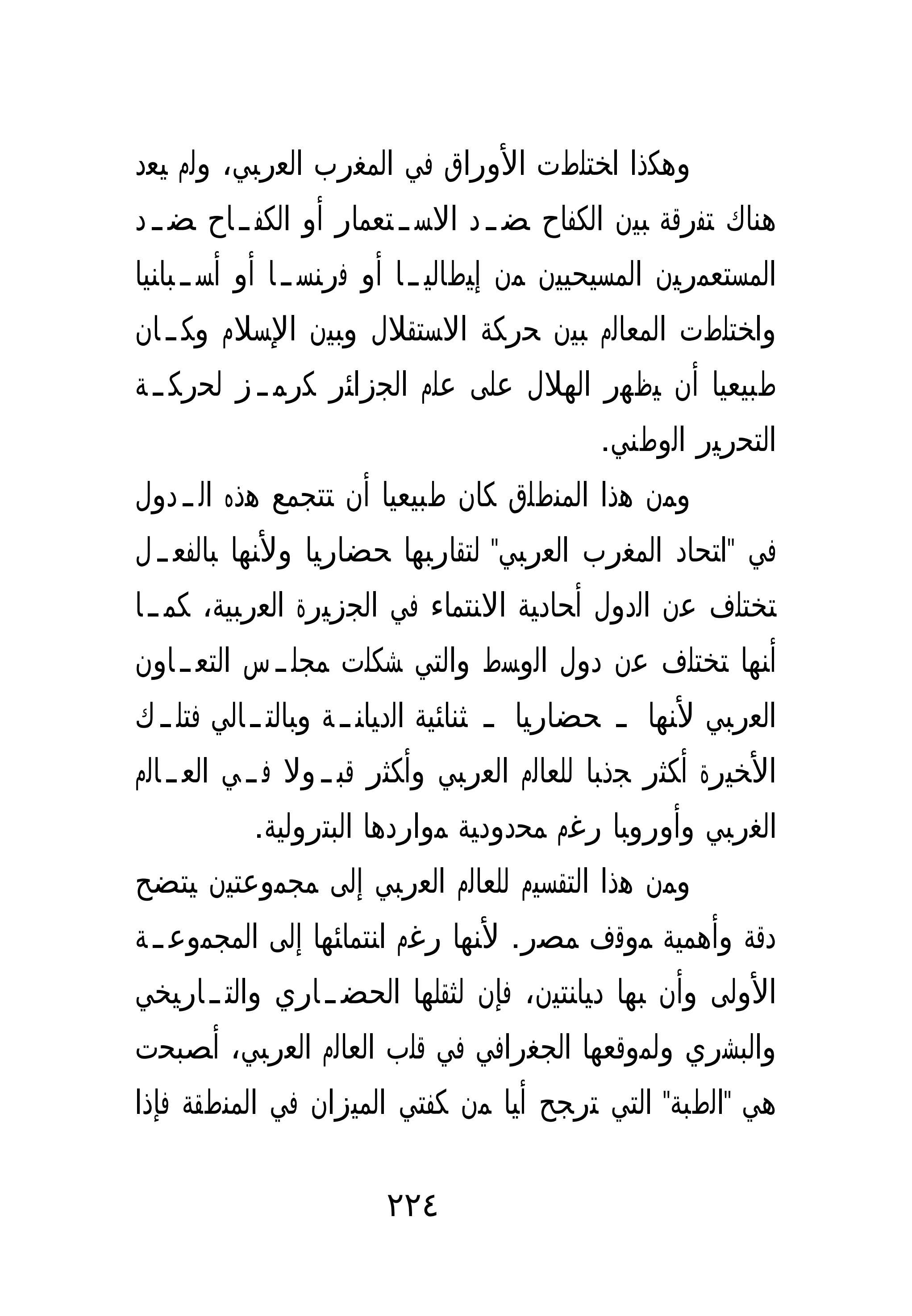
حد أنهم يحتلون مواقع قيادية في الصفوف الأولـى دون أي حساسية أو اعتراض من أحد وربما كان الفضل راجعا إلـى القبضة الحديدية والفكرية لحزب البعث العربي هناك.

المجموعة الثانية: وهي مجموعة الدول أحادية الديانة وفي هذا الأمر تختلف الدول والشعوب الواقعة في المشـرق عن تلك الواقعة في المغرب، فكل دول الجزيـرة العربيـة (السعودية ـ اليمن ـ دول الخليج) هي دول أحادية الديانـة ولذلك فإن انتماءها إلى العروبة هو استمرار وتأكيد لانتمائها إلى الإسلام وربما لا يرون الوحدة العربية إلا مـن خـلال الإسلام، وذلك على الرغم من أنني لم ألحظ اتجاهات عدائية للمسيحية في اليمن أو في دول الخليج.

أما السعودية فإنها ومع تدفق البترول تود أن تأخـذ موقع القيادة للعالم الإسلامي كله، ولذلك فقد توحـدت هـذه الدول ـ فيما عدا دولتي اليمن واللتان أصبحتا جمهـوريتين لكي تكونا مجلس التعاون الخليجي ـ وربما اختاروا صـفة "الخليجي" لأن اليمنيين لا يقعان على الخلـيج وكـان مـن المفروض أن تسمى هذه المجموعة عـام ١٩٨١ التعـاون

العربي، ولذا فإن الفرصة كانت سانحة ليأخذ هـذه الصـفة "التعاون العربي" آخرون يقعون في القلب.

أما في المغرب العربي فقد اختلطت الأوراق نظـرا لأن هذه المناطق قد تأثرت بحضارات الجزء الشمالي مـن البحر المتوسط إذ تم استعمار إيطاليا لليبيا لسـنوات وفـي احتلال فرنسا لتونس والجزائر لعشـرات السـنوات. علـى الرغم من أن نمط الحياة بدوي أساسا ولقرون طويلة في ليبيا والجزائر والمغرب فإن المزج الحضاري مع أوربا قد أوجد ذلك النمط الغريب والمختلف في هذه الدول، فليبيـا تنـادي بالجماهيرية والتي تعني نوعا من الإسلام التقدمي والثـوري ولكنه غير محدد الملامح، فلا هو بالتوجه السلفي النقـي ولا هو بالتوجه التقدمي النقي، وهذا هو سـر الخلـط وتبـاين التوجهات حول النظام، وتونس هي مزيج من الإسلام ومـن الانتماء البحر أوسطي ولذلك فالنظام يـود إرضـاء التيـار السلفي وفي ذات الوقت يتمنى أن تصبح تونس قطعـة مـن أوروبا وينطبق نفس الشيء تقريبا على الجزائر والمغـرب بصور متباينة قليلا.



وهكذا اختلطت الأوراق في المغرب العربي، ولم يعد هناك تفرقة بين الكفاح ضد الاستعمار أو الكفاح ضد المستعمرين المسيحيين من إيطاليا أو فرنسا أو أسبانيا واختلطت المعالم بين حركة الاستقلال وبين الإسلام وكان طبيعيا أن يظهر الهلال على علم الجزائر كرمز لحركة التحرير الوطني.

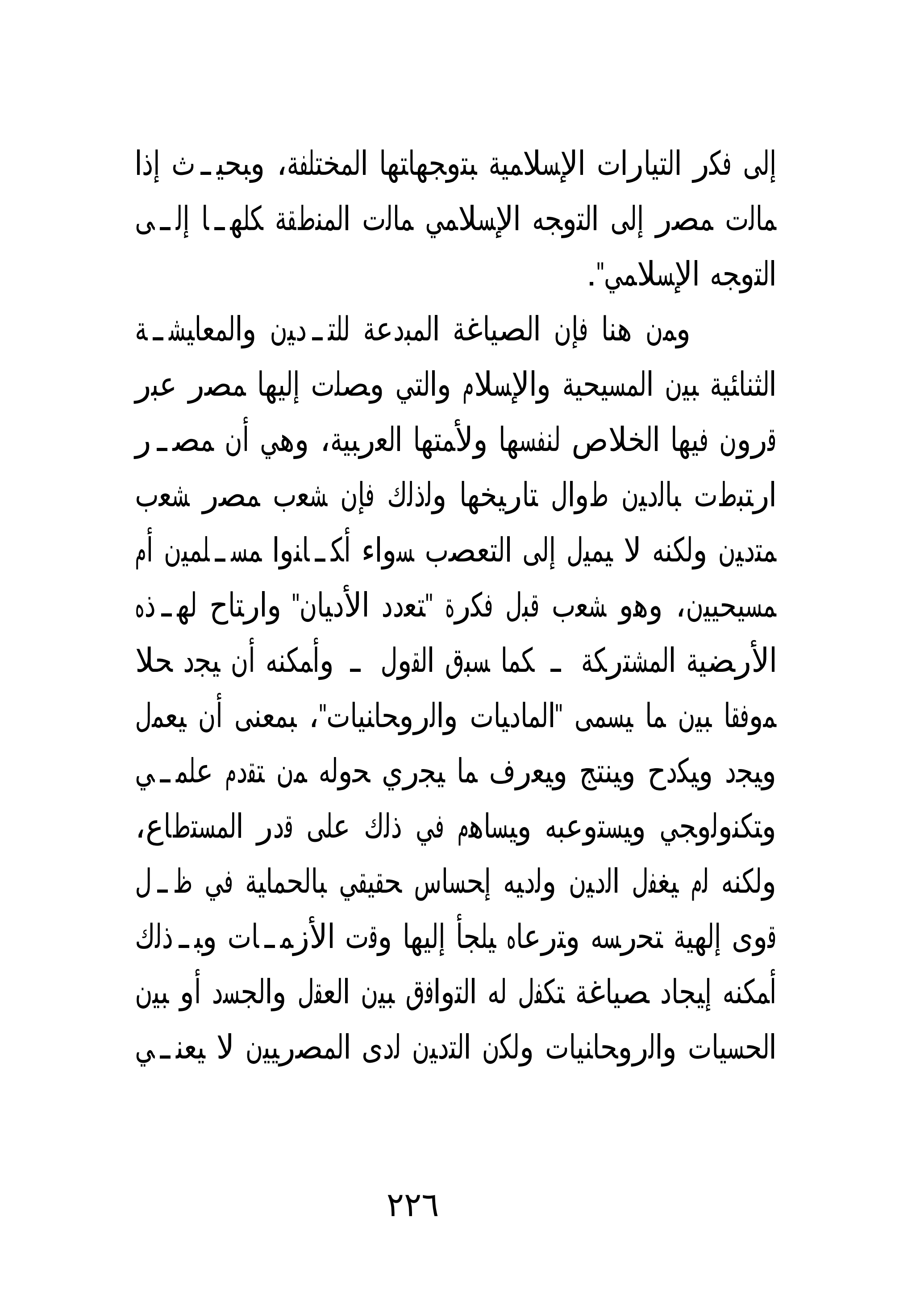
ومن هذا المنطلق كان طبيعيا أن تتجمع هذه الدول في "اتحاد المغرب العربي" لتقاربها حضاريا ولأنها بالفعل تختلف عن الدول أحادية الانتماء في الجزيرة العربية، كما أنها تختلف عن دول الوسط والتي شكلت مجلس التعاون العربي لأنها - حضاريا - ثنائية الديانة وبالتالي فتلك الأخيرة أكثر جذبا للعالم العربي وأكثر قبولا في العالم الغربي وأوروبا رغم محدودية مواردها البترولية.

ومن هذا التقسيم للعالم العربي إلى مجموعتين يتضح دقة وأهمية موقف مصر. لأنها رغم انتمائها إلى المجموعة الأولى وأن بها ديانتين، فإن لثقلها الحضاري والتاريخي والبشري ولموقعها الجغرافي في قلب العالم العربي، أصبحت هي "الطبة" التي ترجح أيا من كفتي الميزان في المنطقة فإذا

انحازت مصر إلى "الأمة العربية" وصارت جزءا منه - كما كان الحال في فترة حكم الرئيس عبد الناصر - - اتجهـت المنطقة كلها إلى "القومية العربية".

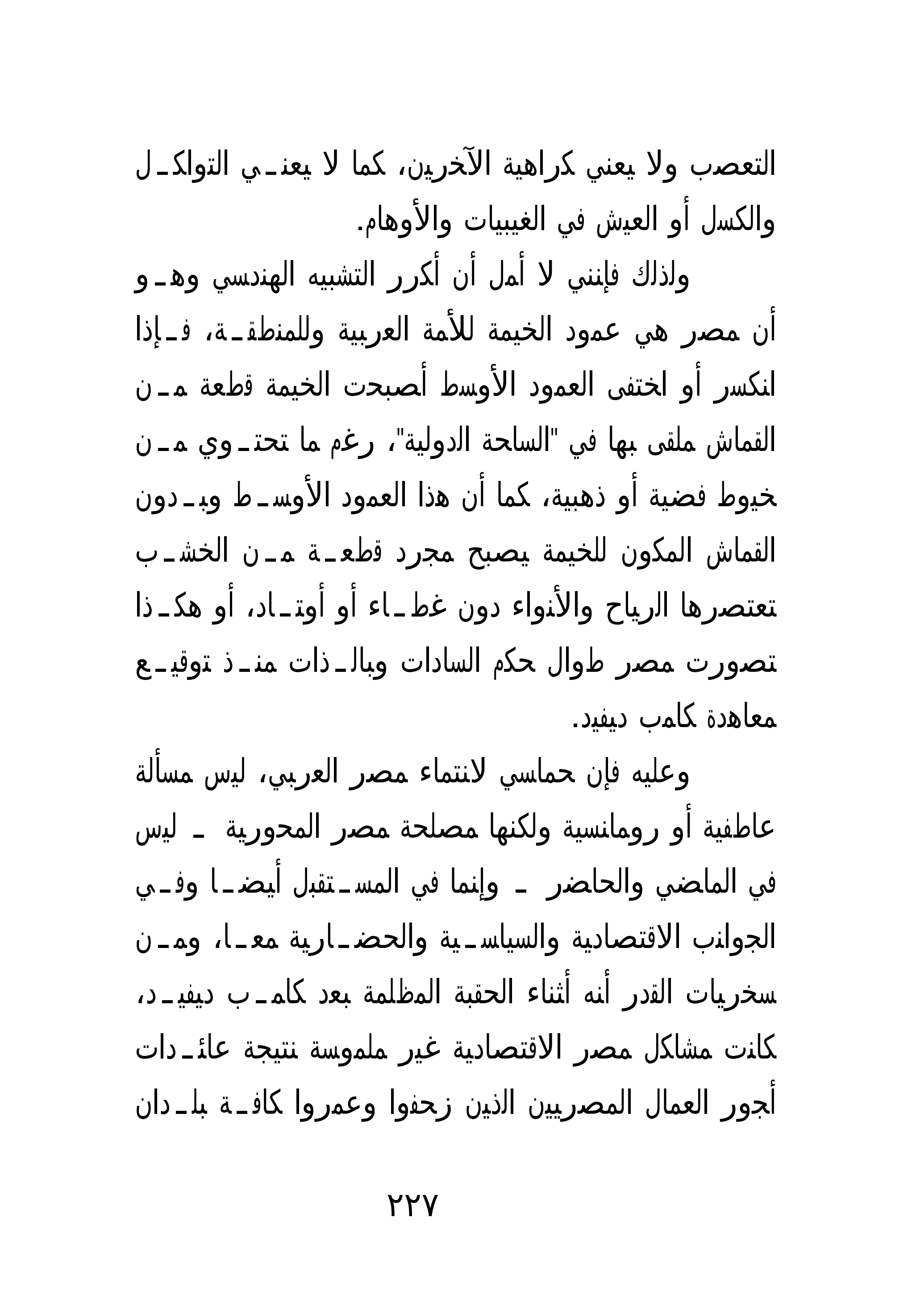
ومن هنا كانت أهمية أن يعقد مركز دراسات الوحدة العربية ندوة في القاهرة سبتمبر ٨٩ لكي يوجد المواءمة بين "الإسلام" و"العروبة" فمع المد الإسلامي المعاصر، لـم يعـد التيار العربي "العلماني" قادرا على الوقوف على قدميه، وقد زاد الأمر صعوبة أن مبادئ "القومية العربية" كانـت نتاجـا فكريا لمسيحيي بلاد الشام كمخرج مـن التبعيـة العثمانيـة ومحاكاة للنضج الذي تم في القـرن التاسـع عشـر لفكـرة "القومية" لبلاد أوروبا المختلفة.. وهكذا تمر "القومية العربية" الآن بمنعطف تاريخي هام.

فمع هزيمة ١٩٦٧ ضربت "القومية العربية"، وفـي عهد السادات انتقلت مصر من "التـدين" إلـى "التعصـب" وأصبحت كلمة "العلمانية" مرادفة لكلمة "الإلحاد" وأن فصـل الدين عن الدولة يعني "الكفر" وتم ضرب "الناصـرية" فـي الجامعات ليحل محلها "الجماعات الإسلامية" وبتأييد وتمويل من الدولة (٨)، وبذلك انتقلت مصر من فكر القومية العربية



إلى فكر التيارات الإسلامية بتوجهاتها المختلفة، وبحيث إذا مالت مصر إلى التوجه الإسلامي مالت المنطقة كلها إلى التوجه الإسلامي".

ومن هنا فإن الصياغة المبدعة للتدين والمعايشة الثنائية بين المسيحية والإسلام والتي وصلت إليها مصر عبر قرون فيها الخلاص لنفسها ولأمتها العربية، وهي أن مصر ارتبطت بالدين طوال تاريخها ولذلك فإن شعب مصر شعب متدين ولكنه لا يميل إلى التعصب سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين، وهو شعب قبل فكرة "تعدد الأديان" وارتاح لهذه الأرضية المشتركة - كما سبق القول - وأمكنه أن يجد حلا موفقا بين ما يسمى "الماديات والروحانيات"، بمعنى أن يعمل ويجد ويكدح وينتج ويعرف ما يجري حوله من تقدم علمي وتكنولوجي ويستوعبه ويساهم في ذلك على قدر المستطاع، ولكنه لم يغفل الدين ولديه إحساس حقيقي بالحماية في ظل قوى إلهية تحرسه وترعاه يلجأ إليها وقت الأزمات وبذلك أمكنه إيجاد صياغة تكفل له التوافق بين العقل والجسد أو بين الحسيات والروحانيات ولكن التدين لدى المصريين لا يعني



التعصب ولا يعني كراهية الآخرين، كما لا يعني التواكل والكسل أو العيش في الغيبيات والأوهام.

ولذلك فإنني لا أمل أن أكرر التشبيه الهندسي وهو أن مصر هي عمود الخيمة للأمة العربية وللمنطقة، فإذا انكسر أو اختفى العمود الأوسط أصبحت الخيمة قطعة من القماش ملقى بها في "الساحة الدولية"، رغم ما تحتوي من خيوط فضية أو ذهبية، كما أن هذا العمود الأوسط وبدون القماش المكون للخيمة يصبح مجرد قطعة من الخشب تعتصرها الرياح والأنواء دون غطاء أو أوتاد، أو هكذا تصورت مصر طوال حكم السادات وبالذات منذ توقيع معاهدة كامب ديفيد.

وعليه فإن حماسي لانتماء مصر العربي، ليس مسألة عاطفية أو رومانسية ولكنها مصلحة مصر المحورية - ليس في الماضي والحاضر - وإنما في المستقبل أيضا وفي الجوانب الاقتصادية والسياسية والحضارية معا، ومن سخريات القدر أنه أثناء الحقبة المظلمة بعد كامب ديفيد، كانت مشاكل مصر الاقتصادية غير ملموسة نتيجة عائدات أجور العمال المصريين الذين زحفوا وعمروا كافة بلدان

البترول العربية في وقت التوسع العمراني الهائـل والـذي أعقب زيادة أسعار البترول عقـب حـرب ١٩٧٣ فكانـت مصلحة متبادلة، ولكنني أسائل القلة من المعادين لخط مصر العربي أين كان يمكن لكل هذه الملايين من المصـريين أن يتوجهوا ـ رغم كل قدراتهم ومهاراتهم المهنية ـ مـا لـم يكونوا متحدثين باللغة العربية وهي صلب وعصب الانتمـاء العربي؟

فأنت ـ كمصري عربي ـ تجول وتصـول غربـا وصولا إلى المغرب، وتجد نفسك وكأنك في مصـر بسـبب اللغة ولكن ما إن تعبر البوغاز إلى جبل طارق وأسبانيا حتى تجد نفسك في بلاد غريبة عنك، ثم تصول وتجول شرقا في بلاد الشام والهلال الخصيب، وتجد نفسك بين أهلك وتتحدث نفس اللغة وتستمع إلى نفس الشـعر والأدب وتشـاهد ذات الأفلام السينمائية وتجدهم مرحبين بك إذ يعرفون هـم فـي الجانب المقابل الكثير عن مصر لأنها أم الثقافة العربية، ليس فقط من خلال اللغة والأدب ولكن ـ في العصر الحـديث ـ من خلال التليفزيون والمسلسلات وغيرها ثم من خلال آلاف المدرسين للغة العربية وغيرهم من المصريين الذين قضـوا

سنوات عمرهم في السعودية والخليج يساهمون في نهضتها.. ثم تعبر أنت الخليج العربي والمسمى بالفارسي وتتجه إلى إيران ـ ورغم أنهم مسلمون ـ ولكنك تجد نفسك غريبا وفي بلاد أجنبية وفي حاجة إلى مترجم لكي تفهم!

ومن هنا انتماء مصر العربي هو انتماء مصلحة اقتصادية وحضارية وسياسية ولم يكن عبثا أن جاء في المادة الأولى من الدستور أن "الشعب المصري جزء من الأمة العربية يعمل على تحقيق وحدتها الشاملة".

أما أصدقائي وزملائي من القوميين العرب ومن يعيشون حلم "الوحدة العربية" ومن يقسمون ويفرقون بين "القوميين العرب" الذين يرون أن "الشعب العربي كله أمة واحدة" وبين "القطريين" الذين يعتبرون أن كل دولة عربية هي "قطر" داخل الأمة العربية، أقول لأصدقائي أنتم بالفعل حالمون، لأن الأمة العربية لن تتكون وتتجمع كأمة واحدة قبل عشرات وربما مئات السنين، وليس لأن القطريين يقاومون وليس لأن الاستعمار لا يود وحدة العرب، ولكن لأن "الظرف الموضوعي" لواقع الدول العربية الحالية لا يؤدي إلى الوحدة أو حتى الاقتراب منها ممثلة في الآتي:

- هناك قوة هائلة بين مجموعة الدول البترولية وبـين مجموعة الدول الفقيرة غير البترولية فروق اقتصادية شاسعة، ولن تقل هذه الفجوة الاقتصادية بين ثـراء البترول وما يسمى "خط الفقر" في يوم وليلة.
- هناك الفوارق بين الدول المكتظـة بالسـكان (مثـل مصر والسودان وسوريا) وبين دول محدودة السكان (مثل السعودية وليبيا ودول الخليج) وهي فوارق تبدو ـ على السطح ـ كما لو كانت مشجعة على التوحد ـ ولكن الواقع أنها معرقلة للوحدة لأن الدول قليلـة السكان غنية ولا تود أن تقع فريسة فقر الـدول ذات الكثافة العالية.
- هناك دول عاشت الديمقراطية وتتطلـع لأن يكـون نظامها مستقرا وفق تعدد الأحزاب وبحيث يمكن أن تنتقل السلطة في يسر من حزب إلـى آخـر، مثـل مصر وتونس، وقد تكون في طريقها لذلك بالفعـل، وهناك دول لا تسمح بمجرد الحديث عـن تشـكيل نقابات أو تمثيل نيابي أو حتـى وجـود دسـتور أو مساءلة للحاكم.

إن ما حدث في أوروبا الغربية مـن خـلال فكـرة السوق الأوروبية المشـتركة هـو نتـاج واقـع اجتمـاعي واقتصادي وسياسي جعل هناك تقاربا حقيقيا بين تلك الـدول والشعوب فهنا مستوى معيشة في ألمانيا لا يختلف كثيرا عن إنجلترا أو الدنمارك وكل الدول قابلة لفكرة إحداث التغيير في نظام الحكم من خلال صندوق الانتخابات وليس من خـلال البندقية وها هي تُعد نفسها لخطوات أكبر في اتجاه الوحـدة الاقتصادية عام ١٩٩٢. وكلها مؤمنة لحد التزمـت بحقـوق الإنسان.

العمود السادس: انتماء مصر للبحر المتوسط

من المؤكد أن هناك علاقـة جدليـة بـين التـاريخ والجغرافيا، فالحقبة التاريخية المسماة باليونانية ـ الرومانية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالانتماء الجغرافي لمصر من خـلال إطلالها على البحر الأبيض المتوسط، وإذا كانت هناك علاقة بين مصر وباقي الشعوب، فالعقل المصري منـذ عصـوره الأولى عقل، وإن تأثر بشيء، فإنما تأثر بـالبحر الأبـيض المتوسط، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما تبـادل مـع شعوب البحر الأبيض المتوسط (٩).

لقد جاء الفتح العربي وغزو الصليبيين من الجانـب الشمالي الشرقي لحوض البحر الأبيض المتوسط، ومن هنـا فإن تاريخ مصر كان هو تاريخ البحر الأبيض المتوسط على وجه التقريب، فإذا استقرت أمور مصر وتيسـرت أحوالهـا عمر هذا البحر بالنشاط وانتعشت موانيه، وأنت تسـتطيع أن تؤرخ تاريخ البحر الأبيض في تاريخ الإسكندرية، أما قبـل إنشائها فلم يكن لهذا البحر ـ ككل مترابط ـ تـاريخ، إنمـا كان هناك نشاط محدود في هذا الجانب أو ذاك (١٠).

وهذه العلاقة الجدلية بين التاريخ والجغرافيا واضحة ومؤكدة أيضا في العلاقة بين انتماء مصر إلى العالم العربي وبين الحقبة التاريخية الإسلامية ولكن صلة مصر بـالعرب أسبق وأشمل وأوسع.

أما الحقبة الفرعونية فإنها تعبر في بعض مراحلهـا متأثرة بالانتماء الأوسطي فضلا عـن الانتمـاء الجغرافـي لحوض وادي النيل الأفريقي وإلى المنطقة العربية معا فـي آسيا وأفريقيا.

ومهما يكن الأمر فإن انتماء مصر إلى مجموعة دول البحر المتوسط قد وصل إلى نقطة تحول جديدة في العصور الحديثة مع الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ والتي كان لها معان ثقافية بعيدة المدى، دل عليها عدد العلمـاء والمتخصصـين المرافقين للجنود والضباط الفرنسيين، واهتمـامهم بتسـجيل الآثار المصرية وما صاحبه من اكتشاف شـمبليون لحجـر رشيد وفك رموزه، وقد أعقب ذلك إرسال محمد علي للعديد من المصريين في بعثات إلى أوروبا كمقدمة لنقل من مصر من ظلمة العهود العثمانية إلى بداية عصر النهضـة، ومـا أعقب ذلك من إنشاء لصناعات جديدة مصاحبا لنمو الحركات

الفكرية وتطور الأفكار الديمقراطية وحقوق الإنسـان، وأدى كل ذلك إلى إقلال حجم السخرة فضلا عن رفع الجزية عـن الأقباط في عهد سعيد عام ١٨٥٦.

وقد أوجد كل هذا المناخ في العصر الحديث الفرصة لرفع شعار "مصر للمصريين" مع ثورة عرابي فجاء أحمـد لطفي السيد لكي ينشئ "حزب الأمة" ويؤكد "حق المواطنـة" كجزء من تراث المتوسط والذي كان قد نضج بعد "عصـر النهضة" وبروز فكرة "القومية" في أغلب بلدان أوروبا فـي القرن التاسع عشر وتلاه كثيرون كان أبرزهم د. طه حسين وربما كان متأثرا بدراسته في فرنسا وزواجه مـن فرنسـية رغم أن تعليمه الأساسي كان في الأزهر ولعله هو أول مـن قال بأن هناك "أعمدة متعددة" للثقافة في مصر وأوحى إلـي بهذه "الأعمدة السبعة"، فكان طه حسين فاتحة لمدرسة ليبرالية كاملة من المتأثرين بانتماء مصر للبحر المتوسط وجزء من حضارته وأكمل المشوار بعده توفيق الحكيم وحسين فـوزي ولويس عوض وحسين مؤنس وعشرات آخرين.

ويتوهم البعض أن هناك معركة بين مـن يـؤثرون انتماء مصر إلى حضارات البحر المتوسط ومن يرفضون أن

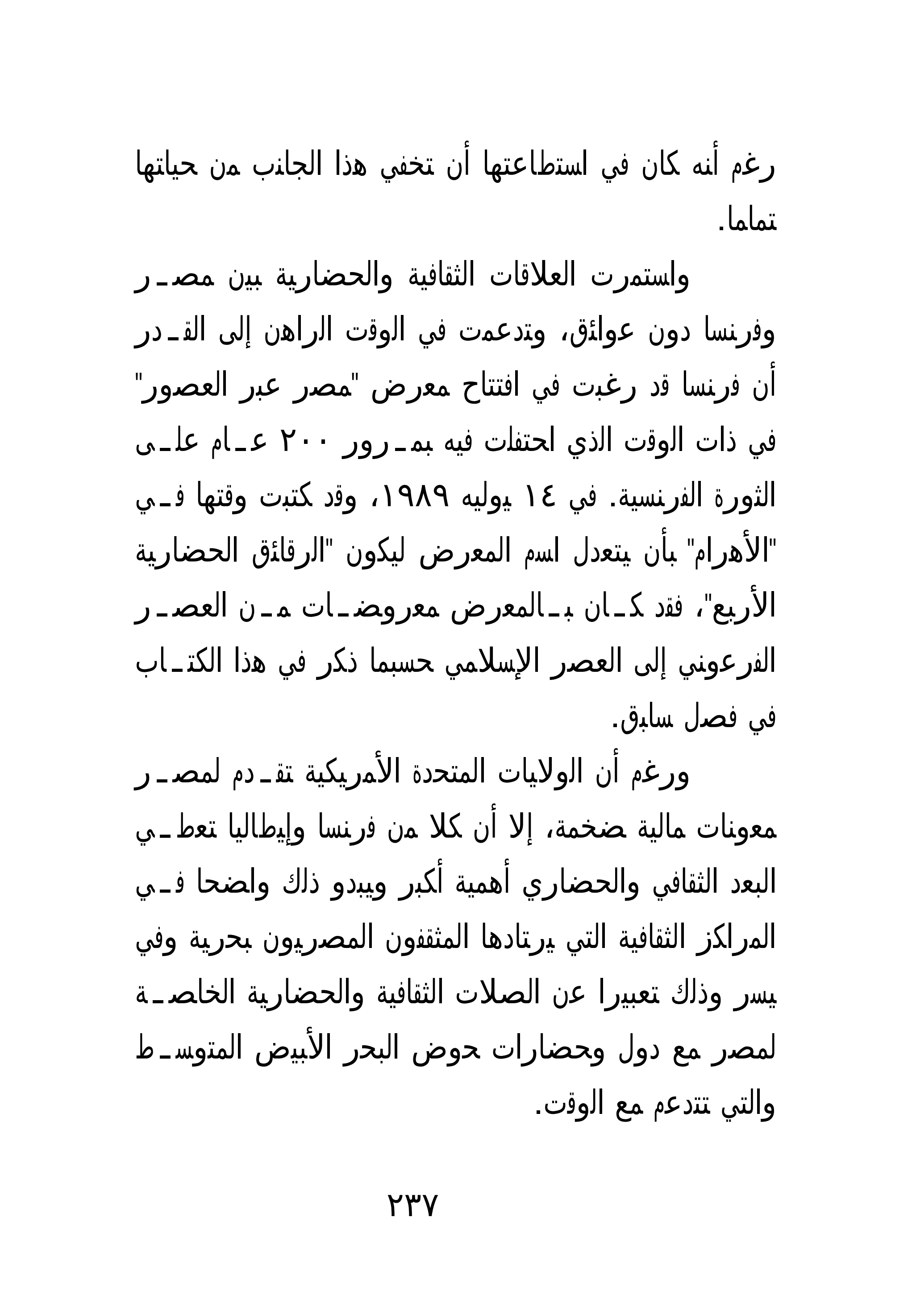
يكون لمصر انتماء آخر بخلاف الانتماء إلى الأمة العربيـة، والواقع هو أن ما قصدته من هذا الكتاب هو محاولة توفيقية ـ وليست تلفيقية ـ بين هذه الانتماءات كلها لأنني لا أجـد تعارضا بينها، فعلى الرغم من أن الانتماء العربي، لا بد أن يسبق الانتماء البحر أوسطي، فإنني أرى أن الانتماء الأخير متمم للأول وليس نقيضا له وبالذات من منطلـق أن هنـاك دولا عربية كثيرة تشارك مصر في الإطلال علـى البحـر المتوسط وتفاعلت مع حضاراتها بدرجات متفاوتـة فهنـاك علاقة بين لبنان وفرنسا وبين سوريا وتركيا وبين فلسـطين وقبرص وبين المغرب وأسبانيا وكان لحضـارة الفينيقيـين تأثير كبير على بلدان البحر المتوسط وعلـى العـرب فـي مراحل تاريخية سابقة.

ومن غير الممكن أن ننكر التشـابه فـي العـادات والتكوين النفسي بين أهالي المدن الساحلية في مصـر مثـل الإسكندرية وبورسعيد وبين الشعوب المماثلة والمقابلة مـن أهالي مدن مثل بيريه وأثينا في اليونـان أو مـدن لارنكـا وليماسول في قبرص أو نابولي وجنوه في إيطاليا.

إن ارتباط مصر مع باقي شعوب البحر المتوسط لا يعني المواطن المصري العادي في أعماق الريف أو الصعيد بقدر ما يعني جمهور المثقفين المصريين وبالـذات أولئـك الذين تأثروا بحضارة الغرب أو استكملوا جزءا من دراستهم في أوروبا وهم في ذلك يعتقدون أن الانتماء البحر أوسـطي سيزيد من حجم الممارسات الديمقراطية في مصر وبحيـث يكون نقل السلطة من نظام إلى نظام من خلال الانتخابـات وهذا ما لم يحدث لمصر ولا مرة واحدة حتـى الآن عبـر تاريخها الطويل، ولسنا في هذا الأمر أقل من قبرص علـى سبيل المثال.

هذا وفي العصور الحديثة سكن مدن وريف مصـر الكثير من اليونانيين والإيطاليين وبعض منهم تعلموا العربية وأصبحوا ينطقونها بلكنة واضحة مميزة، إلى حد أنهم أدخلوا إلى المسرح شخصيات فكاهية تعبر عن يونـاني متمصـر يعيش في نسيج المناطق الشعبية المصرية.

ولعل أبرز مثال على ذلك المغنية الفرنسية الشـهيرة داليدا والتي نشأت في حي شبرا وأدخلت إلى أوروبا أغنيات ذات نكهة وكلمات مصرية صميمة مثل "سالمة يا سـلامة .


رغم أنه كان في استطاعتها أن تخفي هذا الجانب من حياتها تماما.

واستمرت العلاقات الثقافية والحضارية بين مصـر وفرنسا دون عوائق، وتدعمت في الوقت الراهن إلى القـدر أن فرنسا قد رغبت في افتتاح معرض "مصر عبر العصور" في ذات الوقت الذي احتفلت فيه بمـرور ٢٠٠ عـام علـى الثورة الفرنسية. في ١٤ يوليه ١٩٨٩، وقد كتبت وقتها فـي "الأهرام" بأن يتعدل اسم المعرض ليكون "الرقائق الحضارية الأربع"، فقد كـان بـالمعرض معروضـات مـن العصـر الفرعوني إلى العصر الإسلامي حسبما ذكر في هذا الكتـاب في فصل سابق.

ورغم أن الولايات المتحدة الأمريكية تقـدم لمصـر معونات مالية ضخمة، إلا أن كلا من فرنسا وإيطاليا تعطـي البعد الثقافي والحضاري أهمية أكبر ويبدو ذلك واضحا فـي المراكز الثقافية التي يرتادها المثقفون المصريون بحرية وفي يسر وذلك تعبيرا عن الصلات الثقافية والحضارية الخاصـة لمصر مع دول وحضارات حوض البحر الأبيض المتوسـط والتي تتدعم مع الوقت.

العمود السابع: انتماء مصر لأفريقيا

من بين هذه الأعمدة السبعة يبدو جليـا أن العمـود الفرعوني والعمود اليوناني ـ الروماني، لهما امتداد تاريخي إذ يعودان إلى الماضي، وإن كانا يـؤثران فـي الشخصـية المصرية إلى يومنا هذا، ولكن لا توجد مجموعة بشرية تدعو إلى عودة أو سيادة تراث العصر الفرعوني أو الروماني.

أما العمودان التاريخيان القبطي والإسـلامي فهمـا يعيشان ويتعايشان معا بحكم أن في مصر إسلاما وفي مصر مسيحية كذلك، أما العمود العربي، فهو عمود متين وثابـت، أثر في الماضي ويؤثر في الحاضر، وسيؤثر في المسـتقبل، ولكنني أرى أن العمود السادس وهو الانتمـاء إلـى البحـر المتوسط فهو خافت التأثير تحس به عن بعد ولا يفرض نفسه فرضا ويمكن أن يلجأ إليه المثقفون في لحظـات الأزمـات وأراه انتماء كامنا سيتفجر في القرن القادم حضاريا وسياسيا.

أما العمود الأخير ـ وهو انتماء مصر إلى أفريقيـا ـ فأراه المستقبل لمصر.

ولا أود أن أغوص في الماضي البعيـد أو القريـب لأثبت أن هناك علاقات تاريخية بين مصر وأفريقيـا (١١)، فهذا أمر أكاديمي ومفتعل ـ في رأيي ـ على أي حال، لأن أهل أفريقيا يفرقون بين شعوب تعيش شمال الصحراء حيث الدول العربية الأفريقية (المطلة على البحر المتوسط) وهـي شعوب ليست زنجية سوداء وبين شعوب أفريقيا التي تعـيش في "قلب أفريقيا" وهي كلها تتميز بلـون البشـرة الأسـود وبالتقاطيع الزنجية المعروفة، وفي هذه الخصوصـية فـإن السودان يتمتع بالقبول لـدى كـل مـن الشـعوب العربيـة والأفريقية لأن سكان الجزء الشمالي يتحدثون العربية وهـم مزيج من الزنج مع أصول عربية وينتمون في مجموعهم إلى الإسلام بينما الجنوب هو جزء من صلب أفريقيـا السـوداء ويتحدثون العربية أحيانا ولكن بلكنة واضحة، ولـذلك فـإن لمصر مصلحة استراتيجية في إنهاء الحـرب الأهليـة فـي السودان، ليس فقط لأنها تكون العمق الاستراتيجي لمصـر، وليس فقط لتأمين مياه النيل، ولكن لأن وحدة السودان ـ إذا انتهت الحرب الأهلية ـ ستكون التعبير الحي للحلقـة التـي توصل شمال أفريقيا العربي بقلب وجنوب أفريقيا الأسود.

على أن لمصر وضعا خاصا في أغلب دول أفريقيـا السوداء من منطلق العرفان بالجميـل للمسـاعدات الهائلـة (عسكريا وسياسيا وماديا) لحركات التحرر الوطني إبان حكم الرئيس عبد الناصر ومن خلال وزيره الهمام محمـد فـائق والذي كان قد عهد إليه بقضايا أفريقيا، أذكر الآن التحية التي تلقيتها عندما مثلت مصر في مؤتمر الدول غيـر المنحـازة لمناسبة المشاركة في أعياد واحتفـالات الـرئيس مانجسـتو بالعيد الرابع لثورة إثيوبيا في ١١ سبتمبر ١٩٧٨ (لا زلـت أذكر هذا التاريخ لأن التقويم في إثيوبيا مطابق لتقويم الشهداء القبطي منذ أن كانت إثيوبيا تابعة من الناحية الدينية للكنيسـة القبطية ويحتفلون بعيد رأس السنة لـديهم مـع رأس السـنة القبطية). عندما ألقيت كلمة مصر (باسـم حـزب التجمـع) وذكرت اسم عبد الناصر ضمن زعماء أفريقيا والذين أسسوا هذه المنظمة في الستينيات.

وعندما انتخب الرئيس مبارك رئيسا لمنظمة الوحدة الأفريقية في يوليو ١٩٨٩، كتبت في جريدة الأهالي (عـدد ٢/ ٩/ ١٩٨٩):

"ولا شك في أن كثيرا من الفضل يعود إلى العمـل الدءوب الذي قام به د. بطرس غالي وزير الدولـة للشـئون الخارجية مما يؤهله للترقية من أومباشي إلـى شـاويش (*) حتى تم تجديد وتدعيم الصلة مع أفريقيا وهو الأمر الذي توج في نهاية الأمر بأن يصبح الرئيس مبارك رئيسـا لمنظمـة الوحدة الأفريقية".

إن رؤيتي هي أن الانتماء الأفريقي لمصر هو انتماء للمستقبل ينبع ذلك من أن زيادة السكان فـي مصـر تقفـز بمعدلات خرافية وفلكية، ويصعب تصديق الأرقام التي تذاع الآن عن تعداد مصر عام ٢٠٠٠ وكيف أنها ستصل إلى ٧٠ مليونا وفي عام ٢٠٣٠ ستتجاوز المائة مليون.

ولا أعتقد أن المنحنيات التي يرسمها الخبراء لزيادة السكان ستسير وفق هذه التنبؤات لاعتقادي أن الحياة لا بد أن تتكيف وتصحح نفسها بنفسها وأن المعدلات الحالية لا بد أن تقل كثيرا وإلا أصبحت الحياة مستحيلة، ليس في هذا الوادي الضيق فحسب ولا حتى مع خطط غزو صحراء مصر لأنها ـ على أي حال ـ في حاجة إلى استثمارات فلكيـة ليسـت

متوفرة في حدود الرؤية المنظورة، وهذه قضية أخرى ليس هذا موقعها.

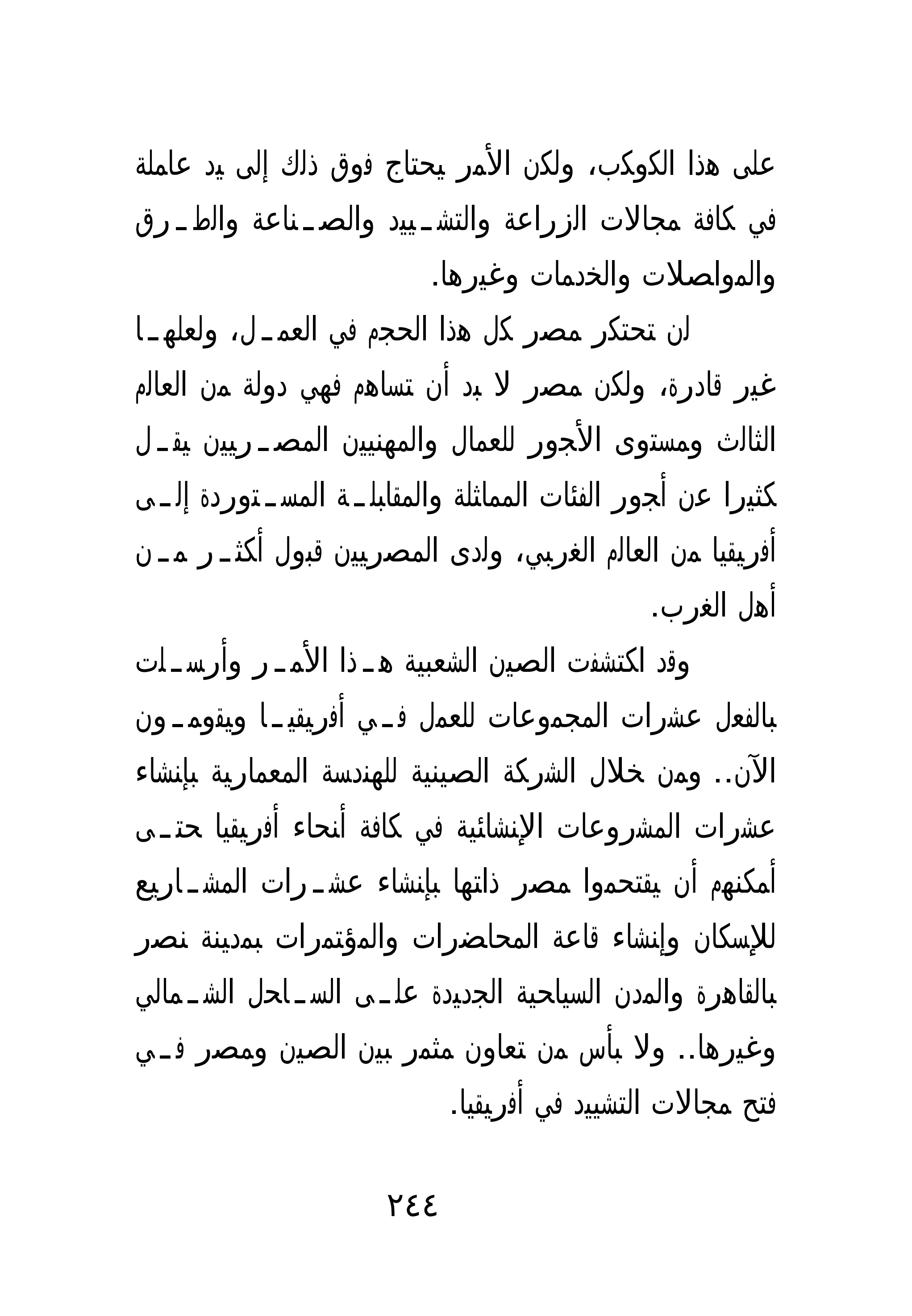
على أي حال، لا سبيل لشعب مصر لكي يستمر في توفير عمل لكل سكانه ولاستمرار الحضارة في أرضه إلا من خلال الانتشار إلى كل من العالم العربي والأفريقي وإلى كل بقاع الأرض لو أمكن، مستفيدين من أن مصر قد سبقت الآخرين في التعليم الجامعي وفي وجود قاعدة من الحرفيين والمهارات اليدوية المطلوبة.

إن العالم العربي مفتوح أمام العمالة المصرية على كافة مستوياتها ووفق الظروف المتغيرة في الأقطار العربية وسيظل كذلك وليس هناك من حواجز - لأن اللغة تسهل الهجرة علاوة على وجود علاقات قائمة بالفعل، ولسوف يستمر تدفق البشر من مصر وغيرها حيث الكثافة السكانية عالية إلى الدول الأقل كثافة والتي تحتاج بالفعل إلى اليد العاملة وسوف تسهل هذه العملية كلما زادت العلاقات السياسية خصوصا إذا تدعمت من خلال المشروعات الاقتصادية المشتركة. أما أفريقيا، فإن الأمر يختلف، ذلك أن شعب مصر غير مؤهل للهجرة إلى أفريقيا بعد، كما أن

أفريقيا غير مؤهلة لاستقبال مصـريين كأصـدقاء وليسـوا كمستعمرين.

فالأمر إذن يحتاج إلى إعداد ـ ومن الآن ـ ولـتكن نقطة البداية بأن نطور مناهج التعليم والثقافة والإعلام لكـي نعرف أفريقيا، بشـكل أعمـق، وعلـى وزارة الخارجيـة المصرية أن تجهز خططـا وأفكـارا لكـي تهيـئ المنـاخ الدبلوماسي والسياسي وتحاول مصر الآن ـ ومـن خـلال الحركة الدبلوماسية النشيطة ـ أن تخلق قنوات اتصال مـع أغلب دول أفريقيا وسيكون ذلـك هـو التمهيـد الأساسـي للمستقبل وعلى وزارة التعليم العالي أن تمهـد مـن الآن ـ وكما مهدت للانتماء العربي ـ أن تتوسع في عدد البعثـات للدارسين في جامعات مصر من كل بلدان أفريقيا على تباين مواقعها.

إن أفريقيا هي مخزون العالم في التوسع الزراعـي وفي اكتشاف كنوز الثروة المعدنية والغابات ومصادر الطاقة المائية والمسماة "بالجديدة والمتجددة"، وهذا الأمر يحتاج إلى استثمارات هائلة، وليس من سـبيل أمـام العـالم المتقـدم (رأسماليا أو اشتراكيا) إلا المساهمة فيه من أجل بقاء الحياة



على هذا الكوكب، ولكن الأمر يحتاج فوق ذلك إلى يد عاملة في كافة مجالات الزراعة والتشييد والصناعة والطرق والمواصلات والخدمات وغيرها.

لن تحتكر مصر كل هذا الحجم في العمل، ولعلها غير قادرة، ولكن مصر لا بد أن تساهم فهي دولة من العالم الثالث ومستوى الأجور للعمال والمهنيين المصريين يقل كثيرا عن أجور الفئات المماثلة والمقابلة المستوردة إلى أفريقيا من العالم الغربي، ولدى المصريين قبول أكثر من أهل الغرب.

وقد اكتشفت الصين الشعبية هذا الأمر وأرسلت بالفعل عشرات المجموعات للعمل في أفريقيا ويقومون الآن.. ومن خلال الشركة الصينية للهندسة المعمارية بإنشاء عشرات المشروعات الإنشائية في كافة أنحاء أفريقيا حتى أمكنهم أن يقتحموا مصر ذاتها بإنشاء عشرات المشاريع للإسكان وإنشاء قاعة المحاضرات والمؤتمرات بمدينة نصر بالقاهرة والمدن السياحية الجديدة على الساحل الشمالي وغيرها.. ولا بأس من تعاون مثمر بين الصين ومصر في فتح مجالات التشييد في أفريقيا.

ولعلي أختم الحديث عـن هـذا العمـود الأفريقـي المستقبلي بما ذكره د. حسين مؤنس: ولدت مصر أفريقيـة، وما زالت تشعر بأفريقيتها والتزاماتها حيال تلك القارة علـى مدار التاريخ، ولقد اجتذبها البحر الأبيض فأدخلها في نطاقـه الحضاري وشغلتها آسيا واحتوتها في نطاقها قرونا طويلـة ولكن شعب مصر كان - ولا يـزال - يشـعر بأفريقيتـه حريصا عليها فخورا بها، ولا يزال الصعيد وأهله موضـع فخار مصر ومصدر قوتها وحصنها الذي تركن إليه، وهـذا الفخر بالصعيد وأهله هو في ذاته فخر بالعنصر الأفريقي في تكويننا (١٢).

هوامش ومراجع الفصل الرابع

١- أبو سيف يوسف - مصدر سابق - الفصل الثالث: تكوين مصر العربية ص ٤٧ وما بعدها.

٢- د. طاهر عبد الحكيم: مصدر سابق ص ١٠٢.

٣- أبو سيف يوسف - مرجع سابق ص ٧٢ عن المقريزي"كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية" ج ٢ - ص ٥٠٦.

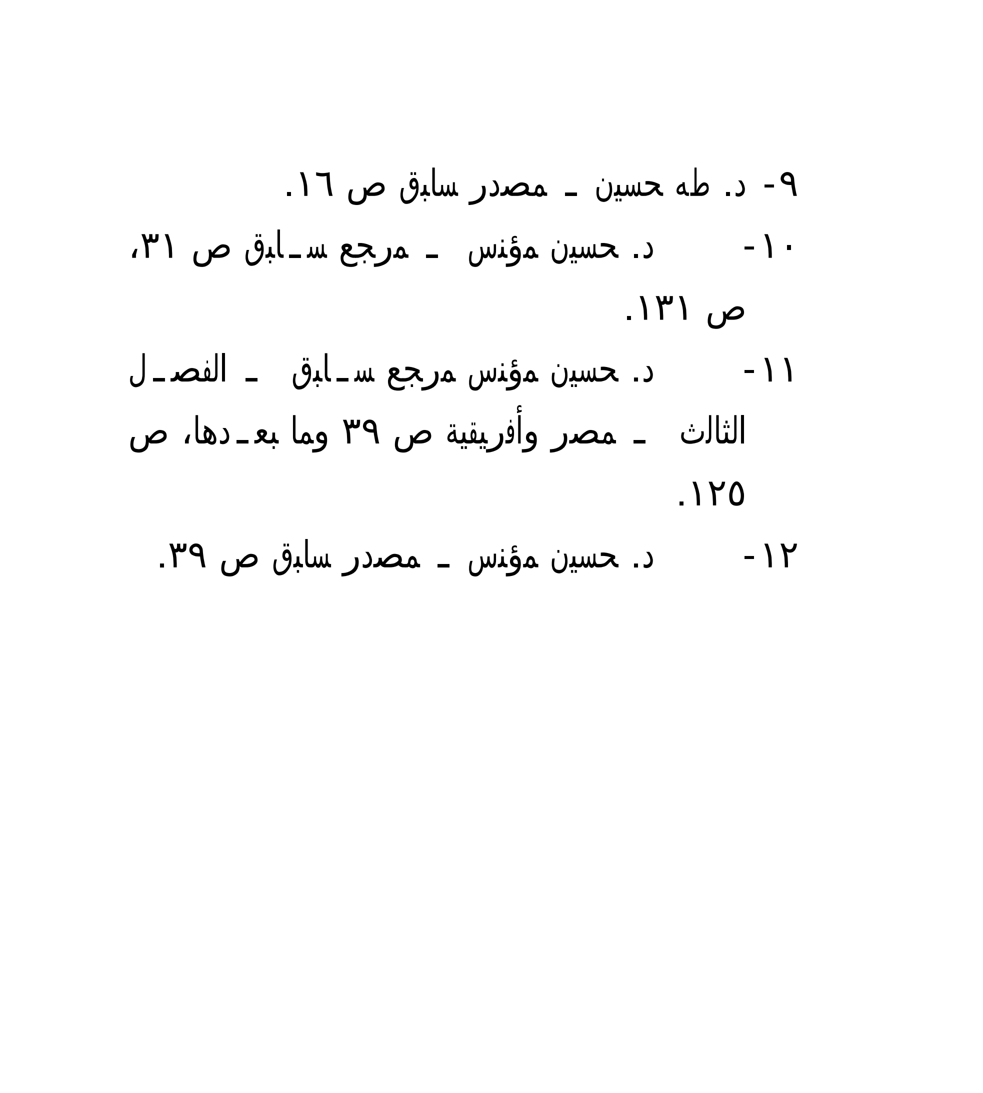
٤- د. حسين مؤنس - مرجع سابق ص ٣٠.

٥- د. حسين مؤنس - مرجع سابق ص ١١٨.

٦- من معلوماتي الشخصية أن الذي قام بالتصميم هو المرحوم الدكتور محمد هلال أستاذ الخرسانة في جامعة القاهرة.

٧- د. حسين مؤنس. مرجع سابق ص ١٢ - ١٢١.

٨- د. ميلاد حنا ذكريات سبتمبرية - دار المستقبل العربي ١٩٨٦ - الفصل الأول: "الطريق إلى سبتمبر" ص ٩ وما بعدها ص ١١٨.



٩- د. طه حسين ـ مصدر سابق ص ١٦.

١٠- د. حسين مؤنس ـ مرجع سـابق ص ٣١، ص ١٣١.

١١- د. حسين مؤنس مرجع سـابق ـ الفصـل الثالث ـ مصر وأفريقية ص ٣٩ وما بعـدها، ص ١٢٥.

١٢- د. حسين مؤنس ـ مصدر سابق ص ٣٩.

الفصل الخامس

نظريات حول الانتماءات

- داخل كل مصري أعمدة سبعة ولكن بأشكال مختلفة.
- تبدأ الانتماءات بالارتباط بالأسرة والقبيلة.
- الانتماء إلى دفعة ١٩٤٨ ينقلك إلى "مراكز القوى".
- الشخصيات العامة لا تفوز عادة في الانتخابات المحلية.
- ليس في مصر تنظيم يعبر عن الفلاحين.
- الانتماء الديني يتقوى مصريا وعالميا.
- نظرية الانتماءات بين الثراء السمح والأحادية المتعصبة.

أولاً : الانتماءات الجماعية

أعمدة سبعة داخل كل مصري

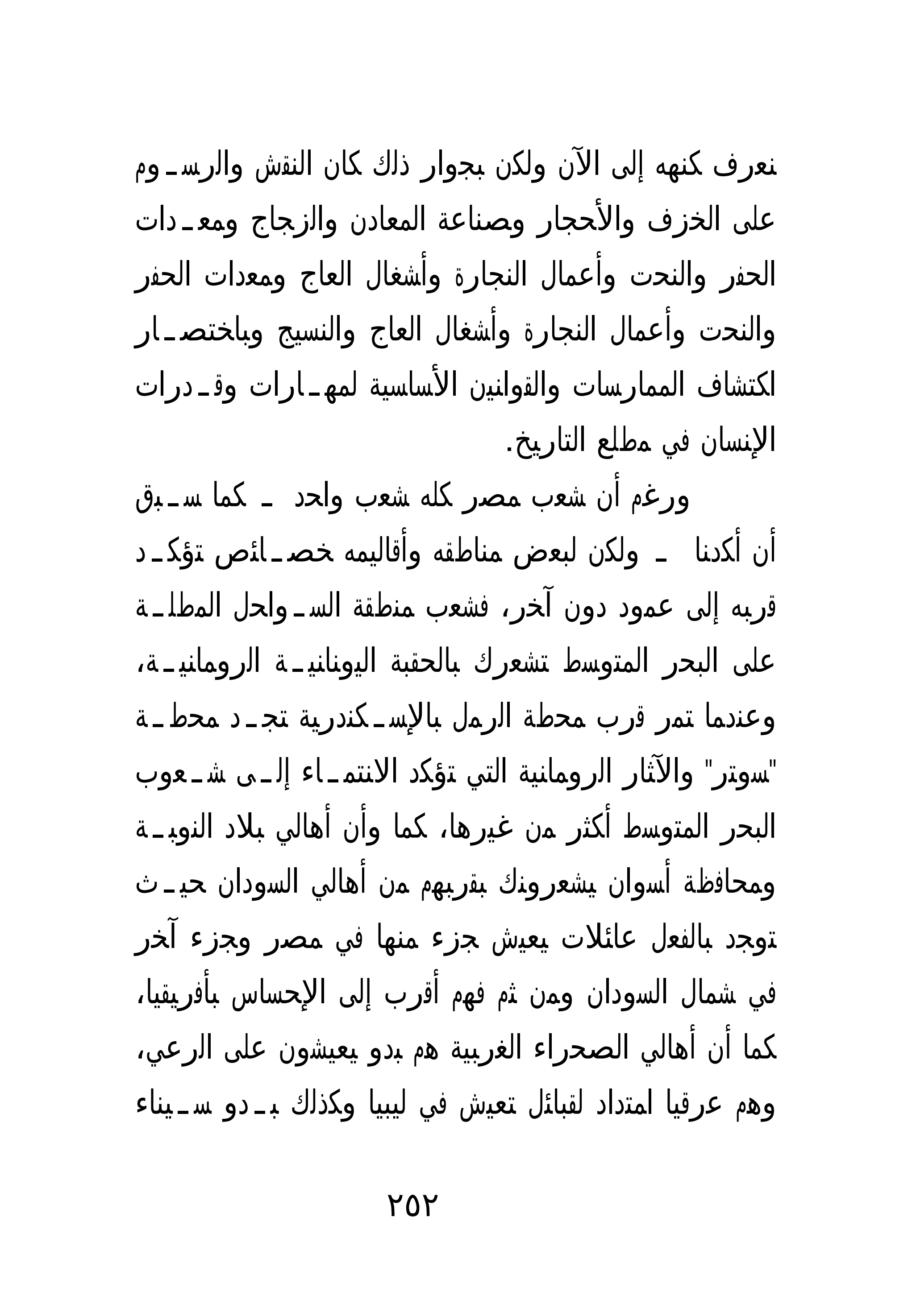
إن هذه الأعمدة السبعة موجودة داخل كل مصـري ولكن بدرجات متفاوتة، ومختلفة ولذا فهناك "تباديل وتوافيق" مختلفة في أحجام هذه الأعمدة، وفق التركيبة النفسية والثقافية كل منا، بل ويختلف حماسنا لهذا الانتماء أو ذاك وفق تغيـر الظروف العامة للمجتمع ووفق تغير الظروف الشخصية لكل منا عبر رحلة في مجملها مسيطرة على التركيبة النفسية لكل مصري، فالأستاذ نجيب محفوظ - على سبيل المثال - قال بعدما حصل على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٨٨ إنه نتـاج الحضارتين الفرعونية والإسلامية، وعندما قـرأت كتاباتـه بعمق وجدت داخله كل الأعمدة السبعة بقدر أو بآخر ولكنـه بحكم النشأة في القاهرة الفاطمية تأثر بشكل واضح بالحضارة الإسلامية وفق الممارسات المصرية في تلك الحقبة الزمنيـة ومن قراءاته تحمس واعتز بانتمائه للحضارة الفرعونية.

إن أي زائر للمتحف البريطاني في لندن يستطيع أن يلمس تداخل هذه الرقائق من الحضارات المصرية المتعاقبة

فعندما تزور المعروضات لتراث الحقبة الفرعونيـة سـتجد متداخلا مع معروضات الحقبة اليونانية - الرومانية وهـي بدورها متداخلة تماما مع المعروضات القبطية وتلك الأخيرة متداخلة بالفعل مع الفنون الإسلامية الأكثر حداثة ونلمس ذلك بشكل أوضح عند زيارة متحف النوبة بمدينة أسـوان حيـث يعرض الآثار لكل الحقب والرقائق الحضارية في معـرض واحد مثلما نلاحظ في أقسام الحضارة المصرية لكـل مـن معرض اللوفر في باريس والمتحف البريطاني في لندن.

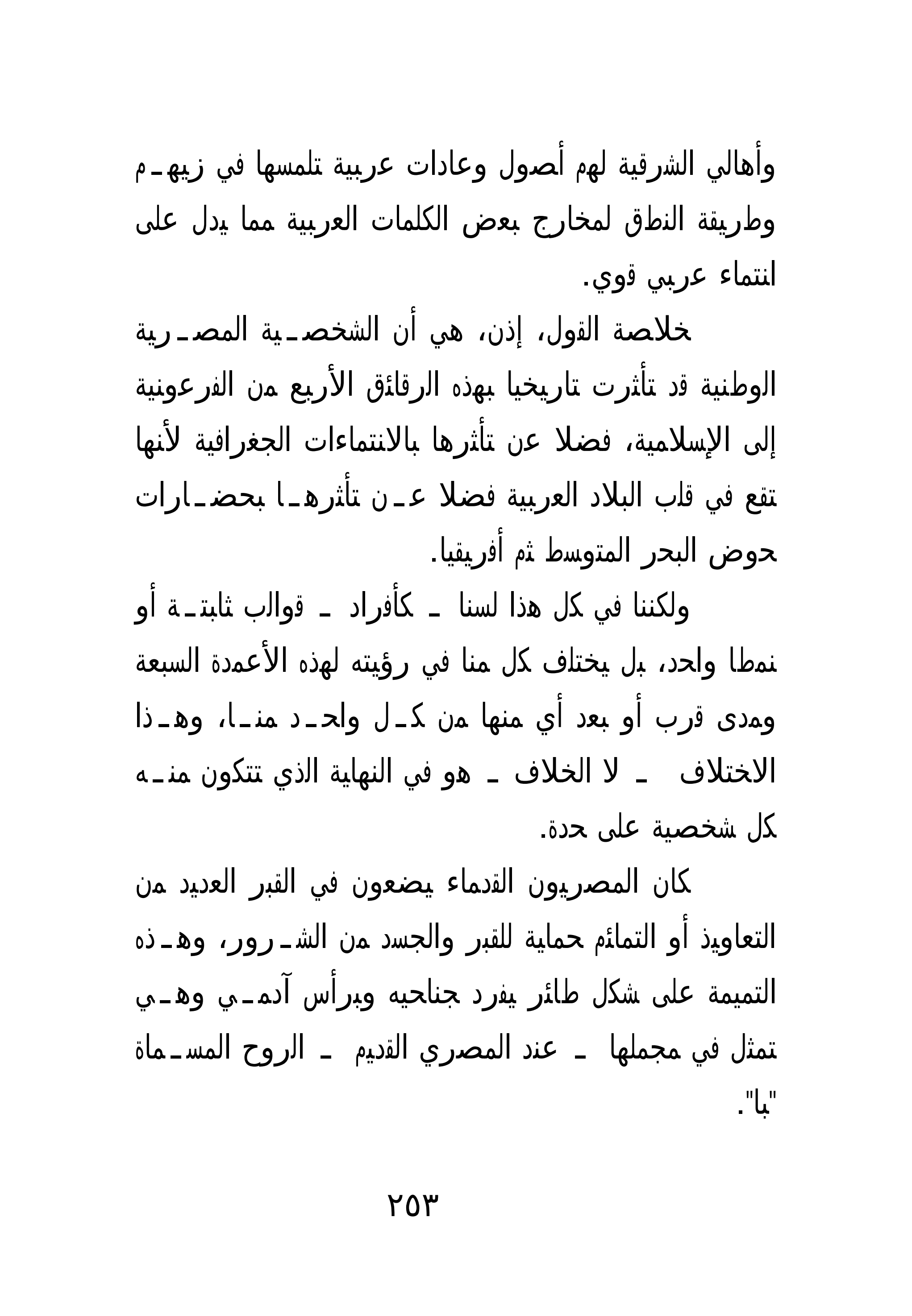
وفي هذا الأمر فإن السائح الـذي يـزور مصـر لا ينبغي أن يكتفي برؤية المتحف المصري بميـدان التحريـر حيث الآثار الفرعونية ولا يكتفي أن يزور منطقة الأهرامات وأبو الهول أو مناطق الآثار الفرعونية المختلفة في بني حسن والأقصر ولكنه سيجد معابد لا تقل أهمية في إسنا وكوم أمبو وإدفو لتعبر عن الحقبة اليونانية - الرومانية، فيغريه ذلـك على زيارة المتحف الروماني بالإسكندرية فيعود إلى القاهرة ليزور المتحف القبطي بمصر القديمة ويعرج على كنيسة أبو سرجة حيث يقال إن المسيح قد اختبأ بها فيزور كل الكنائس القديمة بهذه المنطقة وبغيرها من مناطق القاهرة فيجد أنهـا

متداخلة ومتعايشة في القاهرة الفاطمية حيث الأزهر والقلعـة وجملة المساجد القديمة والتي تعبـر بصـدق عـن مصـر الإسلامية فيدخل إلى المتحف الإسلامي ليتأكـد أن لمصـر حضارات تبدو مختلفة ـ لأنها متباينـة بالفعـل ـ ولكنهـا متصلة ومتدخلة وتركت بصماتها على المصري المعاصـر بأشكال مختلفة، وعندما نتمعن في الأعمدة السـبعة نلمـس العلاقة بين الزمان والمكان، فمصر البحر أوسطية قد أفرخت تراث الحقبة اليونانية ـ الرومانية، ومصـر العربيـة هـي حصاد لمصر الإسلامية، ولكن يتبقى لمصر حضارة متفردة وانتماء لا يشاركها أحد فيه، وهو الانتمـاء إلـى حضـارة الفراعنة ولذلك أدهش كثيرا عندما ألتقي بأي مصري لا يعتز بانتمائه الفرعوني خصوصا وأن كل أدبيات العالم تشير إلى أثر هذه الحضارة على كافة أوجه النشاط البشري في مجـال الدين والحكمة والشعر والأدب والقصة والسحر والأسطورة والقانون والمعاملات والعقود والرياضة والعلـوم الطبيعيـة والفلكية، وفي مجال الفن يتصور البعض أن الإعجاز كـان في بناء المعابد والأهرامات ولكن ذلك لـم يكـن إلا نتيجـة مهارات في النحت والقدرة على نقل هذه الأحجار باقتدار لم



نعرف كنهه إلى الآن ولكن بجوار ذلك كان النقش والرسـوم على الخزف والأحجار وصناعة المعادن والزجاج ومعـدات الحفر والنحت وأعمال النجارة وأشغال العاج ومعدات الحفر والنحت وأعمال النجارة وأشغال العاج والنسيج وباختصـار اكتشاف الممارسات والقوانين الأساسية لمهـارات وقـدرات الإنسان في مطلع التاريخ.

ورغم أن شعب مصر كله شعب واحد - كما سـبق أن أكدنا - ولكن لبعض مناطقه وأقاليمه خصـائص تؤكـد قربه إلى عمود دون آخر، فشعب منطقة السـواحل المطلـة على البحر المتوسط تشعرك بالحقبة اليونانيـة الرومانيـة، وعندما تمر قرب محطة الرمل بالإسـكندرية تجـد محطـة "سوتر" والآثار الرومانية التي تؤكد الانتمـاء إلـى شـعوب البحر المتوسط أكثر من غيرها، كما وأن أهالي بلاد النوبـة ومحافظة أسوان يشعرونك بقربهم من أهالي السودان حيـث توجد بالفعل عائلات يعيش جزء منها في مصر وجزء آخر في شمال السودان ومن ثم فهم أقرب إلى الإحساس بأفريقيا، كما أن أهالي الصحراء الغربية هم بدو يعيشون على الرعي، وهم عرقيا امتداد لقبائل تعيش في ليبيا وكذلك بـدو سـيناء



وأهالي الشرقية لهم أصول وعادات عربية تلمسها في زيهـم وطريقة النطق لمخارج بعض الكلمات العربية مما يدل على انتماء عربي قوي.

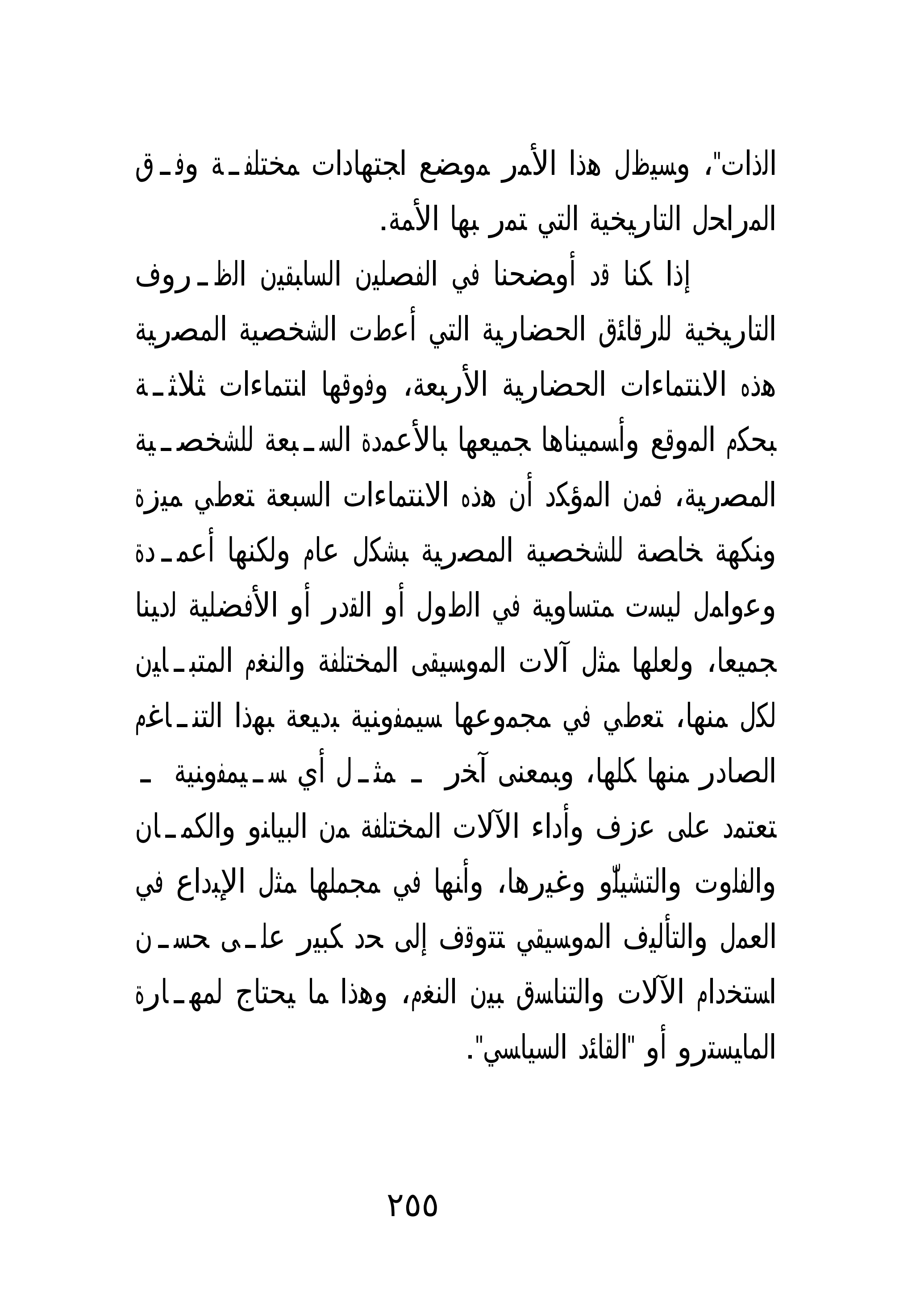
خلاصة القول، إذن، هي أن الشخصـية المصـرية الوطنية قد تأثرت تاريخيا بهذه الرقائق الأربع من الفرعونية إلى الإسلامية، فضلا عن تأثرها بالانتماءات الجغرافية لأنها تقع في قلب البلاد العربية فضلا عـن تأثرهـا بحضـارات حوض البحر المتوسط ثم أفريقيا.

ولكننا في كل هذا لسنا ـ كأفراد ـ قوالب ثابتـة أو نمطا واحد، بل يختلف كل منا في رؤيته لهذه الأعمدة السبعة ومدى قرب أو بعد أي منها من كـل واحـد منـا، وهـذا الاختلاف ـ لا الخلاف ـ هو في النهاية الذي تتكون منـه كل شخصية على حدة.

كان المصريون القدماء يضعون في القبر العديد من التعاويذ أو التمائم حماية للقبر والجسد من الشـرور، وهـذه التميمة على شكل طائر يفرد جناحيه وبرأس آدمـي وهـي تمثل في مجملها ـ عند المصري القديم ـ الروح المسـماة "با".

ثانيا: الانتماءات الشخصية الفردية

يبلغ عدد سكان العالم نحو خمسة آلاف مليون إنسان موزعين بين قارات وأقطار كثيرة، ويضمهم أوطان وبلـدان ومناطق وأجناس وأيديولوجيات متباينة، ولكننا جميعا كبشـر لنا نفس القسمات الرئيسية: عينان وأنف وأذنان وفـم وذات العدد من الأسنان والتركيبة البيولوجية الواحدة تقريبا، ورغم ذلك فإنه لا يكاد يوجد شخص يطابق الآخر تماما في الطول والعرض والملامح ولون البشرة، اللهم إلا في أحوال نـادرة لبعض التوائم، ومن هنا فإن الطبيعة والمنطق يصلان إلـى ذات النتيجة من أنه يوجد نفس الاختلاف في التركيبة النفسية والقدرة العقلية ودرجة الـذكاء والتوجهـات حتـى تتبـاين التصرفات تجاه الحدث الواحد أي أن لكـل منـا شخصـيته المتفردة رغم أن هناك خصائص تجمعنا جميعا كبشر، ومن هنا الاهتمام بإلقاء الأضواء على خصائص الشـعوب التـي توضح الملامح العامة لشخصية هذا الشعب، أو ذاك، وهكذا كان الاهتمام بدراسة ملامح الشخصـية المصـرية، فكتـب كثيرون في هذا الأمر منذ مطلع القرن كنوع من "الاكتشـاف



الذات"، وسيظل هذا الأمر موضع اجتهادات مختلفـة وفـق المراحل التاريخية التي تمر بها الأمة.

إذا كنا قد أوضحنا في الفصلين السابقين الظـروف التاريخية للرقائق الحضارية التي أعطت الشخصية المصرية هذه الانتماءات الحضارية الأربعة، وفوقها انتماءات ثلاثـة بحكم الموقع وأسميناها جميعها بالأعمدة السـبعة للشخصـية المصرية، فمن المؤكد أن هذه الانتماءات السبعة تعطي ميزة ونكهة خاصة للشخصية المصرية بشكل عام ولكنها أعمـدة وعوامل ليست متساوية في الطول أو القدر أو الأفضلية لدينا جميعا، ولعلها مثل آلات الموسيقى المختلفة والنغم المتبـاين لكل منها، تعطي في مجموعها سيمفونية بديعة بهذا التنـاغم الصادر منها كلها، وبمعنى آخر - مثـل أي سـيمفونية - تعتمد على عزف وأداء الآلات المختلفة من البيانو والكمـان والفلوت والتشيلّو وغيرها، وأنها في مجملها مثل الإبداع في العمل والتأليف الموسيقي تتوقف إلى حد كبير علـى حسـن استخدام الآلات والتناسق بين النغم، وهذا ما يحتاج لمهـارة المايسترو أو "القائد السياسي".

ففي مرحلة ما - مثل حقبة عبد الناصر - كان الصوت الأعلى هو للانتماء العربي وظهرت نظريات "القومية العربية" تجسيدا لفكر "حزب البعث العربي" وما إليها، وفي الحقبة ما بين ثورة عرابي وثورة يوليو كان النغم الأساسي هو أن "مصر للمصريين" ومن ثم إحياء لتراث الحقبة الفرعونية وطوال فترة الحكم العثماني كان النغم الرئيسي هو لانتماء مصر إلى "الأمة الإسلامية" وطمس معالم العمود الفرعوني.

وعندما جاء الرئيس السادات ورغب في ضرب "الناصرية" وأعاد لمصر اسمها، حاول دفع انتماء مصر الإسلامي كجزء من ضرب "القومية العربية" وعندما وقع معاهدة كامب ديفيد، واتخذ مؤتمر القمة العربي قراره بطرد مصر من الجامعة العربية عام ١٩٧٩، بهدف "عزل مصر"، استطاعت مصر أن تبقى على الساحة الدولية من خلال انتماءات أخرى كثيرة ، فكان أن زادت الروابط مع دول "البحر المتوسط" ومن خلالها تدعمت الصلة مع مجموعة دول السوق الأوروبية ثم اهتمت الدبلوماسية المصرية بدعم وتوطيد العلاقات مع دول أفريقيا، وأخيرا تمكنت مصر من

أن تعود إلى رابطة "المؤتمر الإسلامي" في يناير ١٩٨٧ إلى أن عادت رسميا إلى الجامعة العربيـة مـرة أخـرى عـام ١٩٨٩.

وفي الفترة الليبرالية من عـام ١٩١٩ حتـى عـام ١٩٥٢ اهتم كثير من المثقفين المصـريين بـالتركيز علـى ارتباطات مصر بحضارات دول البحـر المتوسـط، ولكـن الصراع كان شديدا مع التيار الإسلامي ممثلا فـي جماعـة الإخوان المسلمين ومصر الفتاة والتي نادت بتكوين وتـدعيم مركز مصر بين الدول الإسلامية والعربية.

خلاصة القول، هي أن هـذه الباقـة الفريـدة مـن الارتباطات والانتماءات تعطي فرصا هائلـة لأي قائـد أو حزب سياسي لأن يسخرها كلها أو بعضها بمهارة وفن، وفق ظروف مصر والمنطقة والعالم سياسيا واقتصاديا وعسكريا، فالدول متعددة الانتماءات أكثر مرونـة وتحمـلا للصـعاب والأزمات والصدمات والمشقات من تلك التي لـم يخصـها تاريخها وموقعها إلا بعدد هزيل من الانتمـاءات ومـن ثـم أصبحت مصر بالفعل أكثر حيوية وفاعلية في المنطقة ولهـا

قدرة على الاستمرارية في الحياة والوجود، والمساهمة فـي الحضارة الإنسانية على كل مستوى.

* * *

على أن ما يقال عن الدول وعن الشعوب، يقال أيضا عن الأفراد، فأي إنسان منا - بحكم كونه عضوا في مجتمع يحتوي على ملايين من البشر - لا بد أن يرتبط بعشـرات الانتماءات وذلك أن الشخص الناجح والمتحضر هو القـادر على تنمية هذه الانتماءات وتنويعها مع خلق التوازن بينهـا وفق قدراته وظروفه والمرحلة التاريخية التي يحياها.

أما الشخص الذي يركز على انتماء واحد فغالبا مـا يقوده ذلك إلى التعصب والانحراف وربما الاتجاه إلى العنف والإرهاب في سبيل هذا الانتماء المنفرد.

وتبدأ سلسلة الانتماءات، لكل منا، مع ولادته فيكـون الانتماء إلى الأسرة هو اللبنة الأولـى مـن بنايـة تـوالي الانتماءات، فكل منا يعتز بانتمائه الأسري، غير أن الشخص الذي يكرس كل وقته لأسرته فقط دون أي انتماء آخر غالبـا ما يكون أنانيا غير سوي ويقدم للمجتمع أبناء غير أصـحاء

نفسيا ومنعزلين لأنهم لا يفكرون إلا في مصلحتهم الشخصية دون مصلحة الوطن أو غيرهم من البشر.

وبعد فترة الطفولة يأتي الانتماء إلى المدرسة وتتكون الروابط بين الأطفال ثم بين الشباب مع تقدم مراحل الدراسة، وكثيرا ما نسمع عن الدعوة لحفلة لخريجي كلية الحقوق فـي سنة معينة، فإذا بكثير منهم قد احتلوا مواقع مختلفة في الدولة ويساندون بعضهم بعضا بحكم هذا الانتماء الطارئ الذي عبر ومضى، من منطلق أنهم "دفعة واحدة" وربمـا كـان المثـل الفريد الذي تم في سبتمبر ١٩٨٨ عندما اجتمع خريجو "كلية فيكتوريا" بالإسكندرية وقد حضر هذا الاحتفال الملك حسـين فجاء ذلك تأكيدا لانتماء مصر العربي.

وقد أدى هذا الانتماء غير الأساسـي إلـى بعـض المآسي عندما قام "الضباط الأحرار" بثـورة يوليـو ١٩٥٢، فاختار أعضاء مجلس قيـادة الثـورة أقـرانهم وزملائهـم "ودفعتهم" في مناصب رئيسية غير مؤهلين لهـا وأسـموهم "أهل الثقة" بدعوى أن تأمين إخلاصهم للثورة يتقدم إتقـانهم ومعرفتهم بالقواعد الإدارية والفنية بالشركات والمؤسسـات والهيئات التي تربعوا على قمتها حتى قيل إن شمس بدران قد

سيطر على الجيش في الفترة السابقة لحرب يونيو ١٩٦٧ من خلال زملائه وإخوان فرقته خريجي الكلية الحربية عام ١٩٤٨ ورفع في تلك الحقبة شعار أن "أهل الثقة أفضل من أهل الخبرة" وقد أدى ذلك للمآسي التي نعرفها الآن يوما بعد يوم.

ويتكون مع الانتماء الأسري والدراسي انتماء إقليمي جغرافي للحي أو القرية أو المدينة أو المحافظة، وكان هذا الانتماء هاما وقويا في القرن الماضي، ومع تغير القيم الحضارية وتغير ظروف الحياة التي تدفع إلى الانتقال والحركة وتوافر سبل المواصلات والهجرة، يقل الإحساس بالانتماء الإقليمي إلى المحافظة أو المديرية أو القرية ولعل أقوى الارتباطات ما نعرفه عن "أهالي بلاد النوبة" ومحافظة أسوان وكيف أن تماسكهم الإقليمي أصبح بديلا للضمان الاجتماعي المشترك. وقد لاحظت أثناء تواجدي في مجلس الشعب كيف يلعب الانتماء الإقليمي دوره في التكتلات والصراعات، فمثلا، المجموعة البرلمانية لمحافظة الإسكندرية كانوا يتعاونون ويقومون بالاتفاقات الجانبية في الكواليس ليفوزوا بعدد أكبر من مواقع رؤساء اللجان أو

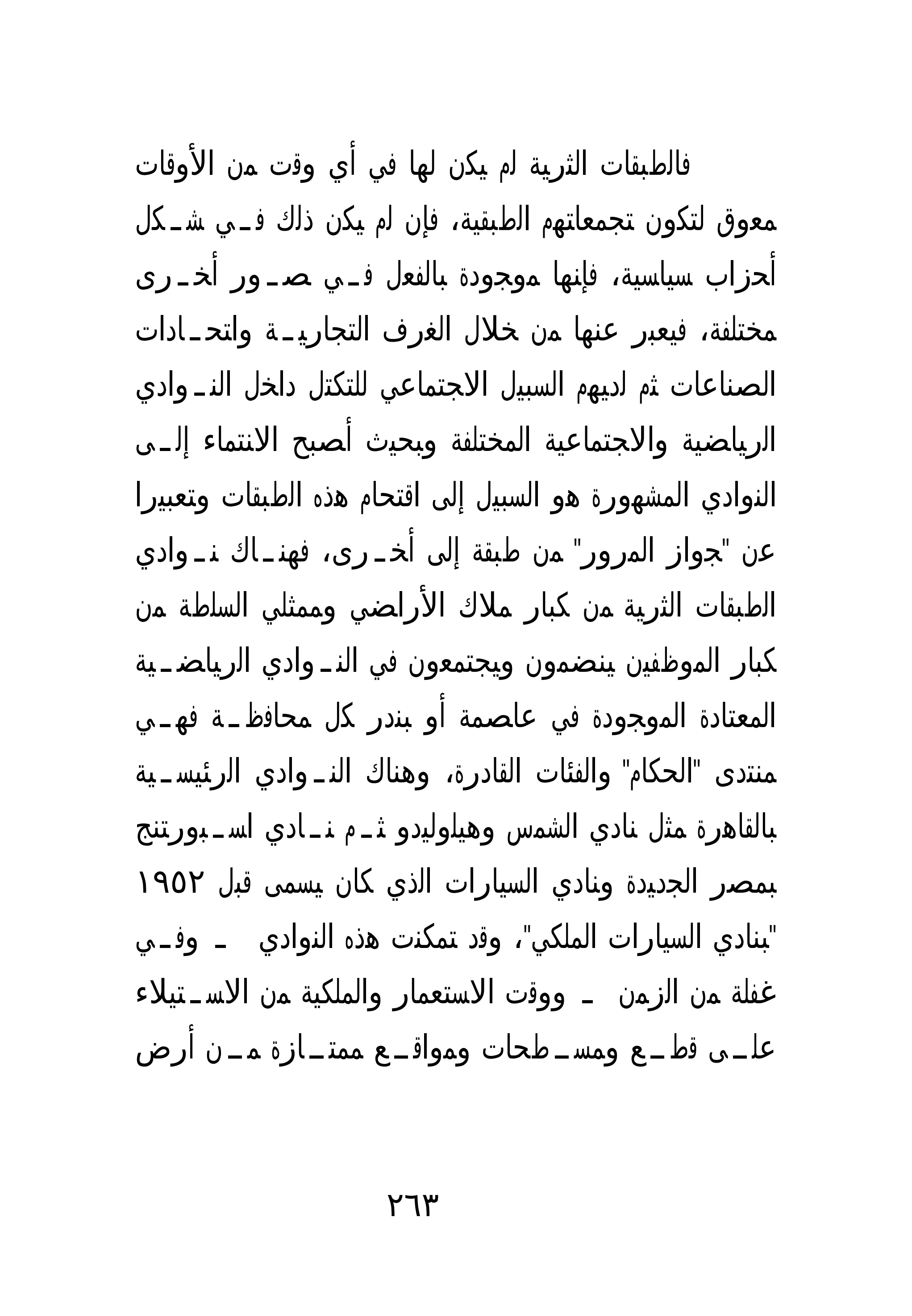
المواقع المتقدمة في الأحزاب ويضغطون لمناقشـة مشـاكل الإسكندرية بطريقتهم الخاصة، أما نواب الصعيد فيشـعرون أن محافظاتهم لا تفوز بالقدر الكافي من الخدمات والمرافـق من المياه والمجاري وكهربة الريف وغيرها.

ويلعب الانتماء الإقليمي دوره في المناورات الحزبية وكافة ألوان الحياة، رغم أن مصر من أقدم الدول المركزيـة في العالم وأن هناك - في أغلب العهود - سـيادة واحـدة لحاكم واحد منذ الملك مينا - ورغم ذلـك يلعـب الانتمـاء الإقليمي دوره في مصر في كافة نواحي الحيـاة بمـا فيهـا الانتخابات، فعضو مجلس الشعب أو المجلس المحلي ما هـو إلا شخص يستثمر بذكاء انتماءه الإقليمـي (وعـلاوة علـى الانتماء الأيديولوجي)، ففي أحوال كثيرة تكون نقطة البدايـة هي العصبية المحلية أي الانتماء إلى أسرة أو إلـى عائلـة كبيرة مميزة أو جماعة أو نقابة وفي أحوال نادرة إلى قبيلـة كما هو الحال في سيناء والصحراء الغربية، ولكن الشـخص الذي يعتمد على الانتماء المحلي وحده يكون أحادي الانتماء ومن ثم لا يستطيع أن يتحول إلى شخصية عامـة، ويظـل نفوذه السياسي والاجتماعي محدودا على أي حال، وهـؤلاء

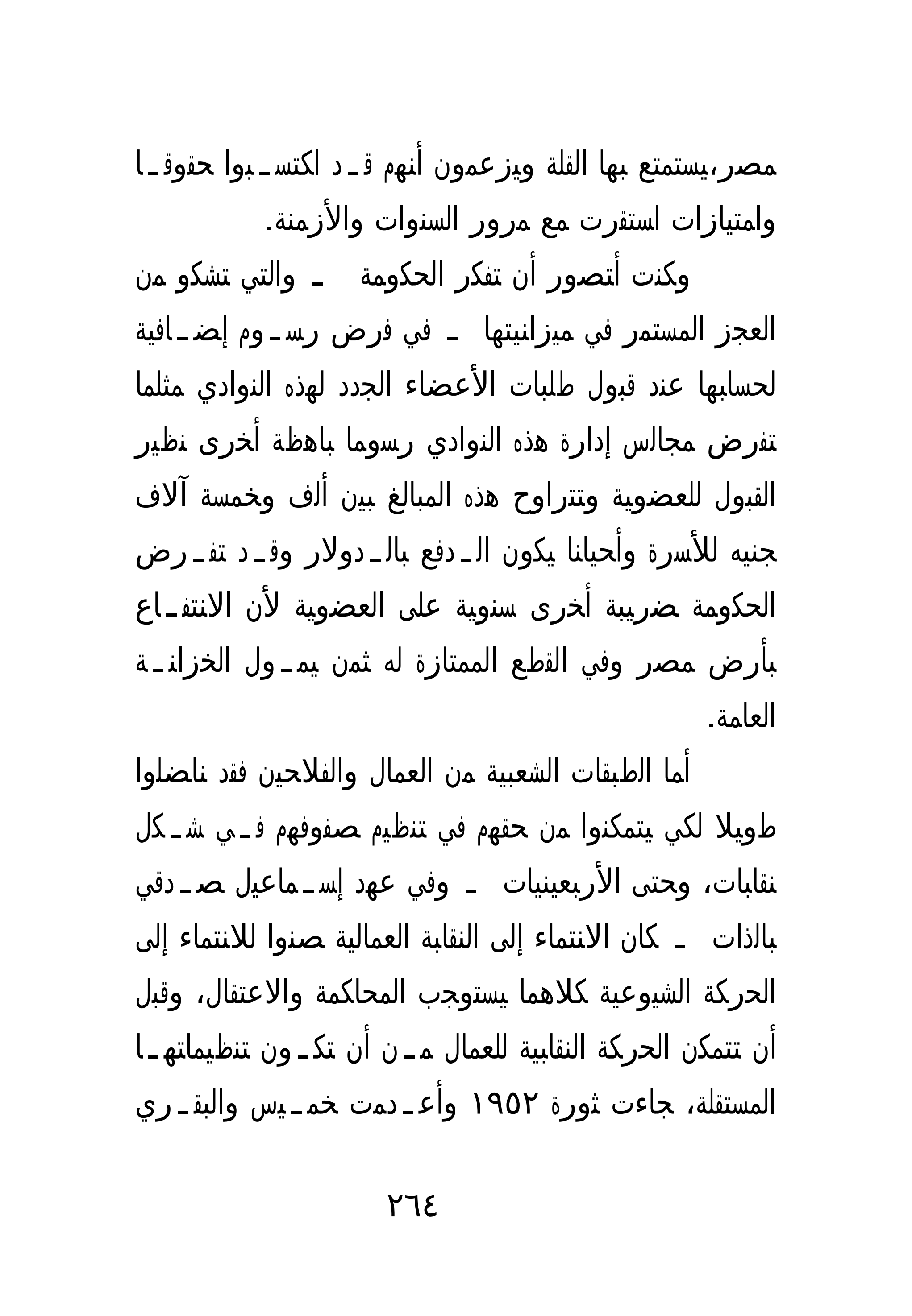
هم الكثرة في مجلس الشعب، إذ يظلون محتفظين بكراسـيهم رغم تغير التنظيم السياسي مثلما شاهدت المجـالس النيابيـة بالفعل أعضاء احتلوا نفس المقاعد منذ عهد الاتحاد القـومي إلى الحزب الوطني مرورا بالاتحـاد الاشـتراكي وحـزب مصر.

على أن الوجه الآخر للعملـة، مـا هـو معـروف وملموس من وجود شخصيات عامة كثيرة لها شهرتها علـى مستوى الوطن كله، ولكنها تغافلت عن أن تنمـي ارتباطهـا بمنطقة معينة ولذلك، فبالرغم من أن لها قبولا وطنيا عامـا، فإنها غير قادرة على خوض معركة انتخابيـة فـي منطقـة بذاتها.

ولا شك في أن الانتماء الطبقي يلعب دورا أساسـيا في حركـة المجتمـع خصوصـا إذا كانـت الممارسـات الديمقراطية تسـمح بتشـكيل التنظيمـات بحريـة وعقـد الاجتماعات التي تعبر عن الانتماء الطبقـي وعلـى قمتهـا الانتماء إلى نقابات العمال النقابات للعمال أو الفلاحين وكذلك لكافة الفئات الاجتماعية والاقتصادية الأخرى بما فيها حاليـا جمعيات رجال الأعمال.



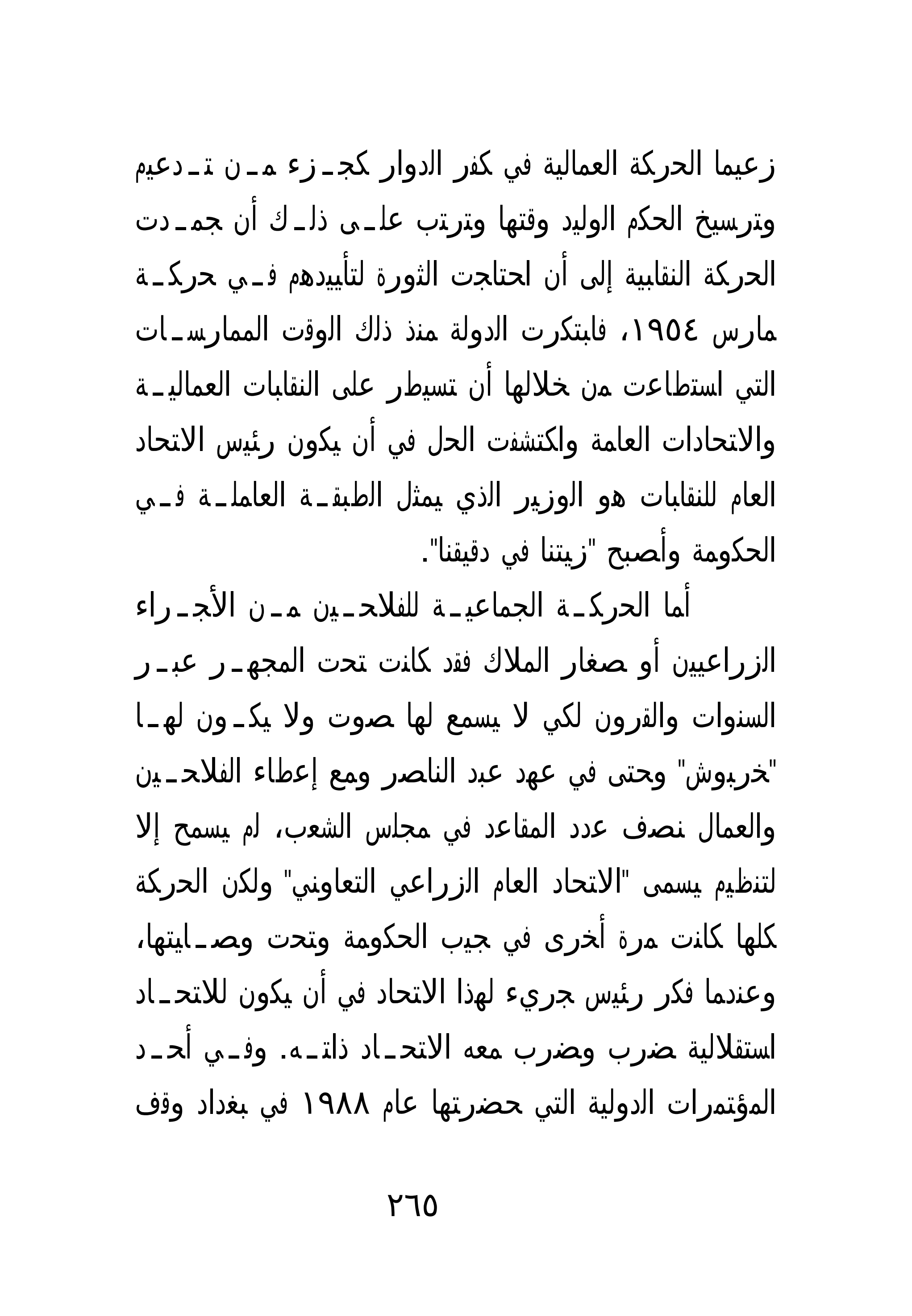
فالطبقات الثرية لم يكن لها في أي وقت من الأوقات معوق لتكون تجمعاتهم الطبقية، فإن لم يكن ذلك في شكل أحزاب سياسية، فإنها موجودة بالفعل في صور أخرى مختلفة، فيعبر عنها من خلال الغرف التجارية واتحادات الصناعات ثم لديهم السبيل الاجتماعي للتكتل داخل النوادي الرياضية والاجتماعية المختلفة وبحيث أصبح الانتماء إلى النوادي المشهورة هو السبيل إلى اقتحام هذه الطبقات وتعبيرا عن "جواز المرور" من طبقة إلى أخرى، فهناك نوادي الطبقات الثرية من كبار ملاك الأراضي وممثلي السلطة من كبار الموظفين ينضمون ويجتمعون في النوادي الرياضية المعتادة الموجودة في عاصمة أو بندر كل محافظة فهي منتدى "الحكام" والفئات القادرة، وهناك النوادي الرئيسية بالقاهرة مثل نادي الشمس وهيلوليدو ثم نادي اسبورتنج بمصر الجديدة ونادي السيارات الذي كان يسمى قبل ١٩٥٢ "بنادي السيارات الملكي"، وقد تمكنت هذه النوادي - وفي غفلة من الزمن - ووقت الاستعمار والملكية من الاستيلاء على قطع ومسطحات ومواقع ممتازة من أرض



مصر،يستمتع بها القلة ويزعمون أنهم قـد اكتسـبوا حقوقـا وامتيازات استقرت مع مرور السنوات والأزمنة.

وكنت أتصور أن تفكر الحكومة - والتي تشكو من العجز المستمر في ميزانيتها - في فرض رسـوم إضـافية لحسابها عند قبول طلبات الأعضاء الجدد لهذه النوادي مثلما تفرض مجالس إدارة هذه النوادي رسوما باهظة أخرى نظير القبول للعضوية وتتراوح هذه المبالغ بين ألف وخمسة آلاف جنيه للأسرة وأحيانا يكون الـدفع بالـدولار وقـد تفـرض الحكومة ضريبة أخرى سنوية على العضوية لأن الانتفـاع بأرض مصر وفي القطع الممتازة له ثمن يمـول الخزانـة العامة.

أما الطبقات الشعبية من العمال والفلاحين فقد ناضلوا طويلا لكي يتمكنوا من حقهم في تنظيم صفوفهم فـي شـكل نقابات، وحتى الأربعينيات - وفي عهد إسـماعيل صـدقي بالذات - كان الانتماء إلى النقابة العمالية صنوا للانتماء إلى الحركة الشيوعية كلاهما يستوجب المحاكمة والاعتقال، وقبل أن تتمكن الحركة النقابية للعمال مـن أن تكـون تنظيماتهـا المستقلة، جاءت ثورة ١٩٥٢ وأعـدمت خمـيس والبقـري



زعيما الحركة العمالية في كفر الدوار كجزء من تدعيم وترسيخ الحكم الوليد وقتها وترتب على ذلك أن جمدت الحركة النقابية إلى أن احتاجت الثورة لتأييدهم في حركة مارس ١٩٥٤، فابتكرت الدولة منذ ذلك الوقت الممارسات التي استطاعت من خلالها أن تسيطر على النقابات العمالية والاتحادات العامة واكتشفت الحل في أن يكون رئيس الاتحاد العام للنقابات هو الوزير الذي يمثل الطبقة العاملة في الحكومة وأصبح "زيتنا في دقيقنا".

أما الحركة الجماعية للفلاحين من الأجراء الزراعيين أو صغار الملاك فقد كانت تحت المجهر عبر السنوات والقرون لكي لا يسمع لها صوت ولا يكون لها "خربوش" وحتى في عهد عبد الناصر ومع إعطاء الفلاحين والعمال نصف عدد المقاعد في مجلس الشعب، لم يسمح إلا لتنظيم يسمى "الاتحاد العام الزراعي التعاوني" ولكن الحركة كلها كانت مرة أخرى في جيب الحكومة وتحت وصايتها، وعندما فكر رئيس جريء لهذا الاتحاد في أن يكون للاتحاد استقلالية ضرب وضرب معه الاتحاد ذاته. وفي أحد المؤتمرات الدولية التي حضرتها عام ١٩٨٨ في بغداد وقف

فرد في زي الفلاحين وخطب باسم " أربعة ملايـين فـلاح مصري "، وابتسم بعض العارفين ببواطن الأمور وحقيقتها.

والفئات الوسطى تجد لنفسها مكانا للتنظيم في صور شتى في كل من المدن والريف من خـلال نـواد وروابـط صغيرة أو عن طريق جمعيات خيرية أو اتحادات للموظفين وتأخذ ذلك أحيانا مظلة تنظيم له صورة الانتماء الجغرافـي مثل رابطة أبناء إدفو أو المنوفية أو رابطة موظفي وزارة أو مصلحة أو غيرها.

غير أن أبناء الطبقة المتوسطة أو الشـعبية والـذين استطاعوا من خلال مجانية التعليم في عهد عبـد الناصـر تجاوز حاجز التعليم العالي وحصلوا على شهادة جامعية، فقد انضموا إلى ساحات أخرى لها صبغة سياسـية واجتماعيـة يعمل حسابها وذلك من خلال النقابات المهنية والتي كانت ـ ولا زالت ـ أهم وأقوى تنظيماتها ممثلة في نقابة المحـامين والتي تشكلت في مطلع القرن ومع الحركة الوطنية المصرية وبداية لحركة النهضة الليبرالية.

واستمرت نقابة المحامين معقـلا للحريـات العامـة ومعبرة عن ضمير مصـر لسـنوات طويلـة، بسـبب أن

أعضاءها - في الأغلب الأعم - غير ملتزمين بقيود الوظيفة الحكومية، ولهم من دراستهم القانونية ما يمكنهم من تبني قضايا الحركة الوطنية والحريات العامة وحقوق الإنسان وكافة ألوان الفكر.

وبعد الحرب العالمية الثانية سرت العدوى لفئات أخرى كثيرة، فتكونت نقابات للمهندسين والأطباء والصحفيين والزراعيين والمعلمين ومن يسمون أنفسهم "بالتجاريين" وغيرهم.

وعندما كنت عضوا بمجلس الشعب شاهدت الصراعات والحوارات في شأن إنشاء نقابة جديدة لخريجي معهد الطب الطبيعي، وهي مرحلة بين الطبيب وبين المهنة التي كانت تعرف منذ سنوات "بالمجبراتي" وهي صنعة مصرية قديمة كادت تنقرض وسوف تنقرض مع إنشاء هذه النقابة الجديدة، وكان الصراع واضحا حول أحقية هذه الفئة في تكوين نقابة وتم منع الآخرين (غير المؤهلين) من ممارسة هذه المهنة.

وتعتمد كل النقابات المهنية في تمويل مواردها على ضرائب غير منظورة تفرضها القوانين الصادرة بإنشائها،

فنقابة المحامين "كالمنشار" تأخذ رسوما علـى كـل قضـية وتصادر "أتعاب المحاماة" التي تصدر وفق الأحكام لحسابها، ونقابة الصحفيين تفرض أتاوات على كل الإعلانات، ونقابـة المهندسين تحصل على نسبة لكل شكارة أسـمنت، ونقابـة الزراعيين عن كل شكارة سماد وهكذا.

وبعض النقابات لها ثقل سياسـي وبضـعها الآخـر يكتفي بدور رعاية مصالح الأعضاء وصـرف المعاشـات "ومصاريف الجنازة" وما أشبه، ومن النقابات التي لهـا دور سياسي نقابتا المحامين والصحفيين، ولذلك تولي الحكومة - أي حكومة - أهمية كبرى لنتائج الانتخابات بهما. وتصادف أن انتخبت وكيلا لنقابة المهندسين فور "حركـة التصـحيح" التي أعقبت "انقلاب ١٥ مايو ١٩٧١"، وأصـبحت النقابـة بالفعل مركزا هاما للتحركات السياسية مـن خـلال قيـادة المهندس عبد الخالق الشناوي وزير الري الأسبق والذي فاز بأغلبية كبيرة ليكون نقيبا للمهندسين ضد ممثل الحكومة فـي ذلك الوقت، وقد أصبحت النقابة في تلـك الفتـرة مسـرحا للصراعات السياسية في مصر عشية حرب أكتـوبر ١٩٧٣ حينما طرد عشرات الصحفيين وتم اعتقال مئات الطـلاب،

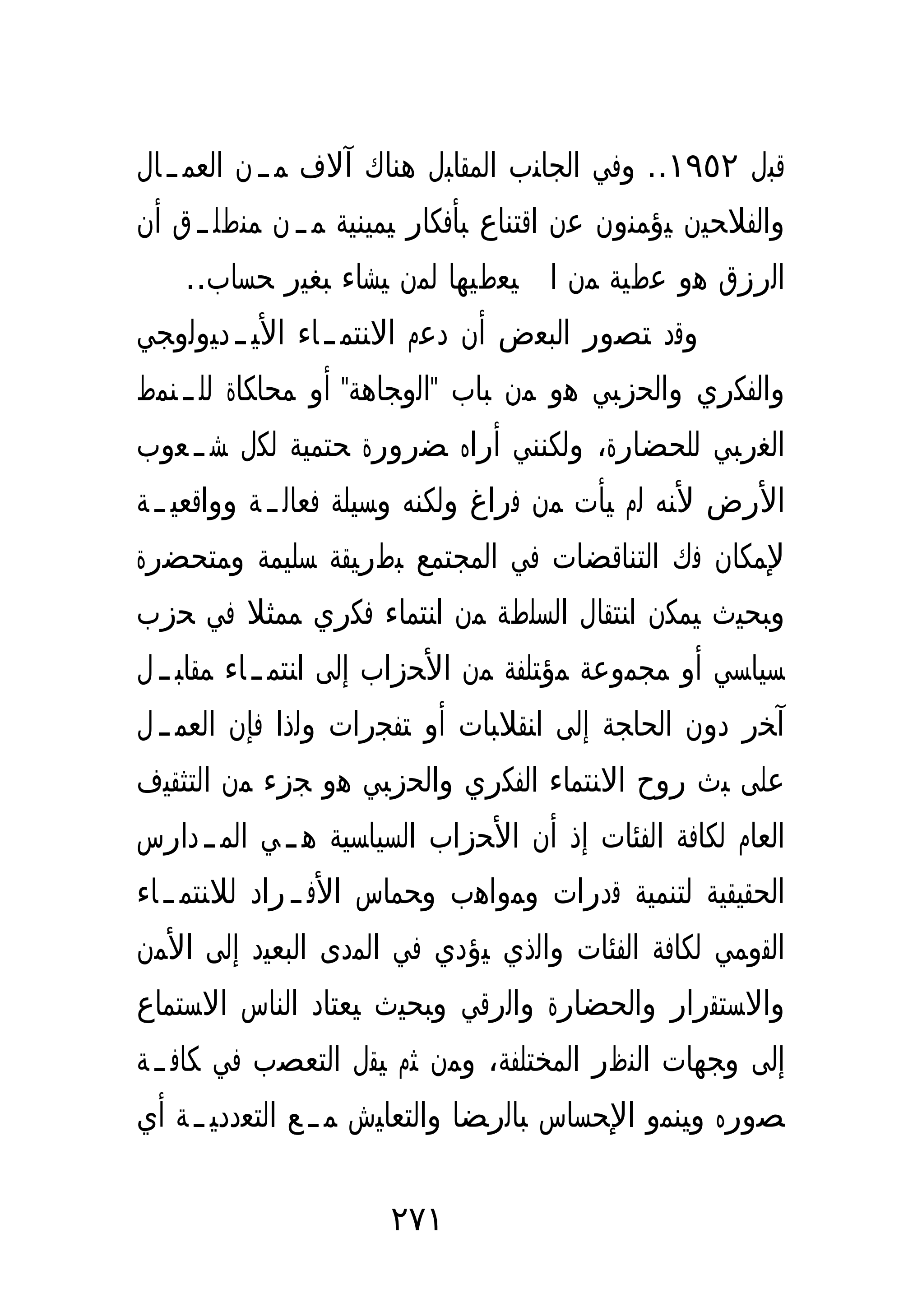
فكانت نقابة المهندسين مركز التجمع للأنشطة السياسية لكافة النقابات والتيارات السياسية الأخرى من منطلق أنه لم يكـن مسموحا أن يجري أي تحرك سياسي - في تلك الفتـرة - خارج نطاق التنظيم السياسي الوحيد أعني بـذلك "الاتحـاد الاشتراكي العربي". وحيث كان الأستاذ إبراهيم شـكري - زعيم حزب العمل حاليا - أمين نشاط المهنيين في الاتحـاد الاشتراكي.

* * *

وأعتقد أن الانتمـاء الأيـديولوجي أو الحزبـي أو الفكري أرقى كثيرا من الانتماءات الأخرى التي سبق ذكرها، فمن غير الممكن للفرد أن يختار أسرته أو بلدتـه أو إقليمـه ولكن مع النضج يتم التلاقي على أساس فكري أو عقائدي أو أيديولوجي، ومع النمو الديمقراطي وازدياد المسطح المتـاح واستقرار الأوضاع والممارسات في مجال الحريات العامـة لسنوات طويلة، (بحيث يصبح الرجوع عنها أمرا صـعبا)، يزداد عدد التنظيمات التي تتكون على أسس فكرية.

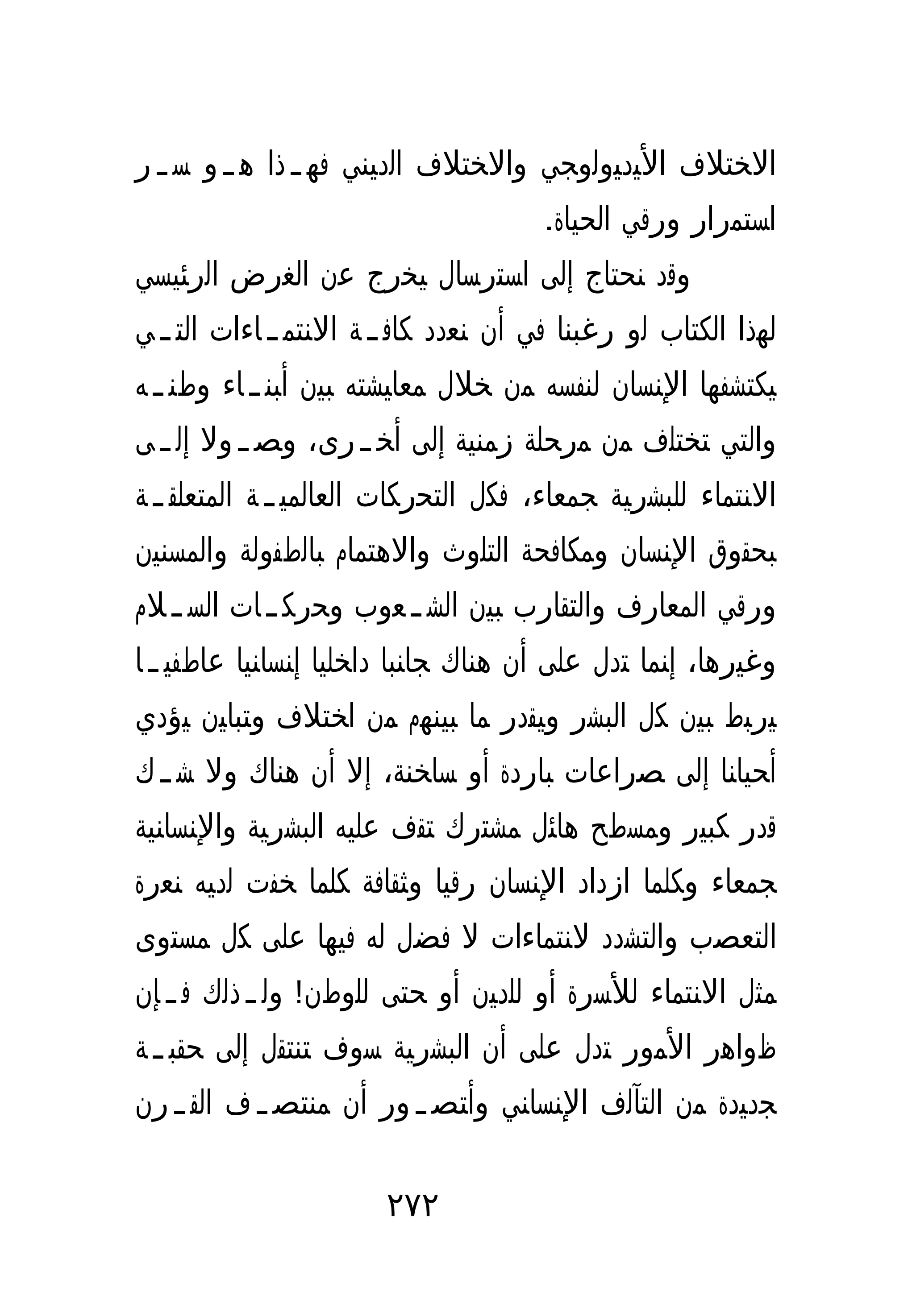
ومن هنا كانت أهمية الدعوة لتخفيف القيـود علـى إنشاء الأحزاب، رغم أن كثيرين لا زالوا متخوفين من رفـع القيود على إنشاء الأحزاب على أساس ديني.

أما الأحزاب على أسس طبقية فهي موجودة بالفعـل فاليسار يدافع عن الطبقات الفقيرة والمقهورة بشكل عام وعن طبقة العمال والفلاحين بشكل أكثر تحديدا، أمـا الأحـزاب الليبرالية فإنها تدافع عن مصالح الطبقة الرأسمالية الوطنيـة وهكذا، ولكن أن يتكون حزب على أساس طبقي بمعنـى أن تقتصر عضوية الحزب على العمال وحدهم أو على مـلاك الأرض الزراعية وحدهم أو على أصحاب عمارات التمليـك وحدهم. أو أصحاب الشركات الصناعية أو التجارية وحدهم وما إلى ذلك، فهو إجراء - حتى وإن رفعت عنـه القيـود القانونية أو التشريعية - سيولد أحزابا طبقيـة هزيلـة إذ أن قيام أي حزب يعتمد أساسا على وجود برنامج (ربما يكـون مشتقا من فلسفة أو أيديولوجية معينة) ولكن العضوية لا بـد أن تكون مفتوحة لكل الشعب، فهناك كثير من أعضاء حزب "التجمع اليساري" ينتمون اقتصاديا إلى الطبقات الثرية وربما انحدر البعض منهم من أصول إقطاعية من زمن يمتد إلى ما



قبل ١٩٥٢.. وفي الجانب المقابل هناك آلاف من العمال والفلاحين يؤمنون عن اقتناع بأفكار يمينية من منطلق أن الرزق هو عطية من ا   يعطيها لمن يشاء بغير حساب..

وقد تصور البعض أن دعم الانتماء الأيديولوجي والفكري والحزبي هو من باب "الوجاهة" أو محاكاة للنمط الغربي للحضارة، ولكنني أراه ضرورة حتمية لكل شعوب الأرض لأنه لم يأت من فراغ ولكنه وسيلة فعالة وواقعية لإمكان فك التناقضات في المجتمع بطريقة سليمة ومتحضرة وبحيث يمكن انتقال السلطة من انتماء فكري ممثلا في حزب سياسي أو مجموعة مؤتلفة من الأحزاب إلى انتماء مقابل آخر دون الحاجة إلى انقلابات أو تفجرات ولذا فإن العمل على بث روح الانتماء الفكري والحزبي هو جزء من التثقيف العام لكافة الفئات إذ أن الأحزاب السياسية هي المدارس الحقيقية لتنمية قدرات ومواهب وحماس الأفراد للانتماء القومي لكافة الفئات والذي يؤدي في المدى البعيد إلى الأمن والاستقرار والحضارة والرقي وبحيث يعتاد الناس الاستماع إلى وجهات النظر المختلفة، ومن ثم يقل التعصب في كافة صوره وينمو الإحساس بالرضا والتعايش مع التعددية أي

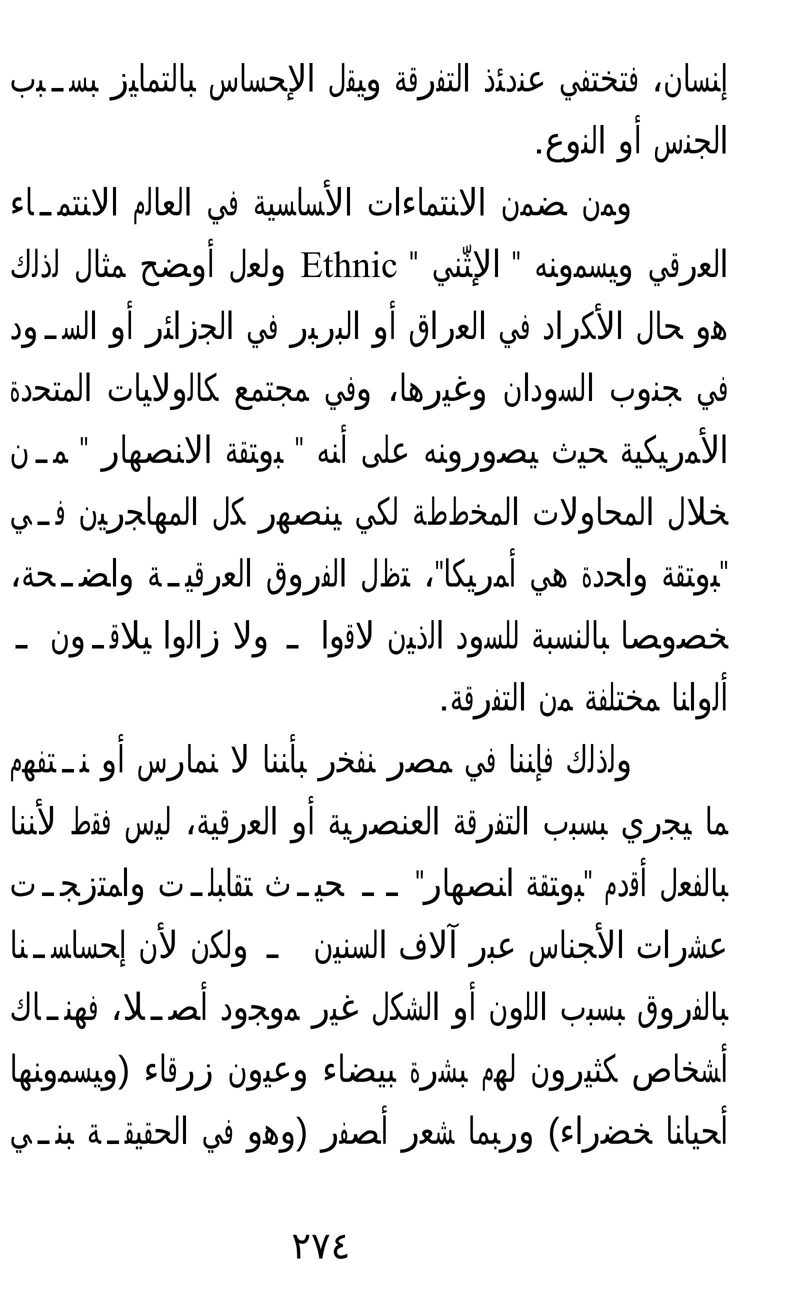


الاختلاف الأيديولوجي والاختلاف الديني فهـذا هـو سـر استمرار ورقي الحياة.

وقد نحتاج إلى استرسال يخرج عن الغرض الرئيسي لهذا الكتاب لو رغبنا في أن نعدد كافـة الانتمـاءات التـي يكتشفها الإنسان لنفسه من خلال معايشته بين أبنـاء وطنـه والتي تختلف من مرحلة زمنية إلى أخـرى، وصـولا إلـى الانتماء للبشرية جمعاء، فكل التحركات العالميـة المتعلقـة بحقوق الإنسان ومكافحة التلوث والاهتمام بالطفولة والمسنين ورقي المعارف والتقارب بين الشـعوب وحركـات السـلام وغيرها، إنما تدل على أن هناك جانبا داخليا إنسانيا عاطفيـا يربط بين كل البشر ويقدر ما بينهم من اختلاف وتباين يؤدي أحيانا إلى صراعات باردة أو ساخنة، إلا أن هناك ولا شـك قدر كبير ومسطح هائل مشترك تتفق عليه البشرية والإنسانية جمعاء وكلما ازداد الإنسان رقيا وثقافة كلما خفت لديه نعرة التعصب والتشدد لانتماءات لا فضل له فيها على كل مستوى مثل الانتماء للأسرة أو للدين أو حتى للوطن! ولـذلك فـإن ظواهر الأمور تدل على أن البشرية سوف تنتقل إلى حقبـة جديدة من التآلف الإنساني وأتصـور أن منتصـف القـرن

الحادي والعشرين سوف يشهد نقطة تحول جديدة في العـالم بحيث تصبح الحروب العالمية غير ممكنة وتوضع القنابـل الذرية في المتاحف كما تختفي العقوبات البدنية ويقل كثيـرا ممارسة التعذيب في السجون وتخف حدة التعصب الأعمـى للأديان أو الأيديولوجيات وحتى للأوطان.

هناك تباين وانتماء آخر بسبب النـوع أي الجـنس Gender أي وفيما إذا كان الإنسان ذكرا أم أنثى، ولذلك تجد ـ في أي جلسة أو احتفال بين الأصدقاء ـ كثيـرا ـ مـا يجلس النساء سويا يناقشن مشاكل الإنسان الداخلية والعاطفية "ومسك سيرة الناس"، ويتجمع الرجال ليناقشوا أحوال الحيـاة السياسية وهي كثيرا ما تكون أحاديث دون فاعليـة ومجـرد ثرثرة، ومن هنا ظهرت حركات "تحرر المرأة" ولكن المؤكد هو أن المرأة لن تحصل على حقوقها في أي مجتمع بمفردها ودون أن يشاركها في ذلك الرجل المتحرر، وقد تلاحظ أنـه كلما ارتقى المجتمع كلما تمكنت المرأة من الحصـول علـى وضع متكافئ للرجل وكذلك كلما ناضلت المرأة والمجتمـع من أجل حقوق أكثر للمرأة كلما ارتقى المجتمع ولا بد من أن يغير الرجل فكره ونظرته إلى المرأة بأن تتحول من أنثى إلى



إنسان، فتختفي عندئذ التفرقة ويقل الإحساس بالتمايز بسـبب الجنس أو النوع.

ومن ضمن الانتماءات الأساسية في العالم الانتمـاء العرقي ويسمونه " الإثّني " Ethnic ولعل أوضح مثال لذلك هو حال الأكراد في العراق أو البربر في الجزائر أو السـود في جنوب السودان وغيرها، وفي مجتمع كالولايات المتحدة الأمريكية حيث يصورونه على أنه " بوتقة الانصهار " مـن خلال المحاولات المخططة لكي ينصهر كل المهاجرين فـي "بوتقة واحدة هي أمريكا"، تظل الفروق العرقيـة واضـحة، خصوصا بالنسبة للسود الذين لاقوا ـ ولا زالوا يلاقـون ـ ألوانا مختلفة من التفرقة.

ولذلك فإننا في مصر نفخر بأننا لا نمارس أو نـتفهم ما يجري بسبب التفرقة العنصرية أو العرقية، ليس فقط لأننا بالفعل أقدم "بوتقة انصهار" ـ ـ حيـث تقابلـت وامتزجـت عشرات الأجناس عبر آلاف السنين ـ ولكن لأن إحساسـنا بالفروق بسبب اللون أو الشكل غير موجود أصـلا، فهنـاك أشخاص كثيرون لهم بشرة بيضاء وعيون زرقاء (ويسمونها أحيانا خضراء) وربما شعر أصفر (وهو في الحقيقـة بنـي

فاتح أو ذهبي) وهناك في الجانب المقابل أشخاص سـمر أو سود البشرة والحدقة والشعر مثل أهـالي أسـوان، إن هـذا التباين في ألوان البشرة ليس موجودا فقط على طول الـبلاد وعرضها ولكنه موجود كذلك في العائلة الواحدة، فالتفرقـة العنصرية غير معروفة في مصر ولذا فإننا نـدهش عنـدما نسمع عن " الهابرتايد " أي الاضطهاد بسبب اللون الأسود أو العرق الزنجي في جنوب أفريقيا أو أمريكا وكيف يتحول هذا الصراع إلى حروب أهلية بين بعض البلاد.

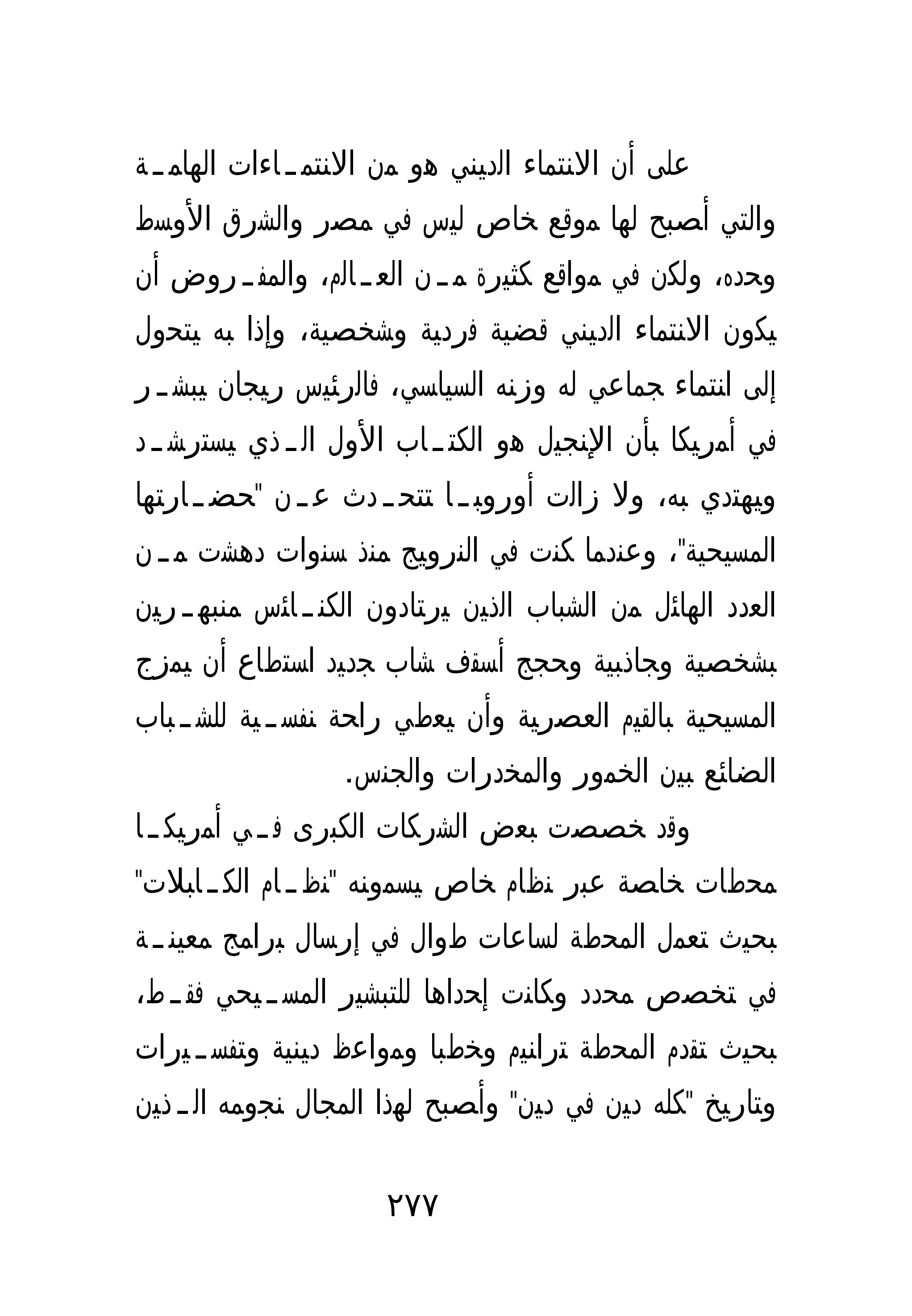
وتختلف الشعوب في إحساسها بالانتماء إلـى جهـة العمل ففي اليابان والصين وبلدان الشـرق الأقصـى تقاليـد عريقة "تربط المواطن بجهة عمله" أي بالمنظمة التي ينتمـي إلليها سواء أكانت حكومية أم شركة قطاع خـاص، ويتمثـل ذلك في طول مدة الخدمة وبحيث إذا التحق بهـا الشـاب أو الفتاة ظل في خدمتها حتى سن الإحالة إلى المعـاش، كمـا يقضي الموظف طوال اليوم في العمل الرسمي لمزيـد مـن الإنجاز، دون انتظار لمقابل، وكما سمعت من مسئولين فـي اليابان بتفوق الانتماء إلى جهة العمل على الانتماء الأسري،

ويقال إن ذلك أحد أسباب تفوق اليابان فـي كافـة مجـالات الإنتاج.

أما في أمريكا فلها منطق آخر، فـالعرف العـام أن عقود العمل كلها لمدة محددة سلفا كأن تكون لمـدة عـام أو أكثر وحتى أساتذة الجامعات أو الوظائف الحكومية فعقودهم تكون لسنوات محدودة، قد تجدد أو لا تجدد، ولذلك فالطموح الشخصي مقرون بالتنقل من وظيفة إلى أخرى ومن ولايـة إلى ولاية ولذلك فإن "الفردية" و"الأنا" في تضخم، وقد أمكـن من خلال هذا النظام إيجاد المنافسة الشـديدة بـين البشـر والأفراد وأن تقدم المجتمع يتحقق من خلال هـذا التنـافس الشديد حتى أصبحت أمريكا هي طموح وأمل كل المغامرين في العالم فهذه هي فلسفة النظام الرأسمالي.

وفي مصر الولاء للدولة، والأمان في العمـل - أي عمل - في حضن الحكومة ومنذ قرون طويلة ومنـذ عهـد الفراعنة سيطرة الدولة على أنشطة كثيرة حتى ظهر المثـل الشعبي الذي يقول "إن فاتك الميري اتمرمغ في ترابه".

* * *



على أن الانتماء الديني هو من الانتماءات الهامة والتي أصبح لها موقع خاص ليس في مصر والشرق الأوسط وحده، ولكن في مواقع كثيرة من العالم، والمفروض أن يكون الانتماء الديني قضية فردية وشخصية، وإذا به يتحول إلى انتماء جماعي له وزنه السياسي، فالرئيس ريجان يبشر في أمريكا بأن الإنجيل هو الكتاب الأول الذي يسترشد ويهتدي به، ولا زالت أوروبا تتحدث عن "حضارتها المسيحية"، وعندما كنت في النرويج منذ سنوات دهشت من العدد الهائل من الشباب الذين يرتادون الكنائس منبهرين بشخصية وجاذبية وحجج أسقف شاب جديد استطاع أن يمزج المسيحية بالقيم العصرية وأن يعطي راحة نفسية للشباب الضائع بين الخمور والمخدرات والجنس.

وقد خصصت بعض الشركات الكبرى في أمريكا محطات خاصة عبر نظام خاص يسمونه "نظام الكابلات" بحيث تعمل المحطة لساعات طوال في إرسال برامج معينة في تخصص محدد وكانت إحداها للتبشير المسيحي فقط، بحيث تقدم المحطة ترانيم وخطبا ومواعظ دينية وتفسيرات وتاريخ "كله دين في دين" وأصبح لهذا المجال نجومه الذين

يحصلون على "الملايين" لأن لهم أتباعـا ومعجبـين أيضـا "بالملايين" إلى حد أن أحدهم قد أقدم ليكون مرشحا للحـزب الجمهوري للانتخابات التي كانت تجري فـي نـوفمبر ٨٨، وحمدا أنه قد خرج من الحلبة وإلا كنا في كوكـب آخـر غير الذي نعرفه.

ومنذ أن زرعت إسرائيل في المنطقة، خصوصا بعد هزيمة ١٩٦٧، اتجه الأفراد والجماعات إلى أماكن العبـادة بشكل متدفق ونما الشعور الـديني فـي مصـر (إسـلاميا ومسيحيا) وسرت ذات التوجهات إلى كافـة بلـدان الشـرق الأوسط من المغرب حيث مزج الملـك الحسـن حضـارة أوروبا بالإسلام إلى إيران شرقا حيث الحكومـة تحـاول أن تصدر الثورة الدينية إلى كل مكان ومن لبنان شـمالا حيـث كانت الحرب الطائفية لسنوات إلى السودان حيث حرب دينية ـ طائفية ـ عنصرية ـ عرقية ومن غيـر المعقـول أن لا يصيب مصر الرذاذ فهي تقع في قلب المنطقة.

وكان من مظاهر تعاظم ونمو الانتماء الديني أن زاد عدد المصلين الذين يؤدون العبادات في الجوامع والكنـائس بشكل هائل، وأصبحت الصلاة في الميادين العامة أيام عيـد

الفطر وعيد الأضحى من الظواهر التي تبهج نفس المتدينين وفي ذات الوقت تضع قوات الأمن في حالة تأهب واستعداد.

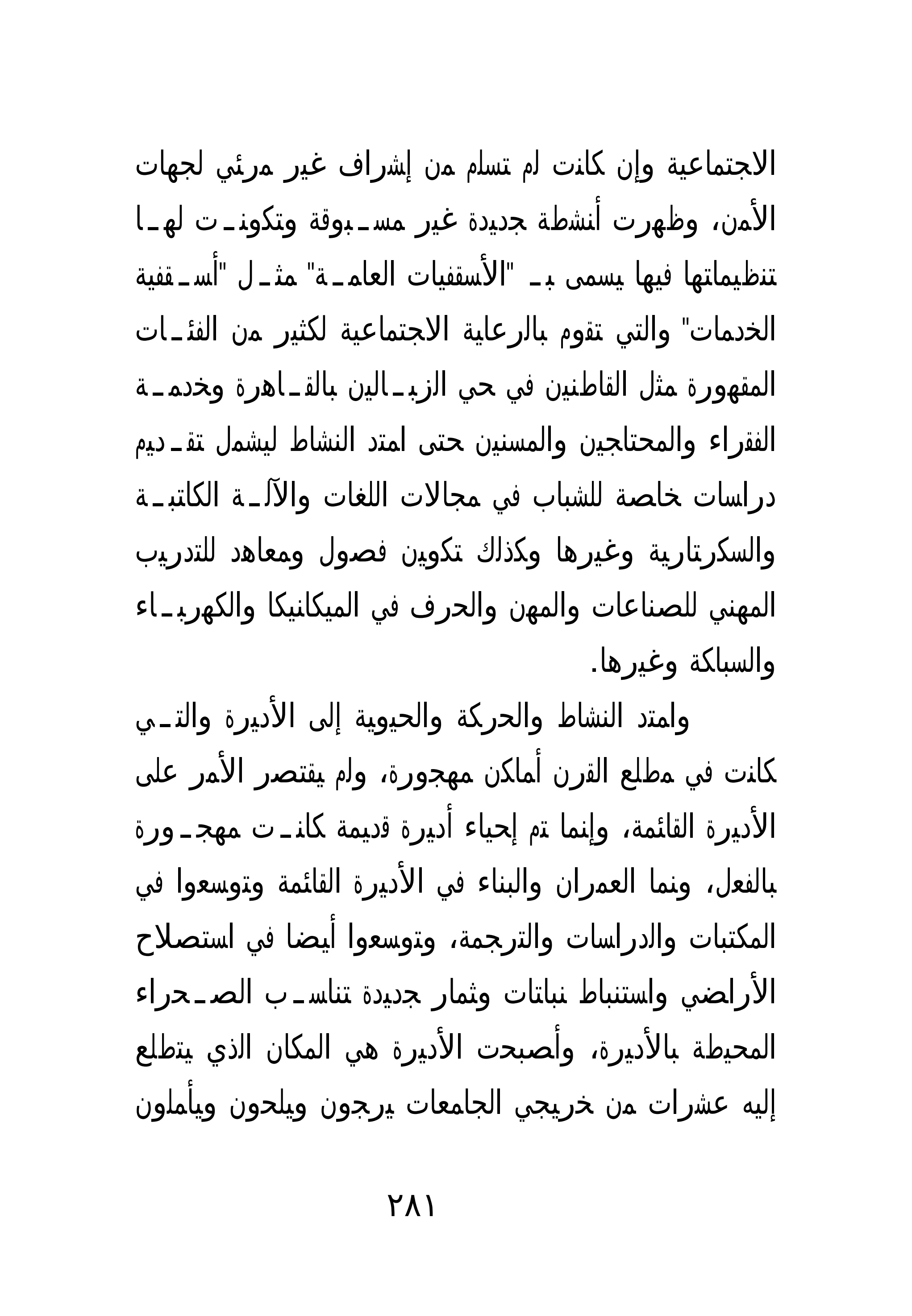
ثم انتشرت الكتب والثقافة الدينية بشكل واسع لـدى المسلمين والأقباط، وتأسست دور نشر جديدة متخصصة في المطبوعات الدينية، وتباع هذه الكتب بأسعار زهيـدة تقـل أحيانا عن ثمن الورق.

وكان طبيعيا أن تلهث الدولـة وراء هـذا الزحـف الجديد، فاحتلت البرامج الدينية ساعات طوال مـن إرسـال الإذاعة والتليفزيون وأصبح لهذه البرامج نجومهـا وأئمتهـا تشبها بالحال في أمريكا، ورغم تضاعف البـرامج الدينيـة مرات عديدة ظلت البرامج المقابلة التـي تخـص الأقبـاط مقصورة على برنامج واحد يذاع صباح كل أحد لكي تنقـل فقرات من القداس وجزءا من العظة لمدة جزء من السـاعة، وهي ممارسات موجودة ولم تتغير بالزيادة أو النقصان منـذ عشرات السنين عندما كانت هناك برامج إذاعـة مسـموعة فقط.

وحتى الصحافة أصابتها الحمى فظهـرت صـفحات كاملة من كافة الجرائد الحزبية والقومية تنشر الفكر الـديني،

وزادت الجرعات التي تدعو إلى التدين ونشر الفضائل فقط، فامتلأ الجو كله بمناخ ديني هائل غير مسبوق في مصر منذ قرون. وتكونت في القمة "شركات توظيف الأمـوال" تحـت شعارات دينية ثم نشطت الأحزاب والجماعـات والهيئـات الإسلامية وارتكزت كل تلك التنظيمات على جماعات متشددة من الشباب واختلطت الأوراق بـين كـل تلـك الجماعـات والمجموعات والتنظيمات.

وكان طبيعيا أن ينعكس كل ذلـك علـى "الأقبـاط" وكانت البداية تحت شعار "نهضة روحية" من الوعظ وزيادة عدد الكنائس ثم اشتد الحماس وتجسد في رسامة عشرات من الأساقفة الشبان في كثير من المحافظات، وكذلك رسامة عدد هائل من الكهنة المثقفين من خريجي الجامعات، وقد أثر ذلك كله على زيادة الأنشطة داخل الكنـائس ولـم يعـد الأمـر مقصورا على الصلاة أيام الأحد والجمعة كما كـان الحـال حتى أواخر الستينيات، وإنما امتد وتوسـع النشـاط ليشـمل الأطفال والشباب فيما يسمى "حركة مدارس الأحـد" والتـي تحول اسمها ليصبح "التربية الكنسية" حتى تكون جزءا مـن تنظيمات الكنيسة فـلا تخضـع لإشـراف وزارة الشـئون



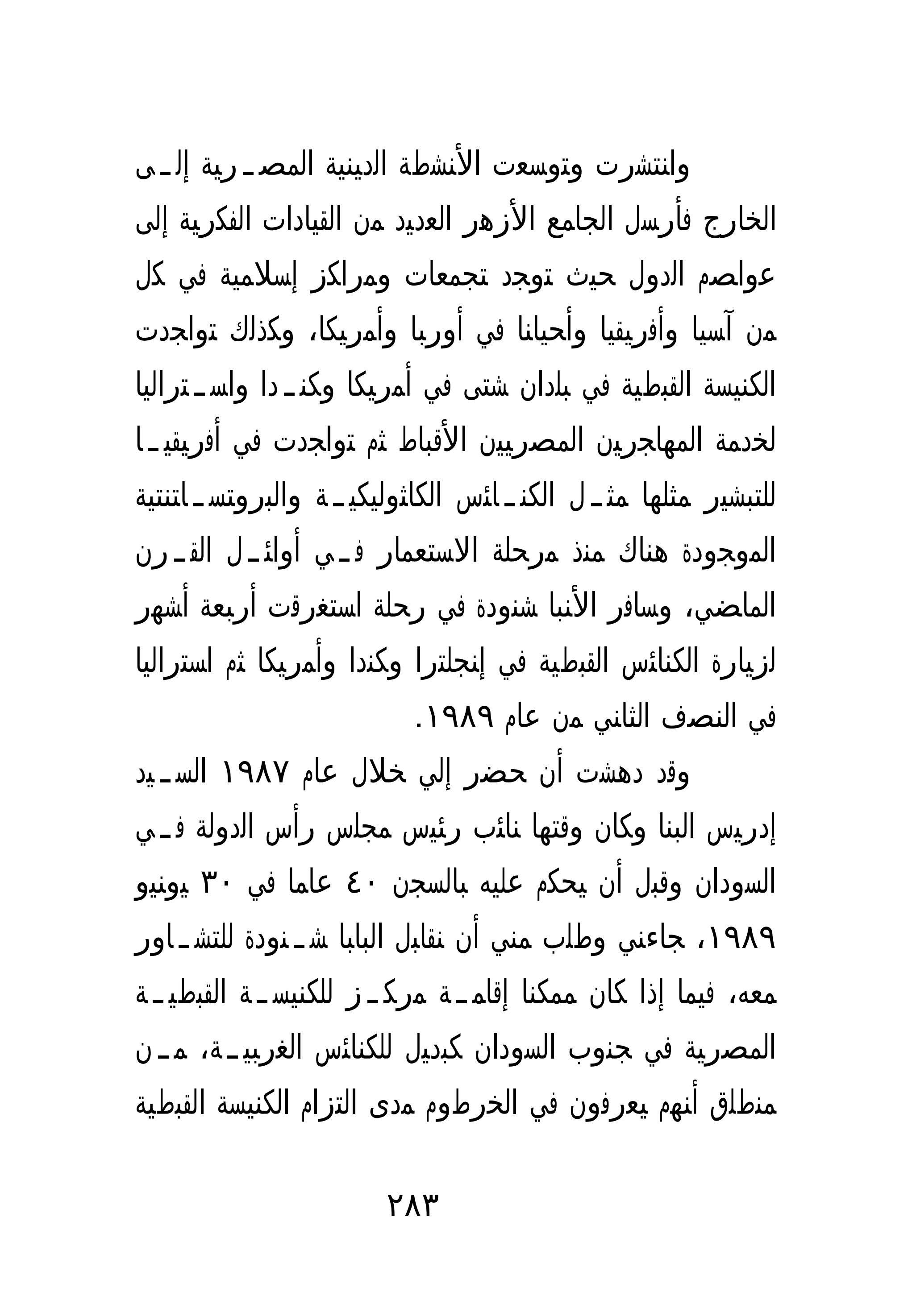
الاجتماعية وإن كانت لم تسلم من إشراف غير مرئي لجهات الأمن، وظهرت أنشطة جديدة غير مسبوقة وتكونت لها تنظيماتها فيها يسمى بـ "الأسقفيات العامة" مثل "أسقفية الخدمات" والتي تقوم بالرعاية الاجتماعية لكثير من الفئات المقهورة مثل القاطنين في حي الزبالين بالقاهرة وخدمة الفقراء والمحتاجين والمسنين حتى امتد النشاط ليشمل تقديم دراسات خاصة للشباب في مجالات اللغات والآلة الكاتبة والسكرتارية وغيرها وكذلك تكوين فصول ومعاهد للتدريب المهني للصناعات والمهن والحرف في الميكانيكا والكهرباء والسباكة وغيرها.

وامتد النشاط والحركة والحيوية إلى الأديرة والتي كانت في مطلع القرن أماكن مهجورة، ولم يقتصر الأمر على الأديرة القائمة، وإنما تم إحياء أديرة قديمة كانت مهجورة بالفعل، ونما العمران والبناء في الأديرة القائمة وتوسعوا في المكتبات والدراسات والترجمة، وتوسعوا أيضا في استصلاح الأراضي واستنباط نباتات وثمار جديدة تناسب الصحراء المحيطة بالأديرة، وأصبحت الأديرة هي المكان الذي يتطلع إليه عشرات من خريجي الجامعات يرجون ويلحون ويأملون

أن "ينالوا البركة" بالموافقة على انضمامهم إلى "سلك الرهبنة" والذي بمقتضاه يتبتل الراهب ويعيش دون زواج ويتفرغ تماما للعمل الديني، ووفق التقاليد الكنسية يصلون عليه "صلاة الموتى" عندما يلبسونه "إسكيم الرهبان" تعبيرا عن انقطاع صلته بعائلته وعالمه القديم ودخوله عالما جديدا هو عالم الدين والتقشف والعبادة إلى أن يتم اختياره أسقفا فيعود مرة أخرى إلى الحياة المدنية ويمارس نشاطه بين البشر العاديين.

وامتد النشاط الرهباني ليشمل حركة "الرهبنة بين الآنسات المتبتلات" وأغلبهن من خريجات الجامعات أيضا وشاهدت بنفسي معاناة بعض العائلات القبطية نتيجة إصرار بناتها (أو أولادها) على دخول سلك الرهبنة ورفض عروض الزواج أو العمل في وظائف ممتازة.

وكان طبيعيا مع هذا الرواج الديني الكاسح في كل من الجامع والكنيسة وفي ضوء أن منطقة الشرق الأوسط على فوهة بركان سياسي يتخذ الدين مظهرا للصراع، أن اتجهت بعض الهيئات الداخلية والخارجية لتعضيد هذا التيار أو ذاك.



وانتشرت وتوسعت الأنشطة الدينية المصـرية إلـى الخارج فأرسل الجامع الأزهر العديد من القيادات الفكرية إلى عواصم الدول حيث توجد تجمعات ومراكز إسلامية في كل من آسيا وأفريقيا وأحيانا في أوربا وأمريكا، وكذلك تواجدت الكنيسة القبطية في بلدان شتى في أمريكا وكنـدا واسـتراليا لخدمة المهاجرين المصريين الأقباط ثم تواجدت في أفريقيـا للتبشير مثلها مثـل الكنـائس الكاثوليكيـة والبروتسـتانتية الموجودة هناك منذ مرحلة الاستعمار فـي أوائـل القـرن الماضي، وسافر الأنبا شنودة في رحلة استغرقت أربعة أشهر لزيارة الكنائس القبطية في إنجلترا وكندا وأمريكا ثم استراليا في النصف الثاني من عام ١٩٨٩.

وقد دهشت أن حضر إلي خلال عام ١٩٨٧ السـيد إدريس البنا وكان وقتها نائب رئيس مجلس رأس الدولة فـي السودان وقبل أن يحكم عليه بالسجن ٤٠ عاما في ٣٠ يونيو ١٩٨٩، جاءني وطلب مني أن نقابل البابا شـنودة للتشـاور معه، فيما إذا كان ممكنا إقامـة مركـز للكنيسـة القبطيـة المصرية في جنوب السودان كبديل للكنائس الغربيـة، مـن منطلق أنهم يعرفون في الخرطوم مدى التزام الكنيسة القبطية

بالخط الوطني وإنها - إذا قدر لها أن تحل محـل الكنـائس الغربية - ستكون عونا للحكومة السودانية على إنهاء الحرب الأهلية في الجنوب وستعمل على المعايشـة بـين الأديـان والأجناس مثلما هو الحال في مصر.

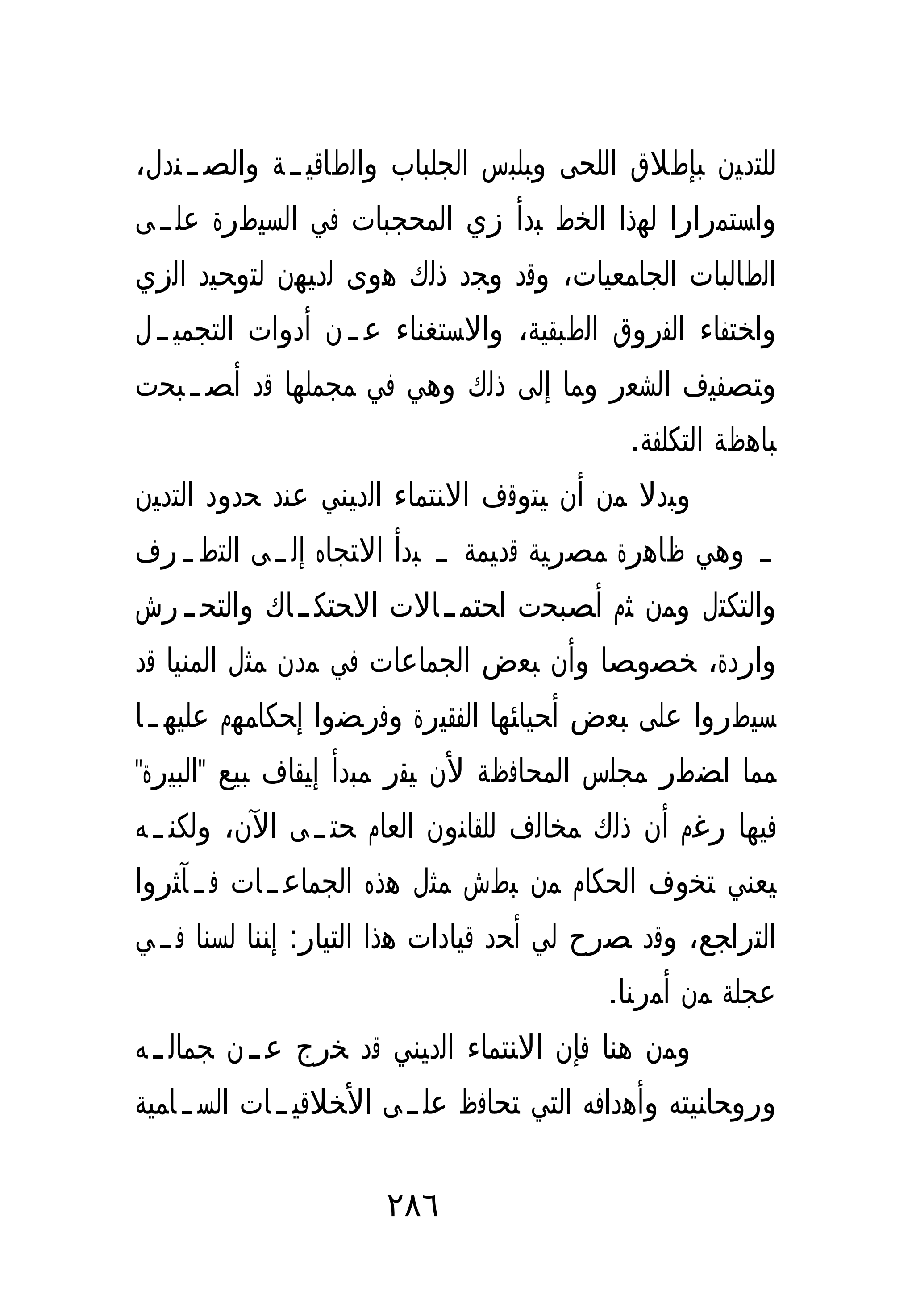
وكلما زاد النشاط الديني في مصر زاد احتمال وجود تصادم بين الأنشطة الدينية الإسـلامية والأنشـطة الدينيـة المسيحية، فمثلا إذا رغب الأقباط في إنشاء كنيسة ثم قـاموا بشراء قطعة الأرض، فإن جماعات مقابلـة تقـوم بسـرعة وتجمع المال اللازم لإنشاء مسجد أهلي أو حتى مصلّى بسيط بالقرب من ذات الموقع وبحيث يكون إنشاء الكنيسة مستحيلا وفق القواعد المعمول بها منذ سنوات طويلة والتي لا تعطي ترخيص لبناء كنيسة إذا كانت على مقربة من مسجد.

ولذا فإن الأقباط يضطرون إلى الحيلـة فـي بنـاء الكنائس بأن يشتروا قطعة أرض فضاء ويرخصونها " عمارة سكنية عادية " وبعد الحصول على الترخيص يقومون بإنشاء سور من الخشب أو من المباني على الواجهات وتبدأ عمليات البناء وبعد علوه فوق سطح الأرض وفوق مستوى الأسـوار يتضح أنه كنيسة وليست عمارة، وعندئذ يصير الصراع مع

السلطة من أجل الحصول على ما يسمى بالقرار الجمهوري اللازم لإنشاء الكنيسة وتضطر الدولة تحت ضغط الأهـالي والأمر الواقع أن تستصدر القـرار الجمهـوري، اسـتيفاء للشكل.

على أن المنافسة والصراع ليس قاصرا على بنـاء المساجد والكنائس فحسب وإنما تمتد إلى أنواع أخـرى مـن النشاط الخيري أو الاجتماعي، فالمنافسة شديدة بالذات فـي بعض مدن الصعيد حيث الوجود القبطي ملحوظ، ففي مجال بناء المستشفيات مثلا قام أحد الأساقفة الشبان (وكانت مهنته الأصلية طبيب) والذي رسم في أحد مراكز محافظة المنيـا، وسخّر كل الموارد المالية للأسقفية لبناء مستشـفى انفتـاحي كبير لا يتفق مع هذه المنطقة ويقال إنه قد اسـتعان بمـوارد مالية من الخارج.

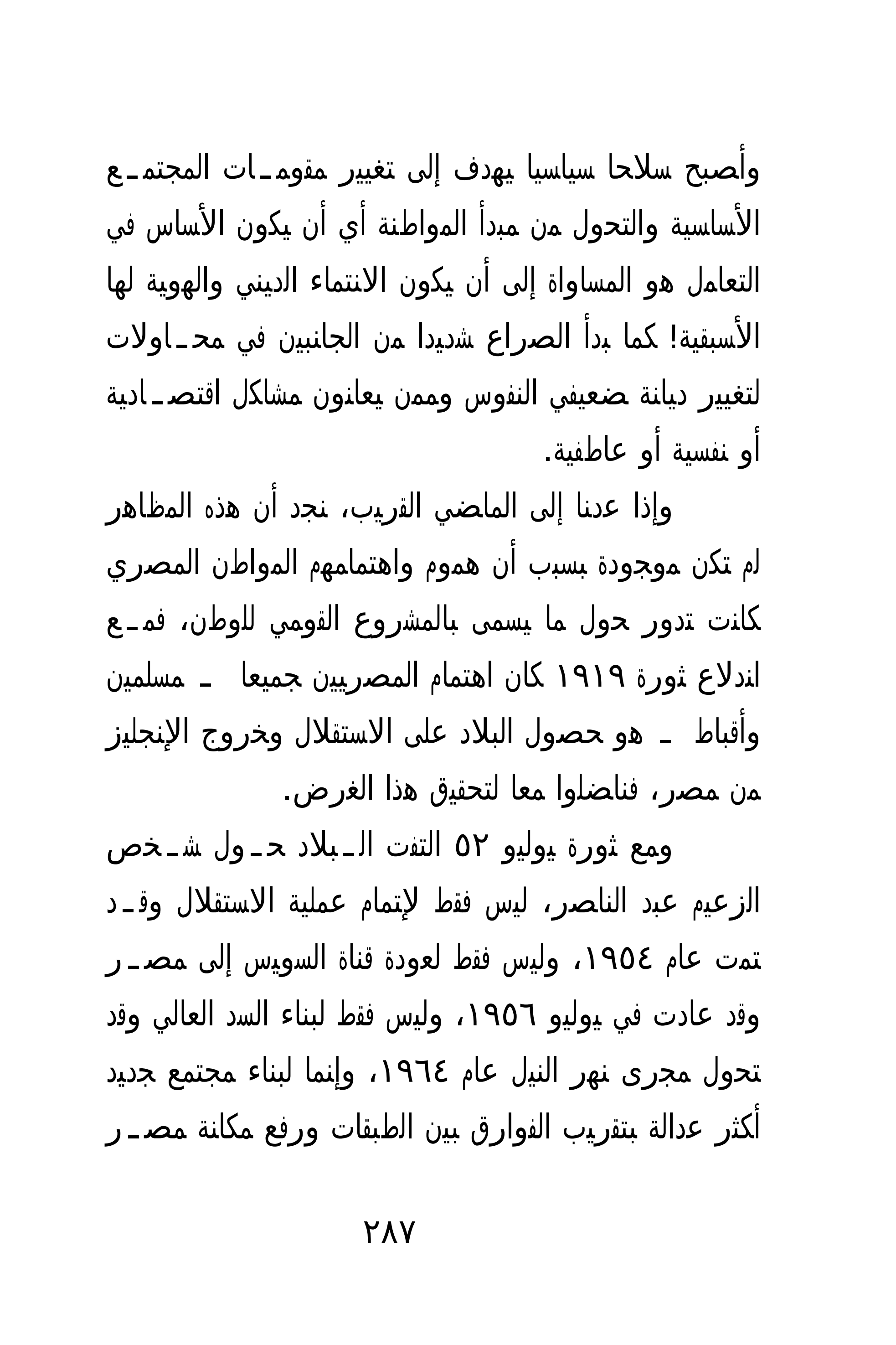
وفي مجال كسب الشباب، قامت الجماعات الإسلامية ـ بدعوى الدين بتجنيد آلاف الطلبة في الجامعات وقـدمت لهم خدمات هائلة، ليس فقط في مجال طبع الكتب والمذكرات بأسعار رمزية تقل عن التكلفة، ولكن بتقديم مزيد من العون في السكن والزواج إذا هم تمسكوا بكافة المظاهر الخارجيـة



للتدين بإطلاق اللحى وبلبس الجلباب والطاقيـة والصـندل، واستمرارا لهذا الخط بدأ زي المحجبات في السيطرة علـى الطالبات الجامعيات، وقد وجد ذلك هوى لديهن لتوحيد الزي واختفاء الفروق الطبقية، والاستغناء عـن أدوات التجميـل وتصفيف الشعر وما إلى ذلك وهي في مجملها قد أصـبحت باهظة التكلفة.

وبدلا من أن يتوقف الانتماء الديني عند حدود التدين ـ وهي ظاهرة مصرية قديمة ـ بدأ الاتجاه إلـى التطـرف والتكتل ومن ثم أصبحت احتمـالات الاحتكـاك والتحـرش واردة، خصوصا وأن بعض الجماعات في مدن مثل المنيا قد سيطروا على بعض أحيائها الفقيرة وفرضوا إحكامهم عليهـا مما اضطر مجلس المحافظة لأن يقر مبدأ إيقاف بيع "البيرة" فيها رغم أن ذلك مخالف للقانون العام حتـى الآن، ولكنـه يعني تخوف الحكام من بطش مثل هذه الجماعـات فـآثروا التراجع، وقد صرح لي أحد قيادات هذا التيار: إننا لسنا فـي عجلة من أمرنا.

ومن هنا فإن الانتماء الديني قد خرج عـن جمالـه وروحانيته وأهدافه التي تحافظ علـى الأخلاقيـات السـامية



وأصبح سلاحا سياسيا يهدف إلى تغيير مقومـات المجتمـع الأساسية والتحول من مبدأ المواطنة أي أن يكون الأساس في التعامل هو المساواة إلى أن يكون الانتماء الديني والهوية لها الأسبقية! كما بدأ الصراع شديدا من الجانبين في محـاولات لتغيير ديانة ضعيفي النفوس وممن يعانون مشاكل اقتصـادية أو نفسية أو عاطفية.

وإذا عدنا إلى الماضي القريب، نجد أن هذه المظاهر لم تكن موجودة بسبب أن هموم واهتمامهم المواطن المصري كانت تدور حول ما يسمى بالمشروع القومي للوطن، فمـع اندلاع ثورة ١٩١٩ كان اهتمام المصريين جميعا - مسلمين وأقباط - هو حصول البلاد على الاستقلال وخروج الإنجليز من مصر، فناضلوا معا لتحقيق هذا الغرض.

ومع ثورة يوليو ٥٢ التفت الـبلاد حـول شـخص الزعيم عبد الناصر، ليس فقط لإتمام عملية الاستقلال وقـد تمت عام ١٩٥٤، وليس فقط لعودة قناة السويس إلى مصـر وقد عادت في يوليو ١٩٥٦، وليس فقط لبناء السد العالي وقد تحول مجرى نهر النيل عام ١٩٦٤، وإنما لبناء مجتمع جديد أكثر عدالة بتقريب الفوارق بين الطبقات ورفع مكانة مصـر

بين الأمم من خلال الانتماء العربي الأفريقي ومجموعة دول عدم الانحياز، وشعر كل مصري - مسلم وقبطي - أن انتماءه المصري موضع احترام في كل بقعة من العالم إلى أن كسرت القومية العربية في يونيو ١٩٦٧.

ومنذ ذلك التاريخ (أي يونيو ١٩٦٧) وأحوالنا الطائفية ليست على ما يرام ولكن بفضل الكثرة من العقلاء تمكنت مصر من عبور فترة السادات وأحداث الخانكة عام ١٩٧٢ وأحداث سمالوط عام ١٩٧٩ ثم أحداث الزاوية الحمراء عام ١٩٨١، وكان قمة المأساة حركة الاعتقالات الشهيرة سبتمبر ١٩٨١.

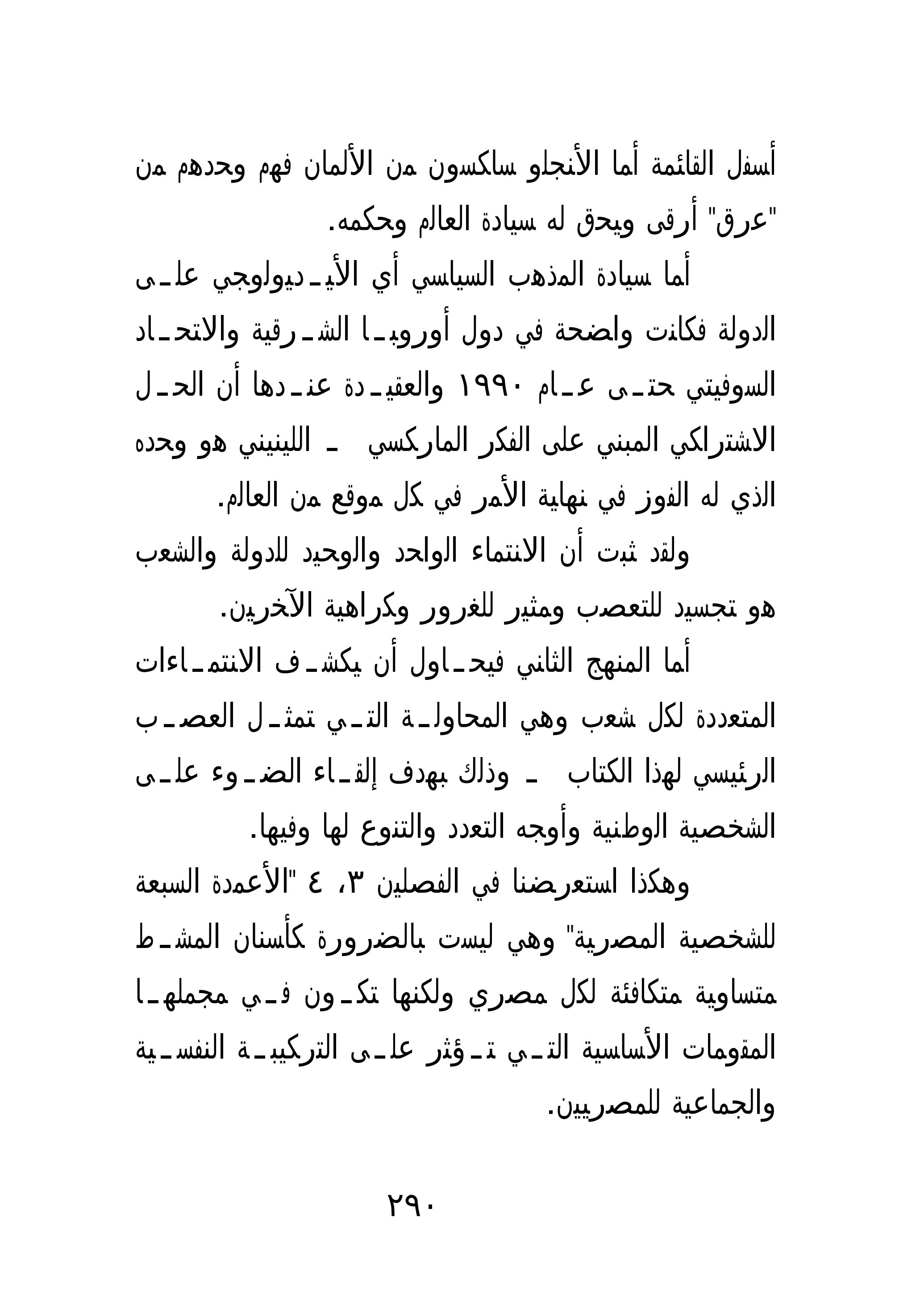
ومن هنا ونحن نضع أسس دولة أكثر استقرارا وتعتمد على مؤسسات أكثر من اعتمادها على أفراد، وجب أن نوضح أن الشرخ الذي حدث منذ أوائل السبعينيات لن يلتئم من تلقاء ذاته ولكن يحتاج إلى تضافر قوى كثيرة لإحياء روح الوحدة الوطنية كما كانت بعد عام ١٩١٩.

على أن الأمر لن يؤتي ثماره ما لم تساهم الدولة - وهي صاحبة المصلحة الأولى في وحدة الوطن - وذلك من خلال التوعية والمساهمة في تشكيل العقل والوجدان الوطني.

ثالثًا: نظرية الانتماءات بين الثراء السمح والأحادية المتعصبة

إن الانتماءات العامـة للشـعوب (وهـو موضـوع الفصلين ٣، ٤ بالنسـبة للشـعب المصـري) والانتمـاءات الشخصية للفرد (وهو موضوع هذا الفصل) هي في جملتهـا صلب الصراع السياسي في عالمنا الحديث، وهناك منهجـان في الممارسة العملية.

الأول: يدعو لتكريس انتماء واحد للشعب وتغذية هذا الانتماء للفرد سواء أكان ذلك الانتمـاء دينيـا أو عرقيـا أو مذهبيا فدولة مثل إيران تعتبر أن لها انتماء واحدا هو الإسلام وكذلك الحال بالنسبة للسعودية، أما بالنسبة للانتماء العرقـي فذلك هو الحال بالنسبة لإسرائيل لأنها تقول إن اليهـود هـم "شعب ا المختار" وكذلك الأمر بالنسبة لجنوب أفريقيا والتي كانت - إلى أن حكمها مانديلا - تعطـي السـيادة للجـنس الأبيض دون سكان البلاد الأصليين من السود، وهكذا كانت ألمانيا الهتلارية حين كانت "ألمانيـا فـوق الجميـع" وحيـث وضعت أجناس البشر في رتب فوق بعض فكان السود فـي



أسفل القائمة أما الأنجلو ساكسون من الألمان فهم وحدهم من "عرق" أرقى ويحق له سيادة العالم وحكمه.

أما سيادة المذهب السياسي أي الأيـديولوجي علـى الدولة فكانت واضحة في دول أوروبـا الشـرقية والاتحـاد السوفيتي حتـى عـام ١٩٩٠ والعقيـدة عنـدها أن الحـل الاشتراكي المبني على الفكر الماركسي - اللينيني هو وحده الذي له الفوز في نهاية الأمر في كل موقع من العالم.

ولقد ثبت أن الانتماء الواحد والوحيد للدولة والشعب هو تجسيد للتعصب ومثير للغرور وكراهية الآخرين.

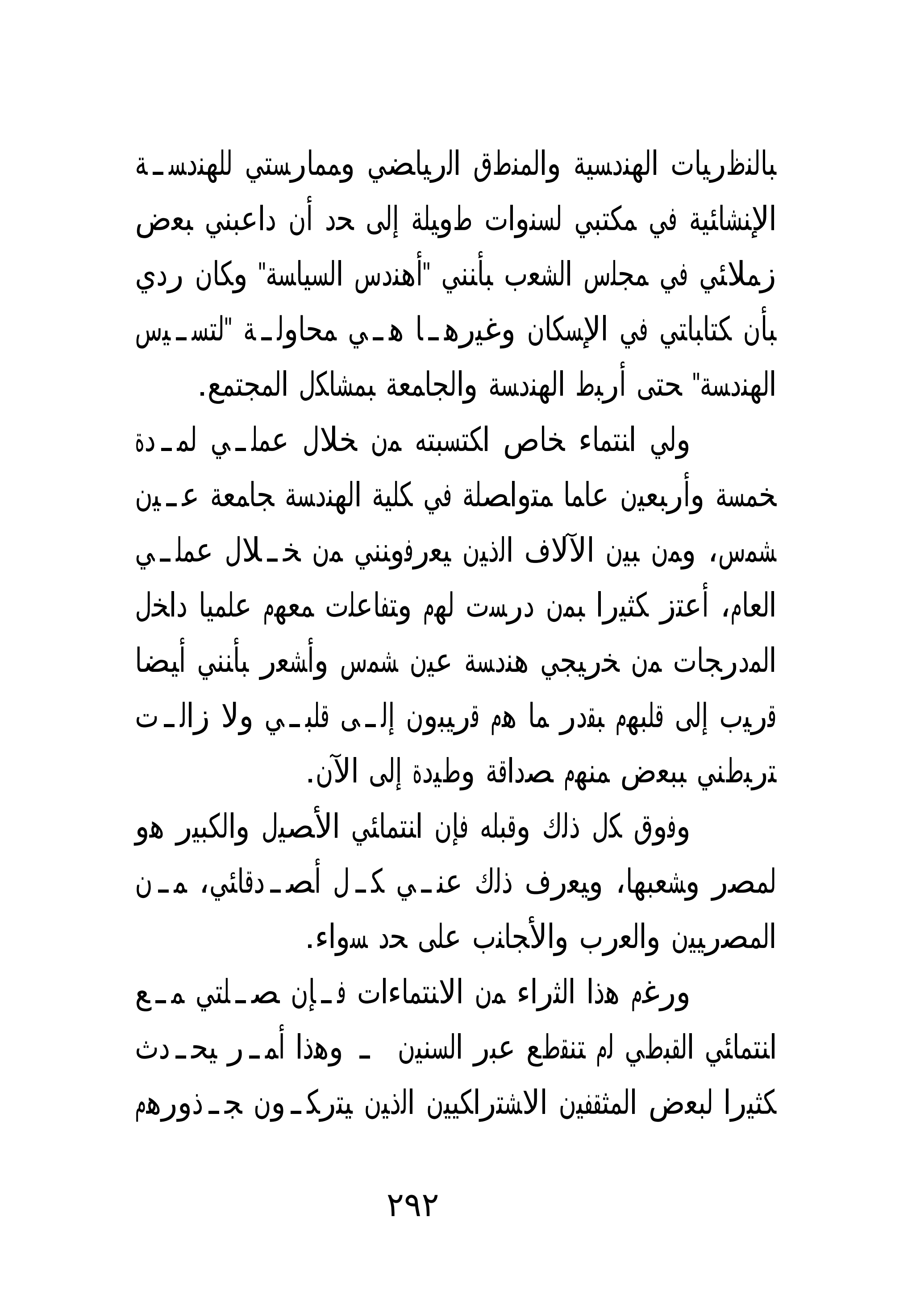
أما المنهج الثاني فيحـاول أن يكشـف الانتمـاءات المتعددة لكل شعب وهي المحاولـة التـي تمثـل العصـب الرئيسي لهذا الكتاب - وذلك بهدف إلقـاء الضـوء علـى الشخصية الوطنية وأوجه التعدد والتنوع لها وفيها.

وهكذا استعرضنا في الفصلين ٣، ٤ "الأعمدة السبعة للشخصية المصرية" وهي ليست بالضرورة كأسنان المشـط متساوية متكافئة لكل مصري ولكنها تكـون فـي مجملهـا المقومات الأساسية التـي تـؤثر علـى التركيبـة النفسـية والجماعية للمصريين.

وبجوار هذه الانتماءات العامة للشـعب المصـري هناك عشرات الانتماءات الشخصية الفردية والتي استعرضنا بعضا منها في هذا الفصل الخامس، بعضها يولد مع الإنسان وهي إذن جزء منه، وبعضها يكتسبه الفرد من الأيام وفـق قدراته وظروفه وميوله، ولعل هذه وتلك تكون في مجموعها ملامح شخصية الإنسان.

* * *

وإذا ضربت بنفسي مثلا، أستطيع أن أقول - مثـل كل بشر - ولدت لأجد نفسي في أسرة من الطبقة المتوسطة ونشأت في حي شبرا بالقاهرة وعندما تزوجت كونت عائلتي الصغيرة والتي تشمل الزوجة وأولادي الثلاثة ولكن هنـاك الأسرة الكبيرة التي تمتد لتشمل الأخوات وأولاد العم ومـن في درجاتهم ولكنني لم أتوقف عند ذلـك، وتجاوزتـه مـع انتمائي إلى مدينة سنورس بالفيوم حيث أسرة والدي، وإلـى قرية شنري مركز الفشن حيث كان يعيش جـدي لوالـدتي، فهذه كلها انتماءات موروثة ليس لي فيها أي فضل، ولكننـي مع سنوات النضج أعطيت أهمية أكبر لانتمائي المهني وأعتز كثيرا بكوني مهندسا وتأثرت تصـرفاتي وأفكـاري كثيـرا



بالنظريات الهندسية والمنطق الرياضي وممارستي للهندسة الإنشائية في مكتبي لسنوات طويلة إلى حد أن داعبني بعض زملائي في مجلس الشعب بأنني "أهندس السياسة" وكان ردي بأن كتاباتي في الإسكان وغيرها هي محاولة "لتسييس الهندسة" حتى أربط الهندسة والجامعة بمشاكل المجتمع.

ولي انتماء خاص اكتسبته من خلال عملي لمدة خمسة وأربعين عاما متواصلة في كلية الهندسة جامعة عين شمس، ومن بين الآلاف الذين يعرفونني من خلال عملي العام، أعتز كثيرا بمن درست لهم وتفاعلت معهم علميا داخل المدرجات من خريجي هندسة عين شمس وأشعر بأنني أيضا قريب إلى قلبهم بقدر ما هم قريبون إلى قلبي ولا زالت تربطني ببعض منهم صداقة وطيدة إلى الآن.

وفوق كل ذلك وقبله فإن انتمائي الأصيل والكبير هو لمصر وشعبها، ويعرف ذلك عني كل أصدقائي، من المصريين والعرب والأجانب على حد سواء.

ورغم هذا الثراء من الانتماءات فإن صلتي مع انتمائي القبطي لم تنقطع عبر السنين - وهذا أمر يحدث كثيرا لبعض المثقفين الاشتراكيين الذين يتركون جذورهم

وراء سراب انتماء جديد تحت شعار "الأممية" وما كتاباتي في قضية الانتماءات كلها... كما جاء في هذا الكتاب أو كتابي الآخر الذي صدر عام ١٩٨٠ بعنوان "نعم أقباط.. ولكن مصريون"، إلا.. انعكاسا لهذا الاهتمام واعتزازا به خصوصا بعد أن اعتقلت مع الأساقفة والكهنة في سجن المرج في سبتمبر وأكتوبر ١٩٨١.

ولأنني أشعر أن الوحدة الوطنية لن تعود بالخير والسعادة على أقباط مصر فحسب، ولكنها سبيل مصر لتجاوز المخاطر والانتكاسات المحدقة بنا، وأشعر أنه عندما أعبر بصراحة عن بعض الانفعالات التي يشكو منها الأقباط ويناقشونها في مجتمعاتهم المغلقة، أن في ذلك حماية للوطن كله.. وأنه لن يقابل بغضب من أصدقائي وزملائي المسلمين، من منطلق أن مواقفي السابقة تدل وتؤكد حبي وانتمائي لمصر كلها، على الرغم من أصدقائي المقربين يعرفون ما كنت قد قاسيته خلال محاولاتي الالتحاق بخدمة الجامعة كمعيد ثم كمدرس عام ١٩٥٤ ثم من خلال تخطي حواجز الترقي للدرجات والوظائف وفق القواعد الجامعية المعتادة فقد تأخرت عن أقراني الذين كنت أسبقهم في أمور

كثيرا لنحو عشر سنوات طويلة، ولكن ذلك لم يترك رواسب داخلية، بل كنت متفهما أنه طالما أن هناك حقوق متسـاوية في القضايا الأساسية، وهي حق المواطنة والفرص المتكافئة في التعليم والملكية، فإن أي صعوبات هنا وهناك هي مسائل تصقل النفس وتصلب العود، ويمكن تجاوزها.

وسأظل متمسكا - فيما تبقى من عمر - بانتمـائي وانحيازي إلى فقراء مصر - في مشـكلة الإسـكان وفـي غيرها من مشاكل - لأن ذلك جزء مـن تكـويني العقلـي وارتباطي بالفكر الاشتراكي وإن كان ذلك مقرونا - كما هو معروف لكثيرين - بقضية الديمقراطية والليبرالية وحريـات الإنسان فهي لدي قضية أساسية ومحورية غير قابلة للتنازل أو الحلول التوفيقية فلا معنى للخبز بدون حرية.

وعندما أسافر إلى البلاد العربية أشعر بأهمية انتمائي إلى التيار العربي الوحدوي، ثم تتوج كل هـذه الباقـة مـن الانتماءات الشخصية أو الجماعية بأنني كإنسان جـزء مـن البشرية جمعاء ولهذا عملت بكل حماس في تنظيمات حقوق الإنسان والمجتمع المدني حتى صرت عضو مجلـس إدارة

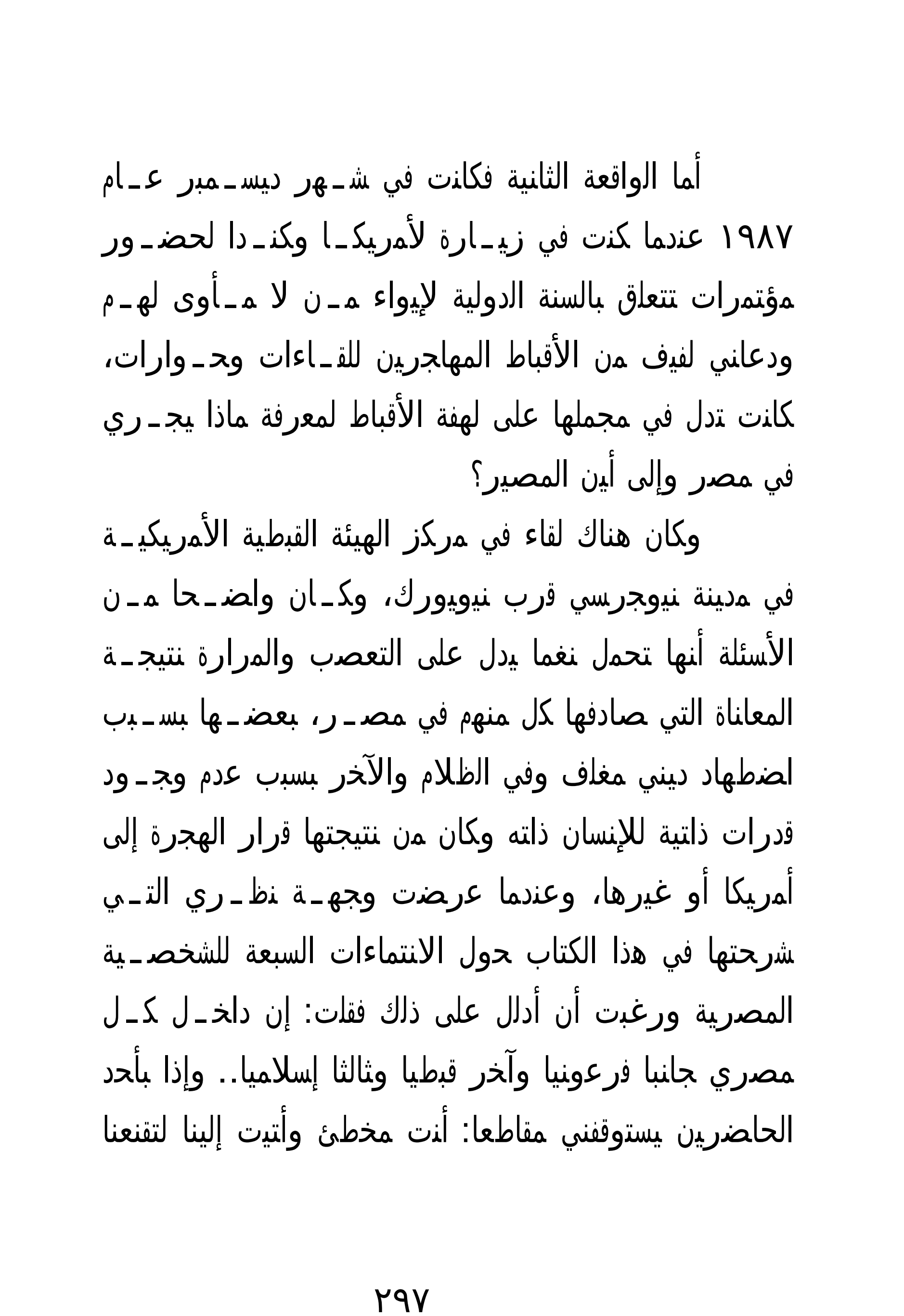
وعضوا مؤسسا في مؤسسة سيفكس Civicus العالمية وقـد منحوني تقديرا دوليا عام ١٩٩٦.

إن هذه المجموعة من الانتماءات كالآلات الموسيقية التي يصدر كل منها نغم، ولكن العزف عليها كلها مجتمعـة دون تنسيق سيحولها إلى صخب وضجيج دون أن تتحول إلى موسيقى ناعمة مريحة يطرب لهـا الإنسـان، ولـذا فـإن "المايسترو الماهر" هو الذي يقيم التوازن بـين الانتمـاءات الوطنية وبين الطموحات الذاتية.

ومن خلال تعاملي مع الناس في كل موقـع داخـل مصر أو خارجها أدركت أن الشخص المتعصب هو الـذي يركز في حياته على انتماء واحد دون أن يتفاعل مع كـل أو بعض انتماءاته الوطنية أو الشخصية الأخرى، فهي موجودة حوله ولن يبحث عنها طويلا، وقد جاءت قناعتي تلـك مـن خلال واقع ووقائع عشتها في الحقبة الأخيرة والتي تجاوزت فيها الانتماء الديني فلم يطغى على باقي الانتماءات ودعنـي أقص بعض الوقائع التي تدل على المنـاخ العـام الحـالي للتعصب الديني.

كانت القصة الأولى في مبنى كلية الهندسة جامعة عين شمس (ربما قرب منتصف السبعينيات) وفي الظروف والمناخ الذي قام فيه نظام السادات ليكون مشجعا وممولا لحركات الجماعات الدينية، وكجزء من ضرب الحركة الناصرية بين الشباب، وكان هناك معرض للكتب الدينية ورغبت أن أتعرف على ما يجري عرضه وأثناء تجوالي في المعرض فُتح حوار مع أحد أفراد هذه الجماعة وكان ملتحيا ويلبس جلبابا وطاقية بيضاء (وكانت هذه الأمور جديدة على بلادنا في الجامعة) وتطرق الحوار حول ملبسه ومدى ملاءمة ذلك إلى التجنيد بعد التخرج ودفعني الحوار لأن قلت ألست أنا الأستاذ بكلية الهندسة أقرب إليك من المسلم في أندونيسيا أو أفغانستان، وقبل أن أكمل حواري قاطعني بحدة قائلا: هم إخوتي في الإسلام ومستعد أن أحارب معهم!!

أصابني الغم والهم لأول مرة - وربما الوحيدة - خلال عملي الجامعي والذي امتد الآن لنحو نصف قرن، وأدركت أننا مقبلون على عصر يسوده التعصب الأعمى ولذلك لم أدهش كثيرا عندما وصلنا إلى أحداث الزاوية الحمراء عام ١٩٨١.



أما الواقعة الثانية فكانت في شهر ديسمبر عام ١٩٨٧ عندما كنت في زيارة لأمريكا وكندا لحضور مؤتمرات تتعلق بالسنة الدولية لإيواء من لا مأوى لهم ودعاني لفيف من الأقباط المهاجرين للقاءات وحوارات، كانت تدل في مجملها على لهفة الأقباط لمعرفة ماذا يجري في مصر وإلى أين المصير؟

وكان هناك لقاء في مركز الهيئة القبطية الأمريكية في مدينة نيوجرسي قرب نيويورك، وكان واضحا من الأسئلة أنها تحمل نغما يدل على التعصب والمرارة نتيجة المعاناة التي صادفها كل منهم في مصر، بعضها بسبب اضطهاد ديني مغلف وفي الظلام والآخر بسبب عدم وجود قدرات ذاتية للإنسان ذاته وكان من نتيجتها قرار الهجرة إلى أمريكا أو غيرها، وعندما عرضت وجهة نظري التي شرحتها في هذا الكتاب حول الانتماءات السبعة للشخصية المصرية ورغبت أن أدلل على ذلك فقلت: إن داخل كل مصري جانبا فرعونيا وآخر قبطيا وثالثا إسلاميا.. وإذا بأحد الحاضرين يستوقفني مقاطعا: أنت مخطئ وأتيت إلينا لتقنعنا

بالإسلام، فأنا قبطي فرعوني ولا يوجد بي أي جزء لا من الإسلام ولا من العروبة!!

توقفت عن الحديث، وفي غضب هممت بأن أترك القاعة وإذا بغالبية من الحاضرين يعتذرون ويصرون أن أتمم حديثي وشرحوا لي الظروف التي ترك بها هذا "المصري - الأمريكي" مصر ولكنني لم أقتنع، وشرحت لهم الصعوبات التي واجهتها في الجامعة للتعيين والترقي ولكن ذلك لم يمنعني من حبي لبلادي مصر.

خلاصة القول، هي أن لدى كل منا تراكمات من ارتباطات أو انتماءات شخصية تكونت مع الزمن هي رصيد شخصي أهم وأبقى من رصيد البنوك ولنا جميعا كشعب خواص إنسانية تكون الشخصية الوطنية متأثرين بتاريخنا وموقعنا.

إن فن الحياة هو فن التعامل مع هذه الباقة من الانتماءات، فمن استخدمها بذكاء وبفهم وحذق سعد في حياته وأصبح مقبولا من المجتمع حوله، ومن ركز على انتماء واحد سواء أكان انتماء عائليا أو مهنيا أو دينيا سيضيق أفقه

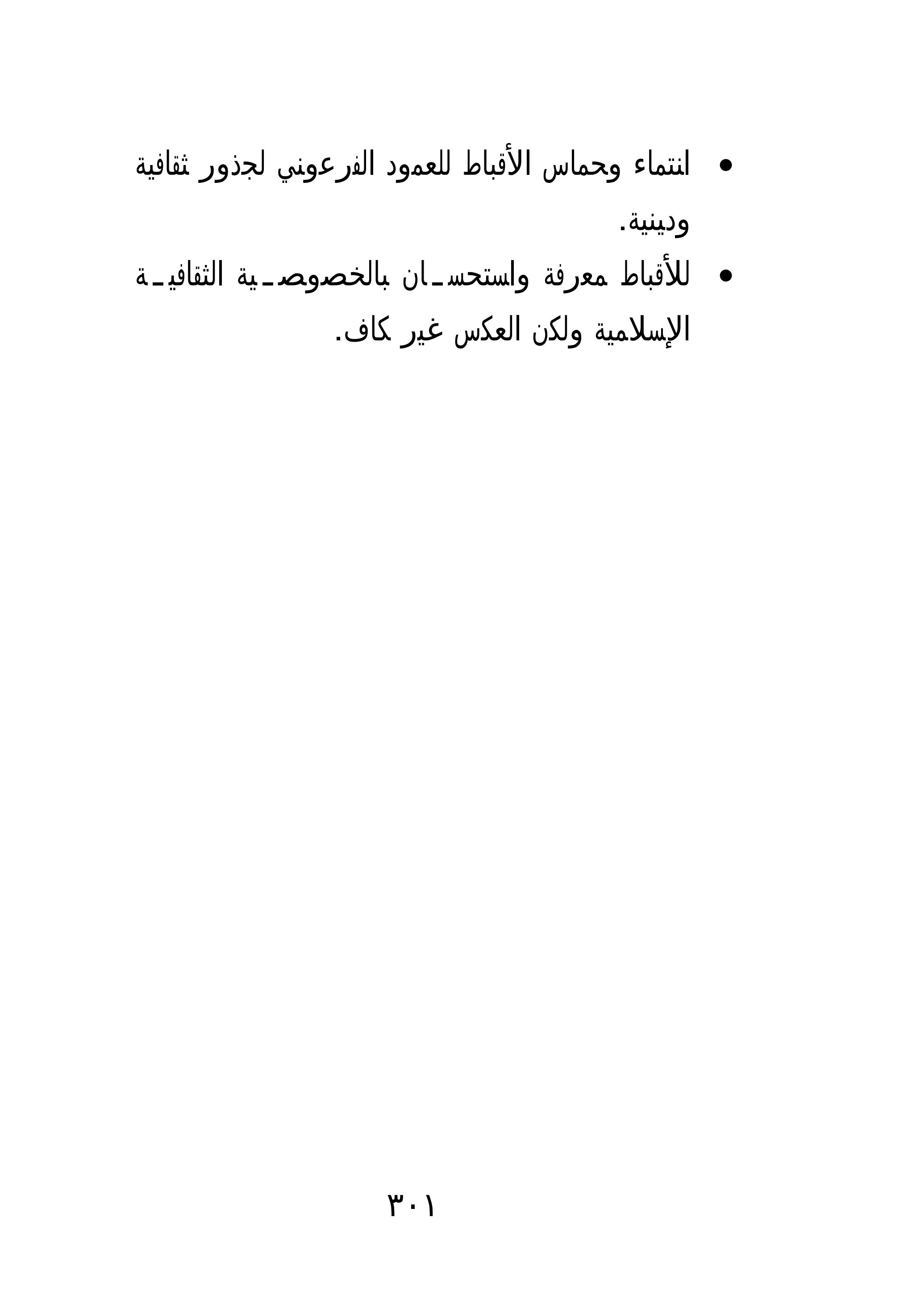
ويضيق به الناس من حوله ويصاب بالإحباط وينتهـي بـه الأمر إلى الوحدة والضيق والكفر بالحياة ذاتها.

والأمر ـ من قبل ومن بعد ـ هو اختيار شخصي، فالسعادة ـ أيها القارئ ـ بين يديك.

الفصل السادس (*)

مخاطر ضمور الخصوصية الثقافية للأقباط

- قوانين المعايشة بين الأقباط والمسلمين ملامحها وأغوارها لم تستكمل بعد، ولا زال مجال الاجتهاد مفتوحا.
- أحوال المنطقة زادت سوءا في السنوات العشر الماضية، وفرضت اهتماما أكبر بقضية الوحدة الوطنية.
- من صراعات الطبقات إلى صراع الحضارات، والبديل هو "قبول الآخر".
- بعض ملامح الخصوصية الثقافية للأقباط.
- الأقباط عصب الطبقة الوسطى المصرية وهذا هو سر الإحساس بأن عددهم أكبر من الحقيقة، فتأثيرهم على المجتمع ككل أقوى من نسبتهم العددية.
- لدى الأقباط: الأمية أقل والتعليم ومتوسط الدخل أكبر كثيرا من المتوسط العام لمصر.



- انتماء وحماس الأقباط للعمود الفرعوني لجذور ثقافية ودينية.
- للأقباط معرفة واستحسـان بالخصوصـية الثقافيـة الإسلامية ولكن العكس غير كاف.

مخاطر ضمور الخصوصية الثقافية للأقباط

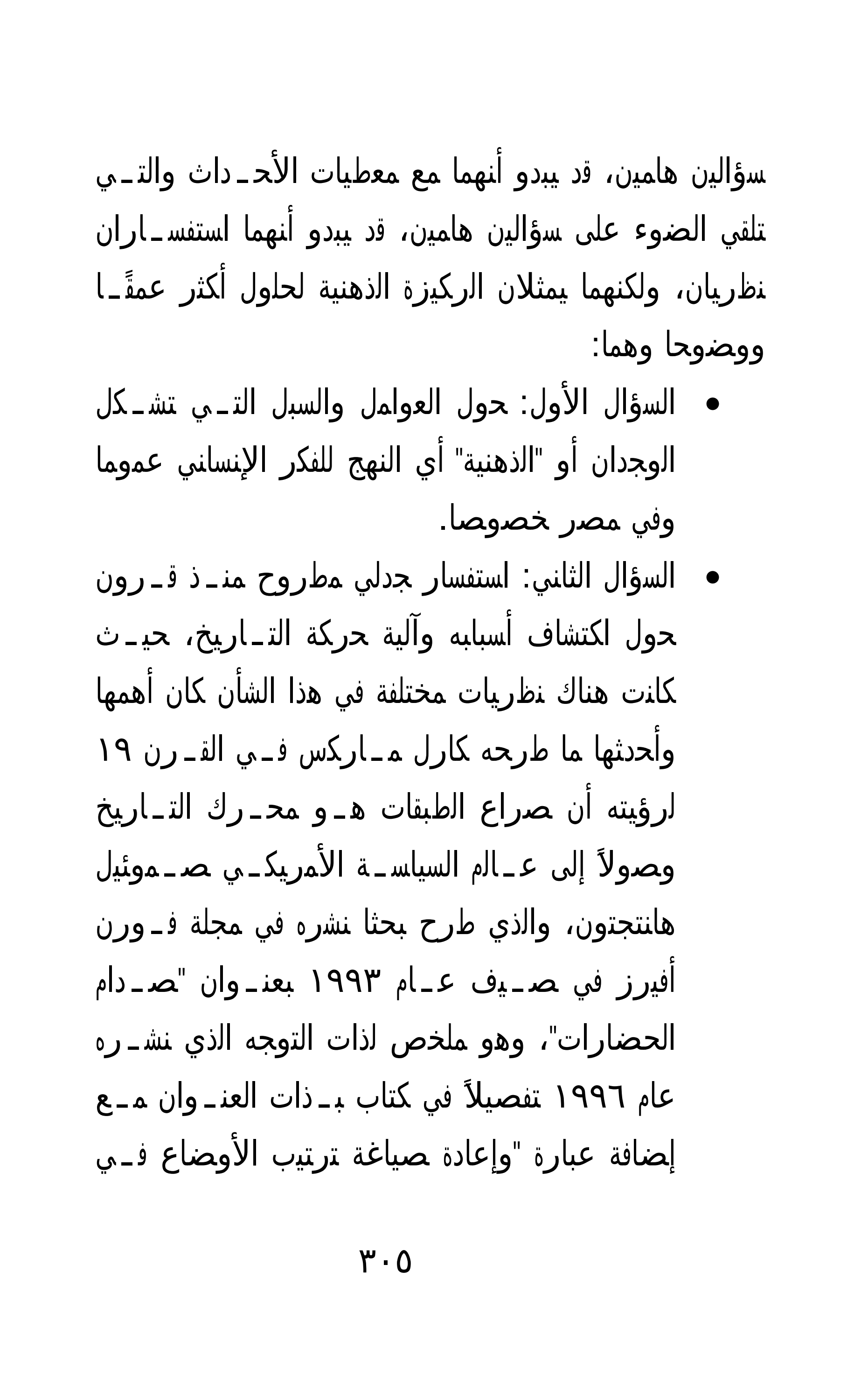
في حفل تسليم جائزة سيمون بوليفار الدولية في القاعة الكبرى بمبنى منظمة "اليونسكو" في باريس مساء يوم الاثنين ١٩ أكتوبر عام ١٩٩٨، وكان أن نوه مسيو فريديكو مايور المدير العام لليونسكو، وهو يقدم الجائزة لي أشار إلى مجهوداتي وكتاباتي التي أسهمت ـ ولو بقدر ـ في استمرار العلاقات الحميمة بين الأقباط والمسلمين في مصر، ثم أشار إلى كتاب "الأعمدة السبعة للشخصية المصرية" تحديدا علاوة على كتب أخرى، ولذلك شعرت من واجبي ـ عند إصدار هذه المؤلف لأول مرة في يناير ١٩٨٩، أن أربط بين المفاهيم التي ذكرت في هذا الكتاب وقتها وكان لها أثرها الثقافي، وبين إلقاء الضوء على المتغيرات التي تمت، بهدف دعم وتقوية أوصال هذه الصلة الحميمة التي اصطلحنا على تسميتها ـ تهذبا وعذوبة ـ بعبارة "الوحدة الوطنية".

لقد عاش جدودنا ـ مسلمون وأقباط ـ في كافة القرى والمدن المصرية في مودة ومعايشة وتآخ نادر المثال ـ متجاوزين أزمنة وأحداثًا قاسية ومتخلفة مرت على مصر

كلها ـ ولكن أحدا لم يناقش أو يتعمق لتحليل أسباب وآليات الخلفية الثقافية التي وفرت هذه العلاقات الحميمة الخاصـة، ولعل فكرة الانتماءات التاريخية والجغرافية ـ كما طرحـت في هذا الكتاب ـ منذ ١٠ سنوات ـ كانت بشكل أو بآخر ـ مجرد محاولة للتعرف على الأسباب الثقافية والتاريخيـة ـ في عموميتها ـ والتي أدت إلى تواصل وعدم انقطاع هـذه الروابط.

أما وقد جرت مياه كثيرة في سـاحة ونهـر الحيـاة السياسية والثقافية والمجتمعية على الصعيد المحلي والعربـي والعالمي، فقد صرنا في حاجة إلى طرح إضافي ـ نحـاول أن نسطره بسرعة وفي إيجاز ـ في هذا الفصل الإضـافي رقم ٦ ـ فالمناخ الثقافي قد تغير كثيرا: الحرب اللبنانية في شمال مصر قد انتهت وتركت بصماتها على جميع الأطراف وكلها تحاول مراجعة توجهاتها ووضعت لبنان أولي خطواتها على مسيرة العمران مع المحافظة على كيانهـا الجغرافـي والسياسي دون تمزق أو إعاقة لمسـيرة العمـران ويشـعر اللبنانيون أن السلام والعمران هش لأنه لم يمنـع اسـتمرار الحرب في الجنوب بين حزب ا وإسرائيل، وفـي جنـوب

مصر اشتعلت الحرب الأهلية في السودان منذ عـام ١٩٨٣، حتى تدمر اقتصاد السودان وتشرد، وهاجر خيرة القيـادات السياسية والفكرية والاقتصادية إلى خارج الـوطن ويعـيش حاليا عدة ملايين من خيرة البشر المهاجرين في أربعة أركان الدنيا، فقد أفرغ السودان خيرة أهله، وفي جهة الغرب تمتـد وتتسع رقعة حوادث الإرهاب حتى صارت أحداثا يومية في الجزائر تدمي قلب أي إنسان ولا نجد لها تفسيرا يقبله العقل وفي قلب العالم العربي مفاوضات السـلام بـين إسـرائيل وفلسطين لا زالت متعثرة ولم تصل إلى استقرار وسلام بعد، وعلى الصعيد العالمي - فيما يتعلق بعالمنا العربي - كانت حرب الخليج عام ١٩٩٠ والتي مزقت الأمة العربية، إلى أن كانت مؤخرا الغارات الهمجية على مواقع كثيرة في العراق (في الأيام الأخيرة قبل شهر رمضـان وفـي إطـار شـهر ديسمبر ١٩٩٨) كل ذلك وغيره كثير في تركيـا والأكـراد وداخل إسرائيل، وهبوط سعر البترول.. الـخ، ممـا جعـل قضية وملف الدراسات الثقافية التي أفـرزت هـذه الوحـدة الوطنية ما زال مفتوحا بهدف الوصول إلـى توجـه ثقـافي نظري يتفق مع معطيات الأحداث والتي تلقي الضوء علـى



سؤالين هامين، قد يبدو أنهما مع معطيات الأحـداث والتـي تلقي الضوء على سؤالين هامين، قد يبدو أنهما استفسـاران نظريان، ولكنهما يمثلان الركيزة الذهنية لحلول أكثر عمقًـا ووضوحا وهما:

- السؤال الأول: حول العوامل والسبل التـي تشـكل الوجدان أو "الذهنية" أي النهج للفكر الإنساني عموما وفي مصر خصوصا.
- السؤال الثاني: استفسار جدلي مطروح منـذ قـرون حول اكتشاف أسبابه وآلية حركة التـاريخ، حيـث كانت هناك نظريات مختلفة في هذا الشأن كان أهمها وأحدثها ما طرحه كارل مـاركس فـي القـرن ١٩ لرؤيته أن صراع الطبقات هـو محـرك التـاريخ وصولاً إلى عـالم السياسـة الأمريكـي صـموئيل هانتجتون، والذي طرح بحثا نشره في مجلة فـورن أفيرز في صـيف عـام ١٩٩٣ بعنـوان "صـدام الحضارات"، وهو ملخص لذات التوجه الذي نشـره عام ١٩٩٦ تفصيلاً في كتاب بـذات العنـوان مـع إضافة عبارة "وإعادة صياغة ترتيب الأوضاع فـي

العالم" والذي يتنبأ فيه بأن الحقبة القادمـة سـتكون محكومة بالصراع بين الحضـارات عنـد خطـوط التماس بينها، وقد أشعلت هذه النظريـة النـار فـي مواقع كثيرة من العالم وبالـذات أدت لزيـادة حـد الصدام بين الإسلام والغرب.

هذه الأمور وغيرها قد تعرضت لها - في شيء من التفصيل - في كتابي الذي صدر مؤخرا في أواخـر عـام ١٩٩٨ بعنوان "قبول الآخر" بهدف تقديم البديل الذي يطفـئ نار الحروب الأهلية المشتعلة في مواقع كثيرة من العالم، لعل الفكر البشري قادر على صياغة "نظرية" توصـل لتكـوين حوار ومعايشة ثم "موزاييك" بين الحضارات..!!

على أن ما يهمنا - في هذا الخصوص - هو هـذا المناخ الثقافي المصاحب لعبارة العولمة Globalism، فقـد أفرز رياحا وعواصف تهب على مصر - وعلى غير مصر - بين الحين والآخر، مما جعل استمرار "الوحدة الوطنيـة" في حاجة إلى جرعة إضافية جديدة، تتجاوز ما جاء في كتاب "الأعمدة السبعة"، وما هذا الفصل الجديد إلا محاولة نظريـة ثقافية تهدف إلى ما يؤكد التواصل الوطني القـديم بمعـايير

ومفاهيم وعبارات استجدت على الساحة العالمية، فقد صارت الشعارات القديمة وحدها غير مقنعة أو كافيـة لأن العصـر تجاوزها.

* * *

تقول أمثالنا الشعبية إن الخالق العظـيم قـد "فـرق" الأرزاق في نور الصباح فرأى كل منا رزق الآخر، فزمجر وتململ لأنه غير قانع برزقه، فحتى الثري والمليونير يطلب المزيد، أما "تفريق" أي توزيع "العقول" فكان ليلاً، لم يـر أي منا إلا عقله ـ وارتاح إليه ـ حتى توهم ـ أي فرد ـ مهما كان ساذجا ، بذكاء محدود ـ أن رؤيته ووجهة نظره هـي الأصح وذلك عند طرح أي قضية أو أمر شخصي أو عام.

ولذا فالسؤال يفرض نفسه وهو: ما هي العوامل التي ترسخ في الوجدان هذا "النهج الذهني" إذ هو الأسـاس لكـل قناعة برأي أو وجهة نظر، وهذا الأمر يسميه صديقي المفكر والزعيم السوداني المناضل الصادق المهدي بعبارة "الذهنية"، ومن ثم نتساءل لماذا تشكلت هذه الذهنية بهـذا الاخـتلاف والتباين بين البشر، حتى يقال إنه مثلما أن أشكال وجوهنـا نادرا ما تتطابق، فإن المنطق يدعونا لقبـول أن "الـذهنيات"

أيضا مختلفة متباينة توحي بأن لكل فرد ذهنيته الخاصة وهو أمر يوحي بأنها في مجملها وكأنها في حالة "فوضى" أو كما يقول علماء الطبيعة عند دراسة قوانين الحركة بأنهـا تمـر بحالة "فوضى تخضع لقوانين.."!!

والحقيقة أن "الذهنية" لأي فرد هي نتاج عوامل كثيرة جدا، بعضها طبيعي وراثي وهو أمر يشغل حاليـا ـ ومنـذ سنوات قليلة ـ علماء الهندسة الوراثية، وهي أمور ما زالت تحت مطرقة الدراسات المعمليـة والنظريـة حيـث توجـد مؤشرات وبوادر توحي بأن لبعض "الجينات" تأثير أو ارتباط بالقدرات الذهنية أو الشخصية ولكن المؤكد ـ والمتعـارف عليه ـ إلى الآن ـ هو أن "الذهنية" تتأثر بالمنـاخ الثقـافي للنشأة في الأسرة من تعليم وخبرات مكتسبة فـي مضـمار الحياة في مجملها من الانتماء إلى الدين أو الثقافة المعاصرة أو الوطن الذي يعيش فيه أي منا.

ومن هنا فإن التباين في التركيبة الشخصـية للبشـر ليس بهذه الفوضى أو "العشوائية"، ولذا ظهرت ـ في الآونة الأخيرة ـ عبارة "الخصوصيات الثقافية" لعشرات الألـوف من المجموعات البشرية في كافة أنحاء العالم، وهكذا تظهـر

مقولات لها قبول عام مثل: إن الإنجليزي كلمته "دوغـري" ومواعيده منضبطة أو أن الألماني دقيق في اتخاذ قراره إلى حد التزمت، والفرنسي رومانسي رقيق المشاعر، والمصري طيب بشوش وصبور وغيرها كثير من عبـارات اكتسـبت قبولاً عاما نتيجة المعاشرة أو السمعة العامة التـي تكسـب الشعوب والحضارات صفات "جماعية".

وفي إطار الوطن الواحد، توجد خصوصيات ثقافيـة مختلفة، وإذ أخذنا مصر - كمثال - يقال إن لأهل الوجـه البحري أو الدلتا خصوصيات ثقافية فهم أكثر خبثـا ومكـرا "ويلبدون في الذرة" بخلاف أهل الصعيد والـذين يتسـمون بالعند والمكابرة التي تصل إلـى الصـدام والثـأر أحيانـًا، ويختلف أهل الريف عن أهل الحضر بل ويعتز أهالي منطقة "بولاق" بالقاهرة مثلا بأنهم أهل شهامة ونخوة وبالذات فيمـا يتعلق بقضايا شرف "العذراوات" وهم في ذلك يختلفون عـن أهل الزمالك حيث المفاهيم والقيم هي احتـرام خصوصـية الأفراد دون التدخل في شئونهم الشخصية..!!

ورغم مرور ما يزيد على خمسة آلاف سنة عندما قام الملك مينا بتوحيد الوجه القبلي بالوجه البحري فإننا لا زلنا نلمس اختلافا في الزي واللغة واللهجة.

وبذات الفهم للخصوصية الثقافية الجغرافية، عرفت - اللغة القبطية - تاريخيا بأسماء مناطق مثل أخميم أو الفيوم أو غيرها مما يؤكد وجود خصوصيات ثقافية للمجموعات البشرية داخل الوطن الواحد منذ مئات السنين، وإن كانت ثورة الاتصالات في العصور الحديثة سوف تؤدي إلى تخفيف حدة الاختلافات بين الخصوصيات.

* * *

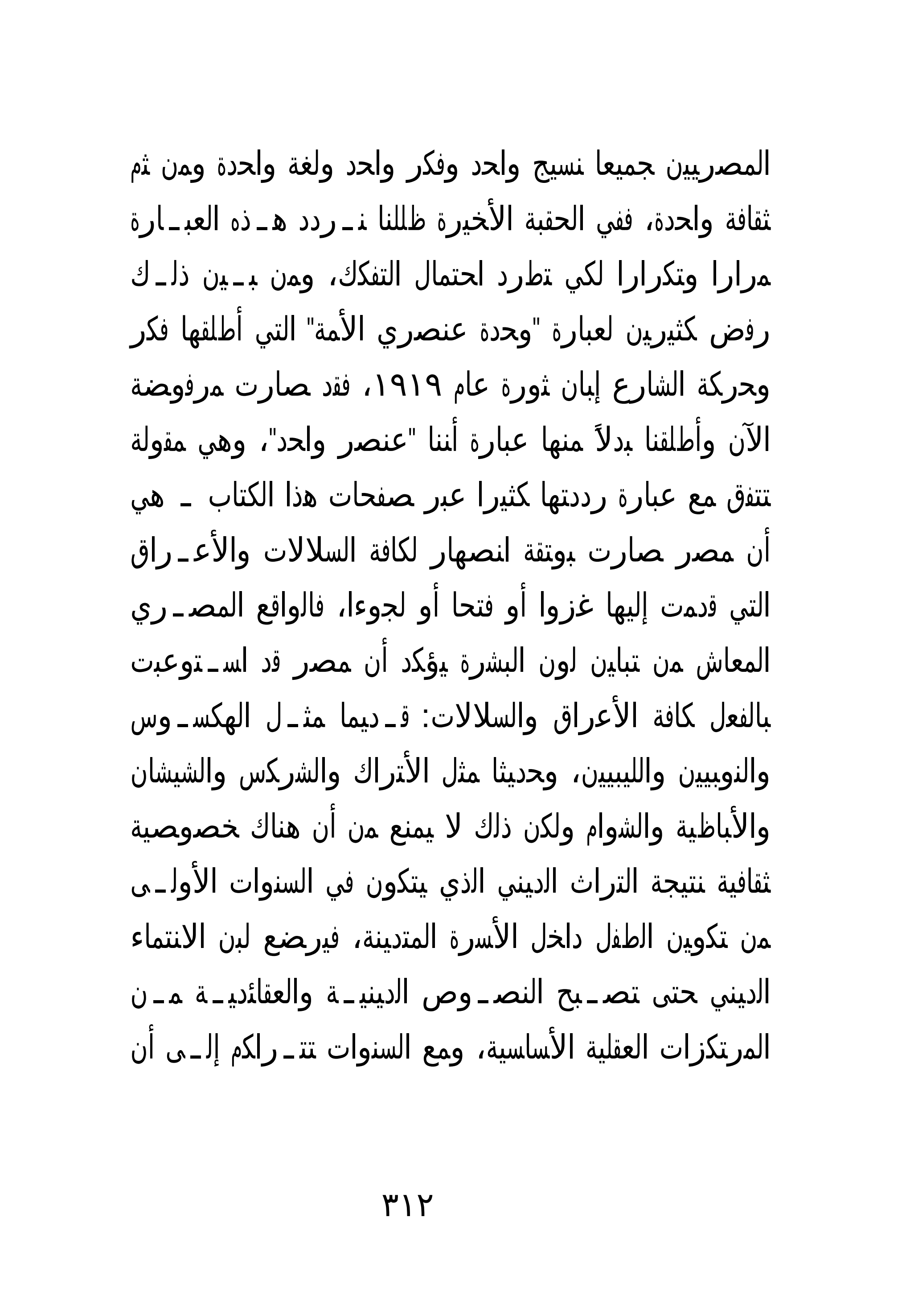
سبق أن ذكرنا في الفصل الخامس، بأن لكل منا انتماءات تتراكم لديه عبر رحلة الحياة، بعضها متوارث وبعضها مكتسب، والمشاهد أنه كلما كانت الدولة متقدمة متحضرة، قل التزمت والتعصب للانتماءات القبلية أو الدينية أو الجغرافية المتوارثة، لأن النسيج الوطني يصير أكثر تماسكًا إذ يجمعه الإطار الثقافي الوطني العام، وفي تلك الدول المتحضرة يصبح الانتماء الوطني أسبق من الانتماء

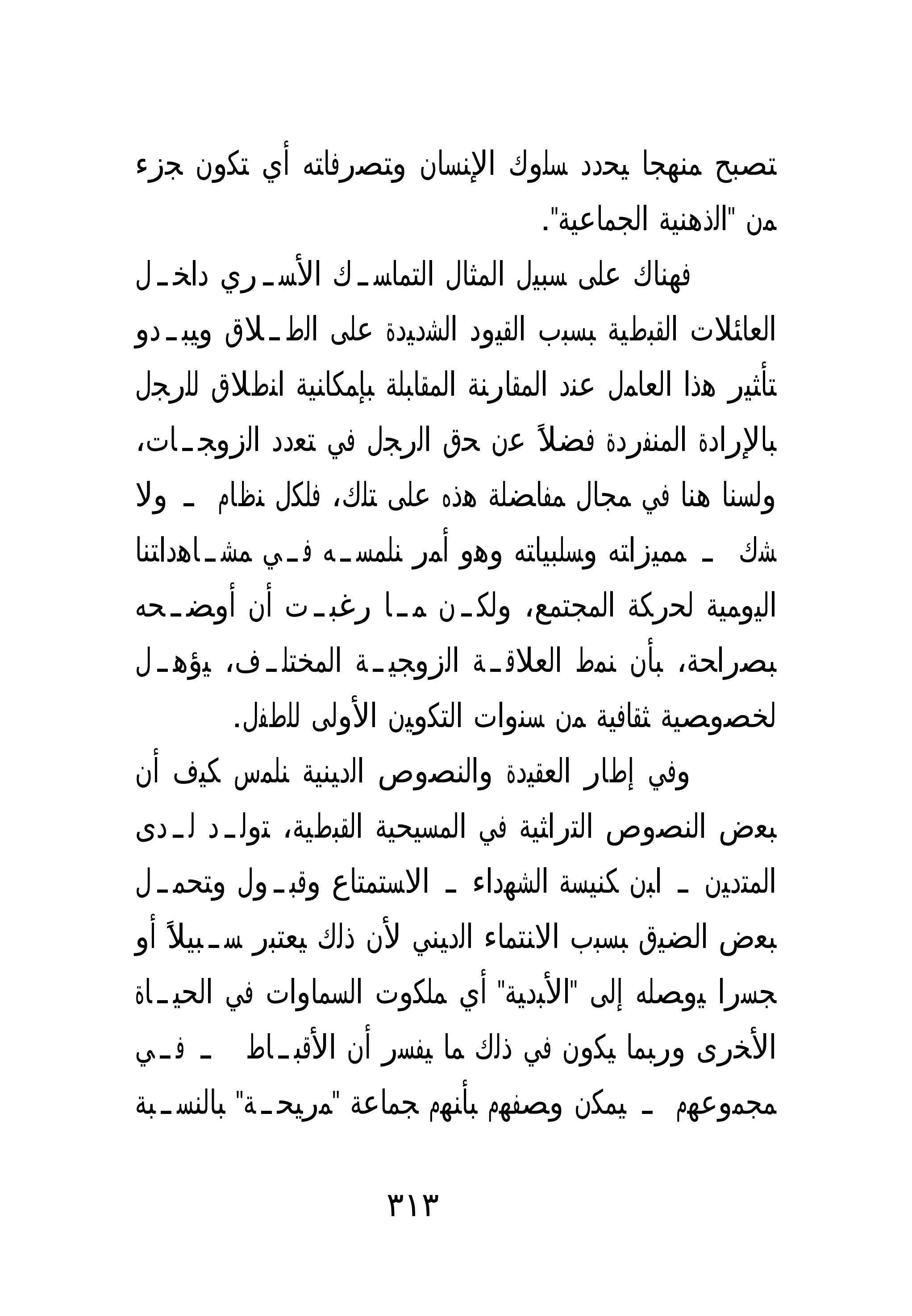
الديني، وهو أمر غير متوافر في دول وشعوب أقل نموا في سلم الحضارة الإنسانية.

* * *

ولما كنا في مصر - وبشكل عام - شعب متـدين، وكل منا متمسك بعقيدته مع توافر الاحترام والمودة للأديـان والعقائد الأخرى، لذلك، لا زالت هناك - لكل من الأقبـاط والمسلمين - "خصوصية ثقافية"، تجعل هناك فروقًـا مهمـا كانت بسيطة وغير ملحوظة، إلا أنها موجودة على أي حال، وصار التوجه الأحدث - عند الحوار في المجالات الدوليـة عن أهمية الثقافـة فـي حياتنـا - هـو المحافظـة علـى الخصوصيات الثقافية للمجموعات البشرية المختلفـة، وقـد تمت الإشارة إلى هذه القضية في تقريـر "اللجنـة العالميـة للثقافة والتنمية" والتي رأسها خافيير بيريز دي كويار الأمين العام الأسبق للأمم المتحدة وعنوان التقريـر هـو "التنـوع البشري الخلاق" وقد قام المجلس الأعلى للثقافـة بترجمتـه للعربية عام ١٩٩٧.

إنني أدرك أن طرح هذا الأمر سوف يثيـر بعـض الجدل خصوصا لدى كثرة من المصريين حيث القناعة بـأن


المصريين جميعا نسيج واحد وفكر واحد ولغة واحدة ومن ثم ثقافة واحدة، ففي الحقبة الأخيرة ظللنا نـردد هـذه العبـارة مرارا وتكرارا لكي تطرد احتمال التفكك، ومن بـين ذلـك رفض كثيرين لعبارة "وحدة عنصري الأمة" التي أطلقها فكر وحركة الشارع إبان ثورة عام ١٩١٩، فقد صارت مرفوضة الآن وأطلقنا بدلاً منها عبارة أننا "عنصر واحد"، وهي مقولة تتفق مع عبارة رددتها كثيرا عبر صفحات هذا الكتاب ـ هي أن مصر صارت بوتقة انصهار لكافة السلالات والأعـراق التي قدمت إليها غزوا أو فتحا أو لجوءا، فالواقع المصـري المعاش من تباين لون البشرة يؤكد أن مصر قد اسـتوعبت بالفعل كافة الأعراق والسلالات: قـديما مثـل الهكسـوس والنوبيين والليبيين، وحديثا مثل الأتراك والشركس والشيشان والأباظية والشوام ولكن ذلك لا يمنع من أن هناك خصوصية ثقافية نتيجة التراث الديني الذي يتكون في السنوات الأولـى من تكوين الطفل داخل الأسرة المتدينة، فيرضع لبن الانتماء الديني حتى تصـبح النصـوص الدينيـة والعقائديـة مـن المرتكزات العقلية الأساسية، ومع السنوات تتـراكم إلـى أن



تصبح منهجا يحدد سلوك الإنسان وتصرفاته أي تكون جزء من "الذهنية الجماعية".

فهناك على سبيل المثال التماسـك الأسـري داخـل العائلات القبطية بسبب القيود الشديدة على الطـلاق ويبـدو تأثير هذا العامل عند المقارنة المقابلة بإمكانية انطلاق للرجل بالإرادة المنفردة فضلاً عن حق الرجل في تعدد الزوجـات، ولسنا هنا في مجال مفاضلة هذه على تلك، فلكل نظام - ولا شك - مميزاته وسلبياته وهو أمر نلمسـه فـي مشـاهداتنا اليومية لحركة المجتمع، ولكـن مـا رغبـت أن أوضـحه بصراحة، بأن نمط العلاقـة الزوجيـة المختلـف، يؤهـل لخصوصية ثقافية من سنوات التكوين الأولى للطفل.

وفي إطار العقيدة والنصوص الدينية نلمس كيف أن بعض النصوص التراثية في المسيحية القبطية، تولـد لـدى المتدين - ابن كنيسة الشهداء - الاستمتاع وقبـول وتحمـل بعض الضيق بسبب الانتماء الديني لأن ذلك يعتبر سـبيلاً أو جسرا يوصله إلى "الأبدية" أي ملكوت السماوات في الحيـاة الأخرى وربما يكون في ذلك ما يفسر أن الأقبـاط - فـي مجموعهم - يمكن وصفهم بأنهم جماعة "مريحـة" بالنسـبة

لأي حاكم فيقبلون الشدائد بصبر وترحاب، ولذا فإن النضال والاحتجاج والتزمر أو المقاومة بالسلاح ليست من صـفاتهم ويؤثرون على ذلك "الصلاة والصوم" وهما أقوى الأسـلحة لمقاومة الظلم، ولذلك لم يتم قهرهم أو القضاء عليهم، ومـن الطبيعي أن يتبع ذلك نوع من السلبية وسياسة "المشي جانب الحيط" أي البعد عن الأضواء وأن "السلطان من لا يعـرف السلطان" وفي ذات الإطار، فإن العقيدة المرتبطـة بالتثليـث والتوحيد وتلك المتعلقة بأسرار الكنيسة السـبعة، وبوجـود كهنوت "واعتراف" ومغفرة وتوبة وما إليها، كلها تكون نهجا ذهنيا مركبـا Sofisticated or compound وبالتـدريب يتعود استيعاب تركيبات وتوجهات ذهنية قد لا تكون واضحة أو صريحة أو متوافقة مع بعضها البعض، وكلها تصب فـي قنوات "الخصوصية الثقافية".

ومن الناحية الاقتصادية، فإن كثـرة مـن الأقبـاط ينتمون إلى الطبقة الوسطى - وهذه الطبقة فـي مصـر - مسلمين وأقباط - هي الأكثر تمسكًا بالقيم بشكل عام، وهـو الأمر الذي كان أحد أهم أسباب تماسك المجتمـع المصـري واستمراريته، وهذه الطبقة أيضا - مسلمين وأقباط - هـي

الأكثر تمسكًا بالانتماء والتماسك الأسـري، وبالبعـد عـن المشاكل ولذلك فإن نسبة الأقباط بـين المجـرمين ونـزلاء السجون قليلة وأحيانًا نادرة.

وربما تكون نسبة الأقباط بين شعب مصر موضـع خلاف واجتهادات تتراوح بين ٧ % إلى ١٢ %، وهو أمـر غير هام ولا يناقش بحدة، ولكن الملاحظ والمؤكد هو نسبتهم في الطبقة الوسطى أعلى، والمشاهد أيضا أن نسـبتهم مـن الفقراء تقل كثيرا عن النسبة العددية العامة لتواجـدهم فـي المجتمع.

وملاحظ أيضا أن العائلة القبطية تناضل أن تسـتغني عن بعض الكماليات أو يعمل رب الأسرة وظيفة أخرى، من أجل تعلم الأولاد والبنات، ولذا فإن الأمية بين الأقبـاط أقـل انتشارا وإذا كان المتوسط العام لها نحو ٤٠ % على مستوى مصر كلها، فقد ينخفض هذا الرقم إلـى نحـو ٥ % مـثلاً، وغالبا ما تجد الأسرة القبطية المتوسطة أو الفقيرة "مستورة" وتتبع مقولة "وعلى قدر لحافك مد رجليك" أي تكتفي بما قسم لها ا من رزق، ومن هنا يتحقق بعض طموحها من خـلال التركيز على التفوق في التعليم بالنسبة للأولاد والبنات ولـذا

فإن نسبتهم بين طلاب الجامعة (وكان ذلك في السابق بين أساتذة الجامعة أيضا) أعلى كثيرا مما هو متداول ومعروف من النسبة العددية الفعلية للأقباط وهو أمر خلافي، وإن كان هناك شبه اعتراف رسمي بأن الأقباط يصلون إلى نحو ١٠ % من التعداد الكلي للسكان.

وربما يكون القارئ قد لاحظ خلال عرض "الأعمدة السبعة للشخصية المصرية" أن غالبية الأقباط أكثر حماسا وتمسكًا بالعمود الفرعوني، ذلك لأن الكثير من الممارسات الدينية القبطية لها جذور أي امتداد تاريخي يعود للعصر الفرعوني مثل فكرة وجود طبقة من رجال الدين بمسمى "الكهنة"، ووجود أعياد تمتد إلى الحقبة الفرعونية مثل أعياد الغطاس وشم النسيم والنيروز وغيرها ولا زال الفلاح المصري يستخدم الأشهر القبطية والتي لها امتداد فرعوني، ومعظم الموسيقى وألحان الكنيسة لها جذور وامتداد فرعوني.. وفي المقابل فإن غالبية المسلمين يشعرون أن انتماء مصر إلى العروبة هو جزء متمم للعقيدة الإسلامية لارتباط اللغة العربية بالنصوص الإسلامية.

وهذه وتلـك جـزء مـن الخصوصـيات الثقافيـة للمجموعات البشرية وهي قضية فكرية ثقافية مثارة عالميـا في الحقبة الحالية ولكننا في مصر ومن فرط تمسكنا بأهداب الوحدة الوطنية، فإننا نرفض طرح ومناقشة هذا الأمر، ولكن النظرة المستقبلية تؤثر المناقشـة العقليـة والتـي سـتؤكد وستجعلنا نرسخ مفـاهيم وقواسـم الخصوصـيات الثقافيـة المشتركة ومن ثم تزداد فاعلية "المواطنـة" وتتفـوق علـى الانتماء الديني فلا زال الزواج في مصر ـ وسـيظل لمـدة طويلة قادمة ـ على أساس وحدة الدين بين الزوجين، وربما يضمر تأثير الدين على المجتمع تدريجيا ولعلنا نصـل بعـد أحقاب طويلة لأن يكون أسـاس المعاملـة هـو الخـواص الشخصية للإنسان وقدراته ومهاراته وإبداعاته دون اعتبـار للانتماء الديني، فأمامنا شوط طويل حتى نصل إلى أوضـاع الأمم المتحضرة خصوصا مع ازدياد نفوذ الأصوليات الدينية في مجملها، ليس في الوطن العربي فحسب وإنما في الشرق الأقصى حيث البوذية والكنفوشية، وصولا إلى أفريقيا حتـى الديانات القديمة الموروثة.

* * *

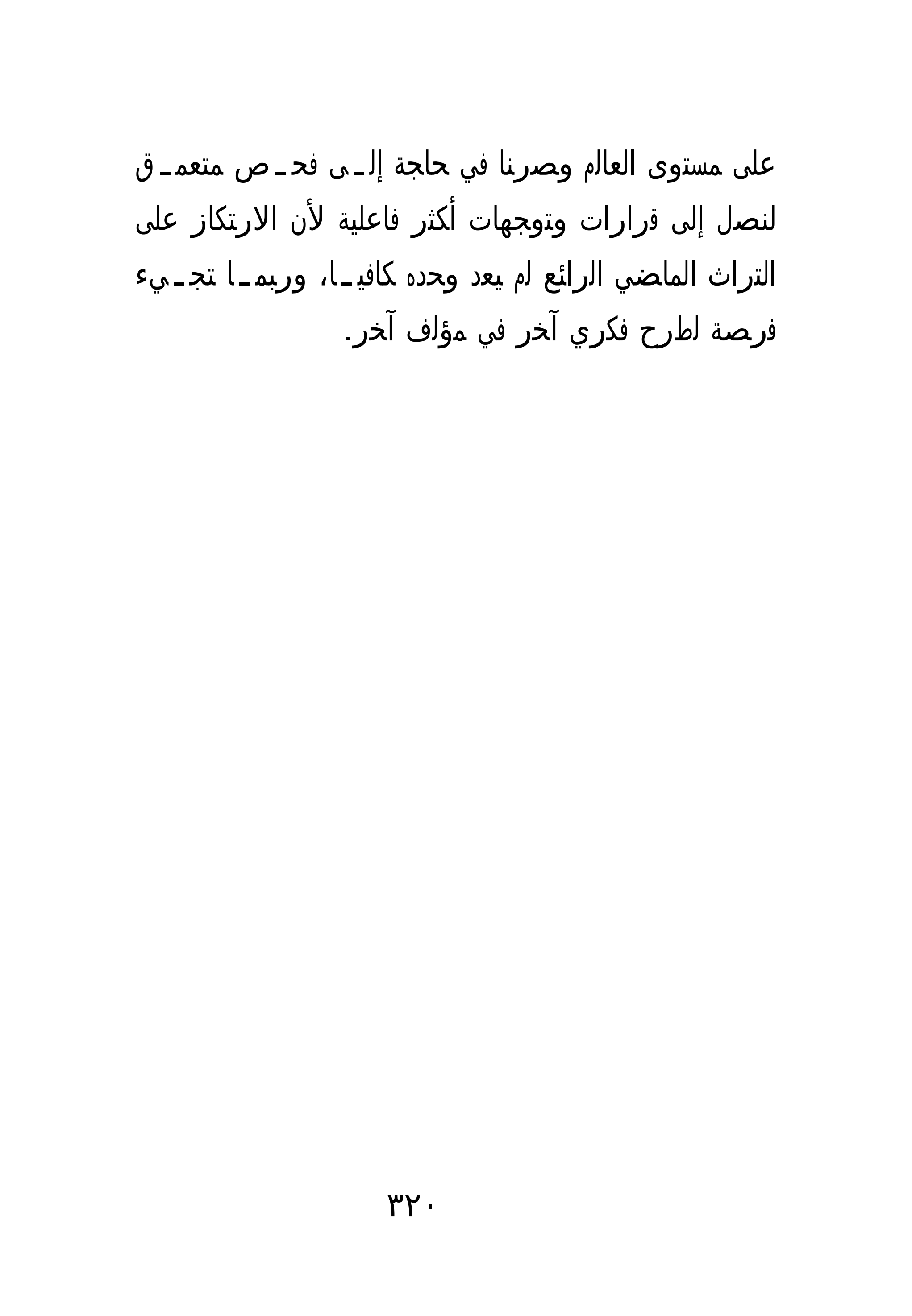
وفي مجال خصوصية الواقع المصري، لاحظت - كما لا بد أن لاحظ كثيرون - أن أقباط مصر مدركون ومتفاعلون بالخصوصية الثقافية الإسلامية - كما هي ممارسة في مصر - فما من قبطي إلا ويعرف آيات من القرآن والعديد من الأحاديث، ويصل الأمر لأن يستخدمها القبطي البسيط في أحاديثه اليومية مثل "إن الدين المعاملة" و "إن النظافة من الإيمان" وأن "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين" و "أن لا إكراه في الدين" وما إليها، وهذا الأمر من الأسباب التي أوجدت تفهما عاما بين الأقباط للإسلام عموما، لخصوصية الإسلام في مصر، فهم يلمسون الود والتعاون والحب من جيرانهم في السكن وزملائهم في العمل ولكن ما تتوارثه الأجيال التي تأثرت بمفاهيم ثورة عام ١٩١٩، يختفي تدريجيا بحكم التقدم في السن ورحيل هذا الجيل، ونشأت أجيال جديدة غير مقتنعة بهذه المفاهيم أصلاً.

وتلاحظ أيضا - وفي السنوات الأخيرة بالذات منذ أوائل السبعينيات - أن الخصوصية الثقافية القبطية لم يعد لها وجود لا في التعليم أو في الإعلام أو داخل الأسرة، وأوجد ذلك "عزلة" ثقافية لدى الأقباط، وكان رد الفعل

الطبيعي والمسالم، هو أن تحولت "الكنيسة القبطية" مـن أن تكون مكانا للعبادة فحسب لأن تكـون "مجتمعـا"، يحتـوي الإنسان في كافة أمور الحياة، خصوصا الشباب، ففي الكنيسة ومعها تكون الصلاة والثقافة والمفاهيم والتعليم والاجتماعات والأخوة والأصدقاء والرحلات المشتركة بل صـارت هـي السبيل العملي لاختيار شريك الحياة وصولاً إلى الزواج.

وتحول كاهن الكنيسة مـن أن يكـون راعيـا فـي الجوانب الروحية والدينية، لأن يكون هو المستشار للأسـرة والشاب (وأحيانًا الأطفال) في كافة ما يتعرض له المرء من مشاكل في الحياة، وقد أدى كل ذلك إلى أن صـار رجـال الأكليروس هم قادة الأقباط بالفعـل وتـدريجيا ضـمر دور "الأراخة" (أراخة جمع أرخن أو أرخى أو أرشـى وتعنـي الرئيس أو كبير القوم) أو ما كانوا يحملون لقـب البكـوات والباشوات بلغة مـا قبـل عـام ١٩٥٢ أو دور المهنيـين والمثقفين والأثرياء في مرحلة ما بعد عام ١٩٥٢ حتى الآن.

مجمل ما رغبت في أن أطرحه سريعا، هو أن الواقع الثقافي في المجتمع المصري قد تغير كثيرا في العشرين سنة الأخيرة كما تغير الواقع السياسي في المنطقة كثيرا، وكـذلك



على مستوى العالم وصرنا في حاجة إلـى فحـص متعمـق لنصل إلى قرارات وتوجهات أكثر فاعلية لأن الارتكاز على التراث الماضي الرائع لم يعد وحده كافيـا، وربمـا تجـيء فرصة لطرح فكري آخر في مؤلف آخر.

الفصل السابع

سيمون بوليفار محرر أمريكا اللاتينية

(١٧٨٣ ـ ١٨٣٠ م)

٧

من هو سيمون بوليفار وصفاته الشخصية

ربما كان سيمون بوليفار من أقدم - إن لم يكن أقدم - قيادات حركات "التحرر الوطني" في العالم، قد بدأ نضاله في أوائل القرن التاسع عشر في أعقاب المناخ الثقافي العـام الذي أفرزته الثورة الفرنسية، وصارت مفاهيم: الحريـة - المساواة - الإخاء - وهي شعارات الثورة - وقودا أشـعل النار والنور معا، وامتدت المشاعر الثورية إلـى الولايـات المتحدة شمالاً وإلى أمريكا اللاتينية جنوبا.

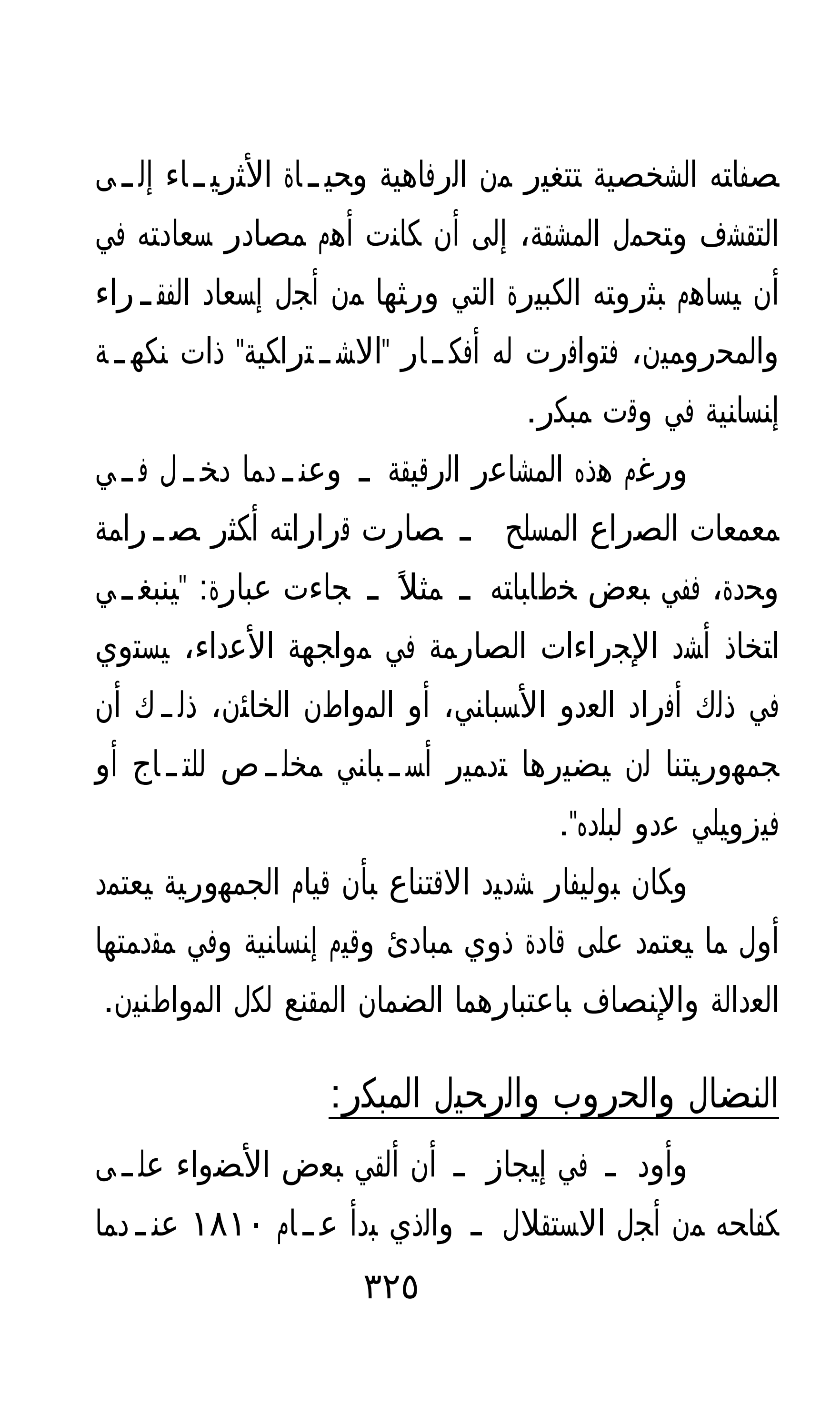
ينتمي سيمون بوليفار إلى أسرة عريقة فـي دولـة فنزويلا فقد ولد في ٢٤ يوليو عام ١٧٨٣ بمدينة كاراكـاس لأسرة تعود جذورها إلى منطقة الباسك في أسبانيا، ولكنه - وفي سن مبكر - توفي والده وكان عمره سـنتين ونصـف السنة، ولذا كان تعليمه في السـنوات الأولـى مـن خـلال مدرسين خصوصيين، أثروا على تكوينه ووجدانه الثقافي وقد رافقه " سيمون رودرجيز " أستاذه القريب إلى نفسـه، فـي رحلته التعليمية إلى أوروبا في سن المراهقة فهكذا كان نمط

الحياة وقتها للأثرياء والتحق بأكاديمية سـان فرنانـدو فـي مدريد ثم المدرسة العسكرية في سـوريز بجنـوب فرنسـا، ومارس هوايات؛ المبارزة وركوب الخيل والرقص، وخلال هذه الرحلة، ارتبط عاطفيا وتزوج في مدريد في ٢٦ مـايو ١٨٠٢ (أي في سن ١٩ عاما) فعاد إلى موطن رأسه بمدينة كاركاس (عاصمة فنزويلا) ولكنه صدم فقد ماتـت زوجتـه سريعا بعد ثمانية أشهر من الزواج فاضطر للقيـام برحلـة ترفيهية ثانية، وغادر أمريكا اللاتينية في أكتوبر عام ١٨٠٣ لكي يبحث عن السلوى والعزاء، غير أن الصدمة العاطفيـة بفقد زوجته في سن مبكر وبإرشاد معلمه الذي رافقه طـوال سنوات الطفولة والشباب سـيمون رودريجـز كمـا سـبق وذكرناه، جعلت عواطفه تنضج في سن مبكر وسافر كنـوع من الحج إلى التل المقدس المسمى جبل مونتي ساكرو فـي روما حيث تعهد وأقسم على أن يسخر جهده وماله وعلمه من أجل تحرير بلاده من كل من الاستعمار الأسباني والرق.

واستمرت إقامته في بلدان أوربية مختلفة ثم رغـب في التعرف على الحياة والثقافـة فـي الولايـات المتحـدة الأمريكية إلى أن عاد إلى كراكاس مملوءا حماسـا وفكـرا

ورغبة في النضال في يونيو عـام ١٨٠٧ وهـو ابـن ٣٤ ربيعا، متأثرا بما رآه في أوروبا وأمريكا، ولكنه كان أيضـا مدركا للفارق الثقافي والحضاري بين أوروبا والتي كانت قد خرجت بالفعل من حقبة العصور الوسطى إلى عصر النهضة ثم الثورة الصناعية، وبين بلاده في أمريكا اللاتينية وهي بعد مزيج من حضارات مختلفة لم تنصهر بعد ولم يمض أكثـر من ٣٠٠ سنة على بداية اكتشافها بواسـطة الإمبراطوريـة الأسبانية التي عاملتها كمستعمرات يملكها الملك ومكونة من مزيج طبقي معقد، يتربع على القمة الأسبانيون المستعمرون الكرويل Creoles ثم الملونون Mulatres وهم خليط مـن أجناس بدرجات مختلفة، ويليهم الهنود الأحرار فالهنود العبيد وفي أدنى القاعدة الزنوج الأحرار فالزنوج العبيد.

وفي عام ١٨١٠ سافر بوليفار كمبعوث دبلوماسـي إلى بريطانيا العظمى على رأس وفـد فينزويلـي، فاحتـك بالثقافة البريطانية وتعرف ـ عن قـرب ـ علـى أسـاليب الحياة السياسية البريطانية في تلك الحقبة، ومن وقتها عكـف على القراءة في كافة ألوان الفكر وظلت القراءة أهم متعة له حتى خلال سنوات النضال في المعارك العسـكرية فأخـذت



صفاته الشخصية تتغير من الرفاهية وحيـاة الأثريـاء إلـى التقشف وتحمل المشقة، إلى أن كانت أهم مصادر سعادته في أن يساهم بثروته الكبيرة التي ورثها من أجل إسعاد الفقـراء والمحرومين، فتوافرت له أفكـار "الاشـتراكية" ذات نكهـة إنسانية في وقت مبكر.

ورغم هذه المشاعر الرقيقة ـ وعنـدما دخـل فـي معمعات الصراع المسلح ـ صارت قراراته أكثر صـرامة وحدة، ففي بعض خطاباته ـ مثلاً ـ جاءت عبارة: "ينبغـي اتخاذ أشد الإجراءات الصارمة في مواجهة الأعداء، يستوي في ذلك أفراد العدو الأسباني، أو المواطن الخائن، ذلـك أن جمهوريتنا لن يضيرها تدمير أسـباني مخلـص للتـاج أو فيزويلي عدو لبلاده".

وكان بوليفار شديد الاقتناع بأن قيام الجمهورية يعتمد أول ما يعتمد على قادة ذوي مبادئ وقيم إنسانية وفي مقدمتها العدالة والإنصاف باعتبارهما الضمان المقنع لكل المواطنين.

النضال والحروب والرحيل المبكر:

وأود ـ في إيجاز ـ أن ألقي بعض الأضواء علـى كفاحه من أجل الاستقلال ـ والذي بدأ عـام ١٨١٠ عنـدما

تعرضت أسبانيا إلى الغزو الفرنسي بقيادة "نابليون بونابرت" وانتهزت فنزويلا الفرصة، وثار الشعب ضد الحاكم الأسباني لبلادهم، واشترك بوليفار مع آخرين في تـأليف "الجمعيـة الوطنية" واتفقوا على إعلان استقلال فنزويلا فـي ٥ يوليـو ١٨١١.

وكان قد اجتاح كاركاس زلزال شرس في يوليو عام ١٨١٢، ذهب ضحيته نحو عشرة آلاف نسمة، وكان رد فعل بوليفار مدهشًا ومثيرا، ويدل على قدراته القيادية فـي سـن مبكر، إذ لم يكن قد تجاوز ٢٩ ربيعا، فقـد اعتلـى حكـام البيوت المتهدمة وصاح "إذا كانت الطبيعة تعترض طريقتنا، فإننا سنكافحها حتى نحملها على طاعتنا والانقياد إلينا"..!!

وتنتهي هذه الثورة أو "الفورة" الأولى بالفشل ويتمكن القائد الأسباني مونتفيردي من استعادة السـلطة، وكـان أول قرار له هو مصادرة أملاك بوليفار، مما دفعه إلى الرحيـل بالبحر إلى "قرطاجة" في كولومبيا الدولة المجاورة، واستطاع أن يجمع حوله نحو ٥٠٠ شخص. واستطاع ـ مـن خـلال حماسه وتعبئته للجماهير ـ وبهـذه القـوة الصـغيرة ـ أن يحرز انتصارات عسكرية متتالية ودخـل كاركـاس قائـدا

منتصرا مظفرا وحمله الناس على أكتافهم وهتفوا له "بطـل التحرير" ومن وقتها وحتى الآن، ظل هـذا اللقـب "محـرر أمريكا اللاتينية" ملازما له، ولم يسـتطع إنسـان آخـر أن ينتزعه منه.

غير أن ظروف المجتمع لـم تكـن ناضـجة بعـد لاستكمال الثورة وتثبيـت أقـدامها، ولا لتكـوين مجتمـع مؤسسات، كما كان الحال في دول أوروبا التي كانـت فـي سبيلها إلى التشكيل ديموقراطيا، وكما نقول في أمثالنا الشعبية في مصر "فرحة ما تمت" فقد اختلف أهالي فنزويلا، حتـى وصل بهم الأمر إلى صراعات أهلية مسلحة أدت إلى تمزق جيش سيمون بوليفار ذاته واضطر لأن ينسحب مرة أخـرى إلى قرطاجة، وجاءت أنباء بأن جيشًا أسبانيا كبيرا تحت قيادة الجنرال موريو في طريقه إلى بوليفار حيثما وجد - في أي من دول أمريكا اللاتينية - والتي صارت سمعته قد شـملتها كلها، ولم يكن من سبيل أمام "المحرر" إلا أن يغادر أمريكـا اللاتينية بأكملها وتوجه إلى "جامايكا"، حيث كتـب رسـالته الشهيرة التي يحلل فيها الأوضـاع السياسـية والصـعوبات

المجتمعة في أمريكا اللاتينية، واعتبرت هذه الرسالة وثيقـة تاريخية من أدبيات بوليفار وتعرف باسم "رسالة جامايكا".

وميزة بوليفار الكبرى والتي أكسبته هذه الشهرة التي جعلت منه "مناضلا" هي عدم اليأس فمن جامايكا قرر العودة إلى قرية صغيرة تسمى "أنجوستورا"، وأعلن عن رغبته في تكوين جيش يقاوم وينازل الجنرال موريو الأسباني، وبالفعل ـ ونتيجة لأن سمعة بوليفار كمحرر لأمريكا اللاتينيـة قـد عبرت الأطلنطي ـ فقد تقدم إليه مئـات مـن العسـكريين المحترفين والأوروبيين يقدمون خدماتهم، وتكون جيش هائل من أهالي فنزويلا وأمريكا وأوروبا، مما حفز زعيم فرسـان سهول فنزويلا المدعو بايث Paez أن ينضم إلى بوليفار بل ونادى ببوليفار قائدا وزعيما لهذا الجيش "الغريب" لأنه مكون من أجناس متعددة لا يجمعها إلا الحب والإعجـاب والثقـة والالتفاف حول شخصية سيمون بوليفار والذي أصـبح مـن وقتها "أسطورة".

وفي المواجهة العسكرية بين بوليفار وجيشه المتعدد الأجناس عام ١٨١٨ مع الجنرال مورو في معركة لابورتـا La Puerta، ولم يكن عجيبا ـ رغم حماس رجال بوليفـار

ـ أن يخسر المعركة عسكريا، ومرة أخرى لا ييأس القائـد العظيم ويفكر في مشروع أكبـر وهـو إنشـاء "جمهوريـة كولومبيا الكبرى" من فنزويلا وكولومبيا.

وهكذا يجمع رجاله وماله وعتاده ويجهـز للزحـف الكبير على كولومبيا في شتاء عام ١٨١٩، وكـان الشـتاء قاسيا والعتاد والمؤن قليلة، ولكنه ورجاله تحملوا ما تحملوا، فقد كان ـ وهو القائد والزعيم ـ مثلهم تماما يتحمل الجوع والبرد لا يميزه عنهم أي شيء، حتى وصل إلى جبال الإنديز في غرب كولومبيا، وقاد مسيرة طويلـة Long March (لا تقارن بالمسيرة الطويلة التي قطعها ماوتسي تونج عندما قام بتحرير الصين في الأربعينات من هـذا القـرن)، وفـي ٧ أغسطس عام ١٨١٩، دخل بوليفار مدينة "بوجوتـا" دخـول المنتصرين، وبعد أن هرب نائب الملـك الأسـباني، يعلـن بوليفار تأسيس "جمهورية كولومبيا الكبرى"، ومنهـا حـاول تنظيم صفوفه وجيشه ليحرر موطنـه الأصـلي "فنـزويلا" بالزحف إلى كراكاس، وطلب الجنـرال الأسـباني موريـو معونة ودعما من ملك أسبانيا، والذي أرسل له قوات إضافية، ولكن قائد هذه القوة الإضافية يعجـب بشخصـية بوليفـار،

ويرفض الانضمام إلى الجيش الأسباني، فاختل التوازن العسكري واضطر موريو إلى عقد تفاوض مع بوليفار.

وفي قرية سانتا أنا Santa Anna، كان اللقاء بين القائدين على نمط فرسان العصور الوسطى، فإذا بهما يتعانقان كما لو كانا صديقين حميمين، وتنتهي الأحداث مثل الأساطير، وفي ٢٤ يونيو ١٨٢١ يدخل بوليفار عاصمة فنزويلا من جديد وسط مظاهر فرح الشعب وتهليله للزعيم.

ولا يكتفي بوليفار بهذا الانتصار، إذ لا تمر عدة أشهر حتى يفكر في حرب تحريرية جديدة، وفي مارس ١٨٢٢ يجهز مع مساعده القائد العسكري العظيم سوكري Sucre حملة لتحرير مدينة "كيتو" عاصمة "إكوادور" وفي ٢٤ مايو ١٨٢٢، تدخل جيوش بوليفار إلى هذه المدينة كيتو ويعلن انضمام إكوادور إلى جمهورية كولومبيا الكبرى.

وتستمر انتصارات بوليفار وتستقبله مستعمرة بيرو (والتي صارت دولة مستقلة بعد ذلك) وفي ٩ ديسمبر عام ١٨٢٤، يحقق مساعده سوكري أعظم انتصاراته على جيوش أسبانيا في معركة "أيا كوتشر"، وعندما تصل أخبارها إلى بوليفار يصيح في حماس "النصر.. النصر..".

ولأن ظروف المجتمع لم تكن قد نضجت بعد - كما سبق أن ذكرنا - فإن الانتصارات العظيمة والمتلاحقة التي حققها بوليفار لم يكتب لها النجاح، فقد عمت الفوضى - ربما نتيجة التخلف - بعض المناطق المحررة في الشمال، ومن عجب أن تلك المناطق طالبت بالاستقلال عن "جمهورية كولومبيا الكبرى"، فتحول الحماس والزهو بالانتصار عند بوليفار إلى قنوط وإحباط، ويقول قوله المشهور: "يبدو أنني كنت أحرث في البحر..!".

وتبدأ سنوات النهاية المريرة، ويعود بوليفار إلى "بوجوتا" وهو مريض منهك القوى مهيض الجناح، وتمت محاولة اغتياله عام ١٨٢٨، ولكنه يهرب من النافذة ويهيم في الفيافي، فيفاجأ بخبر اغتيال الجنرال سوكري مساعده الأيمن وبطل معاركه العسكرية الكبرى ويشعر بوليفار باقتراب نهايته ويكتب وصيته قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة في ١٧ ديسمبر عام ١٨٣٠.

وبهذه الفقرات القصيرة، أنهى ملحمة نضال مواطن ولد ثريا، ومات فقيرا، عاش سنوات قليلة كلها متاعب ومحاولات لا تعرف اليأس من أجل استقلال ست دول في

شمال أمريكا اللاتينية، ولـو نجحـت محاولاتـه وتكونـت كولومبيا الكبرى لكان تاريخ العالم قد تغير..

* * *

الفصل الثامن

جائزة سيمون بوليفار الدولية

(١٩٨٣ ـ ١٩٩٨)

٨

جائزة سيمون بوليفار الدولية

عقب عودتي من رحلة بـاريس واسـتلام الجـائزة تفضل السفير فتحي صالح - وهـو أسـتاذ الإلكترونيـات بهندسة القاهرة وسفير مصر في اليونسكو - بدعوتي إلـى حفل عشاء بمنزله تحية لي ولأسرتي التي كانت مرافقة لـي في هذه الرحلة، إيفلين رياض الكاتبة الصحفية زوجتي وابني المهندس هاني، وابنتي ماري وقد حضرت من تورنتو بكندا خصيصا، بينما ابنتي الكبرى مشيرة - وهي مقيمة من ١٧ عاما في مدينة وندسور بولاية أونتاريو بكندا، لـم تسـتطع الحضور لالتزاماتها العائلية لدراسة بناتها سـارة ومونيكـا، وكان هذا الحفل في الشقة الفاخرة للـدكتور فتحـي صـالح المطلقة على نهر السين في باريس، وقد قامت بالترحيب بنا زوجته الفاضلة د. نبيلة ابنة أسـتاذنا المرحـوم د. حسـن إسماعيل رئيس جامعة القاهرة ووزير الثقافة فـي مرحلـة السبعينات وكان حاضرا الحفلة الأخ العزيز د. مفيد شـهاب

وزير التعليم العالي والسفير علي ماهر سـفير مصـر فـي فرنسا.

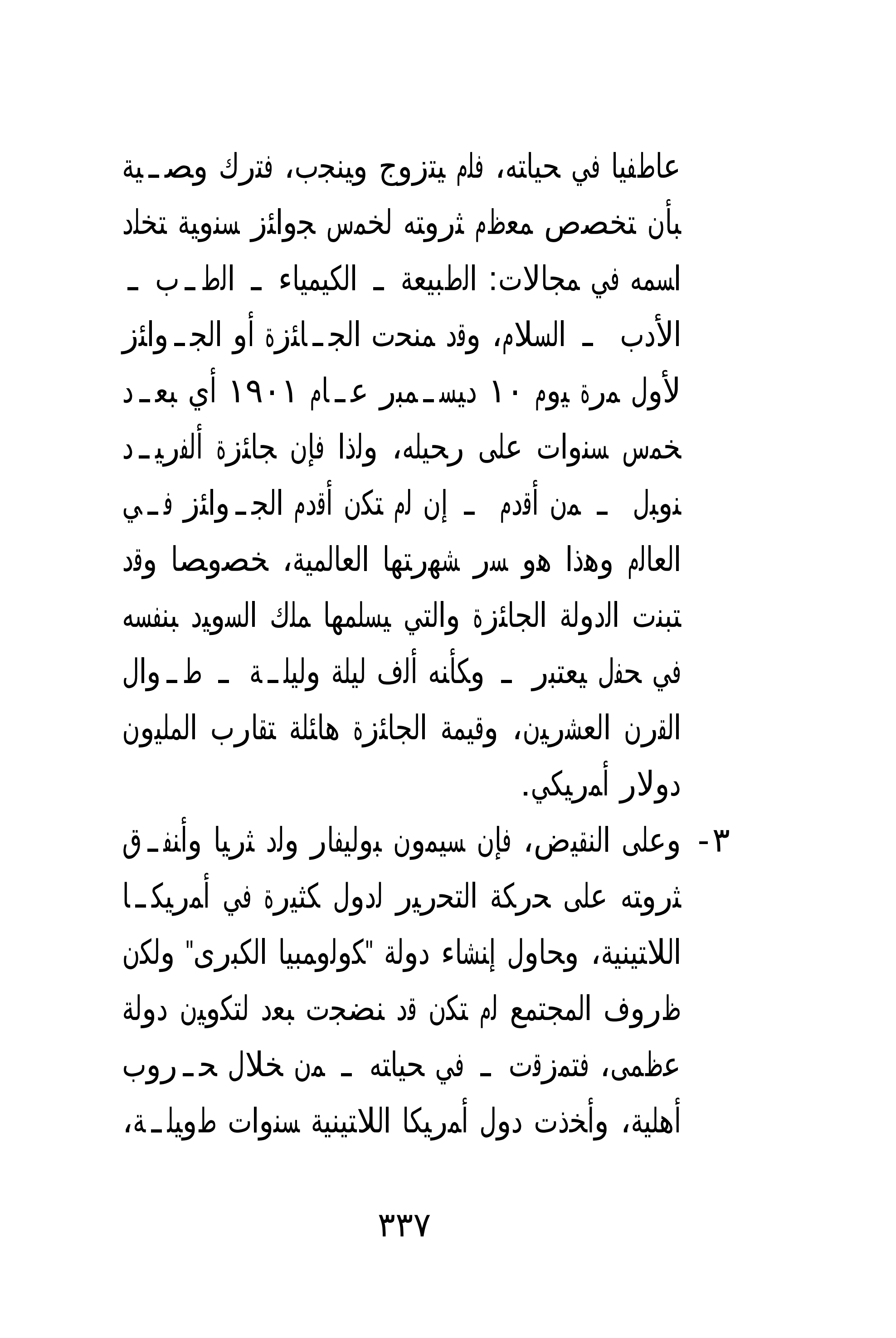
وعندما عدت إلى القاهرة غمرنـي شـعب مصـر بمسلسل من حفلات التكريم ممثلاً في عشـرات الجمعيـات الأهلية على أنواعها - ولولا الإحساس بأن في ذلك لذعا من التباهي والتفاخر - لذكرتها كلها، فقد طوقت هذه الجماعات عنقي بمشاعر فياضة، جاءت في وقتهـا - أي فـي هـذه المرحلة من العمر - والتي أسميتها "سنوات جنـي الثمـار" وكان من أهمها حفلة أقامتها أسرة وادي النيل لتعبـر عـن ارتباطي التاريخي بشعب السودان الشقيق ثم احتفال جمعيـة المراسلين الأجانب بمصر، والذين تفضلوا بإضـافة فضـل على فضلهم بتكريمي، فقد منحوني درعا يحمل اسمي وتحته عبارة هزت مشـاعري: "فخـر مصـر" " The pride of Egypt – 1998" وفي الجانب الآخر لم يصـلني - ولـو برقية - من المسئولين الكبار في مصر، وكأنهم لا يقـرأون الصحف، فشعرت بأنني بالفعـل مناضـل وعلـى الخـط الصحيح..!!

أيا ما يكن من أمر - وفي إطار الحديث عن جائزة سيمون بوليفار - كان السؤال الرئيسي الذي يطـرح علـي باستمرار هو أيهما أهم: جائزة سيمون بوليفـار أم جـائزة: نوبل، فكلاهما جائزة دولية وربما كانا أشهر الجوائز الدولية حاليا، ومن ثم كانت المقارنة.

وفي هذا الإطار - رغبت في أن أسجل في سطور وفي إيجاز، أوجه المناظرة وأوجه المفارقة:

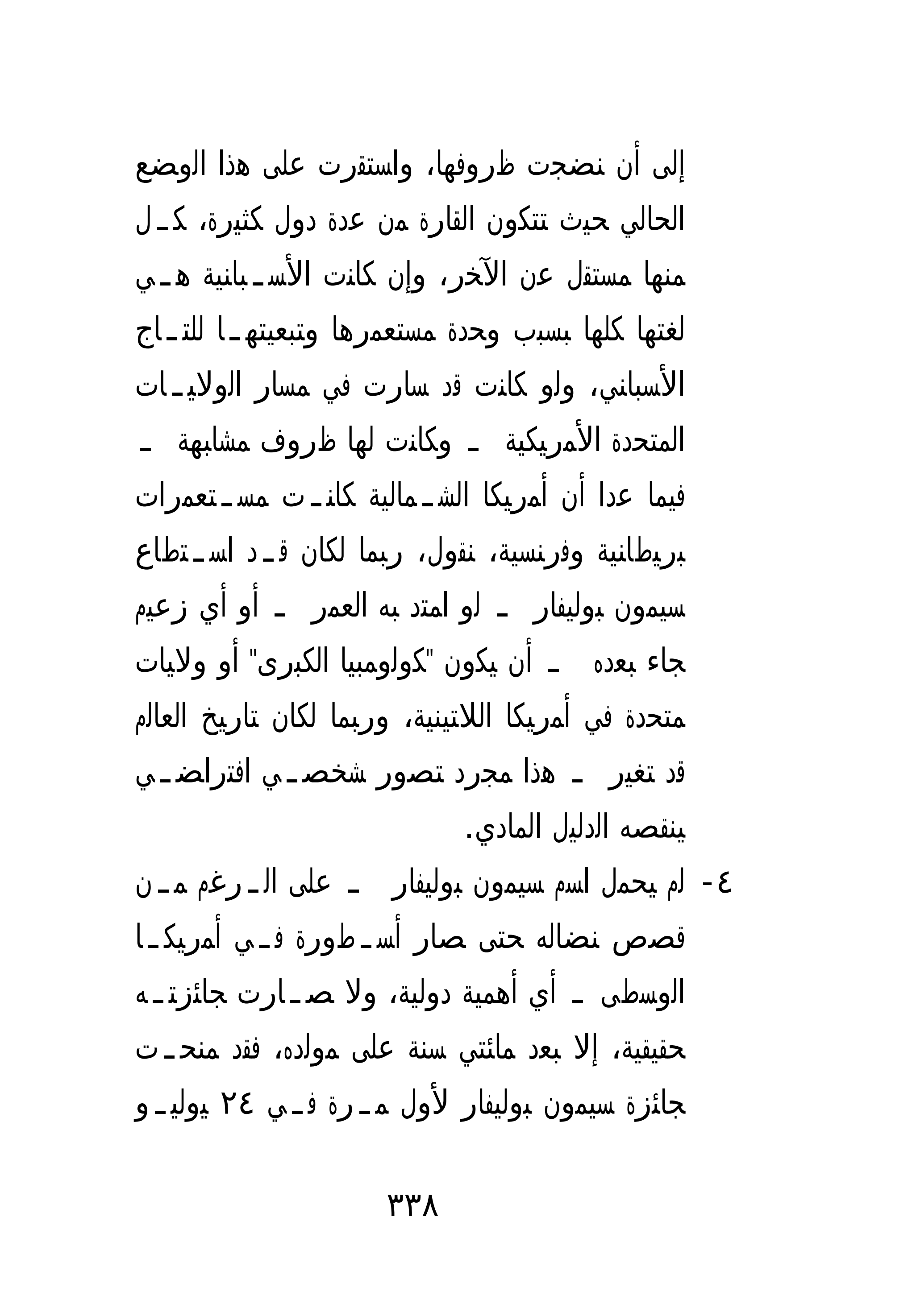
١- ولد ألفريد نوبل في الطرف الشمالي الفقير لمدينـة استكهولم - عاصمة السويد - عام ١٨٣٣ أي بعد ٣ سنوات من رحيل سيمون بوليفار والذي ولد ثريا عام ١٧٨٣ ومات فقيرا عام ١٨٣٠، وفـي دولـة فنزويلا الفقيرة والمستعمرة الأسبانية، وتـأثر كـل منهما بأوضاع المجتمع والمشاكل التي ولد وعـاش فيها.

٢- عبر مسيرة الفريد نوبل والتي امتدت على ٦٣ عاما (مات في ١٠ ديسمبر عام ١٨٩٦) اشتغل بابتكـار المواد المفرقعـة وفـي مقـدمتها الـديناميت مـن النتروجلسرين وكون من ذلك ثروة هائلة، وصـدم



عاطفيا في حياته، فلم يتزوج وينجب، فترك وصـية بأن تخصص معظم ثروته لخمس جوائز سنوية تخلد اسمه في مجالات: الطبيعة ـ الكيمياء ـ الطـب ـ الأدب ـ السلام، وقد منحت الجـائزة أو الجـوائز لأول مرة يوم ١٠ ديسـمبر عـام ١٩٠١ أي بعـد خمس سنوات على رحيله، ولذا فإن جائزة ألفريـد نوبل ـ من أقدم ـ إن لم تكن أقدم الجـوائز فـي العالم وهذا هو سر شهرتها العالمية، خصوصا وقد تبنت الدولة الجائزة والتي يسلمها ملك السويد بنفسه في حفل يعتبر ـ وكأنه ألف ليلة وليلـة ـ طـوال القرن العشرين، وقيمة الجائزة هائلة تقارب المليون دولار أمريكي.

٣- وعلى النقيض، فإن سيمون بوليفار ولد ثريا وأنفـق ثروته على حركة التحرير لدول كثيرة في أمريكـا اللاتينية، وحاول إنشاء دولة "كولومبيا الكبرى" ولكن ظروف المجتمع لم تكن قد نضجت بعد لتكوين دولة عظمى، فتمزقت ـ في حياته ـ من خلال حـروب أهلية، وأخذت دول أمريكا اللاتينية سنوات طويلـة،



إلى أن نضجت ظروفها، واستقرت على هذا الوضع الحالي حيث تتكون القارة من عدة دول كثيرة، كـل منها مستقل عن الآخر، وإن كانت الأسـبانية هـي لغتها كلها بسبب وحدة مستعمرها وتبعيتهـا للتـاج الأسباني، ولو كانت قد سارت في مسار الولايـات المتحدة الأمريكية - وكانت لها ظروف مشابهة - فيما عدا أن أمريكا الشـمالية كانـت مسـتعمرات بريطانية وفرنسية، نقول، ربما لكان قـد اسـتطاع سيمون بوليفار - لو امتد به العمر - أو أي زعيم جاء بعده - أن يكون "كولومبيا الكبرى" أو ولايات متحدة في أمريكا اللاتينية، وربما لكان تاريخ العالم قد تغير - هذا مجرد تصور شخصـي افتراضـي ينقصه الدليل المادي.

٤- لم يحمل اسم سيمون بوليفار - على الـرغم مـن قصص نضاله حتى صار أسـطورة فـي أمريكـا الوسطى - أي أهمية دولية، ولا صـارت جائزتـه حقيقية، إلا بعد مائتي سنة على مولده، فقد منحـت جائزة سيمون بوليفار لأول مـرة فـي ٢٤ يوليـو

١٩٨٣ بمدينة كاركاس عاصمة فنزويلا - وحيث ولد وترعرع وناضل ثم نقل رفاته ليدفن بها عام ١٨٤٢. أي أن جائزة نوبل منحت بعد خمس سنوات من رحيله لتوافر التمويل بثروة نوبل الهائلة بينما منحت جائزة سيمون بوليفار بعد نحو قرن ونصف القرن من رحيله، ولذلك أثره على سمعة الجائزة وانتشار صيت جائزة ألفريد نوبل.

٥- عندما أصبحت دولة فنزويلا واسعة الثراء بسبب البترول، رغبوا في أن يخلدوا اسم محررها، وأن يجعلوا لاسمه سمعة عالمية، ولم يشاءوا - مثل دول كثيرة - بأن تصدر الجائزة من فنزويلا ذاتها - حتى وإن كان الترشيح لها عالميا مثل جائزة نوبل، فهي في الحقيقة جائزة محلية سويدية، ولكنها صارت عالمية بسبب أن وصية الفريد نوبل قد حددت أن الحصول على الجائزة يكون لأي إنسان في العالم (دون التقيد بأن يكون سويديا أو من مجموعة دول اسكندنيفيا) طالما أن له إنتاجا راقيا

في مجال تخصصه يؤهله لهذه الجائزة كبيرة القيمة ورفيعة المستوى التخصصي.

٦- تقدمت فنزويلا إلى اليونسكو عام ١٩٧٨، تطلب أن يقوم اليونسكو بكل إجراءات منح الجائزة من كيفية الدعوة للترشيح - وتشكيل لجنة التحكيم - ولمـن تعطى الجائزة وما هي معايير الفحص لمنح الجائزة وقياس الإنتاج وما أشبه، وقد أرفقت حكومة فنزويلا بطلبها مبلغًا من المال (أحسب أنه غير كبير بـدليل أن قيمة الجائزة المادية غير كبيرة).

وقد فحص المجلس التنفيذي في دورة انعقـاده رقـم ١٠٥ عام ١٩٧٨ طلب فنـزويلا، ووافـق علـى أن حيـاة ونضال سيمون بوليفار - وقد صار تاريخه معروفًا في كل من أمريكا اللاتينية وأوروبا - جديرة بمنح جائزة دولية، ثم تصدر من اليونسكو (أي من هيئة عالمية وليس من دولـة) وجعلوا منحها كل سنتين تقدم لفرد واحد وبحد أقصى لفردين كل مرة، أو لهيئة أو منظمة، وربطوا بين تـاريخ سـيمون بوليفار وأفكاره ومقولاته ونضاله، وبين أحوال العالم الحالي، ووضعوا لذلك لوائح وعبارات ومعايير، بأن هدف اليونسكو

من منح الجائزة - كما جاء فـي النشـرة التـي جهزتهـا اليونسكو لهذا الغرض - هو أن هدفها من منح هذه الجائزة العالمية إلى "أفراد بارزين" والذين يرسمون طريق المستقبل بذات الروح الذي ناضل بها "المحرر" والذي تحمل الجـائزة اسمه، " لتنمية وزيادة الوعي بين الشعوب بالتبادل والتعاون بين جميع أجناس الأرض والنضال المستمر الدءوب من أجل الحرية والعدالة في عالم يكون فيه السلام هو حجر الزاويـة لكرامة الإنسان".

من حصلوا على جائزة سيمون بوليفار (١٩٨٣ - ١٩٩٨):

تشكل اليونسكو منظمة الأمم المتحدة للتعليم والعلـوم والثقافـــة " Unesco United nations eduatinal, scientific & Cultural or Ganisation والتي اتخـذت مقرها في باريس ويرأسها مدير عام ينتخب لمدة فترتين فقط من المجلس التنفيذي والذي يبلغ عدد أعضـائه ٥٨ عضـوا ينتخبون من بين نحو ١٨٠ مندوبي الدول الأعضاء، نقـول، تشكل هذه المنظمة لجنة تحكيم من سبعة أعضاء متميـزين

عالميا وحيث يمثل خمسة منهم على الأقل جميـع منـاطق وقارات وثقافات العالم.

وقد منحت الجائزة لأول مرة يوم ٢٤ يوليـو عـام ١٩٨٣ بمناسبة مرور مائتي عام على مولد سيمون بوليفار، وكان هذا الاحتفال الأول هو الوحيد الذي انعقد فـي مدينـة كاراكاس عاصمة فنزويلا، وبعدها - وحتـى الآن - يـتم الاحتفال - في يوم يتفق مع مواعيد لجنة التحكيم واستكمال الإجراءات، وذلك بمقر اليونسكو بمدينـة بـاريس، ليكـون للاحتفال صبغة عالمية بالفعل وهو أمر سيلمسه القـارئ - من مجموعة الصور المنتقاة - والتي تنشر في هذا الكتـاب لأول مرة.

وخلال الخمسة عشر سـنة الماضـية (١٩٨٣٢ - ١٩٩٨) تم منح جائزة سيمون بوليفار الدولية ٧ مرات على النحو الآتي:

(١) نيلسون مانديلا (جنوب أفريقيا) ومثله في الاحتفـال (لأنه كـان بالسـجن) رئـيس المـؤتمر الـوطني الأفريقي.

(٢) الملك خوان كارلوس الأول (أسبانيا).

وقد عبرت الجائزة لهما معا عـن مـزج معـايير محاربة التمييز العنصري مع ملكية ديمقراطية وكانت حكمة لجنة التحكيم في أن تمزج هدفين للمحرر "سيمون بوليفـار" وهما الحرية والديمقراطية.

- المرة الثانية: ٢٠ يونيو ١٩٨٥:

منحت الجـائزة إلـى مجموعـة الكنتـادورا The contadore group وقد مثلها وزراء خارجيـة كـل مـن كولومبيا ـ المكسيك ـ بنما ـ فنزويلا ـ اعترافا من لجنة التحكيم بالدور الحاكم الذي لعبته هذه المجموعة فـي إيجـاد حلول سلمية في الصراع الذي كان يدور في منطقة أمريكـا الوسطى.

- المرة الثالثة: ٢١ يوليو ١٩٨٨:

وقد منحت الجائزة إلى جماعة التضامن في شيلي ـ The Vicaria de la Solid Monsignor Sergio Valech Aldunate وقد رغبت لجنة التحكيم ـ وقتهـا ـ في أن تلقي الضوء على هذه المنظمة الوطنية الدينيـة فـي المحافظة على التراث الوطني للثقافة في جمهوريـة شـيلي وفي إطار مبادئ العدل والحرية والسلام.

- المرة الرابعة: ٢١ نوفمبر ١٩٩٠:

منحت الجائزة هذه المرة لشخص واحد هو فـاكلاف هافيل Vaclav Havel وكـان وقتهـا رئيسـا لجمهوريـة تشيكوسلوفاكيا لتؤكد لجنة التحكيم تقديرا لقراراته وحكمتـه التي أدت إلى تحقيق الدفاع عن الحرية وحقوق الإنسان فـي بلاده في مرحلة دقيقة.

- المرة الخامسة: ٢١ أكتوبر عام ١٩٩٢:

ومنحت الجائزة هذه المرة لشخصين، وكانت أولهما ـ ولأول مرة ـ امرأة قد لا تكون معروفـة فـي عالمنـا العربي ولكن لها سمعتها العالمية التي أهلتها للحصول علـى جائزة سيمون بوليفار العالية عام ١٩٩٢ وعلى جائزة نوبـل للسلام عام ١٩٩١ وهي السيدة أونج سان سـوكوي Oung San Sun Kyi وهي تنتمي إلى دولة مايانمار Myanmar في جنوب شرق آسيا.

ولهذه السيدة قصة نضال هائلة (معروفة جيـدا فـي أوروبا وأمريكا) وهي ابنة أحد زعماء الحركة الوطنية فـي بلادها في جنوب شرق آسيا وقد تم اغتياله عقـب أن وقـع وثيقة الاستقلال عن بريطانيا عام ١٩٤٧، استمرت الابنة في

مسار والدها، وقد عذبت ووضعت في الســجون وتحـددت إقامتها، وصارت حياتها ونضالها مثلا يحتذى.

وقد رغبت لجنة التحكيم بمنحها الجائزة في أن ترسل رسائل إلى كل حكومات العالم بشأن حـق المناضـلين فـي التعبير عن وجهة نظرهم دون قهر.

أما الشخص الثاني الذي منح الجـائزة عـام ١٩٩٢ فكان جوليوس تيريري فهو المعلم والفيلسوف ورجل الدولـة وناضل من أجل استقلال شعبه ووجد تنجانيقا مع زنزبـار، ليصير أول رئيس جمهورية لشعب تانزانيا والـذي صـاغ اسمه ووحدته.

- المرة السادسة: ١٦ نوفمبر ١٩٩٦:

وقد منحت هذه المرة لشخص واحد هو محمد يونس من بنجلاديش وقد رغبت لجنة التحكيم في أن تثمن إسهاماته المتميزة والمبدعة في مقاومة الفقر بإنشاء بنك جارامين (بنك الفقراء) والذي ساعد المرأة الريفية بالذات.

- المرة السابعة: ١٩ أكتوبر ١٩٩٨:

وقد منحت الجائزة مناصفة بين كل من:

١- ماريو سوارش رئيس جمهوريـة البرتغـال (١٩٨٦ ـ ١٩٩١) لـدوره البـارز فـي مكافحة نظـام سـالازار الفاشـي ودعـم الديمقراطية وحقوق الإنسان.

٢- ميلاد حنا من أجل إنجازه ومواقفه في مجال إسكان الفقراء ولنضـاله مـن أجـل دعـم العلاقات الحميمة بين الأديان فـي مصـر ولمواقفه في دعم المجتمع المدني والجمعيات الأهلية وحقوق الإنسان.

نلخص فنقول، إن جائزة سيمون بوليفار الدولية هي جائزة "المناضلين" من أجل حرية واستقلال الشـعوب، وقـد منحت حتى الآن إلى هيئتين من أمريكا اللاتينية ذاتها ثم إلى ملك وأربعة رؤساء دول بسبب نضالهم من أجـل شـعوبهم ولامرأة واحدة مناضلة وصار نضـالها محركـا لشـعبها، ولاقتصادي قد انحاز إلى الفقراء ثم لمواطن مصري بسـيط ناصر حق الفقراء في السكن وعمل من أجل تماسك شـعبه في وحدة وطنية لها تاريخها النادر.

علاقة سيمون بوليفار بمصر:

لا يعرف الشعب المصري إلا أقل القليل عن سيمون بوليفار، فمنذ مائتي سنة كانت الصلات بين مصر وأمريكـا اللاتينية محدودة للغاية، ناهيك على معرفتنا بتاريخ نضالهم.

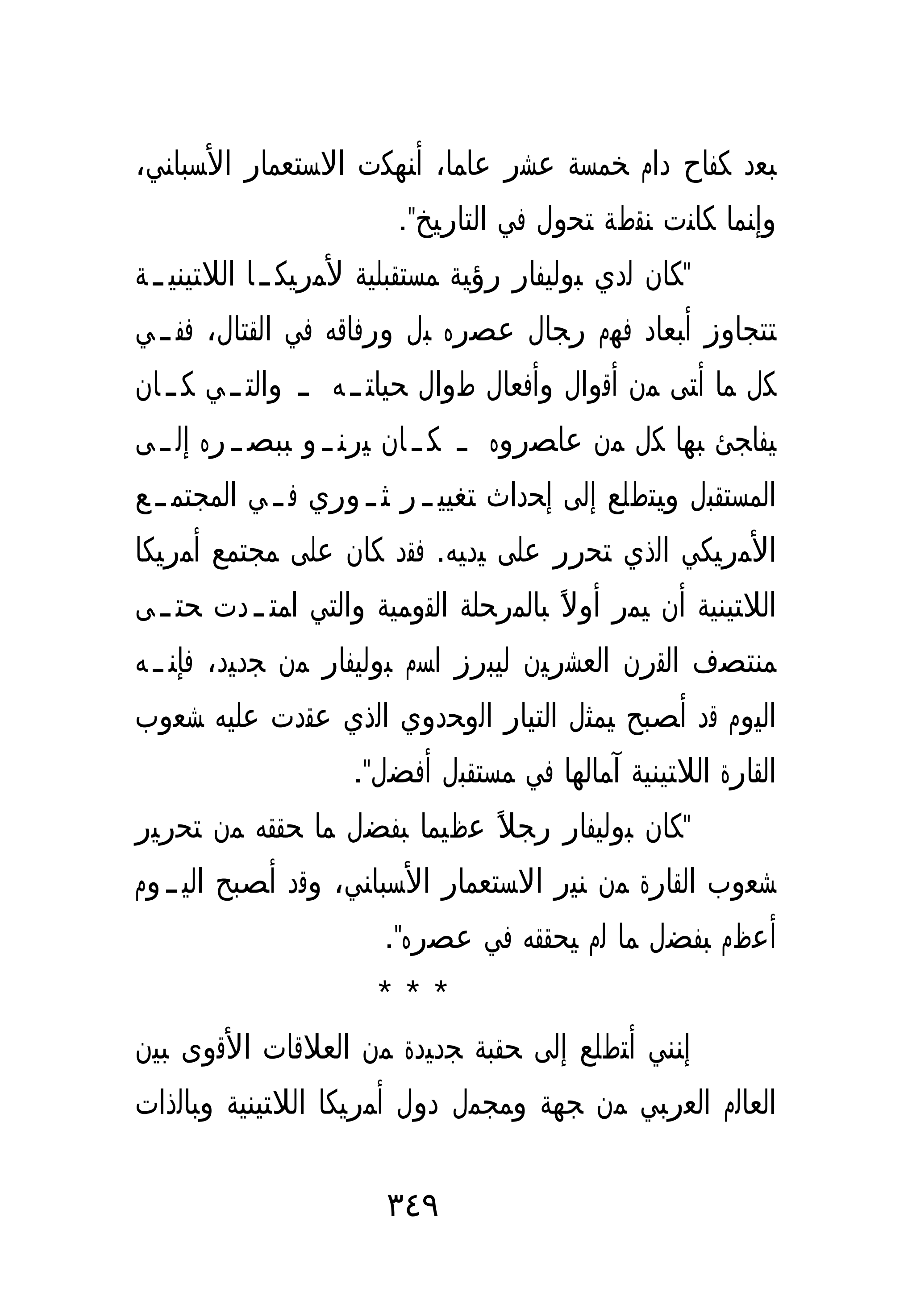
وقد ذكر لي داريو بـاودر Dario Bader سـفير فنزويلا بالقاهرة، عندما أقام لي حفل تكـريم بمنزلـه فـي المعادي، بحضور جميع سفراء أمريكا اللاتينية في القاهرة، قال مداعبا: ما من طفل في أي مدرسة فـي قـارة أمريكـا اللاتينية، إلا ويعرف مصر والأهرامات وتوت عنخ آمـون وعبد الناصر، وأتمنى من خلال حصولك على الجـائزة أن يتعرف المصريون والعالم العربي على معالم ورموز بلادنا.

ولعل في نشر هذا الجزء من الكتاب مـا يهـدف ـ كنقطة بداية ـ لتحقيق هذا الهدف النبيل، وواقع الأمر هو أن أول من اهتم بإيجاد صلة بين مصر وأمريكا اللاتينية كـان الرئيس جمال عبد الناصر، عندما تأسست مجموعة دول عدم الانحياز لشعوب ودول أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينيـة فـي الستينيات، وكان أن أصدرت محافظة القاهرة قرارا بتغييـر اسم ميدان قصر الدوبارة بحي جاردن سيتي فـي القـاهرة

ليكون اسمه ميدان سيمون بوليفـار، وفـي ينـاير ١٩٧٩، وبمناسبة زيارة حرم رئيس جمهورية فنزويلا لمصـر، تـم وضع تمثال سيمون بوليفار في ذاك الميدان الذي أطلق اسمه عليه، وفي موقع متميز بوسط القاهرة أمام جامع عمر مكرم قرب ميدان التحرير.

وقد ذكر لي د. بطرس بطرس غالي، كيف كان من المتحمسين لوضع هذا التمثال في وسط القاهرة - عندما كان وزير خارجية مصر - وقد سهل إجراءات نقل التمثال مـن كاراكاس إلى القاهرة، علاوة على أنه - أي د. بطرس غالي - وبصفته رئيسا لمركز الدراسات السياسية والاسـتراتيجية بالأهرام - فقد كلف أحد خبـراء المركـز "السـيدة نبيهـة الأصفهاني" بتأليف كراسة عن سيمون بوليفار بمناسبة مضي مائتي سنة على مولد سيمون بوليفار ومنح الجائزة الدوليـة من اليونسكو لأول مرة كما سبق الذكر، وكتب د. بطـرس بطرس غالي مقدمة هذه الكراسة، واقتبس منها هذه العبارة:

"لقد اكتشفت شعوب أمريكـا اللاتينيـة - بعـد أن خاضت تجارب مريرة - من التشتت والنظم الديكتاتورية أن بوليفار لم يكن مجرد قائد ثورة كتب لها النصر علـى يديـه



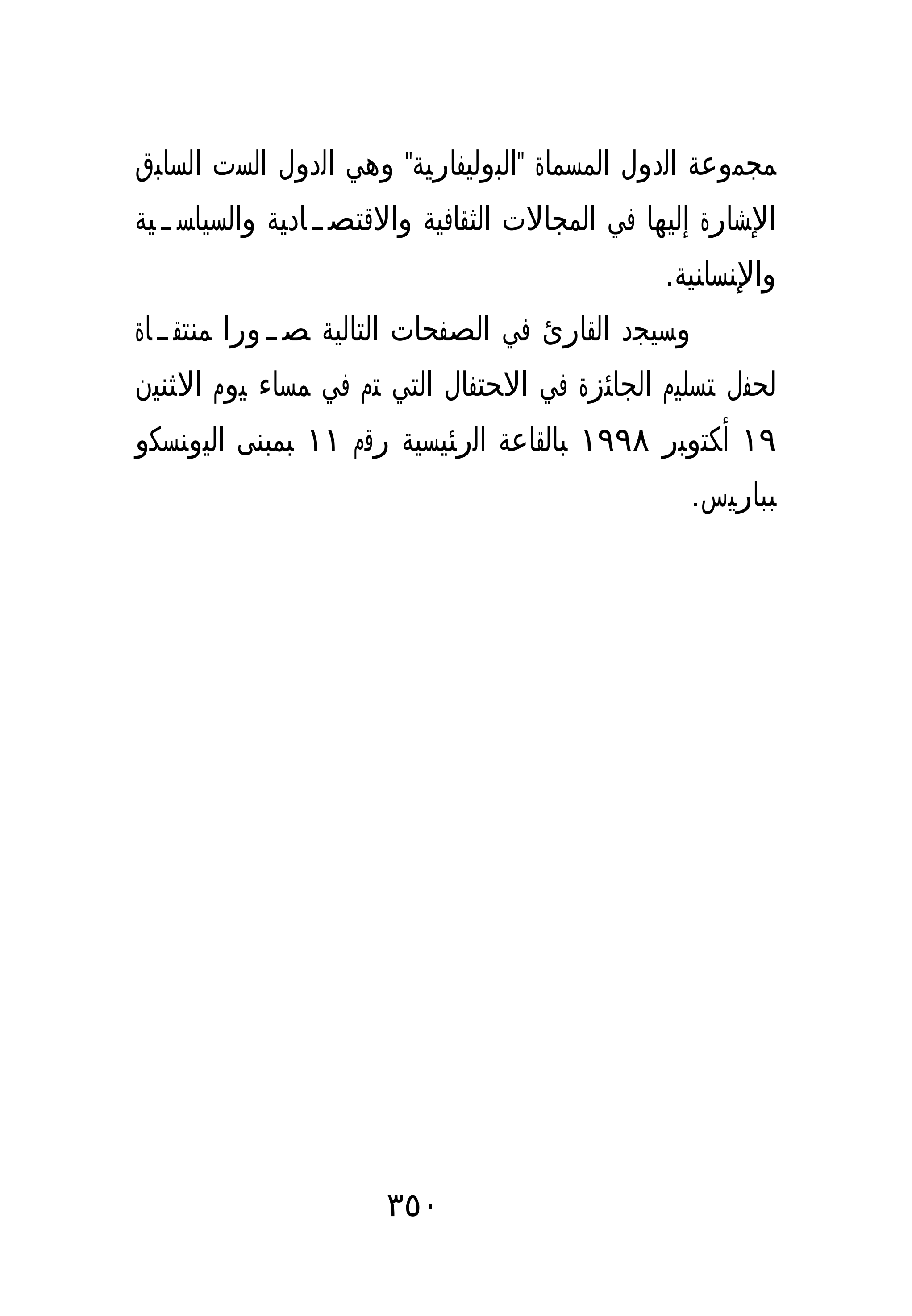
بعد كفاح دام خمسة عشر عاما، أنهكت الاستعمار الأسباني، وإنما كانت نقطة تحول في التاريخ".

"كان لدي بوليفار رؤية مستقبلية لأمريكـا اللاتينيـة تتجاوز أبعاد فهم رجال عصره بل ورفاقه في القتال، ففـي كل ما أتى من أقوال وأفعال طوال حياتـه - والتـي كـان يفاجئ بها كل من عاصروه - كـان يرنـو ببصـره إلـى المستقبل ويتطلع إلى إحداث تغييـر ثـوري فـي المجتمـع الأمريكي الذي تحرر على يديه. فقد كان على مجتمع أمريكا اللاتينية أن يمر أولاً بالمرحلة القومية والتي امتـدت حتـى منتصف القرن العشرين ليبرز اسم بوليفار من جديد، فإنـه اليوم قد أصبح يمثل التيار الوحدوي الذي عقدت عليه شعوب القارة اللاتينية آمالها في مستقبل أفضل".

"كان بوليفار رجلاً عظيما بفضل ما حققه من تحرير شعوب القارة من نير الاستعمار الأسباني، وقد أصبح اليـوم أعظم بفضل ما لم يحققه في عصره".

* * *

إنني أتطلع إلى حقبة جديدة من العلاقات الأقوى بين العالم العربي من جهة ومجمل دول أمريكا اللاتينية وبالذات



مجموعة الدول المسماة "البوليفارية" وهي الدول الست السابق الإشارة إليها في المجالات الثقافية والاقتصـادية والسياسـية والإنسانية.

وسيجد القارئ في الصفحات التالية صـورا منتقـاة لحفل تسليم الجائزة في الاحتفال التي تم في مساء يوم الاثنين ١٩ أكتوبر ١٩٩٨ بالقاعة الرئيسية رقم ١١ بمبنى اليونسكو بباريس.

ملحق صور لتسليم جائزة سيمون بوليفار

للدكتور ميلا حنا يوم الاثنين ١٩/ ١٠/ ١٩٩٨

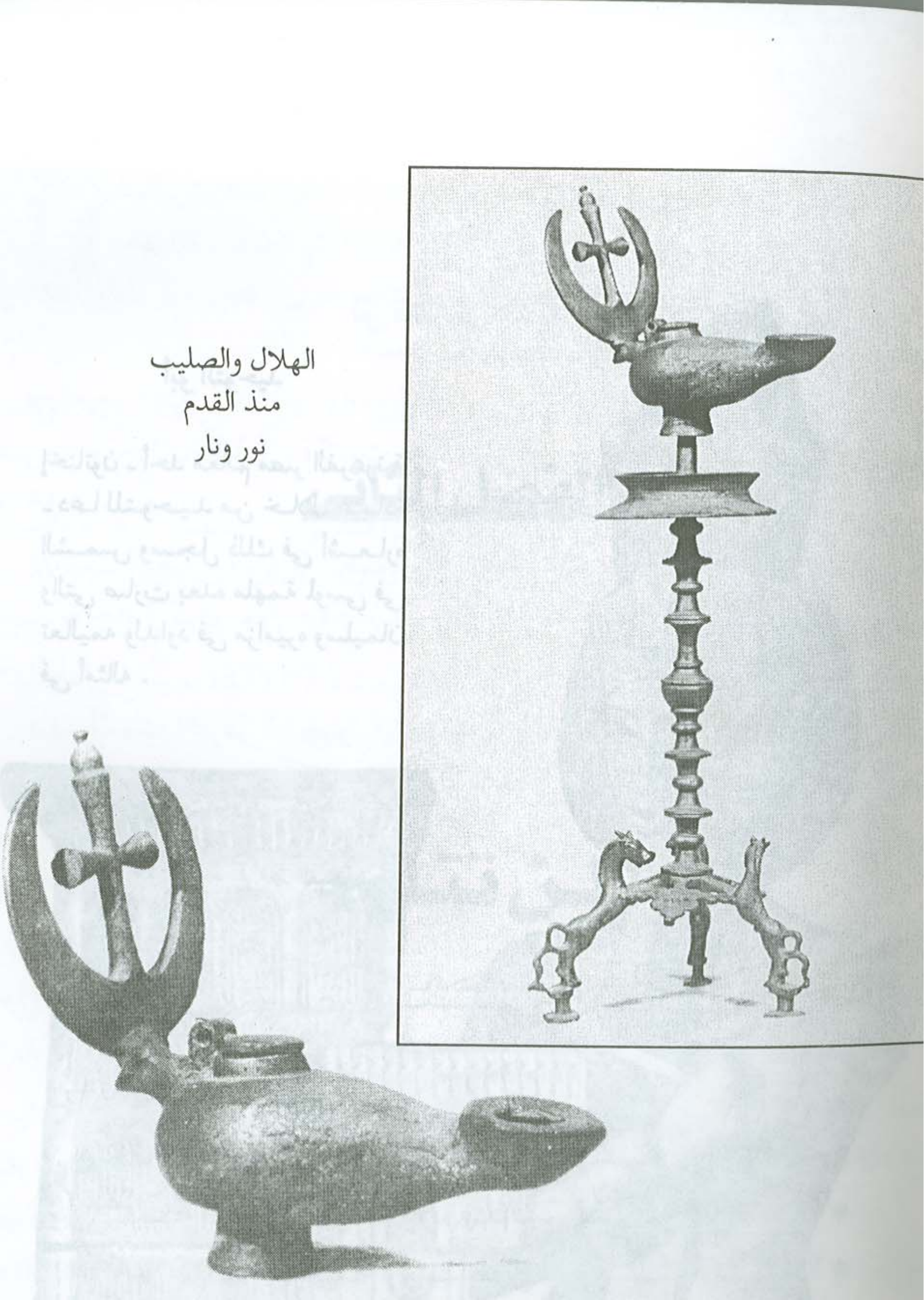
ـ مدينة باريس

«الحكمه بنت لها بيتاً . . شيدته على أعمدة سبعة »

سفر أمثال ٩ : ١



من أجل



الهلال والصليب
منذ القدم
نور ونار



أبو التوحيد

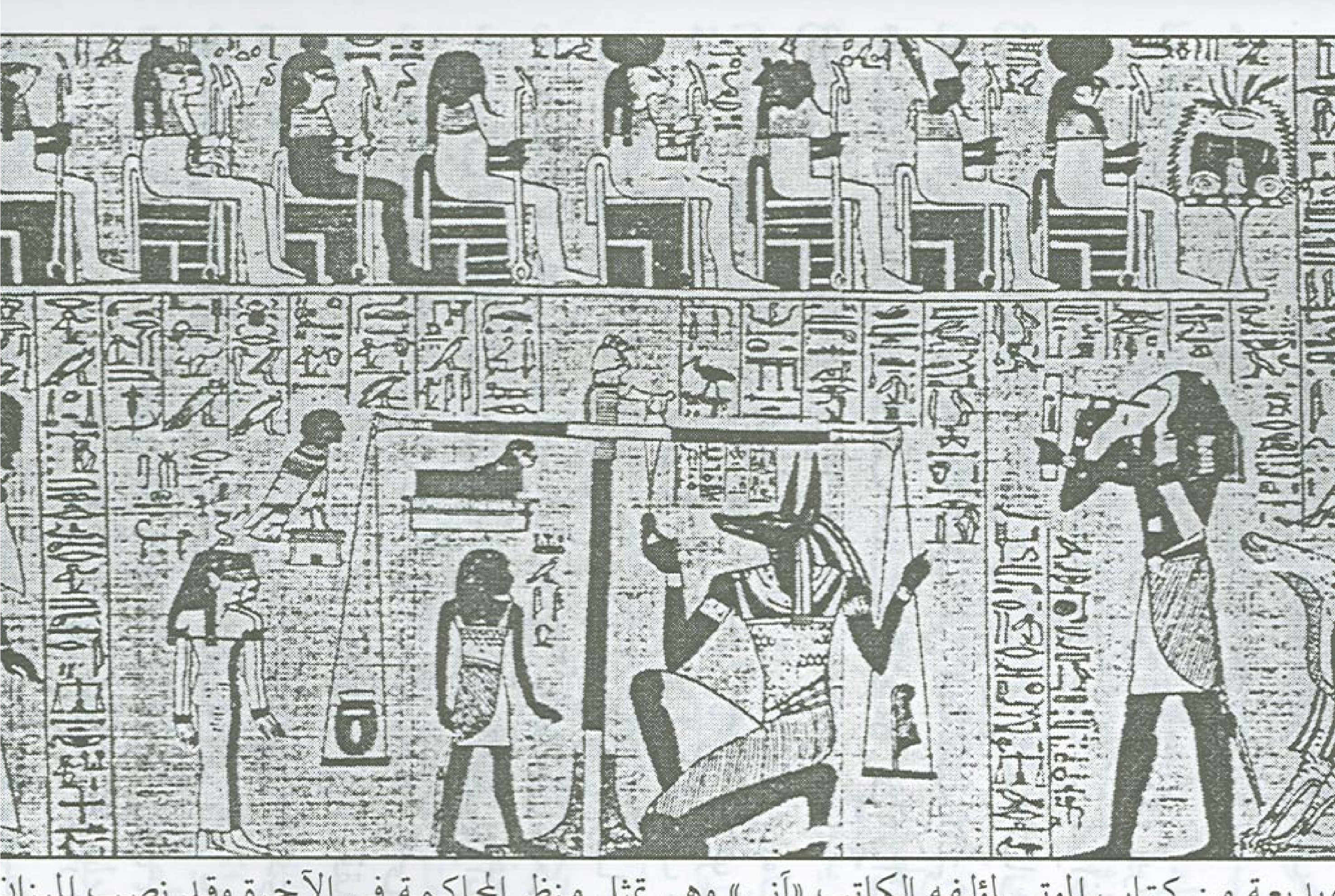
إخناتون ـ أحد معالم مصر الفرعونية ـ دعا للتوحيد من خلال عبادة الشمس وسجل ذلك فى أشعاره والتى صارت بعده ملهمة لموسى فى تعاليمه ولداود فى مزاميره وسليمان فى أمثاله .



الرئيس السادات يستقبل اللجنة البابوية عقب
أحداث سبتمبر ١٩٨١



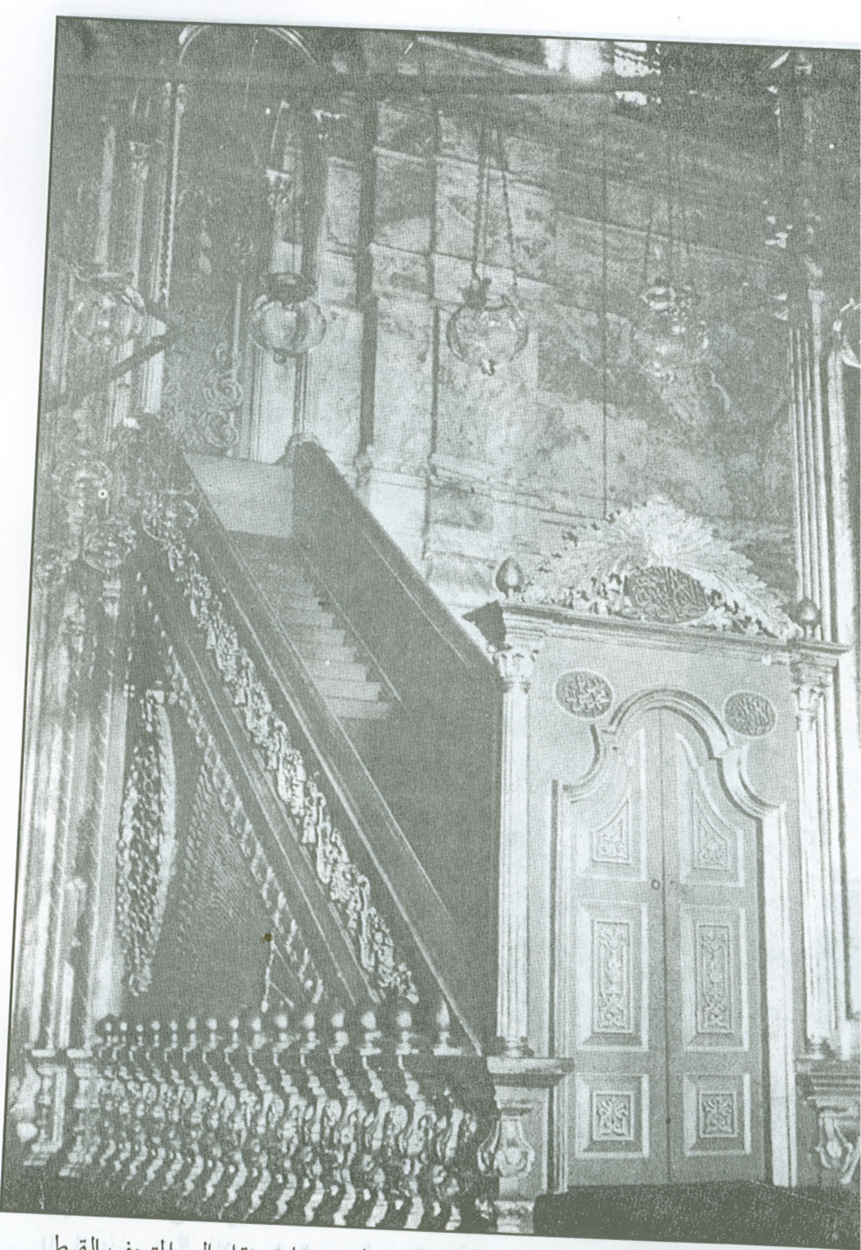
الأب متى المسكين-عالم اللاهوت واللغات القديمة فى حوار لفحص الأوضاع الكنيسة عقب حركة اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ مع الرئيس السادات وفى حضور نائب الرئيس حسنى مبارك



…بديعة من كتاب الموتى لمؤلفه الكاتب «آني» وهي تمثل منظر المحاكمة في الآخرة وقد نصب الميزان

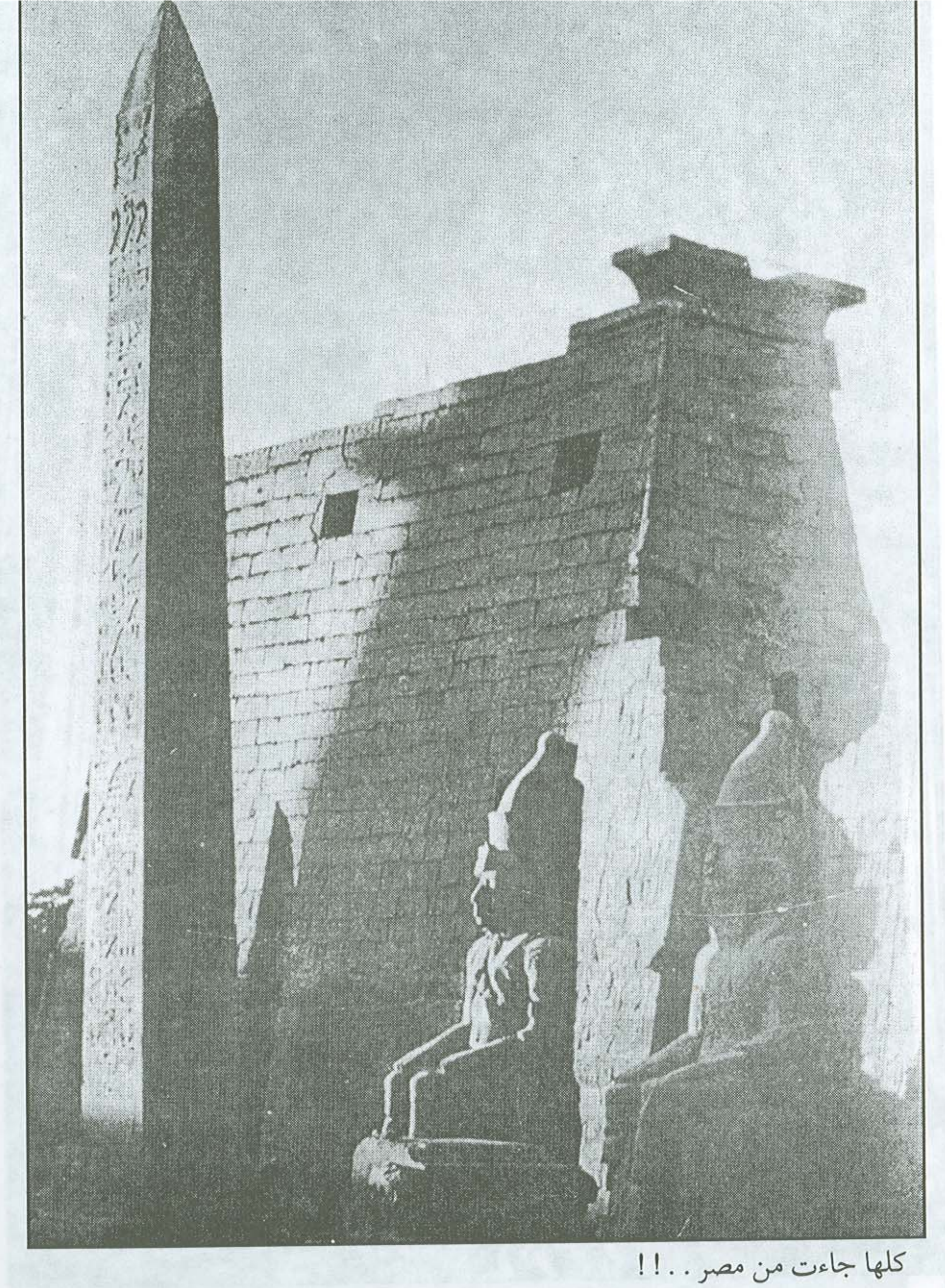


منبر منحوت من الحجر فى القرن السادس



منبر منحوت من الحجر وجد فى دير الأبنا ايليا بمنطقة صقارة ونقل إلى المتحف القبطى ويرجع تاريخه إلى القرن السادس الميلادى ثم تطورت طريقة بنائه ليكون من الخشب ، ويوجه فى الكنائس والمساجد ، كلها بدأت فى مصر ومنها انتشرت إلى كنائس العالم .

منبر من خشب في الجامع الأزهر



كلها جاءت من مصر . . ! !

المسلة تدعو الناس للدخول إلى معبد الأقصر وعنها جاءت المنارة فى الكنيسة تحمل الجرس لدعوة الناس للصلاة .

ثم جاءت المئذنة يدعو منها المؤذن إلى الصلاة فى الجامع .

تصوير
لحظة فراق الروح للجسد

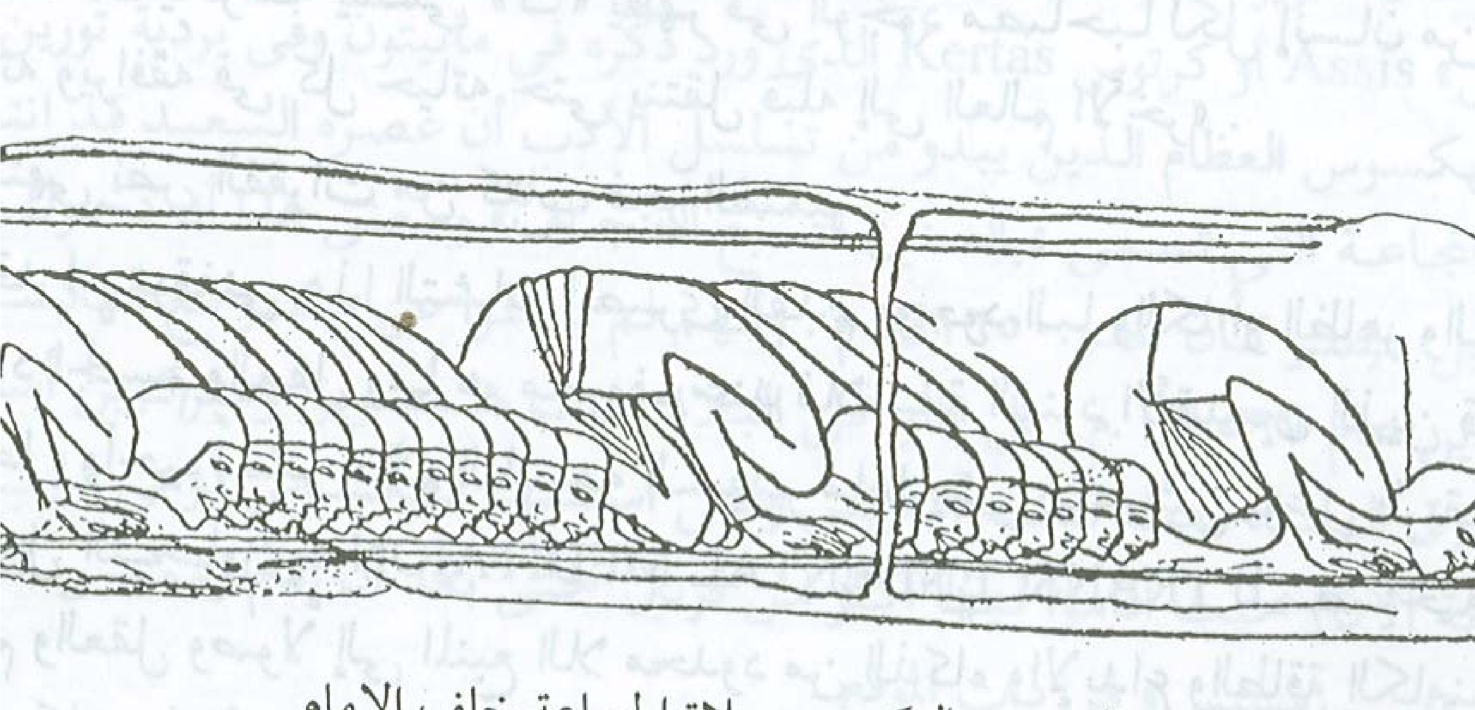
لوحة بديعة مأخوذة من كتا
لكاتبه آنى وتعبر عن الروح
تحوم حول الجسد المسجى
والمفوف فى الكتان وصار مو
لاحظ أن البا فى يدها مفتا
عنخ (   )
(لوحة مأخوذة من أصل م
١٥ أمام صفحة ١٦٩ من كت
القديمة». والصادر من
البريطانى بلندن - طبعة عا



التبرك بإسم الملك الالة قبل تناول الطعام والشراب



لوحة تظهر وحدانية الآلهة



السجود والركوع - وصلاة الجماعة خلف الإمام

من كتاب أخناتون للدكتور سيد كريم



رقائق حضارية متصلة وشفافة

مومياء من العصر الروماني وواضح منها أن فكرة التحنيط مازالت قائمة والأكفان برقائق من الكتان وقد صور عليها رسومات من أسطورة أوزوريس وأمونوبيس.

أي أن عقائد مصر الفرعونية قد استمرت في الحقبة اليونانية ـ الرومانية.

(الصورة مأخوذة من أصل ملون لوحة ١٨ أمام صفحة ٢٤١ من كتاب مصر القديمة والصادر من المتحف البريطاني بلندن).

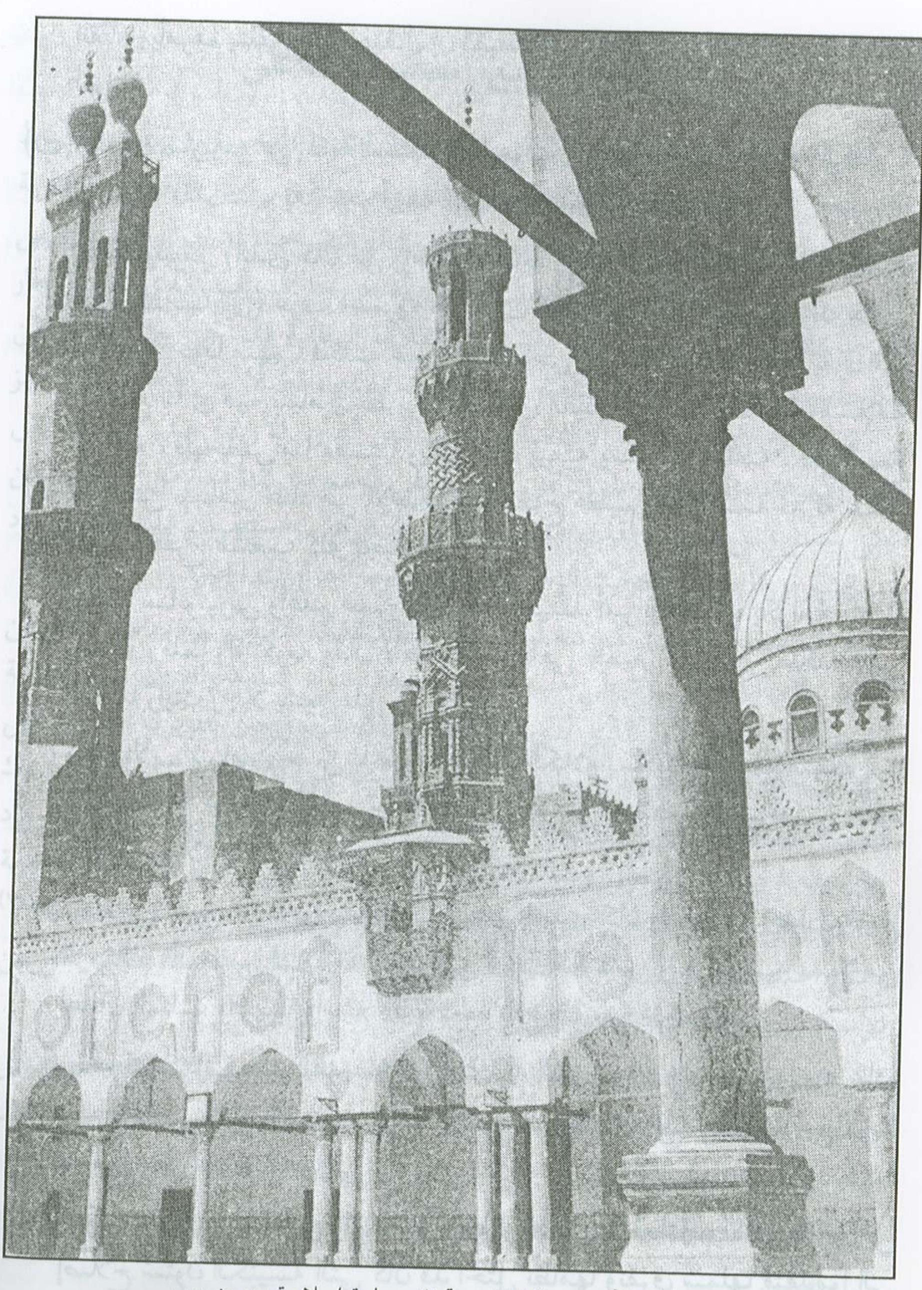


لوحة من القرن الأول الميلادى عثر عليها بمنطقة الفيوم

الحمد لله الدائم

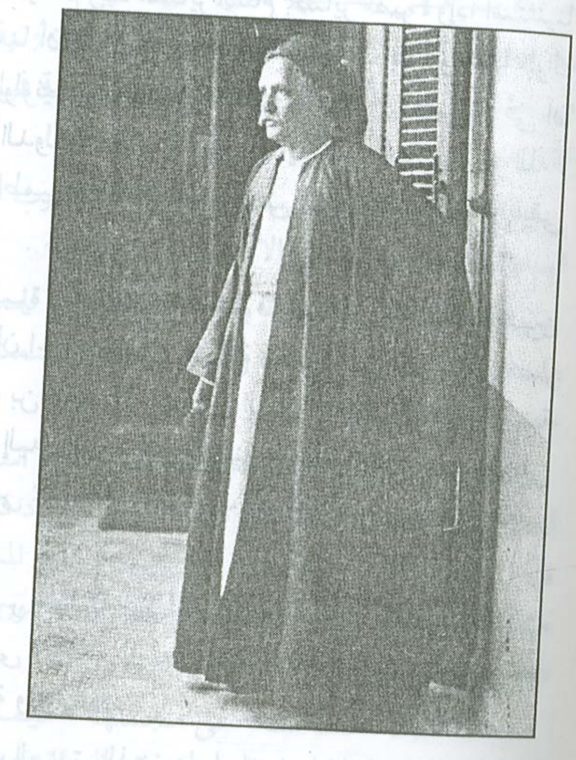
هذا المصحف المبارك الاربعة بشائر المجيدة مخلداً بخزانة
الكتب العلائية البطريركية وليس لاحد سلطان من نقل

واذا دعت الضرورة لاحد ان يقرأه فليعار للقراءة خمسة ايام ثم يعاد
الى محله الكتب وعلى ناسخ الكتاب تحل البركة والنعمة ...
والشيخ يبدأن



الجامع الأزهر من الداخل . . تحفة معمارية إسلامية وهو منسوب إلى السيدة فاطمة الزهراء ومن ثم فهو فى الأصل شيعى وأصبح الآن تعبيرا عن روح الإسلام كله . . ومنارة للفكر الإسلامى كله .

أزياء متعددة تعبر عن انتماء مصر العربى



حمد الباسل باشا من زعماء الحركة الوطنية وثورة ١٩١٩ - زيه بالطنبوشة يؤكد أصوله الليبية تعبيرا عن الوطنية العربية فى بداية القرن العشرين .

مواطنان مصريان : الأول من سيناء بالعقال مثل أهالى فلسطين والجزيرة العربية والآخر من الصحراء الغربية ، ربما من ذات القبيلة الممتدة فى ليبيا .





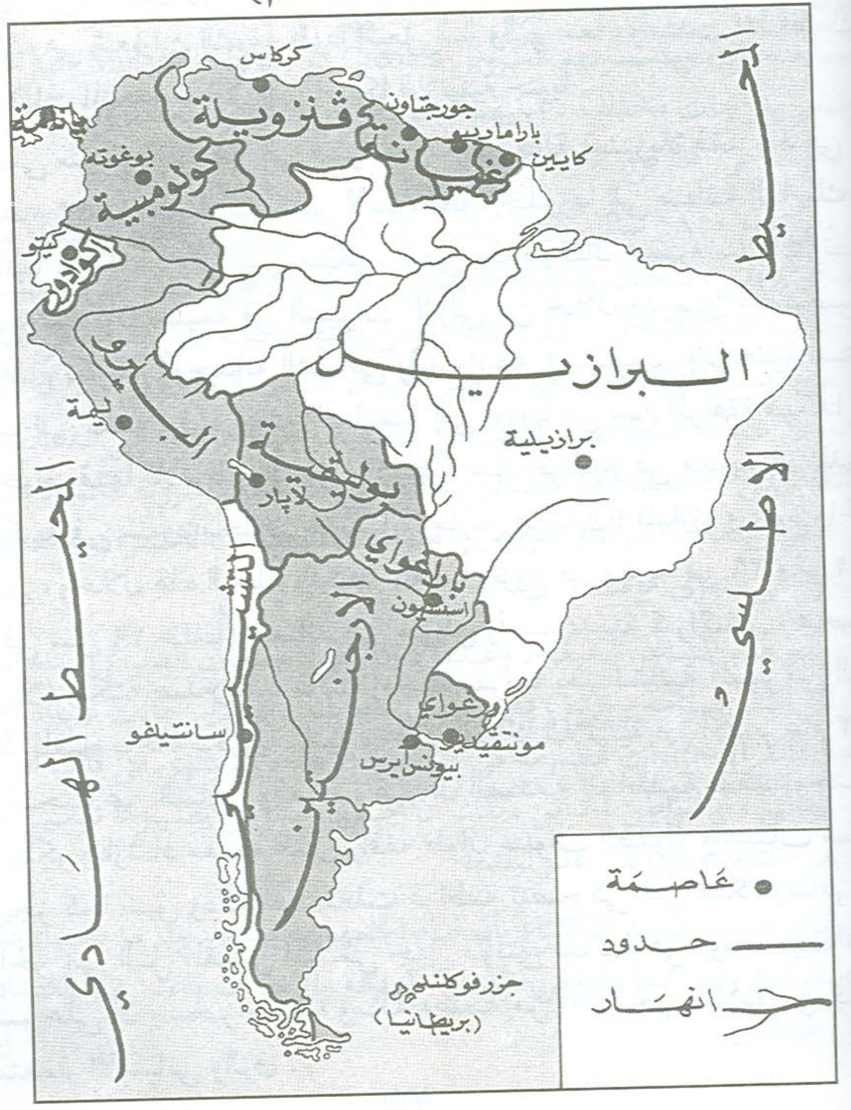


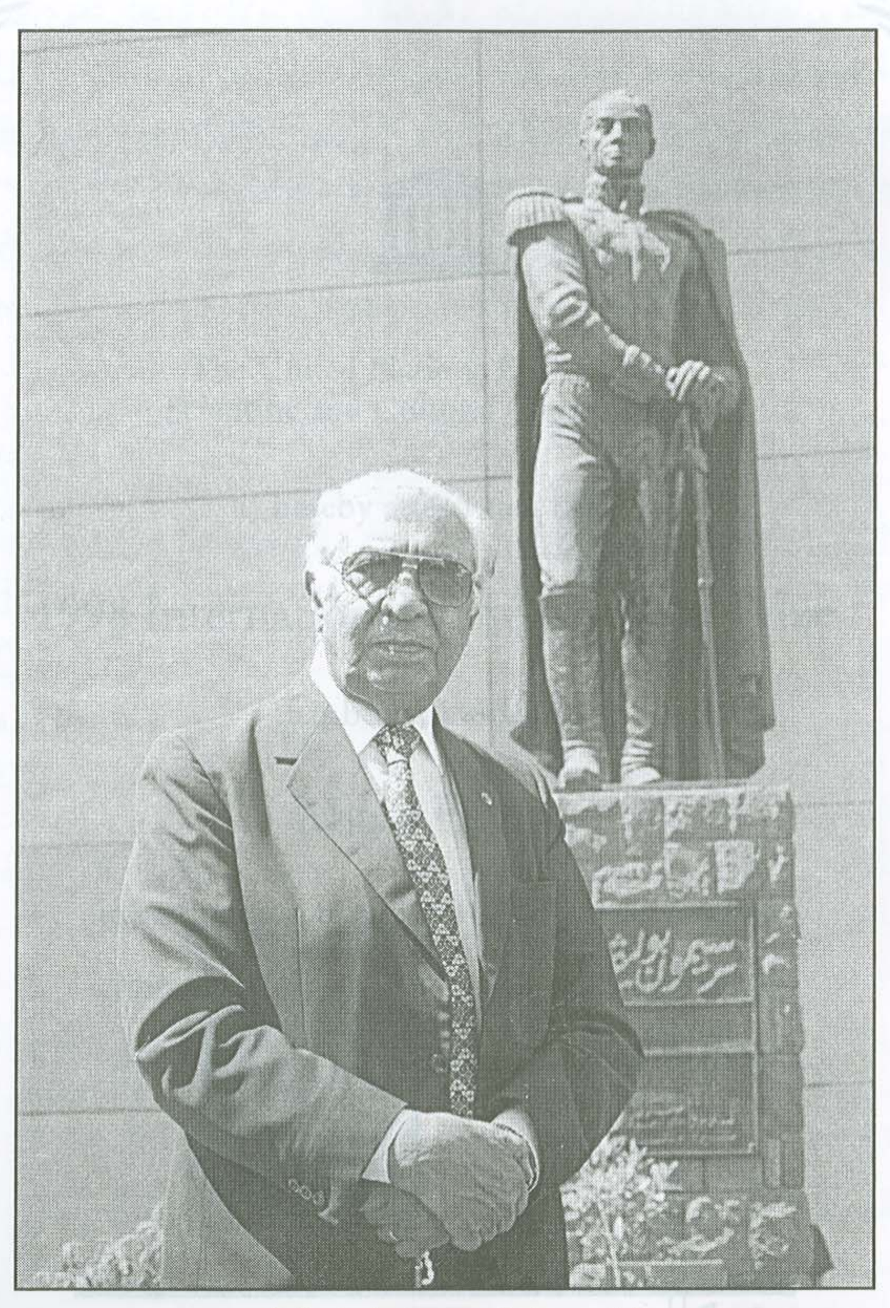
مصريان من أهالى النوبة الجديدة

عن الإنتماء الأفريقى لمصر

الفصل السابع

سيمون بوليفار محرر أمريكا اللاتينية (١٧٨٣ - ١٨٣٠م)





المؤلف مع تمثال سيمون بوليفار بالقاهرة

لحظة مودة عقب إحتفال تسليم جوائز سيمون بوليفار الدولية بباريس بين فريديكو مايور المدير العام للبونسكو مع د . ميلاد حنا الفائز المصرى والعربى الأول بالجائزة .





الفائزين بجائزة سيمون بوليفار الدولية العام ١٩٩٨ ماريو سوارش رئيس جمهورية البرتغال السابق يصفق للدكتور ميلاد حنا .

ماريو سوارش رئيس جمهورية البرتغال السابق ١٩٨٦ - ١٩٩١م) الفائز بجائزة سيمون بوليفار الدولية يلقى كلمة عقب تسلم الجائزة .





عقب تسلم الجائزة ألقى د . ميلاد حنا كلمة باللغة العربية معلنا أن المستحق للجائزة هو شعب مصر .

د . ميلاد حنا وقد إستلم جائزة سيمون بوليفار الدولية بباريس وفريديكو مايور المدير العام لليونسكو تصفق .





الدكتور بطرس غالى يهنئ الدكتور ميلاد حنا ويظهر فى الصورة الدكتور على ماهر سفير مصر فى فرنسا .

فى إحتفال اليونسكو بتسليم جائزة سيمون بوليفار الدولية فى ١٩٩٨/١٠/١٩ .

جائزة سيمون بوليفار الدولية ميلاد بباريس ١٩٩٨/١٠/١٩ .

فريديكو مايور المدير العام لليونسكو يسلم الجائزة للفائز ماريو سوارش الرئيس السابق لجمهورية البرتغال والفائز د . ميلاد حنا يصفق ويراقب وينتظر دوره فى إستلام الجائزة .





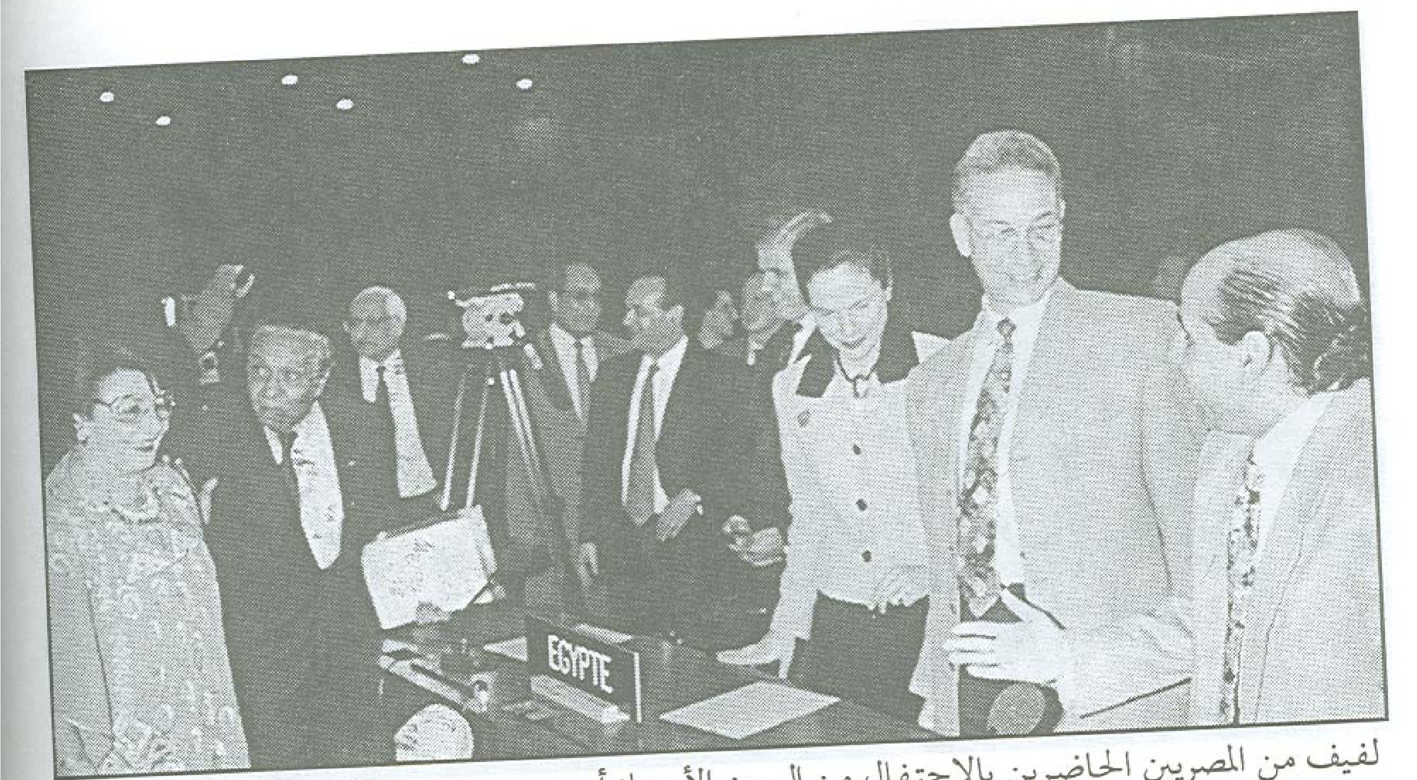
أثناء إحتفال تسليم جوائز سيمون بوليفار وخلال إلقاء د . ميلاد حنا يلقى كلمة ، دخل د . مفيد شهاب وزير التعليم العالى ومندوب مصر فى المجلس التنفيذى لليونسكو وقد قدم لتوه من المطار . ما كان من د . ميلاد حنا إلا أن ترك المنصة وخالف البروتوكول ، ونزل مرحبا بمقدم الوزير مفيد شهاب ، فكانت اللقطة المميزة وفى الأمام إيفلين رياض زوجة ميلاد حنا تراقب وفى الخلف السيدة نبيلة حسن إسماعيل زوجة السفير فتحى صالح سفير مصر فى اليونسكو .

فى إحتفال تسليم جوائز سيمون بوليفار الدولية جلس فى الصف الأولى كبار الزوار ومن بينهم د . بطرس غالى ، د . خامير بيريز دى كويار الأمنين السابقين للأمم المتحدة مثل هذا الإحتفال غالبا لأن سيمون بوليفار هو محرر أمريكا اللاتينية حيث إنتمائ دى كويار ، ولأن أحد الفائزين عام ١٩٩٨ . (د . ميلاد حنا) مصرى ، وكان البروتوكول يقتضى الإحتفال بتسليمه الجائزة د . بطرس غالى الحضور أيضا . .!وفى الصورة إيزبيلا إبنة ماريو سوارش رئيس البرتغال السابق .



ميلاد حنا السفير على ماهر سفير مصر فى فرنسا يهنىء د . ميلاد حنا بحصوله على الجائزة ، وفى الخلفية رى اليسار د . محسن توفيق سفير مصر فى اليونسكو الأسبق وفى الوسط د . عثمان لطفى السفير السابق لمصر فى اليونسكو .





لفيف من المصريين الحاضرين بالإحتفال من اليمين الأستاذ أحمد يوسف من مكتب الأهرام بباريس ثم أحد الدبلوماسيين مع السفيرة نيفين سميكة القنصل العام فى فرنسا والسفير على ماهر سفير مصر بفرنسا ثم سفراء مصر السابقين فى اليونسكو د. على لطفى، د. محسن توفيق، د. ميلاد حنا وزوجة الكاتب الصحفية إيفلين رياض.



د . ميلاد حنا بعد تكريمه بين د . بطرس غالى الوزير د . مفيد شهاب وفى اللقطة سفير مصر على ماهر
ود . فتحى صالح مندوب مصر فى اليونسكو .

الفـائز الأولى بالجـائزة مـاريو سـوارش رئيس جـمـهورية البرتغال السابــق ، يوجه التحية والتقـدير - فى خطابــه - إلى د . مـيـلاد حنا الفائز الثانى بجائزة سيمون بوليفار الدولية لعام ١٩٩٨ .

